المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

المشرق العربى والشرق الأقصى

علاقتهما التجارية والثقافية

فى العهود الإغريقية / الرومانية والإيرانية / العربية

تأليف: سليمان حزين

ترجمة وتقديم

محمد عبدالغنى سعودى

مراجعة

عبدالله عبدالرازق إبراهيم

1288

المشرق العربى والشرق الأقصى

علاقتهما التجارية والثقافية

فى العهود الإغريقية/الرومانية

والإيرانية / العربية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٨٨
- المشرق العربى والشرق الأقصى
علاقتهما التجارية والثقافية
فى العهود الإغريقية / الرومانية والإيرانية / العربية
- سليمان حزين
- محمد عبد الغنى سعودى
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

ARABIA AND THE FAR EAST
THEIR COMMERCIAL AND CULTURAL RELATIONS
IN GRAECO-ROMAN AND IRANO-ARABIAN TIMES
BY
S. A. HUZAYYIN
Originally published by "la Société de Géographie d'Égypte 1942"

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المشرق العربى والشرق الأقصى

علاقتهما التجارية والثقافية
فى العهود الإغريقية/الرومانية
والإيرانية / العربية

تـــألـــيـــف : سليـــمـــان حـــزين

ترجمة وتقديم : محمد عبد الغنى سعودى

مـــراجـــعـــة : عبد الله عبد الرازق إبراهيم

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حزين ، سليمان
المشرق العربى والشرق الأقصى: علاقتهما التجارية والثقافية فى العهود الإغريقية - الرومانية والإيرانية - العربية / تأليف: سليمان حزين؛ ترجمة وتقديم: محمد عبد الغنى سعودى؛ مراجعة: عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، ط١- القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٣٩٢ ص ، ٢٤ سم
١ - الشرق الأوسط - تاريخ ٢ - الشرق الأقصى
(أ) سعودى، محمد عبد الغنى (مترجم ومقدم) .
(ب) إبراهيم، عبد الله عبد الرازق (مراجع) .
(جـ) العنوان ٩٥٦

رقم الإيداع ٣٩٨٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-479-063-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

- تقديم 13
- إهداء المؤلف 29
- مقدمة المؤلف 31

الفصل الأول: المشرق العربى

- التعريف، العلاقات المكانية، التوجيه التجارى، المركبات الثقافية 45
- صحراء شمالى الجزيرة العربية، مشكلة الجفاف المناخى فى العصور التاريخية 46

العوامل المؤثرة على توسع العرب المسلمين فى الشمال 50
- العلاقات المكانية بين الاستبس - الصحراء والهلال الخصيب ، التوزيع الجغرافى لمراكز التسويق بالنسبة لطرق التجارة والآثار السلالية والثقافية 52
- العلاقات المكانية بين الهضبة الإيرانية والهلال الخصيب والتسرب الثقافى من إيران (فارس) 57
- أنشطة شعوب إيران (فارس) فى التبادل التجارى والثقافى : الأنشطة على اليابس 59
- التوسع البحرى للفرس ، الوضع الجغرافى للخليج الفارسى 62
- العلاقات المكانية بين عالم الإغريق فى البحر المتوسط والهلال الخصيب، الاختراق الثقافى والتجارى 66

- أنشطة التجار والبحارة الإغريق، فيما وراء الجزيرة العربية............ 68
- مصر والشرق العربى: الوضع الجغرافى، العلاقات المكانية، الاتصالات التجارية والثقافية 70
- بلاد العرب السعيدة والساحل المواجه فى أفريقيا: العوامل المؤثرة فى التوسع البحرى من الجنوب 73
- خلاصة: المناطق الأساسية المكونة للمشرق العربى 78

الفصل الثانى: الشرق الاقصى

- التعريف ، العلاقات المكانية، التوجيه التجارى، المركب الثقافى ... 87
- هضبة التبت بين الصين والهند 88
- حوض تاريم، العلاقات المكانية مع الصين، موقع وسط بين الصين والهند وغربى آسيا 90
- استبس منغوليا ومنشوريا : الأنشطة البدوية على الحدود الشمالية للصين 97
- كوريا واليابان : موقعهما على هامش الصين 99
- الصين الأصلية، مركز الحضارة فى الشرق الأقصى : التميز، والتجانس، واستمرارية الثقافة الصينية 103
- اتصال الصين بالعالم الخارجى : العوامل المؤثرة فى التوسع ما وراء البحار والتداخل مع آسيا الوسطى - شمال الصين والاستبس 113
- التوجه التجارى للصين برا وبحرا، جنوب الصين والتوسع والتبادل البحرى. 117
- المنطقة الثقافية الهندية الماليزية، العلاقات المكانية والثقافية مع الصين والهند، الاتصالات الثقافية فى آسيا الموسمية 119
- تعقيب على الأسر الصينية وتواريخها 122

الفصل الثالث

– العلاقات التجارية فى الفترة الإغريقية الرومانية (أواخر القرن الرابع ق.م حتى أوائل القرن الخامس م) دراسة لافتتاح الطرق 133

– قدوم الإسكندر وفتح الطرق البرية 133

– البطالمة وطريق البحر الأحمر 135

– جهود الصين لفتح الطرق البرية والبحرية نحو الغرب 137

– الوضع الجغرافى للطرق البرية المفتتحة حديثا 137

– أول اتصال مباشر للصين مع جنوب غربى آسيا 145

– اعتبارات أخرى لاتصال الصين بدول غربى آسيا خلال القرون الأولى من العصر المسيحى : شواهد من السجلات الغربية 149

– اضطرابات على طول طرق آسيا الوسطى 151

– أنشطة التجارة البرية لتجار الشرق الرومانى 151

– مشروعات البحارة من الرومان الشرقيين، استخدام الرياح الموسمية الهندية وأثرها على الرحلات فى المحيط الهندى 154

– توسع التجارة الشرقية لروما – الحد الأقصى للملاحة شرقًا لبحارة الشرق الرومانى 161

– ملاحظات نهائية على النشاط البحرى المبكر فى جنوب شرقى وشرقى آسيا 164

الفصل الرابع

- العلاقات التجارية الإيرانية (الفارسية) العربية فى الفترة من أوائل القرن الخامس حتى أوائل القرن السادس عشر بعد الميلاد : دراسة لطرق التجارة البحرية والبرية 183

- الأحداث المتغيرة فى جنوب شرقى آسيا، المشروع البحرى المبكر للصينيين 189

- العودة إلى قضية الطرق البرية (القرن الثالث حتى القرن التاسع الميلادى) 196

- التبادل البحرى خلال العهود الإيرانية (الفارسية) والعربية المبكرة – البحارة والتجار العرب والفرس فى غربى إيران وجنوب الجزيرة العربية ... 201

- قضية أثر ظهور الإسلام على العلاقات الدولية 203

- أنشطة التجار الغربيين فى موانى شرقى آسيا، تغييرات الدخول البحرى إلى الصين 205

- اضطرابات فى سواحل جنوب الصين (أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر بعد الميلاد، وتحول طرق التجارة إلى غرب الملايو 210

- إحياء العلاقات البحرية الصينية فى ظل أسرة يونج (٩٦٠-١١٢٧م) و (١١٢٧-١٢٧٩م) 212

- العلاقات الدولية خلال القرن ١٢٤٥-١٣٤٥م: الإسلام والاتصالات الشرقية الغربية فى العصور الوسطى، المغول وفتح الطرق البرية والحفاظ على الملاحة البحرية، إعادة تطوير طريق الخليج العربى وانهيار التبادل التجارى عبر مصر – موانى الصين التجارية 216

– أســرة منج وتوسـع المشــروع البـحـرى من الصــين (أوائل القـرن الخامس عشر) 225
– نهاية المرحلة العربية للتجارة : الأثر المزدوج للاستكشافات العظمى والغزو التركى، تحول المركز الرئيسى للطرق العالمية بعيدا عن الشرق الأدنى، الإغـلاق التـدريجى للأبواب الصـينيـة 228
– مـلاحظات نهائيـة على العـلاقـات الدولية خـلال العـهـود الرومـانيـة / الإغريقية، والإيرانية / العربية : سلسلة من التوافق البشرى للأحوال الجغرافية على طول طرق التجارة المتغيرة 230

ملحق للفصلين الثالث والرابع

– بعض سلع التجارة – تصنيف مفردات السلع 255

الفصل الخامس

– العلاقــات الثقافيــة فى إطــارها الجغرافى: دراسة للمعتقدات الدينية بين غربى وشرقى آسيا 288
– الاضطرابات القبليـة والتوسع من الجـزيرة العربيـة (خاصـة الجنوب الغربى) : المركبات الثقافية والاتصالات فى عصور ما قبل الإسلام، نهضـة ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية، الإسلام والأفكار الموجودة قبل الإسلام 290

– عودة إلى العوامل المؤثرة على توسع العرب: التغيرات المناخية، تربية العرب للحصان، الضعف السياسى للإمبراطوريات المجاورة، تدهور مكاسب نشاط النقل، النظرة الثقافية العامة التى أتاحتها العقيدة الجديدة، التوسع العربى ممثلا لحركة اجتماعية ودينية 294

– الصين وغربى آسيا – الاتصالات المبكرة وتشرب العناصر الغربية، بوابات التوغل الثقافى داخل الصين، الفلسفة والفكر الصينى – الطاوية ضد الكونفوشيوسية – تفسير جغرافى 297

– التيارات الثقافية على طول الطرق البرية بين غربى وشرقى آسيا: السياق الجغرافى لهذه التيارات 304

– البوذية: انتشارها فى وسط آسيا على طول الطريق الجنوبى لتاريم – انتشارها فى النطاق الثقافى الصينى وهوامشه 304

– المانوية أو المنشاوية: بدايتها فى شمال الجزيرة العربية، انتشارها شرقا فى آسيا الوسطى على طول الطريق الشمالى لتاريم – التناقضات مع البوذية بسبب تأثيرات جغرافية مختلفة 309

– النسطورية المسيحية والتعقيد الثقافى فى الشرق الأدنى: تطور ثقافات جديدة فى شمال شرق الجزيرة، التأثيرات الجغرافية (المناخية) والبشرية، الكنيسة النسطورية ونشاط إدخال الناس إلى دين جديد فى الصين، مشاكل وتقلبات الطرق عبر وسط آسيا المسيحية والبوذية 312

- الإسلام: انتشاره الشرقى فى قارة آسيا متتبعا خطى التيارات الثقافية المبكرة، أربعة مراحل فى انتشاره عبر الطرق البرية 318
- الإسلام فى الصين: تقدمه المبكر، المسلمون فى شمال غرب الصين، انتشار الإسلام فى اتجاهين رئيسيين : ينان فى الجنوب الغربى ومنطقة بكين فى السهل الشمالى، المجتمعات الإسلامية فى الصين . 330
- مذكرة تكميلية عن التيارات الثقافية الواردة بحرا إلى جنوب شرقى آسيا: العناصر الثقافية الهندوكية من جنوب الهند والبوذية من الهند، الممالك الهندوكية والثقافة الهندية فى جنوب شرق آسيا، التيارات الثقافية من غربى آسيا، الإسلام فى جنوب شرقى آسيا والموانى الصينية، مرحلتان أساسيتان فى الانتشار البحرى للثقافة الإسلامية 334
- ملاحظات ختامية 340
- قائمة بالخرائط 361
- المراجع 375

تقديـــم

المؤلِّف والمؤلَّف

المؤلِّف

فى فجر يوم الاثنين الرابع والعشرين من مايو ١٩٠٩، وعلى الحدود المصرية السودانية (حلفا) ولد سليمان بن الشيخ أحمد بن سليمان بن حسن حزين وخوفا على الطفل سليمان من الأمراض تركه والده لجده بريف مصر، وهو فى عامه الخامس فى إحدى قرى مركز الدلنجات بمحافظة البحيرة، حيث التحق بكتاب القرية، وما لبث حتى عاد إلى والديه، إذ كان والده مدرسا فى مدرسة حلفا، وانتقل مع أبيه إلى أم درمان عاصمة السودان الوطنية ليلتحق بمدرسة ابتدائية / إعدادية، ولكنه رجع إلى مصر عام ١٩٢١ متقدما لامتحان شهادة الدراسة الابتدائية والتى لم يكن قد أتم سنواتها فى السودان ومنها التحق بطنطا الثانوية وهو فى الثانية عشرة من عمره، وتخرج فيها حاصلا على شهادة إتمام الثانوية (التوجيهية) عام ١٩٢٥، وكان مولد الجامعة المصرية الحكومية خريف ١٩٢٥، وكان اسمها قبل أن تعرف باسم جامعة فؤاد الأول فى مرحلة لاحقة وجامعة القاهرة منذ عام ١٩٥٢ .

التحق الطالب بكلية الآداب بقسم الجغرافيا أحد أقسام كلية الآداب، وكان القسم وقتئذ هو قسم الجغرافيا والعلوم السياسية، وعادة ما كان يلتحق الطالب بأحد أقسام الكلية المتخصصة ليحصل فى النهاية على إجازته لهذا الفرع أو ذاك، ولكن سليمان

منذ البداية أثبت أنه علم فرد وفريد فى مواهبه العديدة، فقد نال شهادة الليسانس فى الجغرافيا فى مايو ١٩٢٩، وفى أكتوبر من العام نفسه نال شهادة الليسانس فى الاجتماع، وكلاهما بامتياز، ألا يدل هذا على شىء؟

أوفدته الجامعة المصرية إلى الخارج ليكون نواة من نوياتها القليلة حينئذ، التى ستحمل رسالة هذه الجامعة فى المستقبل، فكان الاختيار صحيحا وبحق، قبلته جامعة ليفربول ليسجل فيها رسالة الماجستير بعنوان:-

"Arabia and the far east" their commercial and relations in Greco-Roman and Irano-Arabian Times

أى العلاقات التجارية والثقافية أو الحضارية بين الشرقين العربى والأقصى فى العهود الإغريقية/ الرومانية، والإيرانية (الفارسية) /العربية

ظهر تفرده أيضا فى جامعة ليفربول قبل تسجيل الموضوع، لأن جامعة ليفربول والجامعات البريطانية بوجه عام لم تكن تعلم الكثير عن هذه الجامعة الناشئة، فعقدت له الاختبارات والتى اجتازها بتفوق بطبيعة الحال، فاعتمدت جامعة ليفربول شهادة كلية الآداب المصرية، وكانت هذه أول مرة تعتمد فيها الشهادة من الخارج فكان وجها مشرفا لبلده وجامعته. وأنهى دراسته للماجستير بعد عامين فقط من التسجيل.

طلب منه قسم الجغرافيا بجامعة ليفربول محاضرة، وكان جون فلير حاضرا والذى كان رئيسا لقسم الجغرافيا بجامعة مانشستر ورئيس تحرير مجلة الجغرافيا فكانت هذه فاتحة لأن يسجل موضوع الدكتوراه تحت إشرافه. واتفق فلير مع طالبه النجيب على أن يسجل موضوع أطروحته للدكتوراه بعنوان " مكانة مصر فى ما قبل التاريخ The place of Egypt in prehistory وهى دراسة للعلاقة بين المناخات والحضارات فى العالم القديم مع الاهتمام بمصر بوجه خاص، كان هذا موضوعا وعرا أيضا لأنه يجمع فيه بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية فى تلك الأزمنة التى يغلفها ضباب كثيف.

تقدم إلى جامعة مانشستر ليسجل رسالة الدكتوراه كما ذكرنا ونال الدرجة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٣٥، وأوصى الممتحنون أيضا بطبع الرسالة لأهميتها، ومنحته الجامعة خمسين جنيها إنجليزيا للمساعدة فى طبع الرسالة.

إن دل هذا على شيء فهو يدل على أمرين:

الأول: موضوع الرسالتين، لم يكن الموضوع سطحيا فى أى منهما بحال، وكان يمكن أن يتناول موضوعات أبسط من هذا بكثير خاصة وأن جغرافية مصر فى ذلك الحين كانت ملعبا خاليا، ولكنه غاص فى أعماق التاريخ، بل ما قبله، حتى لتعد الرسالتان مرجعين أساسيين فى التاريخ والآثار أيضا، فلا يمكن لدارس الآثار إلا أن يرجع لهذه الحقبة، هذا إلى جانب كونها مراجع أساسية فى الجغرافية التاريخية لأنها تدرس العلاقات وتربط بين الظروف الطبيعية والبشرية وعلاقتها بقيام الحضارات ولا أظن أن غير حزين يستطيع هذا.

الثانى: إنه إلى جانب تخصصه الدقيق فقد كان موسوعيا فى معرفته غزيرا فى مادته بليغا فى أسلوبه، ذلك الأسلوب الذى كان يطوع به مادته، مما يجبرك على الاستماع له دون ملل، فهو لم يكن يجيد العربية فحسب، بل حافظا لعمادها وهو القرآن الكريم، وإذا سمعته محاضرا بالإنجليزية أو يتكلم الفرنسية توقن أنك أمام عالم كون نفسه تكوينا جيداء، واستغل ذلك استغلالاً شديدا، فقد استغل فترة البعثة فى فرنسا لا فى جمع المادة العلمية فحسب، بل أيضا فى إتقان اللغة التى امتلك زمامها.

عاد سليمان من بعثته فى آخر عام ١٩٣٥ ليعين بعقد مدرسا بكلية الآداب فى الفاتح من يناير عام ١٩٣٦ بمرتب قدره ٢٥ جنيها لمدة عام يجدد سنويا، ويثبت سليمان أنه قام بعمله بكفاءة بدليل ذلك الخطاب الذى أرسله الدكتور / طه حسين عميد كلية الآداب فى يونية ١٩٣٨ مخاطبا سكرتير عام الجامعة المصرية بشأن تثبيت الدكتور / سليمان حزين بصفة نهائية بالكلية.

وبعد عودته من البعثة وتعيينه مدرسا فى أول يناير ١٩٣٦، أوفدته الجامعة بعد ثلاثة أشهر فقط رئيسا لبعثة تتوجه لليمن لمدة ٧ شهور وكانت البعثة مؤلفة من أعضاء هيئة تدريس من كليتى الآداب والعلوم، وقد بدأت الرحلة فى السابع من أبريل وأتت البعثة بنتائج علمية مهمة فكانت دعامة طبيعية للجامعة ولكلية الآداب، وعقب عودته من بعثة اليمن طلب إيفاده إلى بعض المتاحف الأوربية لاستكمال النتائج وعمل مقارنة بين ما توصلت إليه البعثة وما استكشفته الهيئات الأجنبية الأخرى.

وطلبته العراق منتدبا لمعهد المعلمين العالى ببغداد (لم تكن جامعة بغداد قد نشأت بعد ولكن ظروف العمل فضلا عن التوسع فى التعليم الجامعى فى مصر قضت بإنشاء جامعة فؤاد فرعا لها فى الإسكندرية (جامعة فاروق الأول)، كما طلبته مصلحة الآثار ليكون مديرا لإحدى إدارتها، ولم ينقل للأسباب نفسها: عدم الاستغناء عنه.

انتدب إلى فرع جامعة الإسكندرية أثناء عمله مدرسا وأستاذا مساعدا فى كلية الآداب جامعة فؤاد حين قررت هذه الجامعة أن تبدأ فرعا لها فى الإسكندرية عام ١٩٣٨، وأوكل إليه إنشاء قسم الجغرافيا والسفر إلى الإسكندرية مرة كل أسبوع واستمر على هذا الأمر أربع سنوات حتى أنشئت جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢، وكان المكلف بإنشاء الجامعة أستاذه طه حسين الذى كان يعمل وقتئذ مستشارا لوزارة المعارف العمومية، ولم ينس حزين جامعة فؤاد الأول فكان يأتيها منتدبا من جامعة فاروق حين استقلت، يأتيها محاضرا للجغرافية التاريخية والجنسية والاجتماعية فى أقسام الجغرافيا، والتاريخ، والاجتماع. ورقى فى جامعة فاروق الأول إلى درجة أستاذ عام ١٩٤٧، واستمرت صلته بجامعة فؤاد وجامعة القاهرة باستمرار لأنه كان عضوا بارزا فى معهد الدراسات السودانية الذى أنشأه دكتور محمد عوض محمد، عليه رحمة الله.

ونظرا لنشاطاته المتعددة وإمكاناته العلمية والثقافية البالغة ومعرفة أساتذته وجيله بهذا، خاصة أستاذه طه حسين الذى جذبه إليه فى وزارة المعارف مديرا عاما للثقافة . وعين وكيلا مساعدا للوزارة، وبذلك أصبح المسئول المباشر عن الثقافة والمشكلات الثقافية ومؤسسات الدولة المختلفة من جهة وبالدول الصديقة والشقيقة من

جهة أخرى، من هنا كانت صلاته وثيقة بكل وزراء ومديرى التعليم بالدول العربية كالملك فهد الذى كان وزيرا للتعليم فى السعودية، وعبد العزيز حسين رائد التعليم فى الكويت وغيرهما، وهذا فضلا عن مسئوليته نحو الهيئات الثقافية الدولية كاليونسكو.

ولم تقتصر سمعته العلمية والإدارية على مصر، بل تعدتها إلى الدول العربية فقد دعاه صديقه فاضل الجمالى لزيارة بغداد عام ١٩٥٤ للمحادثة فى تكوين وإنشاء جامعة بغداد وكذلك الحال فى جامعة بنغازى فى ليبيا عام ١٩٥٩ وجامعة الكويت عام ١٩٦٠، وكان اتصاله بالكويت قبل عشر سنوات حين كان مسئولا عن الثقافة فى مصر وشارك حينذاك فى رسم خطط تعليم وافتتاح المدارس الكويتية الجديدة، وقد اختارته الكويت فيما بعد عام ١٩٦١ إلى جانب ثلاثة من الخبراء الآخرين للتخطيط لجامعة الكويت.

شارك فى المجال العربى القومى فى مجال العمل الدولى والإقليمى فى نطاق جامعة الدول العربية أول الأمر فى بعض مقالاتها المتخصصة لاسيما اليونسكو، إلى جانب اشتراكه فعليا فى المؤتمرات الثقافية التى كانت تقيمها الدائرة الثقافية والتى كان يرأسها الأستاذ أحمد أمين، وانتخب ليكون رئيسا للجنة الشئون الإقليمية فى الجامعة العربية، واستمر الانتخاب متجددا لمدة عشرين عاما عقد فيها نحو ٢٠ مؤتمرا لخبراء الشئون الاجتماعية ووزرائها فى البلاد العربية وكان معاونا لأستاذه طه حسين الذى كان مندوب مصر فى اليونسكو عام ١٩٥١ فكان عليه عبء إنشاء مركز سرس الليان.

عاش حزين فى عالم العارفين بقدره، ومن ثم كان يدفع به دائما كلما أحسوا بأنهم بحاجة إلى عالم ومثقف موسوعى، فعهد إليه بإنشاء المعهد المصرى للثقافة والمركز المصرى فى لندن عام ١٩٤٣، وكان هذا مناظرا للمجلس البريطانى فى مصر، وكان عدد من الدول الأوربية قد بدأ فى إنشاء المراكز الثقافية فى الخارج قبل ظهور هيئة اليونسكو عام ١٩٤٥، وهو المؤسس لمعهد مدريد للثقافة الإسلامية حين كان مديرا عاما للثقافة إذ عهدت إليه الدولة بإنشاء المركز الإسلامى فى مدريد وجاء المعهد لإحياء

علاقات العروبة والإسلام فى عالم الأندلس وإسبانيا بعامة فى العصر الوسيط وافتتحه طه حسين وبصحبته تلميذه سليمان حزين.

كان الدكتور/ حزين إلى جانب كونه ممتازاً فى علمـه، يرتجل محاضراته دائما، لا ينظر فى ورقة حتى فى مناقشة الرسائل، كان كل مناقش يأتى ومعه الرسالة والملاحظات عليها ولكن حزين يأتى ويداه خاليتان، ومع ذلك يناقش، وكان موسوعيا فإلى جانب تخصصه الدقيق فى رسالتيه الماجستير والدكتوراه فقد صال وجال فى مجالات متعددة، تجده يكتب عن نهر النيل وتطوره الجيولوجى إلى جانب وحدة وادى النيل والحضارة المصرية مما لا يتسع المجال لذكره وهو فى هذا وذاك صاحب العلم الغزير والأسلوب الجميل.

رحم الله د. حزين رحمة واسعة وأثابه على ما قدم للعلم والوطن.

المؤلَّف

"Arabia and the far east" their commercial and relations in Greco-Roman and Irano-Arabian Times

المشرق العربى والشرق الأقصى: علاقاتهما التجارية أو الحضارية فى العهود الإغريقية/ الرومانية، والإيرانية/العربية

فى الأصل كانت رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير فى الجغرافيا من جامعة ليفربول، ونال الدرجة بامتياز فى عام ١٩٣٣، ونظرا لقيمة الرسالة من الناحية العلمية والتى تعالج موضوعا وعرا فى الجغرافيا التاريخية والحضارية، فقد رأت الجمعية الجغرافية طباعتها على هيئة كتاب لتكون فى متناول الباحثين، ونظرا لظروف الحرب العالمية الثانية (٣١٩ صفحة و ١٢ خريطة) كانت طبعة محدودة عام ١٩٤٢ .

وقد أعادت الجمعية الجغرافية طبعها مرة أخرى عام ١٩٨٢ لكثرة الطلب عليها من الهيئات العلمية التى تتعامل معها الجمعية من ناحية، وزيادة أعداد الباحثين والدارسين فى العالم العربى من ناحية أخرى، وهذه الطبعة الثانية هى نسخة طبق الأصل من الطبعة الأولى.

ويعالج الكتاب كما هو واضح العلاقات التجارية والحضارية بين المشرق العربى والشرق الأقصى خلال العهود الإغريقية/ الرومانية، والإيرانية/العربية، أى فترتى العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسطى، وهى فترة تناهز ألفى عام، فترة طويلة حقا ولكنها فى الواقع فترة تاريخية يغشاها الضباب حتى بالنسبة للأثريين والمؤرخين، فإذا أقدم جغرافى على مثل هذا العمل، فلا شك أنه باحث صبور من

ناحية، وممسك بزمام التاريخ القديم والوسيط من ناحية أخرى، فضلا عن أن هذه الفترة هى فترة بداية حضارات التاريخ القديم والوسيط، متتبعا مولدها وانتشارها والعوامل المؤثرة فى نشأتها وانتشارها ومدى تأثيرها وتأثرها بغيرها، ويرتبط هذا الانتشار الحضارى بانتشار التجارة وطرقها، فالتجارة وطرقها كانت السبيل، ومن ثم كان نصيب التجارة فصلين كاملين من فصول الرسالة الخمسة، وبدأ بالتجارة أولا ثم تبعها بالحضارات.

وكان طبيعيا أن يبدأ رسالته بتحديد منطقتى الدراسة، ألا وهما الشرق العربى أو المشرق العربى The Arabian East فى الفصل الأول، والشرق الأقصى فى الفصل الثانى.

عالج فى الفصل الأول المشرق العربى على حدة من حيث العلاقات المكانية والتوجيه التجارى، بل التعقيد أو المركب الحضارى، عارضا للمركز الرئيسى لانتشار الحضارة، معالجا الصحارى الشمالية الأفريقية العربية، ومشكلة الجفاف، والعوامل المؤثرة فى التوسع العربى الإسلامى فى شمالى شبه الجزيرة، والعلاقة بين الاستبس الآسيوى والهلال الخصيب، والتوزيع الجغرافى للمراكز التجارية بالنسبة للطرق التجارية، وخطوط تقابل السلالات والثقافات، والعلاقة المكانية بين هضبة إيران وسهول الهلال الخصيب، والنشاط البحرى للإيرانيين فى الخليج، كذلك درس العلاقات المكانية بين عالم الإغريق فى البحر المتوسط وسهول الهلال الخصيبة، والتوغل الحضارى، والتجارى، والنشاط التجارى، للبحارة الإغريق فيما وراء شبه الجزيرة العربية، عالج أيضا مصر والمشرق العربى، العلاقات المكانية والاتصالات التجارية والحضارية واليمن السعيد والساحل المقابل من أفريقيا، والعوامل المؤثرة فى التوسع البحرى.

وانتقل فى الفصل الثانى إلى الشرق الأقصى، وهذا منطقى بعد أن كان قد خصص الفصل الأول للمشرق العربى، أى أنه انتقل إلى الجناح الآخر بالطريقة نفسها من حيث التحديد والعلاقات المكانية والتوجيه التجارى والتعقيد الحضارى، وانتقل إلى نطاق الهضاب كحلقة بين الهند والصين وعلاقة حوض تاريم بالصين وكحلقة اتصال

بين الصين والهند وغربى آسيا (المشرق العربى) ثم إلى منغوليا الاستبسية ومنشوريا حيث النشاط الرعوى على الحدود الشمالية للصين ثم اليابان وكوريا على هامش الصين، وأنهى هذا الفصل بالصين الأصلية وأعطاها حقها على اعتبار أنها مركز الحضارة الرئيسى فى الشرق الأقصى من حيث تفردها وتجانسها واستمرارية هذه الحضارة وعلاقة الصين بالعالم الخارجي والتوسع الحضارى فى آسيا الوسطى وشمالى الصين وإقليم الاستبس ثم التوجيه التجارى برا وبحرا.

وخصص نهاية هذا الفصل فى عجالة سريعة لإقليم الهند / ملايو، علاقته المكانية والحضارية مع الصين والهند والعلاقات الحضارية فى آسيا الموسمية.

وبعد دراسة مركزى الحضارة فى أطراف القارة الآسيوية غربا (المشرق العربى) وشرقا (الصين) بدأ الربط بينهما، فبدأ بالعلاقات التجارية بينهما فى العهدين الإغريقى الرومانى، أى من أواخر القرن الخامس ق.م إلى أوائل القرن السابع الميلادى، وكانت بدايتها عصر الإسكندر الأكبر حين قام الإسكندر الأكبر بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلى الشرق الأدنى الآسيوى وتركستان، واقترب من حدود الصين، ثم اتجه إلى الهند وعودته إلى غربى آسيا ليقضى نحبه فيها، فكانت هذه أول حملة احتكت فيها شعوب ببعضها، واحتكت فيها مناطق الحضارات المختلفة بعضها بالبعض احتكاكا مباشرا، فتقاربت أجزاء العالم القديم بحيث يمكن القول إن إرهاصات فكرة العالمية بدأت فى تلك الفترة، ففتحت الطرق، وسعى عليها التجار والملاحون برا وبحرا، وتناول الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن يعرف بعضها بعضا قبل عهد الإسكندر، إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة، فكان هناك فرق بين عهد الإسكندر وما قبله، فدرس علاقة البطالمة بالبحر الأحمر وجهود الصينيين فى فتح طرق برية وبحرية نحو الغرب والأطر الجغرافية للطرق البرية الجديدة، وقد استمد مادته العلمية للاتصالات الأولى مع الصين مع جنوب غربى آسيا من المصادر الصينية، ودرس أيضا الاضطرابات التى شهدتها طرق آسيا الوسطى.

وبعد أن انتهى من العهد الإغريقى انتقل إلى عصر الرومان حيث درس النشاطات التجارية فى ذلك العهد، واستفادة البحارة الرومان من الرياح الموسمية فى المحيط الهندى، وأقصى توسع لتجارة روما فى الشرق.

وينتقل فى الفصل الرابع إلى العلاقات التجارية فى العهد الإيرانى العربى مع الشرق أى الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع عشر الميلاديين فى دراسة للتجارة البحرية والبرية، فيدرس الأحداث المتغيرة فى جنوب شرقى آسيا والنشاط البحرى والمبكر للفينيقيين، وظهور سفنهم فى البحار الغربية، والنشاط البحرى والاتصالات التجارية فى الخليج الفارسى (العربى) والاضطرابات التى حدثت فى التبت، مما أدى إلى تدهور قيمة الطرق البرية بالنسبة لنظيرتها البحرية، وبالتالى نشاط الإيرانيين والملاحين العرب، وعلى الجانب الآخر درس نشاط تجار الشرق فى شرقى آسيا الشرقية، وطرق الاقتراب فى بحر الصين الجنوبى وسياسة الصين حيال التجار الأجانب ومستوطنات المسلمين على سواحل الصين الجنوبية، ثم الاضطرابات التى حلت بسواحل الصين الجنوبية (أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر) وانتقال مسارات التجارة إلى غرب الملايو، ثم عاد نشاط العلاقات الصينية البحرية مرة أخرى فيما بين (٩٦٠، ١١٢٧م و ١١٢٧، ١٢٧٩) وظهور السلع الصينية فى أسواق المشرق، أما على البر فكان هناك فتح الطرق البرية مع الإبقاء على الطرق البحرية وزيادة أهمية الخليج الفارسى مع تدهور التجارة عبر مصر (١٢٤٥ - ١٣٤٥م) ثم كان وصول سفن الصين حتى البحر الأحمر والأيام الأخيرة لنشاط موانىء البحر الأحمر وكان ذلك فى عهد أسرة مينج (أوائل القرن الخامس عشر) وكانت نهاية العهد الذهبى للتجارة العربية الإيرانية مع الشرق الأقصى مع الكشوف الجغرافية البرتغالية فى الجنوب، والغزو التركى العثمانى فى الشمال، وتحول محاور التجارة بعيدا عن الشرق الأدنى، فضلا عن الإغلاق التدريجى لأبواب الصين.

وخلاصة القول فى الفصلين الثالث والرابع وهما بؤرة العلاقات التجارية إنه كانت هناك محاولة لإبراز الخصائص الرئيسية لهذه العلاقات، وكانت بداية الاتصالات مع

حملات الإسكندر، وتقارب الشرق الأدنى مع الشرق المركزى (الهند وما حولها والشرق الأقصى)، واستمرت التقاليد التجارية التى وضعها التجار الإغريق فى جنوب غربى آسيا، وورثها من بعدهم الرومان، وبالتالى ورثها الفرس والعرب بدورهم، واستقرت وحدة هذين العهدين المتتابعين كحقيقة رائعة للعلاقات التجارية، وفى هذين العهدين شهد الشرق الأدنى أو المشرق العربى بصفة خاصة درجة عالية من الثراء التجارى كإقليم وسيط بين عالم البحر المتوسط وأوربا من ناحية ووسط وشرقى آسيا من ناحية أخرى براً وبحراً، وفى كلتا الحالتين تكيفت هذه الطرق مع الظروف الجغرافية، وإن كنا لا نغفل أثر العوامل التاريخية والسياسية فى حالات كثيرة، فهى تتدخل فى تفضيل طريق على طريق، على سبيل المثال المنافسة بين طريق البحر الأحمر والخليج، هكذا استغل العرب موقعهم الجغرافى أفضل استغلال باحتكارهم للطرق الموصلة من وإلى البحر المتوسط والتحكم فيها، وقد أثبت هؤلاء العرب، وخاصة سكان الجنوب العربى أنهم بحارة ومغامرون مهرة إلى جانب كونهم أيضا ربابنة للقوافل البرية، ونجحوا بذلك فى أن يكونوا وسطاء تجارة برا وبحرا، وظل هذا الأمر حتى القرن السادس عشر، عصر الكشوف البرتغالية، وظهور الأتراك العثمانيين ففقدوا هذا الاحتكار، ولم يختلف الأمر بالنسبة للصين خلال العصور القديمة والوسطى، حيث لم تكن قطرا مغلقا تماما، أو ما يطلق عليه الباحثون كانت عالما قائما بذاته **World itself**.

فقد كان يسمح للتجار الأجانب بزيارة الموانئ الصينية، وكانت الحكومات الصينية تحاول إقامة علاقات مع الخارج برا وبحرا إلى أن ظهر الأجانب مع الاستعمار الحديث مما اضطرها إلى غلق أبوابها.

وفى دراسته للسلع موضوع التجارة قسمها إلى مجموعات وهى:

- النسيج وخاصة الحرير.

- المعادن والمصنوعات.

- التوابل والعطور والأدوية.

- اللؤلؤ وأدوات التجميل.

- الرقيق.

وقام بتحليل لكل نوع وتوزيعها الإقليمى باعتبار أن هذا يساعد على فهم العوامل البشرية والجغرافية فى إنتاج وتبادل هذه السلع فى تجارة العصور القديمة والوسطى.

فهذه السلع فى نظر الباحث هى فصل قائم بذاته فى قصة العلاقات التجارية خلال فترة الدراسة، عولج بعضها بالتفصيل لأهميتها.

وما هو جدير بالذكر أن الميزان التجارى (إن صح القول) كان فى صالح الصين إلى درجة كبيرة، فقد كانت سلعها ذات قيمة عالية وعلى رأسها الحرير الصينى وغيرها، وأما فيما يخص المشرق العربى فيبدو ظاهريا أنه لم يكن فى صالحها، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد كان جزء كبير من هذه السلع يعاد تصديره إلى الخارج من ثم كانت هناك الأرباح التى جناها الوسطاء أو التجار، مما أدى إلى ارتفاع فاتورة الواردات.

وكان موضوع الفصل الخامس والأخير هو العلاقات الحضارية فى إطارها الجغرافى، فهى دراسة للتيارات الدينية بين غربى وشرقى آسيا، ولا شك أن العلاقات التجارية والحضارية مترابطة، لأن الاتصالات التجارية يتبعها بالضرورة تبادل الأفكار والعناصر الحضارية المختلفة، ذلك أن التجار يتقابلون وهم يأتون من أصقاع مختلفة، كما لم تزدهر التجارة إلا بعد فتح الطرق البرية واستغلال الطرق البحرية، وسهل هذا وصول التيارات الحضارية، وكان من الضرورى دراسة الاضطرابات القبلية والتوسع العربى قبل الإسلام والاتصالات الحضارية فى تلك الفترة، ومن المعروف بين الدارسين أن الأطراف الشمالية لصحراء النفود مع كل الصحراء السورية مثلت مشتلا ومهدا لجماعات البدو التى كانت تغير من وقت إلى آخر على سهول الهلال الخصيب،

وهذا صحيح إلى حد كبير فيما يعرف بإغارات الجماعات السامية فى العصور القديمة، وإن كان من الصعب التسليم بهذا من أوائل القرن الثالث الميلادى وبعده، فمن المعروف من الوجهة الحضارية أن العرب هم من سلالة الساميين الأوائل ولكن من المعروف أيضا أن قسما كبيرا من الغزاة البدو لم يكونوا من أهل الإقليم شبه الصحراوى فى شمالى شبه الجزيرة، فهناك من القبائل القوية الشكيمة فى الشمال ترجع فى أصولها إلى اليمن وهناك قول مأثور " اليمن مهد العرب والعراق لحدهم " وقد يكون هذا نتيجة تغير المناخ نحو الجفاف خلال القرون التى سبقت مطلع العهد المسيحى والقرون القليلة التى لحقت به، وكان الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مقراً لسلسلة من العهود الحضارية التى تركت آثارها دالة على أحوال ماطرة من المناخ، ولكنها كانت نتيجة للتدرج نحو الجفاف الذى أثر فى مواضع تلك الحضارات ومدى ازدهارها (حضارة معين من القرن التاسع وحتى قبيل العهد المسيحى) وبعدها وورثتها حضارة سبأ الوارثة لسبأ القديمة والتى عادت وازدهرت فى أوائل العهد المسيحى، ثم أخيرا جاءت حضارة حمير والتى تداخلت مع حضارة سبأ وورثتها حتى جاء الغزو الأثيوبى حوالى القرن الخامس والسادس بعد الميلاد، ويبدو أن الجفاف حل بمنطقة الجوف اليمنى حتى إذا ما جاءت فترة الغزو الأثيوبى كانت منطقة مأرب وسدها القديم قد جفت ودالت أيامها، ويقول الأصفهانى مؤرخ القرن الرابع الهجرى إن قبائل من تنوخ (فرع من الأزد) وقضاعة هاجروا إلى البحرين والعراق نتيجة انهيار سد مأرب، هذا مثل نموذجًا لتحركات القبائل العربية، وهكذا مرت الجزيرة العربية بفترة اضطراب سكانى وحركات هجرة، ومن العوامل الأخرى لانتشار العرب دخول الحصان بعد استئناسه فى قلب آسيا بنحو ألفى عام أو يزيد، وضعف الإمبراطوريتين وهما إمبراطورية الفرس والروم، والنظرة الموحدة نتيجة العقيدة الجديدة وقد مثل هذا التوسع العربى حركة اجتماعية ودينية فى آن مما كان له أثره على مجتمع الجاهلية.

وكانت هناك دراسة للطرف الآخر المقابل للاتصالات المبكرة وتشرب الصينيين لبعض الحضارة الغربية، والأبواب التى دخلت عن طريقها هذه المؤثرات وأفكار الصينيين وفلسفتهم (التاوية مقابل الكنفوشيوسية)، كل هذا فى تفسير جغرافى، وتتبع التيارات الحضارية بين غربى وشرقى آسيا عبر الطرق البرية، وذلك فى إطارها الجغرافى، كما كانت هناك دراسة لانتشار البوذية من آسيا الوسطى على طول الطريق الجنوبى لحوض تاريم، وانتشارها فى إقليم الحضارة الصينية وهوامشها، ثم بداية نشأة الحضارة المانوية أو المنشوية فى شمال شبه الجزيرة العربية واتجاهها شرقا على طول الطريق الشمالى لحوض تاريم واختلافها عن الكنفوشيوسية نتيجة اختلاف الظروف الجغرافية ثم النسطورية المسيحية، ثم كان الإسلام واتجاهه شرقا فى القارة الآسيوية متتبعاً خطى التيارات الحضارية المبكرة، وقد مر هذا الانتشار بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: من هضبة شبة الجزيرة إلى الهلال الخصيب والهضبة الإيرانية إلى حدود الاستبس، وتعامل الإسلام مع الجماعات المسيحية فى شمال شبه الجزيرة وكذلك فى إيران، والمرحلة الثانية: انتشاره فى الاستبس وتركستان الشمالية - والمرحلة الثالثة: انتشاره فى تركستان الشرقية على طول الحدود الجنوبية لمنخفض تاريم - والمرحلة الرابعة: فهى انتشاره فى استبس تين شان وشمال غربى الصين، وانتشر الإسلام فى الصين بعد ذلك على محورين رئيسيين: يون - نان فى الجنوب الغربى، وبكين والسهول الشمالية ثم كان أثر الإسلام فى الحضارة الصينية.

وأخـــيرا

١- يمكن القول بأن هذه الرسالة ربطت بين التجارة والحضارة خلال فترة الدراسة، فالاحتكاك الحضارى كان يتبع دائمًا الاتصال التجارى، وقد لا يكون واضحًا فى حالات أخرى كما كان الحال فى فترة العصور القديمة والوسطى من تبادل للسلع والثقافة أيضا .

٢- إن الاتصالات بين الإقليمين الكبيرين كان مستمرا من العصر اليونانى الرومانى (الكلاسيكى) إلى العصر العربى (الفارسى) الإيرانى، أى العصر الوسيط، وأن العرب ورثوا الرومان فى نشاطهم التجارى، كما تبعت الحضارة الإسلامية خطوات الحضارة الإغريقية فى انتشارها نحو الشرق ومن ثم كانت الفترتان موضعا لدراسة حلقة مهمة ورئيسة فى قصة العلاقات الدولية.

٣- إن الجغرافيا ممثلة فى الظروف والأوضاع الجغرافية فى كلا الإقليمين الكبيرين، المشرق العربى والشرق الأقصى كان لها دورها سواء فى نوعية السلع المتبادلة أو فى اختيار الطريق بريًا أو بحريًا، وبالتالى لا يمكن فهم كثير من العلاقات الدولية وقيمة العامل البشرى إلا بعد أن يقوم الجغرافى بإزاحة الستار ليظهر كل هذا على المسرح الجغرافى.

المترجم

محمد عبد الغنى سعودى

إهـــداء المؤلـف

إلى رسل الثقافة المجهولين من تجار الشرق

وملاحيه القدماء

To those Unknown Ambassadors of Culture

The Ancient Traders and Mariners of the East

مقدمة المؤلف

لا يزال دارسو القصة العامة للعلاقات الدولية يقبلون بشكل واسع التمييز التقليدى بين الشرق والغرب باعتبارهما منطقتين ثقافيتين متناقضتين، وعلى العموم فقد تم رسم خط تقليدى يمثل نطاق الاتصال بين المنطقتين الثقافيتين، يمتد على طول الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، وهى المنطقة التى شهدت الصراع المبكر بين الحضارتين البرية والبحرية فى العالم القديم، ونعنى بهما إيران القديمة (فارس) واليونان، وفى الأزمنة التالية عندما ضمت المنطقتان فيما بعد مناطق أوسع (من عالم الإغريق أو الإمبراطورية الإيرانية) ظل نفس خط الاتصال كما رآه الباحثون دون تغيير، على الرغم من حقيقة أن عناصر الثقافتين شقت طريقها وتوغلت سلميا أو قسريا من كلا الجانبين. ولا مجال للنقاش بأن طبيعة طرق التجارة القديمة على طول خط الاتصال من الشرق إلى الغرب مسئولة جزئيا عن مثل هذا التصنيف المزدوج (بين شرق وغرب) وأيضا فى رسم الحد فى منطقة شملت نهاية طرق القوافل من الشرق ورؤوس خطوط الملاحة من الدول الغربية تقريبا، ولكن فى نفس الوقت ليس هناك شك ولو بسيط فى أن مكان التقاء الحضارتين ظل دائما له سماته الثقافية المتميزة عن كل من الشرق والغرب الأصلى(١)

ومع ذلك ففى السنوات الأخيرة ثبت أن هذه القاعدة القديمة للتصنيف غير كافية باستمرار فى حد ذاتها، إذ إنه يمكن أن نميز داخل كل من المنطقتين الكبيرتين وحدات أصغر، ومن الأفضل اعتبار خط الاتصال عبارة عن منطقة عريضة تجمع معا بين حياة الملاحة البحرية فى البحر المتوسط، والحياة القارية فى جنوب غربى آسيا

(البحر والبر)(*). ولا يمكن النظر إلى الغرب الذى ظهر لدارسى العصور الوسطى باعتباره مجالا شبه متناسق للعالم المسيحى، على أنه منطقة ثقافية متجانسة بالمفهوم الحديث، لكن ربما ظهر التعقيد بشكل أكثر فى الشرق لأنه حقا حسب التعميم الأوسع نضع كل المنطقة ما بين شرقى البحر المتوسط وغربى المحيط الهادى تحت نفس التصنيف العام للشرق، ومن وجهة النظر البشرية والثقافية فإن شرق البحر المتوسط أقرب إلى غربى أوروبا منه إلى آسيا الموسمية، وبالتالى فإن الاختلافات الثقافية داخل عالم الشرق الكبير كثيرة لدرجة أنه يمكن تمييز ثلاث مناطق رئيسية. ويمكن أن نطلق عليها الشرق الأدنى والأوسط والأقصى[٢]، ولا توجد فواصل حادة بين هذه المناطق لأنها فى الحقيقة تتداخل وتندمج فى بعضها البعض، ولكن بوجه عام تلعب العوامل الجغرافية دورا مهما فى تحديد المجال الثقافى لكل واحد منها. ويشمل الشرق الأدنى مناطق فرعية مرتفعة ومنخفضة، وتمتد الأولى من منخفض لوت Lut (أوكافر وسولت دزرت Salt Desert التى تفصل شرق إيران والسيستان (Seistan) عن غرب إيران أو فاريس Faris أو فارس Fars الأصلية حتى مرتفعات كردستان وأرمينيا والأناضول فى عالم بحر إيجه واليونان وجنوبى البلقان[٣]. وقد حددت المحاور الرئيسية للمرتفعات بدرجة كبيرة تحرك التيارات الثقافية، فقد أدخل الأيونيون الأوائل الحضارة البحرية على طول المجارى الدنيا لهضبة الأناضول، بينما نقل اليونانيون المسيحيون سيزاريا عقيدتهم إلى الأحواض العليا فى أرمينيا، ومن جهة أخرى فإن الفرس (الإيرانيين) نشروا ثقافتهم حتى عتبات عالم الإغريق، بينما نشر الأتراك العثمانيون الإسلام فى قلب البلقان. ويقع إلى الجنوب من الهضبة الأناضولية الإيرانية المنطقة الفرعية الثانية والتى أطلق عليها المشرق العربى فى هذا العمل، وتتكون هذه المنطقة الأخيرة بشكل خاص من الهلال الخصيب وصحارى ومرتفعات الجزيرة

(*) المترجم.

العربية(*) ولكنها تغطى أيضا (بالمفهوم الأوسع) مصر وامتدادها الجنوبى فى بلاد النوبة، فضلا عن أجزاء من القرن الصومالى الأثيوبى فى شرقى أفريقيا (مع منطقة فرعية تمتد على طول الشريط الساحلى الضيق جنوبا حتى خليج سوفالا[٤] على العموم تتميز هذه المنطقة بنمط متسق أو شبه متسق ثقافيا، وإن اختلفت بعض الأقطار السابق ذكرها لخصوصياتها المحلية، وعلى الرغم من أن للحبشة صلات ثقافية خاصة مع بقية شرق الجزيرة العربية، لكنها أبعد من أن تكون قد تعربت تماما، وحتى الهلال الخصيب والذى وقع تحت تأثير الثقافة العربية بصورة أكبر فكان قادرا على الاحتفاظ بصلاته الثقافية مع مراكز الحضارة فى هضاب وسط آسيا بصفة دائمة، وما زال الركن الجنوبى الغربى والسواحل الجنوبية من الجزيرة العربية يحتفظان بنموذج ثقافى لا يمكن اعتباره متشابها مع نظيره فى قلب أو شمال الجزيرة العربية .

إن تقسيمنا للأقاليم الثقافية وفروعها يهدف فى المقام الأول إلى تتبع بشكل منهجى لا أكثر ولا أقل بقية التواصل، والتداخل التجارى، والثقافى بين مختلف أجزاء قارة آسيا، ولا يمثل المشرق العربى نفسه إقليمًا طبيعيًا واحدًا، فلا تتشابه ظروفه الطبيعية، والمناخية، والنباتية، والبشرية فى الجنوب مع تلك السائدة فى الشمال، وإن كانت ربما تحمل علاقات مع بعضها البعض، ومع ذلك فقد ارتبط الجانب التجارى الذى قام به بحارة البحر العربى والخليج الفارسى بذلك الدور الذى لعبه الأباله فى قلب الجزيرة العربية وعلى طول الجسور البرية فى الشمال.

وعزز ظهور الإسلام عنصرا جديدا للوحدة التى دعمت النظرة التجارية العامة فى المشرق العربى [٥] واستمرت عوامل الوحدة التجارية والدينية أو الوحدة فى العمل معا طوال العصور الوسطى حتى حدث التغير فى طرق التجارة العالمية بعد

(*) يقصد بها شبه جزيرة العرب بالكامل من البحر العربى حتى جبال طوروس شمالاً، فضلاً عن أراضى الرافدين، والهلال الخصيب يمثله ذلك القوس المقلوب الذى يشمل أراضى الرافدين (العراق)، ثم يمتد القوس فوق البادية السورية ليمتد ضلعه الآخر فوق سوريا ولبنان (المترجم).

الاكتشافات الكبرى(*) والتى أدت إلى تفكك التكامل فى المشرق العربى. وتلاشى تدريجيا المفهوم القديم للعالم العربى على اعتبار أنه يشكل القلب التجارى للعالم المتحضر، وأن كل ما تبقى هو الوحدة الروحية لشعوب هذه المنطقة، فلقد انفصل النشاط البحرى للجنوب (أى جنوب الجزيرة العربية) عن الطرق البرية للشمال، وأصبحت الشعوب التى كانت تعمل سابقا كوسطاء للتجارة، عليهم أن يعتمدوا على موارد محلية كوسيلة للمعيشة، وهكذا ظهرت الاختلافات الإقليمية، وظهرت وجهات نظر مختلفة فى الأجزاء المختلفة للمشرق العربى(٦).

ويشكل القسم الأوسط من الشرق إقليمين فرعيين، وأعنى أراضى الاستبس ووسط آسيا وتركستان من جهة، والمجال الثقافى الهندى من جهة أخرى، وضم إقليم رعاة الاستبس وسط آسيا إلى جانب غرب تركستان ومنحدرات تيان شان وامتدادها فى سهول دوزنجاريا Dzungaria المكشوفة والتى تمتد حتى حدود منغوليا الخارجية(٧) ومن جهة أخرى فإن حوض تاريم المغلق (بدرجة تمنع توغل التيارات الهوائية المحملة ببخار الماء من المحيط الأطلنطى والهادى) لم يكن فى أية مرحلة يضم نشاطا بدويا على نطاق واسع، أو مصدرا لأى انتشار قبلى مهم، فقد تركزت حياة سكانه حول الواحات التى تغذيها المجارى المائية حيث انتشرت الثقافة ووسيلة الحياة الصينية هناك، وتختلف القبائل القليلة المنتشرة على طول هذه الروافد فى طبيعتها ونظمها الاجتماعية عن البدو الحقيقيين فى الاستبس (**) ولذلك من الأفضل أن يعتبر حوض تاريم نطاقا هامشيا للثقافة الصينية أكثر منه جزءا من استبس آسيا الوسطى(٨). أما الإقليم الفرعى الثانى داخل القسم الأوسط من الشرق فنجد الهند والمنطقة المجاورة فى الشمال والغرب (أى بلوخستان وأفغانستان وسيستان التى ارتبطت قصتها بالهند)،

(*) يقصد بها الكشوف الجغرافية (طريق رأس الرجاء الصالح بالنسبة لموضوعنا). (المترجم)

(**) يقصد بالاستبس إقليم الحشائش المعتدلة، ويطلق عادة على إقليم مراعى وسط آسيا واللفظ روسى الأصل، ومعناه أراضى الحشائش الخالية من الأشجار، وفى هذا الإقليم تربى أكثر من نوع من أنواع الماشية الأخرى. (المترجم)

ومع هذا فإنه إلى الشرق لم يمتد هذا الإقليم الفرعى إلى بورما (ميانمار) حيث يظهر الرافد الثقافى الرئيسى قادما من الجانب الصينى والتبت، على الرغم من انتشار عناصر من الثقافة الهندية إلى أقصى شرق أرخبيل أندونيسيا بل وحتى جنوبى الصين، ذلك أن نمط الحياة وأسلوب الحضارة فى بورما (ميانمار)، والذى امتد أبعد إلى الشرق يختلف أساسا عن نظيره فى عالم الهند الأصلية.

لم ندخل فكرة التعقيدات الثقافية داخل المنطقة الفرعية الهندية فى هذا العمل الحالى، ولكن من المفيد بين الحين والآخر إلقاء نظرة سريعة على بعض مظاهر الحضارة الهندية التى أثرت فى التداخل الثقافى بين المنطقتين، وهما المشرق العربى والشرق الأقصى، وكما سنرى فيما بعد فإن انتشار البوذية فى وسط آسيا ومنغوليا كانت لها آثارها على انتشار الإسلام بعد ذلك، بينما يبدو أن قيام الثقافة الهندية فى الملايو قد مهد الطريق للتيارات الثقافية الوافدة من الجانبين العربى والصينى .

ويضم الشرق الأقصى أساساً إقليم الحضارة الصينية، والمنطقة المرتبطة والتى يمكن أن نطلق عليها الملايو الهندية(*) (٩) وتشغل الأنماط الثقافية التى تطورت فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الموسمية مكانا وسطا بين الأنماط الهندية والصينية على الرغم من أنهما فى الأساس تتميزان عن بعضهما البعض، وتنتشر الحضارة الصينية بالمفهوم الأوسع للكلمة فى الصين الأصلية وهوامشها فى التبت، وحوض تاريم، وسهول منغوليا، (خاصة منغوليا الداخلية) ومنشوريا، وأخيرا منطقة فرعية فى كوريا واليابان. هذا ويدخل أركيباد ليتل Archibald Little الهند الصينية وسيام (تايلاند) ضمن الشرق الأقصى(١٠) ولكن من أجل أغراض العمل الحالى فإننا نعتبرها بشكل خاص كجزء من منطقة الملايو الهندية الفرعية، إذ إن تقدم الصينيين فى شمال أنام (Annam) وعلى طول ممرات الجنوب والجنوب الغربى لم يكن قويا بالدرجة التى تستأصل حضارة الشعوب الأصلية والملاويون الذين يعيشون فى الركن الجنوبى

(*) يقصد بها شبه جزيرة الصين الهندية وتشمل بورما وتايلاند وفيتنام وكمبوديا. (المترجم)

الشرقى من القارة، وكما سنرى من الشواهد الثقافية فمن الأفضل أن نميزها كمنطقة ثقافية فرعية منفصلة تشمل الصين الهندية، وبورما (ميانمار)، وشبه جزيرة الملايو، وسواحل سيام، وبورما (ميانمار) وكل عالم الجزر فى القسم الآسيوى من الأرخبيل (أى حتى خط والاس)، هذا وسوف يهتم الجزء الرئيسى من الدراسة بشرقى الصين الأصلية مع إشارة عابرة إلى المنطقة الفرعية لماليزيا الهندية.

يضم الفصلان الأول والثانى مسحا إقليميا للإقليمين محل الدراسة، كما سنناقش المشكلات المتعلقة بالعلاقات المكانية والتوجيه الجغرافى لمناطق معينة من المشرق العربى والشرق الأقصى، وفى رأينا أن هذا ضرورى للفهم الدقيق للقضايا الرئيسية فى الجغرافيا التاريخية، وللعلاقات التجارية والثقافية بين الإقليمين أما بالنسبة لحالة المشرق العربى فسوف نجرى دراسة خاصة عن العوامل (الجغرافية وغيرها) والتى تؤثر فى عملية التعريب وبالتالى توسع الشعوب والثقافات شمالا على اليابس وجنوبا على البحر، كما ستجرى دراسة مماثلة عن الشرق الأقصى مع إشارة خاصة إلى المراحل النهائية لما يسمى بفترة التكوين للحضارة الصينية، أى الفترة التى سبقت تأسيس إمبراطورية تحت حكم شين (Chin) (٢٢٣-٢٢١ ق .م) وتكوين سياسة إمبريالية محددة تجاه العالم الخارجى فى ظل الأسرة التالية تحت حكم هان (Han) (٢٠٩ أو ٢٠٦ ق.م حتى ٢٢٠ م)، لأن هذا سوف يؤدى بشكل طبيعى إلى دراسة العلاقات التجارية التى قامت بين الصين والغرب .

ويقدم الفصل الثالث والرابع خطوطا عريضة واسعة، أولا عن الوضع الجغرافى، وبعدها عن القصة الحقيقية للتجارة، وسوف يغطى هذان الفصلان المرحلتين التى نطلق عليها فترات العصور الرومانية/ الإغريقية والإيرانية (أو الفارسية)/ العربية(١١) والتى تمتد من القرن الرابع أو الثالث ق.م (عندما دشن الإسكندر الأكبر الاتصال المباشر بين شرق البحر المتوسط وآسيا الوسطى وبالتالى مهد الطريق لعلاقات أبعد مع شرقى آسيا) حتى القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى (عندما انتقلت السيادة التجارية من شعوب الشرق الأدنى إلى شعوب أوربا الغربية، بينما بدأت

الأسر الحاكمة فى الصين تنتهج سياسة أقل قبولا للتدخل الأجنبى، وفى مثل هذه الفترة الزمنية الطويلة، ربما يكون من الأفضل ألا تغطيها الدراسة على أنها مرحلة واحدة، ولكن استمرارية التجارة (رغم بعض التوقف المحدد) والعلاقات الثقافية فى العصرين الرومانى /الإغريقى والإيرانى (الفارسى) /العربى يجعل من الضرورى أن تعالج المرحلتان فى نفس الدراسة (١٢).

لن تقدم الدراسة التفاصيل التاريخية للعلاقات خلال هذه المراحل، لأن الوضع الجغرافى هو اهتمامنا الرئيسى، وفى ملحق خاص للفصلين سوف نعالج بعض السلع التجارية المهمة، وسوف نركز دراستنا أساسا على توزيع مجموعات السلع، وعلاقتها بالظروف الجغرافية، والاقتصادية، والتجارية أكثر من المعالجة التاريخية للتجارة فى مقالات منفصلة، أو قوائم للسلع، ويتفق هذا الخط من الدراسة بصورة أفضل مع وجهة نظرنا الحالية، وأخيرا يعالج الفصل الأخير قصة التبادل الثقافى، ويسير هذا مع ما قمنا به فى الفصول السابقة خاصة فى الفصلين الأول والثانى، ومرة ثانية سيكون هدفنا الرئيسى شرح مشكلات مختارة ومعينة عن الجغرافيا الروحية فى كليهما، وعلى طول الطرق التى تربط منطقتى المشرق العربى والشرق الأقصى، وسوف تلقى دراسة خاصة للتيارات الدينية بين غربى وشرقى آسيا أهمية خاصة، وهذا المجال الأخير من الدراسة قد يكون أقل وضوحا من العلاقات التجارية، لذلك سوف تظل الآراء التى نقدمها عرضة للتصحيح فى المستقبل، والهدف من هذه الآراء هو أنها ستكون أساسا للمناقشة، ومساهمة متواضعة للجغرافيا الروحية لقارة آسيا، وإذا استطاعت أن تتحمل التجربة وتقبل النقد والمناقشة السليمة فإنها ستكون قد حققت هدفها المتواضع، إن الميل العام بين دارسى الحركات الدينية فى آسيا هو زيادة التأكيد على العنصر الروحى النقى ، وهدفنا فى النهاية أن نبرز الدور الذى لعبه العامل الجغرافى، وفى نفس الوقت واضعين أمام أعيننا قيمة الدافع الدينى.

لا تزال دراسة الجغرافيا التاريخية للعلاقات التجارية والثقافية بين المراكز المختلفة للحضارة فى العالم القديم غير مكتملة، ولكن نظرا للموقع الجغرافى المتوسط

للشرق الأدنى، خاصة شبه الجزيرة العربية يجعله مناسبا بشكل أفضل ليمثل الحلقة التى تربط بين أقاصى جوانب الشرق والغرب للعالم المتحضر، وقد أصبح معروفا الآن قصة العلاقات التجارية والاتصالات الثقافية بين الشرق الأدنى وبعض أجزاء من الغرب الأوربى تماما، ومن جهة أخرى فإننا نعرف القليل نسبيا عن الاتصالات بين شعوب غربى وشرقى آسيا، وليس هناك حاجة للقول إنه من الضرورى دراسة النشاطات المتجهة نحو الشرق ونحو الغرب لرجال البحرية وتجار الشرق الأدنى لكى نقدر قيمة هذا الدور الذى لعبوه فى العلاقات الدولية.

وحقا يجب أن تكون الدراسة المرتبطة بهذه الأنشطة فى كلا الاتجاهين هدفا أسمى للطلاب الذين يدرسون الجغرافيا التاريخية ودورها فى التواصل العالمى، وإذا وضعنا هذا الهدف أمام أعيننا فإننا سنحاول إعادة عرض قصة العلاقات التجارية والثقافية بين شرقى وغربى آسيا. لكن لا تزال دراسة هذا المظهر الأخير من العلاقات الآسيوية فى مراحلها الأولى، لقد لقيت قصة التجارة الإمبراطورية الرومانية مع الهند قدرا معقولا من الاهتمام، فى حين نال هذا التواصل بين غربى آسيا (المشرق العربى) والشرق الأقصى قدرا محدودا، وصارت هناك حاجة من أجل توثيق أكثر وفهم للنصوص المرتبطة بهذه العلاقات الملموسة فى كل مظهر من مظاهر الاتصالات البرية والبحرية. فى حالة المشرق العربى هناك اعتقاد عام أن شعوبها ظلوا بعيدين عن العصور الحديثة (بعد الكشوف الكبرى) على حين كانوا الآسياد الكبار للتجارة بين شرقى آسيا والغرب الأوربى وصارت الدوافع الدينية (مثل ما حدث فى الحروب الصليبية) العوامل المحددة للعلاقات التجارية، وسوف نحاول دراسة مدى الصدق الذى يكمن فى هذا الاعتقاد الأخير .

أما بالنسبة للشرق الأقصى من جهة أخرى فإن علماء بارزين فى الدراسات الصينية مثل أ. ليتل قد وصفوا الصين بأنها كانت خلال عصور عديدة عالما فى حد ذاته (١٣) وسوف نرى كيف أن نتائجنا تتفق مع هذا الرأى، وإلى أى مدى تتفق وتسهم

فى الاتجاه الأكثر حداثة الذى يعتبر أن الصين كانت دولة مفتوحة خلال الجزء الأكبر من تاريخها، وقد تم جمع المادة التى استخدمت فى هذه الدراسة الحالية من الوثائق والسجلات الصينية والغربية، وفى معظم الدراسات التى استخدمت فى هذا الموضوع فإن جانبا أو آخر من هذه المصادر للمعلومات تعتمد على بعضها البعض، ووجدنا أنه من الأسلم أن نثق فيما بينها .

وفيما يختص بالمصادر الصينية فإننا ندين بالشكر لهؤلاء الباحثين الصينيين الذين ترجموا الوثائق من الصينية أمثال ف هيرث F.Hirth -ت-دى-لاكويرى T.de la cowprie، برتشيندر E. Bretschneider، أ. روميسات A. Remusat وآخرين، على حين واجهنا صعوبة قليلة عندما درسنا النصوص والترجمات من الكتاب الإغريق والرومان خصوصا حول الموضوعات التى ارتبطت بقصة فتح الطرق نحو الشرق، أما بالنسبة للوثائق العربية فقد وجدنا أنه من المفيد أن نعتمد على النصوص نفسها لأن الترجمة لم تكن دائما دقيقة وكاملة، ومع ذلك فإنه لأغراض المراجع انتهجنا نظاما مفصلا للحواشى، وفى كل هوامش المراجع كانت هناك إشارة سواء بالنسبة للنصوص العربية أو الترجمة المقبولة (سواء بلغة أوربية حديثة أو باللغة اللاتينية)، أما فيما يتعلق بترجمات الأسماء العربية والصينية فكانت الصعوبات أكبر للمشكلة، وبالنسبة للحالة الأولى لا يوجد نهج مقبول ومعين خاصة للأسماء التاريخية وعلى هذا انتهجنا نظام نهج وجدناه أكثر شيوعا فى المصادر التى رجعنا إليها، أما فى حالة الأسماء العربية من جهة أخرى وجدنا أنها تجعل الأمور صعبة بشكل غير ضرورى للقارئ الجغرافى أن نتبع نظاما مثل الذى صار مقياسا فى دائرة المعارف الإسلامية، لكننا انتهجنا نظاما هجائيا يكون فى مختلف الأحوال أقرب إلى نطق سليم. وفى النهاية لابد من إضافة ملاحظة ختامية لشكر هؤلاء الأشخاص والهيئات المسئولة عن منح المؤلف الحالى إحدى المنح البحثية لجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن)، ولتوجيه دراساته فى مصر والخارج أو لتسهيل نشر هذا العمل.

وعندما تخرج الباحث من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٢٩، منحته الجامعة المصرية (الآن فؤاد الأول)(*) بعثة دراسية ساعدته على القيام بهذا العمل أولا فى مصر وبعدها فى الخارج .

وقد قبلت مشكورة جامعة ليفربول بإنجلترا فى عام ١٩٣٠ ترشيحه كطالب بحث (ومن ثم كان الاعتراف بشهادته فى الليسانس المصرية وإعفاؤه من دراسة البكالوريوس)، وفى يونية ١٩٣٣ قدم الرسالة للحصول على درجة الماجستير فى الآداب وكان عنوانها:-

" المشرق العربى والشرق الأقصى: علاقتهما التجارية والثقافية خلال العصور الإغريقية / الرومانية والإيرانية/ العربية".

منذ ذلك الحين حدث تجديد للمتن الأصلى، وأعيد كتابة أجزاء، وكان مجلس الجمعية الجغرافية المصرية كريما للتصويت على نشره على هيئة كتاب، فإلى كل هذه الهيئات، فإن دين الكاتب لا يمكن للتعبير أن يوفيها حقها.

ولقى الكاتب تشجيعا كبيرا وتوجيهات طيبة من الكثيرين فى مصر والخارج، ومنهم الدكتور بهاء الدين بركات وزير التعليم المصرى فى عام١٩٣٠، والبروفسور طه حسين عميد كلية الآداب فى ذلك الوقت ولعدة سنوات بعد ذلك واللذان ساعدانى كثيرا فى الحفاظ على المنحة البحثية، واللذان ساعدانى فى مهمتى الدراسية فى الخارج، كما ساهم كل من الأستاذين عامر ومحمد عوض فى غرس الاهتمام بالدراسات الجغرافية، ومهدوا لى طريق البحث فيما بعد، وكان البروفسور ب.م روكسبى من قسم الجغرافيا فى ليفربول ولفترة من الوقت أستاذا زائرا فى جامعة القاهرة أول من قدم النصح لجامعة ليفربول لقبول ترشيحى كطالب بحث فيها، بل إنه أشرف على الدراسة لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، وكانت دراساته واهتماماته بالدراسات الصينية مصدرا مهمًا لفت انتباهى، كما يدين العمل الحالى له كثيرا فى شكله النهائى بفضل توجيهاته القيمة

(*) يقصد عا ١٩٢٩ . (المترجم)

ونقده البناء، بل إنه كان يجد الوقت للقراءة بدقة (ويصحح اللغة الإنجليزية فى الرسالة الأصلية للماجستير).

كما قدم النصح المفيد والبناء البروفسور هـ .ج. فلير من جامعة مانشستر، والذى واصلت معه العمل البحثى فى السنوات التالية وقدم النصح القيم فى بعض موضوعات الرسالة الحالية، كما سهل السيد مونيير الأمين العام للجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة أمور الطباعة وغيرها على الرغم من ظروف الحرب الصعبة، ولا أملك إلا أن أتمنى أن يخدم هذا العمل كتعبير متواضع عن شكرى وامتنانى العميق لكل هؤلاء الأساتذة والأصدقاء لمساعدتهم الصادقة وتشجيعهم الذى سوف أذكره دائما.

أخيرا وليس آخرا لقد ساعدت زوجتى كثيرا فى جمع المادة العلمية ولمراجعة أجزاء من الرسالة الأصلية مع مراجعة التجارب وإعداد الفهرس العام فى وقت كنت مشغولا بالتدريس فى الجامعة، وأرجو أن تجد فى الصفحات التالية تعبيرا عن حبى وعرفانى بالجميل.

الهوامش

(١) لأغراض المواءمة على الرغم من هذا سوف نضع هذا النطاق من الاتصال داخل الإطار الثقافى للشرق الأدنى.

(٢) ظهر مصطلح حديث أطلق عليه الشرق الأوسط، وقد استخدم أساسا لأغراض عسكرية ليشمل الأجزاء الآسيوية والأفريقية من الشرق الأدنى ولتجنب الخلط مع مصطلح الشرق الأوسط نجد أنه من الأفضل الابتعاد عن استخدام الشرق الأوسط فى الدراسة الحالية.

(٣) لقد تبنى د. ج هو جارت هذه المنطقة الصحراوية باعتبارها الحد الشرقى للشرق الأدنى، انظر The Nearer East, London 1902 المنشور كجزء من سلسلة H. J. Mackinder عن أقاليم العالم ص ص ٢-٣ وأيضا خريطته فى المقدمة.

(٤) فى مسألة ضم النوبة وأجزاء من القرن الأثيوبى الصومالى وامتداده الجنوبى داخل هذه المنطقة الثقافية فى شرق الجزيرة العربية فإن المؤلف يختلف عن هوجارت (نفس المرجع الفصل الأول (ص ص ١-١٢) الذى يستبعد هذا الجزء من أفريقيا من شرقه الأدنى، وسوف نناقش هذا القسم فى الفصل الأول من دراستنا.

(٥) فى هذا المجال نلاحظ أنه حتى ظهور الإسلام لم تكن هناك لهجة واحدة فى كل الجزيرة العربية حتى صارت لها لهجة واحدة لهجة قريش (الرسول من قريش) والتى انتشرت فيما بعد خارج شبه الجزيرة، على الرغم من أن بعض الجماعات فى المشرق العربى احتفظت بلسانها أو عقيدتها، فإن الجميع صاروا تحت درجات متنوعة من الثقافة الإسلامية.

(٦) مع ذلك فإن هذا لا يعنى أن المشرق العربى خلال العصر الإسلامى الأول قد تمتع بتوجيه تجارى عام ومثل وحدة سياسية متناغمة فى تلك الفترة.

(٧) لم تتضح تماما الحدود الشمالية لهذه المنطقة الثقافية الفرعية للاستبس، لكنها تتفق تقريبا مع مدى آلية العناصر الثقافية الواردة من الشرق الأدنى والهند والصين على حدود سيبيريا.

(٨) نلحظ أيضا أن سهول ما يسمى بالاستبس الشرقى (أى منغوليا ومنشوريا) والتى اخترقتها عناصر ثقافية صينية أكثر من العناصر الثقافية الواردة من الجانب الغربى، بحيث يمكن أن ندخلها ضمن المنطقة الثقافية الصينية.

(٩) يمكن اعتبار المنطقة الأخيرة منطقة فرعية من الشرق الأقصى، ودراستنا للشرق الأقصى فى الدراسة الحالية ستغطى على وجه الدقة أساسا المنطقة الثقافية الصينية.

(١٠) A. Little, The Far East , pub. in H. J. Mackinder,s Series on The Regions of the World, Oxford 1905, See his definition of the area on pp. 1-7

(١١) فى السنوات الأخيرة حلت إيران بدلا من فارس، وعلى هذا انتهجنا فى الدراسة الحالية مصطلحات إيران وإيرانى على الرغم من أنه لأغراض الوضوح أضفنا فارس وفارسى بين قوسين، وأحيانا احتفظنا بلقب فارس عندما نقصد منطقة فارس (جنوب غرب إيران) ونعنى به سكان المنطقة خاصة.

(١٢) ربما أهم مرحلة للعلاقة في التواصل بين غربى وشرقى آسيا هى التى تتفق مع القرن الرابع وجزء من القرن الخامس بعد الميلاد، وهذا هو السبب الذى جعلنا نختار هذه المرحلة كفاصل نسبى بين المرحلتين أو فترات التبادل التجارى.

(١٣) A. Little : ibid., p.3.

الفصل الأول

المشرق العربي

التعريف، العلاقات المكانية، التوجيه التجاري، المركبات الثقافية

مقدمة: النواة الأساسية للانتشار الثقافي

سبق أن ذكرنا في المقدمة، بأنه يمكن أن نحدد جغرافيا المشرق العربي على أنه الشرق الأدنى المنخفض، وحقيقة أنه يشكل جزءا لا يتجزأ من الشرق الأدنى له أهميته القصوى لفهم الظروف التي تم فيها تعريب هذا الجزء.

إن عملية التعريب التي تحققت بعد سلسلة من الانتشار في صحراء واستبس الجزيرة العربية لا يمكن فهمها بشكل صحيح دون أن نضع في الاعتبار العمليات الأخرى لكل من التوغل السلمي والقسري في كل من فارس اليونان، فيما عرف بعد ذلك بالمشرق العربي ، ويرجع الأثر الثقافي والسلالي للصحراء على الهلال الخصيب(١) إلى مطلع العصور التاريخية المتقدمة عندما عانت الصحراء من القلة التدريجية لكمية المطر وذبذبتها، لكن في نفس الوقت كانت الهضبة الشمالية (من إيران وشرقي آسيا الصغرى) على اتصال مع الأطراف الشمالية للهلال الخصيب، والذي قدم أرضا خصبة لنقل الأفكار والمفاهيم من كل من الصحراء والهضبة، وكان عالم الإغريق مصدرا ثالثا للانتشار، وعلى عكس العنصرين السابقين كان له نمط الحياة البحرية، وكان يتسم عموما بتوسعاته التجارية وتوغله في الهلال الخصيب خاصة أثناء فترات الرخاء والسلام النسبي.

وفى الحقيقة فإن دخول أفكار جديدة فى الهلال الخصيب كان مستمرا ومتصلا منذ فجر الحضارة، ومما لا شك فيه أن هذه المنطقة التى تعد أيضا واحدة من أهم مهد للحضارات الأولى المستقرة والتى لعبت بلا شك دورا خلاقا كمنطقة من مناطق التأثير، تدين بقدر كبير إلى مراكز التأثير الثقافى السابقة (الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وعالم الإغريق).

ويجب أن نلاحظ فى هذا المقام أن مختلف العوامل من الإبداع والتطور والانتشار والامتصاص قد جمعت مختلف أجزاء الشرق الأدنى معا وجعلت منها منطقة ثقافية شبه متجانسة.

صحراء شمالى الجزيرة العربية: مشكلة الجفاف المناخى فى العصور التاريخية.

شهدت السهول الزراعية والواحات فى شمال الجزيرة العربية سلسلة طويلة من الغزوات الآتية من الصحراء، وتعتقد بعض الهيئات أن هذه الاعتداءات تتفق مع الجفاف النسبى الذى شهدته الجزيرة العربية بينما يرى آخرون أنه لم يحدث تغير مناخى ملحوظ خلال العصور التاريخية.

وعلى أية حال من المفيد أن نتذكر أن هذه السهول لم تحصل على قدر من أمطار الشتاء أكثر من الصحراء الأصلية فحسب، بل تمر فيها عدة مجار مائية وأنهار غذتها الثلوج الذائبة على الهضبة فى الربيع وأوائل الصيف، كما أن الثراء والكفاية النسبية للمياه فى الهلال الخصيب ربما تدعو بشكل طبيعى إلى غارات البدو على السهول المستقرة التى لم يكن لديها حماية من الحدود الطبيعية، ولا تزال الهجرات الموسمية من الصحراء صيفا والعودة فى الشتاء مستمرة حتى الوقت الحاضر، وكان هذا هو النتاج الطبيعى للعلاقات المكانية الحميمة بين الاستبس شبه الصحراوية والأراضى الزراعية.

إن السؤال غير المحسوم عن التغيرات المناخية له بعض الأهمية عند دراسة حركة التوسع من الجزيرة العربية فى بداية ظهور الإسلام عندما نقل المهاجرون الثقافة العربية والعقيدة واللغة والكتابة.. إلخ إلى العالم الخارجى.

وعندما نناقش الجدل بين مدرستى تغير المناخ وعدم تغيره، فإنه من المفيد أن نلحظ أن بعض التقارير المحفوظة فى السجلات القديمة (مثل الوثائق المصرية والمخطوطات والكتاب المقدس الخ) تلقى الضوء على الظروف التى حدثت فيها غزوات الصحراء والاستبس، وعندما قدم الهكسوس إلى مصر (حوالى ١٧٠٠ ق.م) أحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم مع قطعانهم، وعندما تم طرد البعض منهم (حوالى ١٥٨٠ ق.م) هاجروا فى عشائر وساقوا أمامهم ماشيتهم، وكأنهم انجذبوا للعودة نتيجة ظروف متجددة من المراعى فى الصحراء [٢].

وحسب روايات سفر التكوين كانت المجاعة السبب المباشر لعدم استقرار العبرانيين وهجرتهم النهائية إلى مصر التى دخلوها مثلما فعلت بعض قبائل أدوم Adomite والتى ذكرت فى تقرير مرفوع إلى الفرعون مرينبتاح (Merneptah) فى منتصف القرن الثالث عشر ق.م والذى جاء كالآتى:-

" وعامل آخر من أجل إرضاء الرب، قد سمحنا للقبائل البدوية من أدوما (Adoma للمرور من قلعة الملك مرينبتاح إلى ثوكو (Thuku)، وإلى مستنقعات بيثوم (Pithum) للملك مرينبتاح والموجودة فى ثوكو، وذلك لكى تحصل على الطعام لنفسها ولماشيتها فى حقول الفرعون الذى يعد الشمس المشرقة فى كل أرض[٣] " وتشير مصادر أخرى مما يسمى عصر الجاهلية (القرون القليلة السابقة مباشرة لظهور الإسلام) إلى اضطرابات أكثر أهمية بين القبائل فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية.

فلقد تأسست مملكتان عربيتان - اللخميون غرب الفرات والغساسنة شرق الأردن، وكلاهما على حدود الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية من خلال مهاجرين وجدوا إغراء للاستقرار السلمي بدلا من العيش على الغارات[٤] وبحسب التقاليد العربية كان موطنهما الأصلى جنوب الجزيرة العربية والتى هاجروا منها إلى جنوبى

نجد وسواحل البحرين والأحساء حيث انقسموا إلى مجموعتين، اتجهت إحداهما إلى الشمال الشرقى إلى العراق، بينما تقدمت الثانية ناحية الشمال الغربى إلى القرن السورى(٥).

وربما كان هذا الاندفاع للقبائل من جنوب غرب الجزيرة إلى الشمال يجسده هذا المثل(٦) الذى يقول بأن اليمن هى مهد العرب والعراق هى مقبرتهم، ومع هذا فإن بعض المصادر لا تعطى قيمة كبيرة لعلم أنساب قبائل العرب فى عصور ما قبل الإسلام، ويعتقدون بأنه حتى ولو أن الغساسنة والمناذرة قد جاءوا من جنوب غرب الجزيرة العربية، فإن هجرتهم كانت نتيجة عدم استقرار سياسى فى داخل اليمن(٧).

ربما يكون هذا التفسير التاريخى صحيحا باعتباره من الأسباب العاجلة للهجرة المعنية، ولكن هذا التفسير غير قادر على تعليل السبب الرئيسى لهذه الاضطرابات السياسية نفسها، لذا يمكن القول بأن عمق عادات الحرب والعداوات بين القبائل من أجل السيطرة على المراعى وأماكن السقيا، من المحتمل أنه نتيجة نضال مستمر من أجل الحياة فى بيئة فقيرة أكثر من أى شىء آخر، فمن بين العادات التى مارسها العرب فى الجاهلية ومنعها الإسلام مسألة وأد البنات، وحسب نصوص القرآن وبعض مؤرخى العرب لم يكن هذا الوأد خوفا من العار، ولكن أساسا خوفا من الجوع، ويبدو أن الأحوال فى الجزيرة العربية قبيل الإسلام قد وصلت إلى أزمة مناخية اقتربت تدريجيا فى فترة مبكرة من القرن السادس الميلادى، وقد تمت الإشارة إلى هذا فى التقارير المحفوظة فى كتابات بعض المؤرخين العرب.

ومن بين هذه قصة رجل عجوز من الحيرة (عاصمة اللخميين) بالقرب من موقع كربلاء الحالية، والذى حكى القصة التالية فى سنة ٦٣٢ بعد الميلاد، "أثناء الأيام الأولى من حياتى فإن أية امرأة من بين شعب الحيرة تستطيع أن تعبر البلاد إلى سوريا وحدها وهى تمر بسلسلة من القرى، وأماكن الاستقرار، وسلسلة أيضا من مجارى المياه والأشجار التى تحمل ثمار الفاكهة حتى تصل إلى مقصدها آمنة تماما، انظر لقد تغير كل شىء، وكيف تغير كل شىء، وكيف أن الصحراء تسود فى كل مكان"(٨).

غير أنه يجب أن نلاحظ مع هذا بأن بعض الدلائل التى تسوقها مدرسة التغير المناخى ليست مقنعة كلية، ويعتقد كايتانى (Caetani)، على سبيل المثال أن حقيقة أجزاء من الجزيرة العربية كانت فى العصور السابقة تنمو فيها حياة شجرية أكثر منها فى الوقت الحاضر.. وأن العديد من حيواناتها البرية قد اندثرت الآن يمكن اعتباره دليلا ومؤشرا على ازدياد الجفاف المناخى[٩] ومع ذلك فإنه فى إقليم مثل الجزيرة العربية حيث الحياة الشجرية محدودة بطبيعتها وحيث يعتمد الناس على الأخشاب من أجل الوقود وأغراض أخرى، فإن إزالة الحياة الشجرية من الأفضل أن نعتبره من فعل الإنسان[١٠].

يمكن أن نفسر اختفاء حيوانات برية فى مثل هذا الإقليم الصحراوى على أساس أن هذه الحيوانات يمكن صيدها فى أماكن تواجدها للسقيا حيث تضطر إلى هذا الوجود، وربما يكون هذا السبب بأن أرض الاستبس والصحراء كان يتم فيها استئناس الحيوانات الأليفة واستئصال تلك الأكثر وحشية، وقد تحقق هذا فى تاريخ مبكر أكثر منه فى الأراضى الأشد رخاء، ولسوء الحظ فإن الدليل الأركيولوجى الذى يمكن أن يلقى الضوء أكثر على مسألة الجفاف لا يزال قاصرا وعاجزا عن إثبات ذلك، أما الصهاريج الرومانية الموجودة على ساحل البحر المتوسط فى مصر غرب الإسكندرية، وفى أماكن عديدة على حواف الصحراء السورية فلم تفحص تماما. إن كثرة هذه الخزانات وقدراتها الكبيرة يمكن أن تكون علامة على توقع سقوط أمطار أكثر فى ذلك الوقت، وربما يمكن القول بأنها قد بنيت فى عصور مختلفة عندما امتلأت القديمة بالرواسب أو غطيت بالرمل، فكان لابد من إبدالها بصهاريج جديدة.

ويعتقد موسيل **Musil** أن حكومة قوية هى التى كانت تستطيع القيام بإعادة هذه الصهاريج وحفر آبار جديدة، بل إنها كانت قادرة على استعادة الرخاء إلى شمال الجزيرة العربية[١١] كان هذا ممكنا، رغم أن كمية الأمطار الساقطة على هذه المنطقة فى الوقت الحاضر يبدو أنها غير كافية تماما لإمداد هذه الصهاريج بالماء حتى ولو تم استعادتها كاملة.

أما فى حالة الآبار فإن الجديد منها يستمد مياهه من نفس الشريحة الموجودة تحت سطح الأرض على حساب الآبار القديمة، وهناك إمكانية تحسين الأحوال بالاستفادة الأفضل من إمدادات المياه المكنة، لكن الفرص ضئيلة فى زيادة الكمية الحقيقية لهذه الإمدادات من المياه، وهناك بعض الدلائل (من منخفض الأزرق فى صحراء الأردن) على أن مستوى المياه الجوفى (الذى يزود الينابيع) قد انخفض إلى ست بوصات منذ أزمنة الرومان[١٢] وعلى هذا فإن أى جهد بشرى لتحسين موارد المياه سوف تحدده أساسا الأحوال الطبيعية المتغيرة.

العوامل المؤثرة على توسع العرب المسلمين فى الشمال

على الرغم من أن الدلائل الناقصة عن الجفاف، فإنه بالنسبة لنظرية التغيرات المناخية فهى تزداد قوة كل يوم، ولئن كان التغير فى كمية المطر لم يكن كبيرا فقد كان له تأثير بعيد المدى على منطقة كانت فى الأساس قاحلة أو شبه قاحلة، وأدت كل هذه العوامل معا مع عوامل سياسية أخرى إلى عدم الاستقرار، والاضطراب الذى بدأ فى القرن الثالث الميلادى، وصار أكثر شدة فى بداية القرن السادس الميلادى

ومن الصعب أن نحدد عما إذا كان الجفاف المقترح كان له أى تأثير على توسع العرب المسلمين، فالأزمة المناخية وصلت إلى ذروتها فى أكثر من قرن قبل ظهور الإسلام، كما أن حركة التوسع من شمال الجزيرة العربية قد تعطلت بشكل واضح وربما تأخرت على الأقل نتيجة ثلاثة عوامل رئيسية هى :-

١- انشغال القبائل فى التجارة المربحة الجديدة كوسيلة إضافية للمعيشة وتعويض الفشل فى الحصول على المراعى.

٢- احتمال اللجوء إلى السهول الخالية نسبيا فى الهلال الخصيب فى وقت كانت فيه مراكز الحضارة الحقيقية فى المناطق الشمالية للإمبراطورية الفارسية والبيزنطية أكثر من الهلال الخصيب نفسه، مما يخفف من الصدام بين بدو الجزيرة العربية والشعوب المتحضرة فى الشمال.

٣- وأخيرا لم تكن الكمية الكلية للأمطار قبل الجفاف كبيرة، وعلى هذا لم تسمح بشكل استثنائى لعدد كبير من البدو فى العيش على الاستبس والصحراء، ويكونون على استعداد للهجرة فى اللحظة التى تحدث فيها أية اضطرابات.

ومن المفيد أن نلاحظ بأن غزوات المسلمين عبر حدود الإمبراطوريتين فى الشمال تختلف عن الاندفاعات الأولى للكنعانيين، والآراميين وغيرها من الشعوب السامية فى حقيقة أنهم لم تصحبهم موجات بشرية ضخمة .

فقد هاجرت بعض القبائل إلى الهلال الخصيب ومصر بينما عبرت أخرى دلتا النيل إلى شمال أفريقيا، لكن هذه الهجرات جاءت نتيجة الخلافات السياسية بين الأسر الحاكمة الإسلامية وفى الحقيقة فإن توسع القوة العربية فى صدر الإسلام لم يقم بها لاجئون بائسون عجزت أرضهم عن إعالتهم، ولكن بسبب غزاة طموحين ذوى ثقافة جديدة تضيف جديدا إلى العالم.

ومن ثم فإنه ليس من المأمون أن نربط مثل هذه الحركة كلية بجفاف المناخ الذى قد يكون أثر فيه بشكل غير مباشر. وفى الحقيقة فإن سلسلة التدفق البشرى(١٣) من شمال الجزيرة العربية، والتى حاول هنتنجتون ربطها بالنبضات المناخية والتى نشرت نمطا عاما من الثقافة السامية على الهلال الخصيب، وساهمت هذه فى تمهيد الطريق للحركة الإسلامية التى جاءت بعد ذلك من العرب، كانت الأولى فى نقل ثقافة الصحراء خارج حدود الأرض التقليدية للاجئين على السهول الشمالية.

وقبل أن ندرس الأحوال الطبوغرافية والعوامل الأخرى التى حددت خطوط اعتداء الساميين والعرب على الهلال الخصيب، والذى تحقق تعريبه بصوره شبه كاملة، وتحقق أخيرا فى عهد الخلافات الإسلامية، فربما من المفيد تصور تتابع الأحداث التاريخية فى شمال الجزيرة العربية التى تأثرت بالتغيرات المناخية المفترضة للمناخ. وصحبت فترة وفرة الأمطار استقرارا نسبيا فى الصحراء وتطوراً حضارياً فى السهول الشمالية فضلا عن مصر، ويهيئ الأمن والسلام فرصة أفضل للتوسع التجارى والزراعى، وأخذت المنطقة المستقرة من الهلال الخصيب شكل قمر فى نهاية ربعة الأول، وصارت

الصحراء السورية أكثر تكيفاً لطرق القوافل التى تعبر الاستبس، واقتربت كل من شبه جزيرة سيناء وجبال مدين فى الحجاز من الهلال الخصيب، وباختصار فهى فترة اختراق المناطق المستقرة بشريا للصحراء التى انكمشت فى حجمها على الرغم من زيادة فى عدد سكانها وقطعانها. واستمرت هذه العملية حتى بلغت موجة المناخ ذروتها وبدأت كمية الأمطار فى التناقص، واستقر التغير، ولكنه فى العادة ضئيل لدرجة أن يحدث اضطرابا للمزارعين المستقرين فى السهول الذين يعتمدون على نظام الرى أكثر من الاعتماد على الأمطار. وعلى العكس بدأ البدو يشعرون بالتغيير، وفى بعض الحالات فإن انشغال القبائل بالتجارة المربحة على طول قوافل التجارة عوضتهم عن قلة المراعى مما أخر الاضطرابات. ولكن إن آجلا أو عاجلا تبدأ المناوشات على الآبار والمراعى الغنية. وينتهى الصراع من أجل الحياة وأخيرا يتدفق البدو فى حشود إلى السهول المستقرة والواحات، ويتبع هذا فترة قصيرة من الفوضى، وتوقف التنمية فى السهول والواحات، ولكن سرعان ما تحمل عبقرية الغزاة ثمارها فى هذا المجال الجديد من النشاط، ويبدأ تطور جديد على الرغم من أنه قائم على تقاليد وأسس قديمة، فمع مرور الأزمة، يتضاءل العدوان من الصحراء، ويعود بعض البدو الذين لا يستطيعون تكييف أنفسهم لحياة الفلاحين إلى البداوة مرة ثانية، ثم تبدأ دورة جديدة وتتكرر مرة بعد الأخرى.

العلاقات المكانية بين الاستبس - الصحراء والهلال الخصيب
التوزيع الجغرافى لمراكز الأسواق بالنسبة لطرق التجارة والآثار السلالية والثقافية

ومما هو متوقع فإن الظروف الطبيعية والهيدروجرافية والنباتية فى شمال الجزيرة العربية تحدد الممرات التاريخية التى اندفعت عن طريقها التيارات السلالية والثقافية عبر الحد الداخلى للهلال الخصيب الذى يمتد من رأس الخليج العربى إلى خليج العقبة[١٤].

إذا بدأنا بالجانب العربي نجد حافة ساحلية بين الدلتا الجافة لوادى الرمة، وسهول عربستان على الساحل الفارسى وهذا ما يعرف بشط العرب (حاجز العرب) الذى يمنع تصريف مستنقعات تشالدين Chaldaen، شمال البصرة. أما دلتا الرافدين (دجلة والفرات) والتى تعد أكثر اتساعا، وأقل تحديدا من دلتا النيل فهى أيضا تتميز عن الأخيرة نتيجة العملية المزدوجة لتكوين أجزائها الدنيا. وهناك نظامان منفصلان للنهرين - دجلة والفرات- وهما نهران توءمان ينبعان من كردستان وأعالى الفرات، فضلا عن المجارى السريعة من عربستان والتى تصرف أمطار زاجروس الوسطى ويشتركان معا فى إطماء المياه الضحلة للخليج العربى. وتجرى مياه المجموعة الأولى وترسب الجزء الأكبر من طميها فى مستنقعات السهول الوسطى، بينما تصل مياه المجموعة الثانية مباشرة إلى البحر ويجلب كمية أكبر من المادة الصلبة والتى تعد مسئولة عن وجود شط العرب(١٥).

وتحدد مصبات الأنهار الموانى الأمامية الحديثة والقديمة كأريدو (Eridu) أبولوجوس Apologos (عبد الله) البصرة القديمة، وعبدان، والمحمرة، والبصرة الحديثة، وكان كل ميناء فى وقت من الأوقات فينيسيا (Venice) الأدرياتيكى الفارسى لكنها جميعها بعدت بشكل متزايد عن الساحل.

ولعبت منطقة شط العرب دورا لا ينكر كقاعدة تجارية وبحرية قديمة وكما لعبت أيضا دورا مهمًا باعتبارها جسرا أرضيا بين الجزيرة العربية ومنطقة عربستان عند حضيض جبال زاجروس. وقدر تقدم هذا الساحل الحالى بنسبة نصف ميل كل قرن(١٦).

وإذا كان تقدم الساحل بهذا المعدل بنفس القدر خلال الألفيات القليلة الأخيرة، فإن شط العرب لابد وأنه كان أكثر ضيقا فى فترة الانتشار المبكر للساميين(١٧) وعلى أية حال فإن حقيقة أن اسم شط العرب وكذلك عربستان (مديرية العرب) يربطهما أكثر وبوجه خاص مع الحركة العربية (لتمييزها عن الحركات السامية المبكرة). وتشير الحقبة الإسلامية إلى أن هذه الحافة (شط العرب) لم تكن قد نمت تماما حتى فترة التحركات العربية.

كما أن إضافة أرض ثابتة للقبائل المهاجرة تحمل أيضا طريقا تجاريا بين داخل الجزيرة العربية وفارس. وإلى الشمال من هذا الشط تمتد منطقة مستنقعات تشالدين (chaldean) والتى تشكل منظرا أشبه بما يظهر فى فنلندا، فى جزرها المنخفضة السطح التى يهددها الفيضان بشكل مستمر، والقرى المبنية من الطين والتى تعيش فيها عشائر يربون قطعان الجاموس فى المستنقعات.

وكما هو متوقع كانت هذه المنطقة أقل جاذبية للقادمين الجدد سواء من الصحراء أو من الهضبة، ومن المحتمل أنها كانت غير جاذبة تطرد إليها العناصر الأضعف تدريجيا من الأراضى الأكثر تصريفا للمياه. وربما يكون سكانها الحاليون بعضا من سلالة السكان القدامى لتشالديا Chaldae وأراضى بابليون. وهناك مجال للنقاش فيما إذا كانت هذه المستنقعات أقل امتدادا قبل أن يصل شط العرب إلى أبعاده الحالية، ولكى تتجنب مستنقعات تشالدين فإن خط اقتراب القبائل وطرق القوافل الآتية من الصحراء تحولت ناحية الشمال نحو العراق العربى (العراق العربى الذى تقع شمال هذه المستنقعات) واحتل القادمون الجدد سهول الدلتا، بل إنهم أعطوه هذا الاسم، وكان مجرى وضفاف شط الهاى فى وقت ما (قاع دجلة) يعبره ما بين النهرين الأساسيين (دجلة والفرات). ومن المهم أيضا أن عددا كبيرا من المراكز التجارية القديمة والوسيطة والحديثة فى هذه المنطقة تقع فى الجزء العربى من السهل، وأن بعضا منها كانت أساسا مبنية على الجانب الغربى من نهر الفرات نظرا لأن الاندفاع الرئيسى للهجرة جاء من هذا الاتجاه (وحل محل أود القديمة، وإريك Erekh، وسنكرى، (Senkere) والتى تغيرت الآن إلى سوق الشيوخ، والناصرية، وعدد من مدن المعسكرات الأخرى.

وتقع إلى الشمال من العراق العربى منطقة سيئة الصرف، وشكلت مستنقعات واسعة على طول الشواطئ الغربية لجانبى دجلة والفرات عندما شقا طريقهما على السهول الوسطى والدنيا لبابليون. ما يسمى بحر الشينافيا وبحر النجف، وإلى الغرب من الفرات يتغير خط الغزو نحو بابليون (الشمالية) العليا. وقد لعبت أربع مدن تاريخية دورا مهمًا فى التاريخ التجارى لهذا الإقليم، وتقع هذه المدن فى الشمال مباشرة لهذه

المستنقعات. ومدينة بابليون ورثتها الأنبار، والحيرة عند العرب (فى العصر الجاهلى) وكربلاء التى ظهرت فى العصر الإسلامى. وتسجل هذه المدن مدخلا مهما إلى العراق ومنها دخل الساميون بابليون، وانتشروا شمالا إلى حوض أشور وجنوبا نحو العراق الأدنى[١٨].

وقدمت السهول الشمالية للجزيرة أرضا نموذجية للبدو لرعى قطعانهم خلال فترات الجفاف النسبى فى صحراء سوريا، وتبع العبرانيون والآراميون والعرب المهاجرون بعضهم وراء بعض إلى هذه الأرض الاستبسية التى تفصل الجانبين المستقرين من الهلال الخصيب، فى حين أن الأرض المتموجة فى هاران بين الفرات ورافده الخابور فلم يشهدا أية حياة مستقرة على نطاق واسع، بالمفهوم الذى نجده فى أجزاء أخرى من السهول الشمالية.

ولا نستطع أن نجد آثارا للزراعة فى الوقت الحاضر إلا على طول هذه الخنادق العميقة وفى الأحواض القليلة المبعثرة، كما أن غياب أشجار النخيل من جهة، والغارات المستمرة والهجرات الموسمية من الصحراء والسهول من جهة أخرى، مسئولة عن سيادة حياة البداوة[١٩] ومع ذلك يوجد عدد من مراكز التسويق (أورفا وغيرها) على الحدود الشمالية لهذا الجزء من أعالى الجزيرة، لكن السمة المختلفة لهذه المنطقة قد أثرت على طبيعة التجارة والنقل على طول هذه الطرق.

لقد عمل العرب البدو فى المدن المستقرة فى نقل البضائع للتجار الأغنياء بينما استفاد الأكراد من سكان الجبال فى الهضبة من الإغارات على طرق التجارة ومراكز التسويق. وقد عرقلت الضرائب الثقيلة التى فرضها الأمراء والحكام فى العصور الوسطى فضلا عن عدم الأمان فى بعض هذه المدن على تجارة الترانزيت فى هذا الحزام الحيوى للشرق الأدنى.

وإلى الغرب من هذه المنطقة توجد فجوة حلب والتى اخترقها غزاة الصحراء إلى شمال سوريا، وهناك اتصلوا مع عناصر أخرى - الحيثيين والأرمن وبعد ذلك الأتراك النازحين من الهضبة.

وكانت اللغة العربية والدين الإسلامى هى اللغة الوحيدة فى الركن الشمالى الغربى من الهلال الخصيب، وتكشف الدراسة المتأنية للخطوط اللغوية والسلالية على طول كل ساحل سوريا وفلسطين (خاصة الأولى) طبيعة الخليط البشرى للإقليم.

ويظهر أثر العنصر العربى ويتمثل أفضل تمثيل فى الأماكن التى يسهل الوصول إليها من الصحراء الداخلية إلى السهول الساحلية وكان للمحور الشمالى الغربى من الأراضى المرتفعة لمؤاب وهضبة اليهودية ومرتفعات لبنان أثره الملحوظ على تحركات التوسع العربى، وبدون هذا العمود الفقرى من المرتفعات، فإن مصير سوريا كأرض للاجئين البدو غير المستقرين كانت ستشبه توزيعهم فى أراضى الرافدين، ومن ثم كان اندفاع القبائل متجها ناحية الشمال على طول الجانب الشرقى من الأراضى المرتفعة، مع تدفقات عربية من خلال منافذ أو فجوات هذه المرتفعات، ومن بين هذه المنافذ بوابة حلب، وممر يرموك / مرج بن عامر والمنطقة المنخفضة جنوب موءاب ومرتفعات السامرية وهى الأكثر أهمية، وتعمل كل هذه كممرات للتوغل السلالى وأيضا كممرات للتبادل التجارى بين الأسواق الداخلية والموانى البحرية. وقد شاركت حلب (قديما كلبا) فى النشاط التجارى على طول الطريق القديم "الطريق الملكى" الذى ربط أفسوس (Ephesos) على بحر إيجة مع مدن الإمبراطورية الفارسية(٢٠) فقد كانت محطة للتجارة بين موانى سواحل فينيقيا الشمالية مثل أنطاكية Antioch، واللاذقية، وطرطوس وطرابلس (الميناء) من جهة، ومدن الهلال الخصيب الشمالية مثل نصيبين وأديس وماردن من جهة أخرى.

وشاركت خلال العصور الوسطى مدن حمص وحماة التى تمتعت باتصال أسهل مع الساحل عن طريق النهرين نهر العاصى ونهر الكبير، وكانت هذه المدن الثلاثة مقرا لإمارة صغيرة عاش حكامها على احتكار التجارة. أما جيب اليرموك سهل المقطع الذى لعب دورا مهمًا فى تجارة الملك سليمان، فقد استعاد نشاطه فى ظل السيطرة الرومانية والعربية، على الرغم من أن نشاطه كان يشاركه فيه الجيب غير المحدد والمهم بين الحافة الجنوبية لجبال لبنان الشرقية وجبل حرمون. ويعتبر هذا الممر الأخير منفذا

لتجارة دمشق والتى كانت مع بالميرا القديمة وبوسترا اللتين كانتا أهم مراكز التبادل التجارى على حافة الصحراء. فقد ورثتا النشاط التجارى للبتراء عاصمة النبطيين الذين كان اتصالهم الرئيسى بالبحر المتوسط من خلال السهول المتسعة لجنوب فلسطين. وكانت هذه السهول هى التى سلكتها القبائل العربية فى طريقها إلى ساحل فلسطين ومصر السفلى (عبر الشريط الساحلى لسيناء) وكانت أيضا يعبرهما طريق تجارى مهم من البتراء إلى العريش وغزة اللتين كانتا تحت سيطرة النبطيين أهم موانى على ساحل البحر المتوسط(٢١).

يجب أن يلاحظ أن تعريب سوريا وفلسطين قد أصبح كاملا، وما زالت لبنان تضم عناصر كبرى جاءت أساسا من الهضبة، وتحتوى السهول الساحلية إلى جانب الهضبة - والصحراء عناصر متعددة من عالم جزر شرق البحر المتوسط. وقد سمحت عملية وجود نقاط منعزلة عديدة فى سوريا وفلسطين بالحفاظ على المجتمعات القديمة والتى لم يتمثلها بقية السكان(٢٢).

وفى هذا المجال يختلف الجانب السورى من الهلال الخصيب عن نظيره فى أراضى الرافدين والعراق حيث كان هضم الجماعات الصغيرة أكثر سهولة.

إن الاختلاف الذى نلحظه فى الوقت الحاضر بين مدن الداخل فى حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، ومدن الساحل والمرتفعات فى الإسكندرونة، وأنطاكية، وطرابلس، وبعلبك، وزحلة، وبيروت يجعل من الصعب اعتبار القرن السورى للهلال أرضًا عربية صرفة.

العلاقات المكانية بين الهضبة الإيرانية والهلال الخصيب والتسرب الثقافى من إيران (فارس)

تظل دراسة العلاقات المكانية للهلال الخصيب مع المناطق المجاورة مبتورة دون دراسة مختصرة لتأثير الهضبة على التوجهات التجارية والمركبات الثقافية. وقد ظلت

سهول الهلال الخصيب طول الجزء الأعظم من تاريخها، أرض التقاء بين الهضبة والصحراء، كما تضيف الهجرات الموسمية عبر الحدود الشمالية تعقيدات أخرى فى منطقة التخوم[٢٣] وقامت الهضبة فى مناسبات عدة كجسر عبور لتحركات ضخمة من الاستبس الشمالية فى تركستان، كما عدت بعض الأماكن على طول حضيضها فى الشمال والغرب مثل هضبة سوسيانا، وربما أيضا حوض حلب بين المراكز الأولى للحضارة فى هذا الجزء من العالم، بل ما زال العديد من فروع الجبال فى سهول الهلال الخصيب تحت سيطرة شعوب تعيش أساليب الحياة السائدة على الهضبة، ورغم تلقى هذه الكتل الجبلية المنعزلة كمية كبيرة نسبيا من الأمطار، فهى لم تساعد على قيام زراعة دائمة فيما عدا المنحدرات المنخفضة حيث تتدفق ينابيع المياه الجبلية التى تهيئ حياة رغدة لسكان هذه القرى والتى أصبحت أشبه بالحدائق. وتقدم بعض هذه الأماكن حماية للاجئين من الأقليات مثل طائفة اليزيدية التى تحتل جبل سنجار وهكذا لم تكن هذه الكتل الجبلية مسئولة عن التنوع الطوبغرافى فى شمال الهلال الخصيب فحسب بل أيضا عن التعقيدات الاجتماعية والسلالية[٢٤].

استمرت عملية التسرب الثقافية من الهضبة إلى الهلال الخصيب حتى فى ذروة الزحف السامى، وبالطبع أصبحت أكثر وضوحا عندما انتقل صولجان السلطة فى جنوب غرب آسيا من أيدى الساميين (الذين تولوا السلطة حوالى ٢٠٠٠ عاما) إلى الشعوب الآرية فى الهضبة حوالى القرن الرابع ق.م، وصارت بلاد فارس الكلاسيكية بؤرة مهمة للانتشار الثقافى فى الشرقين الأوسط والأدنى.

وشقت المفاهيم الفارسية طريقها إلى هضبة الأناضول وعبر سهول الهلال الخصيب نحو عالم البحر المتوسط، وكان عليها أن تناضل بشدة ضد المؤثرات الإغريقية عبر الجسر البرى لآسيا الصغرى[٢٥] كما تسربت الفلسفة والثقافة الفارسية إلى الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى (قبل ظهور الإسلام). وتعد عبادة النار فى الجزيرة العربية قبل الإسلام مصدرها أرض منابع البترول وينابيع الغاز (فارس) أكثر منها بنت البيئة العربية[٢٦].

وقد ترك النشاط التجارى المتسع النطاق للفرس أثره الفعال على حياة جيرانهم من البدو حتى أقصى أركان اليمن، وتبين الآثار من العملات فى جنوب غرب الجزيرة أنه من القرن الثانى ق.م وما بعده كان تأثير العملة الفارسية على عملة ممالك اليمن كان ملحوظا تماما(٢٧) وفى ذلك الوقت كان هذا الركن البعيد من الجزيرة العربية على اتصال واضح مع التجار الفرس برا وبحرا، وامتد النفوذ السياسى للساسانيين إلى اليمن، وفى نهاية القرن الرابع الميلادى والتى استمرت فى الاعتراف بسيادتهم حتى قبول نائب ملكهم برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومع ظهور الإسلام انتهى عصر السيادة الساسانية للفرس على مختلف أجزاء الجزيرة العربية، ويجب أن نضع فى الاعتبار مع كل هذا أنه حتى بعد تحطيم إمبراطوريتهم، استمر رعاياهم فى ظل الخلافة يلعبون دورا مهمًا ومتزايدا فى حياة الإسلام، وبالإضافة إلى السلطة السياسية التى مارسوها فى جهاز الإدارة للإمبراطورية الإسلامية فقد تمتعوا بمكانة ثقافية قوية، فلقد تخفى الفكر والعلوم والفنون الفارسية تحت عباءة الإسلام، ولكنها ظلت أساسا دون تغيير. وفى الحق إن مساهمة الفرس فى تطور وقيام الحضارة الإسلامية (كما عرفناها) لا يمكن إنكاره.

أنشطة شعوب إيران (فارس) فى التبادل التجارى والثقافى.

الأنشطة على اليابس:

ربما يكون من الأكثر أهمية حسب وجهة نظرنا الحالية أن نلحظ الدور الذى لعبته فارس كوسيط بين الجزيرة العربية وبقية أجزاء الشرق الأدنى من جهة، وآسيا الوسطى والشرق الأقصى من جهة أخرى، ولم تقم الهضبة الإيرانية كحاجز خطير بين استبس السهول الشمالية والجنوبية. فمنذ فترة الانتشار الكبير فى الألفية الثالثة ق.م وحتى غزوات المغول والأتراك جلبت موجات متتابعة من الشمال أفكارا ومفاهيم جديدة إلى الهلال الخصيب، وإن كانت هذه المؤثرات الشمالية لم تتوغل بعيدا فى الصحراء

العربية الأصلية، وعلى العكس، فإن هذه الأخيرة هى التى نشرت ثقافتها على الهضبة وداخل السهول الشمالية، كما أنها قدمت للقسم الأكبر من السكان نظرة دينية جديدة. وعندما انتشر الإسلام إلى الشرق لعبت شعوب الهضبة الإيرانية دورا مهما .

وأخيرا ورثت الجزيرة العربية المسلمة تقاليد طويلة الأجل من العلاقات التجارية الإيرانية مع شرقى آسيا. ويمكن تتبع هذه العلاقات القديمة حتى فترة بداية التاريخ، يدل على هذا التشابه ما بين الآثار فى عصر المعادن فى كل من إيران فى غربى آسيا وجنوبى روسيا) من ناحية، والصين من ناحية أخرى، ممثلة فى صناعة الفخار المرسوم والتى توحى بمثل هذا الاتصال المبكر بين هاتين المنطقتين(٢٨).

بالإضافة إلى هذه العلاقات الأولى من المفيد أن نلاحظ أنه خلال هذه المرحلة الأخيرة من مرحلة التكوين (قبل التوحيد) تحت سيادة شن Chin كانت الحضارة الصينية على اتصال مباشر مع دول غربى آسيا فى القرن السادس ق.م، ولدينا أول دليل تاريخى للأثر المباشر من فارس على الحركة الأولى لتوحيد الصين، ففى ذلك الوقت وصلت حدود الإمبراطورية الفارسية شرقا حتى حدود نهر السند بينما وضع حكام الصين أيديهم على البوابات الغربية لكانشو Kansuh وسزتشوان sze - tchwan، وقامت العلاقات بين الطرفين، واستطاعت الأسر الطموحة فى الصين أن تستعيد الكثير من الإمبراطورية الكلاسيكية للغرب، ومما لاشك فيه أن تتأثر مراسيم البلاط الصينى بالبلاط الفارسى، بل إن قصر شى هوانج تى حاكم الصين كما وصفته الوثائق الصينية قد شيد على نماذج معمارية غربية(٢٩) (غرب آسيا) .

ومن المحتمل أن تدمير الإسكندر الأكبر للإمبراطورية الأخمينية قد جعل من الضرورى لبعض الفنانين والمعماريين الفرس أن يجدوا لقمة العيش فى بلاط الأسر الناشئة فى شمال الهند و شمال غرب الصين حيث قدموا عناصر جديدة من الثقافة الإيرانية(٣٠).

بعد سقوط أسرة الأخمينيين (٣٢٩ق.م) ازدادت أهمية ومكانة إيران بالنسبة للتجارة البرية، وقد ورث هذه المكانة اليونانيون فى باكتريا Bactria وبعدهم البارثيون.

وعندما تقلد البارثيون السلطة فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى فإنهم لم يستعيدوا للفرس السيطرة على التجارة البرية فحسب، بل إنهم بنوا أسطولا جديدا شارك فى النهاية مع الهنود والصينيين وأساطيلهم فى احتكار التجارة البحرية. لكن قبل أن نصل إلى التوسع البحرى للفرس من الضرورى أن نقول إن الهضبة الإيرانية قد قامت بدور الدهليز (الممر) للتوغل الثقافى من شرق البحر المتوسط والجزء الشمالى من شرقى الجزيرة إلى وسط وشرقى آسيا. وكانت كل من المانوية(*) والنسطورية(**) وهما ديانتان نشأتا أولا فى الهلال الخصيب ثم تبعتا الزرادشتية(***) فى اتجاهها نحو شمال السهول الشمالية للاستبس.

وهكذا جعلت شعوب آسيا الوسطى على دراية بالثقافة الروحية للشرق الأدنى فترة طويلة قبل ظهور الإسلام. وقد نتج اضطهاد الأباطرة الفرس لرؤساء المانوية وتلاميذهم فى بابليون مما أدى إلى لجوئهم إلى واحات آسيا الوسطى. فى حين كان انتشار النسطورية لأنها لقيت تشجيعا من أباطرة الفرس الذين حاولوا الاستفادة من كهنة النسطورية لأغراض سياسية فى البلاط الصينى(٣١) وبالمثل انتقلت الفنون على طول نفس الممر، قد ظهرت آثار الفن الرومانى / الإغريقى بوضوح فى الحدود الشمالية القريبة للهند. فقد كشفت عينات المنسوجات التى اكتشفها السير أورل ستين فى آسيا الوسطى وعلى حدود الصين الأثر الواضح لمصنوعات اليدوية الغربية وتصميماتها(٣٢) وفى القرن الرابع الميلادى تم إدخال فن النسيج والحرير من سوريا إلى فارس (٣٣)، ومنها انتقلت إلى أقصى الشرق حتى اليابان (٣٤) كما وضح الدور الذى لعبته فارس كوسيط بين شرقى وغربى آسيا فى إدخال التصميمات الفنية

(*) المانوية: ديانة فارسية أسسها مانى فريجا من الزرادشتية واليهودية والمسيحية، ثنائية تؤمن بوجود إلهين للخير والشر.

(**) النسطورية نسبة إلى نسطورس بطريرك القسطنطينية القرن ١٥م، ذهب إلى أن الطبيعتين البشرية والإلهية فى المسيح ظلتا منفصلتين.

(***) الزرداشية أسسها زرادشت فى إيران فى القرن ٦ ق.م، ويقال إنه تلقى وحيا من أهوارا مزدا إله الخير ليبشر بالحق. (المترجم)

الصينية فى صناعة الحرير فى المنطقة الأخيرة، وعلى الرغم من أن الآثار الباقية من فترة الساسانين لم تظهر أى أثر لآسيا الشرقية فإن تلك التى ظهرت فى العصور المتأخرة وضح فيها تأثرها بالتصميمات الصينية(٣٥).

التوسع البحرى للفرس - الوضع الجغرافى للخليج الفارسى

لقد ساعد توسع الفرس البحرى على إنشاء اتصال مباشر بين جنوب غربى آسيا والشرق الأقصى، وكان الخليج العربى ميدانا مناسبا للتطور المبكر للملاحة، وزادت مصائده من اللؤلؤ والأسماك من اعتماد السكان على البحر، وكان النشاط البحرى الكبير الذى شهده الخليج فيما قبل الإسلام وما بعده ثمار تقاليد طويلة من الحياة البحرية.

وترجع سجلات الرحلات على مياه الخليج وعلى طول سواحل شبه الجزيرة العربية إلى الألف الثالثة ق.م عندما كانت سومر على اتصال مع دول دلمون وغيرها من الأقطار الأخرى(٣٦) بل إن هناك نظرية تقول بأن منطقة الخليج الفارسى كانت الموطن الأصلى للبحارة الفينيقيين الأوائل(٣٧).

ويشير كل من هيرودوت (جـ ١ فصل ١) وسترابو (المجلد ١٦، جـ ٣ ص ٣ - ٤) إلى أن الفينيقيين جاءوا من ساحل الخليج وربما مما يعرف الآن بجزر البحرين. ولعل التشابه بين آثار مدافن البحرين وتلك الموجودة فى فينيقيا وسردينيا وقرطاج تدل على بعض العلاقات بين بحارة الخليج الفارسى ونظيرتها فى البحر المتوسط(٣٨)، ومع هذا فإن هذه التشابهات لا تزال غير مكتملة بخصوص الأصل المشترك لشعوب المنطقتين، وتقول التقاليد المحلية فى فينيقيا إن أسلافهم جاءوا من شرق الجزيرة العربية، وربما نجد سببا للتفكير فى الأسس الأثرية واللغوية بالقول بأنه لبعض الأسباب (ربما خلال فترة الجفاف) اضطرت قبائل شمال الأحساء إجباريا إلى الانقسام إلى مجموعتين، تحركت إحداهما جنوبا واستعمرت جزر البحرين وساحل عمان الذى صار فيما بعد

قاعدة للتوسع البحرى، بينما تقدمت الأخرى إلى ناحية الشمال الغربى نحو فينيقيا حيث عملوا بالنقل البرى قبل أن يتحولوا إلى العمل فى البحر. وقد استفاد الأشوريون والبابليون من الخليج العربى فى الإبقاء على العلاقات التجارية مع سواحل خليج عمان والبحر العربى وربما مع الهند نفسها[٣٩] وكانت السلع المتبادلة هى اللبان والبخور واللؤلؤ والأخشاب والمعادن .

ومع ذلك ففى عصر الأخمينيين (من القرن السادس إلى القرن الرابع ق.م) أصيبت الملاحة البحرية بنكسة، وكانت بالتالى إمبراطورية برية، وأدى امتدادها من الهند إلى مصر إلى نمو الطرق البرية على حساب الطرق البحرية. وكانت إقامة العديد من السدود ومشروعات الرى على مصبات الأنهار التى تنساب إلى الخليج الفارسى، ما منع مياه البحر من التوغل فى هذا القسم من الإمبراطورية، وعندما قاد الإسكندر الأكبر حملته المشهورة كانت تحدوه الرغبة لإزالة هذه المعوقات حين عودته من الهند، لكنه مات قبل أن ينفذ مشروعه. وكانت سيطرة الإمبراطورية الإغريقية (السلوقيون) على الخليج الفارسى فعالة، وصارت الأراضى التى تقع فيها مصبات أنهار الرافدين مسرحا لمملكة محلية[٤٠] وكان لأمراء البارثيين فى شمال إيران اهتمامهم الرئيسى باحتكار الطرق البرية ما بين الصين وآسيا الوسطى والهند من جهة، وأراضى الإمبراطورية من جهة أخرى. كما صار التجار الإغريق فى سوريا وفينيقيا ومصر أكثر اهتماما بتطوير البحر الأحمر باعتباره معبرا إلى البحر العربى، وكانت قبائل النبطية فى شمال الجزيرة العربية أكثر نشاطا على طول طريق الحجاز الذى يربط جنوب غرب الجزيرة مع البحر المتوسط، ولم يبدأ الخليج فى استرداد أهميته التجارية إلا بعد أن تولت الأسرة الساسانية السلطة (حوالى ٢٢٥ - ٢٢٦ بعد الميلاد) .

وعلى خلاف الأرساسيد فى بارثيا فقد جاءت أسرة الساسانيين من إقليم الوادى فى جنوب غرب إيران، وكانت على اتصال وثيق مع حياة البحر فى الخليج، وبدأوا بالسيطرة على أراضى الرافدين الدنيا وبناء أسطول قوى، أرسى الهدوء فى مياه الخليج الذى صار تدريجيا بحيرة فارسية[٤١].

وشجع القضاء على القرصنة في تطوير صيد الأسماك واللؤلؤ وتجارته، وكان هذا بداية فترة طويلة عملت فيها شعوب جانبى الخليج على التعاون سويا لأجل السيطرة على جزء من التجارة بين الجزيرة العربية والهند والتى كانت تسير فى معظمها في البحر الأحمر. وعكس التنافس بين ذراعى المحيط الهندى (أى البحر الأحمر من جهة والخليج العربى من جهة أخرى) الصراع الحاد بين إمبراطوريتين فى غرب آسيا (وهما الرومانية والفارسية) من أجل السيادة على الطرق التجارية.

وأسس التجار اليونانيون فى ظل حكم البطالمة في مصر خدمة شبه منتظمة ما بين خليج عدن وشرق البحر المتوسط، وتطورت هذه كثيرا بعد اكتشاف الرومان استخدام الرياح الموسمية فى الملاحة حوالى منتصف القرن الأول الميلادى[٤٢] ومع ذلك فإنه يبدو أن البحارة الرومان لم يتوغلوا فيما وراء بحار الهند أو الملايو الهندية رغم أن التقارير تفيد بوصول بعثة في جنوب الصين في حوالى عام ١٦٦ بعد الميلاد[٤٣].

وكانت الأسواق الهندية مراكز تجارية للمستودعات الصينية التى وصلت هناك عن طريق ممرات جنوب غرب الصين وأسام[٤٤] وفى الحقيقة يبدو أن التجار العرب والفرس فى الخليج الفارسى كانوا أول الغربيين (أى من غرب آسيا) الذين أقاموا علاقات مباشرة مع الإمبراطورية الصينية. وفى الوقت الذى دب فيه النشاط الرومانى فى بحار جنوب شرق آسيا، كانت الملاحة الصينية محدودة ومقصورة على الساحل الجنوبى للصين، ومن جهة أخرى عندما كان البحارة العرب الفرس يتقدمون نحو الشرق، كان البحارة الصينيون أيضا يشقون طريقهم إلى البحار الغربية.

وفى النهاية التقى الشعبان سويا، وبدأت مرحلة جديدة فى التجارة والعلاقات التجارية بين شرقى وغربى آسيا.

كان التوسع المبكر لشعوب ساحل الأحساء والبحرين وعمان مقصورا على مياه البحر العربى، رغم أن وجودهم فى جنوب الصين يمكن تتبعه إلى أوائل القرن الثالث الميلادى، فلم يقدر لهم أن يلعبوا دورا مهما فى التجارة مع شرق آسيا إلا فى نهاية عصر الجاهلية (قبل ظهور الإسلام)، وكانت المنطقة التى تستهويهم أكثر هى ساحل

شرق أفريقيا وجزره بما فيها مدغشقر، وانشغل المغامرون الفرس والعرب فى تجارة البخور وصيد الرقيق فى منطقة الزنج.

وبلغت حركة الهجرة إلى شرق أفريقيا ذروتها ما بين القرن الرابع إلى القرن الثالث عشر، وإن لم تتوقف بعد ذلك، واستقر بعض القادمين الجدد نهائيا فى هذا الإقليم، وتعاونوا مع المهاجرين الآخرين من جنوب غرب الجزيرة العربية فى نشر الثقافة الإسلامية بين بعض القبائل الوطنية(٤٥) الأفريقية. وتدعمت الصلة الثقافية بين أفريقيا والساحل المواجه من الجزيرة العربية من خلال الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الوطن الأم، وعلى هذا الأساس نعتقد أن ضم الشريط الضيق على طول الساحل شرق أفريقيا كمنطقة تابعة للشرق العربى له ما يبرره. وما زالت العوامل التى تعلل الانتشار الواسع للشعوب التى تعيش حول الخليج العربى وخليج عمان محل نقاش.

إن أثر الجفاف الذى ظهر وحدث فى شمال الجزيرة العربية وأيضا فوق الجزء الشمالى من الخليج الفارسى خصوصا بعد بداية القرن السادس الميلادى لا يبدو أنها كانت كارثة لشعوب الخليج الذين يعتمدون على صيد الأسماك / اللؤلؤ فضلا عن الرعى، ومن جهة أخرى فإن العوامل السياسية قد تقدم تفسيرا مقنعا وواضحا لهذه التحركات. وباستثناء السياسة الواضحة للساسانيين لتشجيع الحياة البحرية على جانبى الخليج، فإن قلة الطلب على اللؤلؤ الفارسى (الذى جاء بعد ضعف القوة الشرائية للرومان وازدياد المنافسة من جانب صيادى اللؤلؤ فى سيلان، يبدو أنه قد ساعد على زيادة انتشار هؤلاء البحارة للبحث عن رزقهم عن طريق نقل التجارة.

ومن الممكن أيضا أن الوضع السياسى غير المقبول لبعض الطوائف فى ظل حكم الإمبراطوريات الإسلامية ربما أغرتهم على الهجرة فيما وراء البحار حيث يستطيعون تأسيس دول جديدة خاصة بهم. وكلما تطورت التجارة على ساحل أفريقيا الشرقى، والبحار الهندية، والشرق الأقصى جذبت باستمرار سيل الهجرة إلى المستعمرات المزدهرة. وفى هذا التوسع لم يكن الفرس (والعناصر الفارسية) قوادا للعرب فحسب، بل إنهم كانوا أيضا دعاة وناشرين للثقافة الإسلامية.

العلاقات المكانية بين عالم الإغريق فى البحر المتوسط والهلال الخصيب

الاختراق الثقافى والتجارى

يجب أن نعود ثانية إلى مركزنا الثالث للانتشار الثقافى فى الهلال الخصيب (فضلا عن الصحراء العربية والهضبة الإيرانية التى تمت مناقشتها بالفعل) أى عالم الإغريق فى البحر المتوسط.

لم يكن من السهل فهم التعقيد الثقافى لشمال الجزيرة العربية أو انتشار الإسلام نحو الشرق، بدون أن نضع فى الاعتبار التام التأثيرات الإغريقية سواء فى فترة ما قبل الإسلام وما بعده، وهناك مدرسة من الفكر تعتقد أن قيام وسقوط الحضارة الإغريقية الرومانية تتفق مع التحولات المناخية فى العصور الكلاسيكية[٤٦] فقد أدت الزيادة فى سقوط الأمطار إلى تحسن صرف المياه على سهول اليونان وإيطاليا، وعلى هذا توقف تشكيل مستنقعات الملاريا، وأصبحت الأرض صالحة للاستغلال الكثيف، كما أن هذه الأمطار ساعدت على التقدم والاستقرار على سهول شمالى الجزيرة العربية والتى تعد بدورها ضرورية لقيام التجارة والتبادل التجارى، ولو كانت هذه النظرية صادقة – وهذا ما يبدو طالما أننا نحكم من المادة المتاحة – كلما ازداد المطر خلال الجزء الأخير من فترة سقوط المطر الكلاسيكية فإن ذلك يحبذ نمو الحضارة فى شرق البحر المتوسط، وانتشار ثقافتها فى الأراضى المجاورة من الهلال الخصيب.

ولم تكن الحركة الهلينية مقصورة على السهول الشمالية للجزيرة العربية ذلك أن تأثيراتها امتدت إلى قلب الصحراء – وزادت حركة التجار الإغريق والسوريين والمصريين مما حمل البدو على الاقتراب من العالم المتحضر. وكانت المستوطنات العربية كمراكز التسويق حول الآبار والواحات هى النقاط الوحيدة للتقابل والاتصال، ومع ذلك فقد كان لكل منها تأثير إشعاعى قوى على المناطق القبلية حولها، وفى النهاية بلغ تيار التسرب إلى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية.

وتنحصر المداخل الرئيسية من شرق البحر المتوسط إلى شرق الجزيرة العربية فى ثلاثة هى – الجسر الأرضى لآسيا الصغرى، الخط الساحلى الفينيقى وبوابة مصر، وشمال سيناء، والبحر الأحمر. وتقع أولى هذه المداخل خارج إطار هذا العمل الحالى بينما ستعالج المداخل الأخرى كل على حدة، ويكفى الآن أن نشير إلى أن ساحل فينيقيا وشمال الليفانت يتناقض مع جنوب الليفانت فى أن له موانى طبيعية عديدة لها تقاليد طويلة فى التجارة. فمنذ أوائل عصر الملك سليمان كانت تجارة فلسطين البحرية تمر بشكل كبير عبر موانى فينيقيا والتى كان عليه أن يسعى لعمل اتفاقيات معها. وظل نفس الساحل البوابة الرئيسية للتوغل التجارى والثقافى فى الهلال الخصيب، وكانت بعض موانى ساحل جنوب الليفانت مثل العريش وغزة ويافا فى مواقع أفضل للتجارة مع طريق الحجاز، ولكنها تدريجيا دخلت دائرة الانهيار إذا ما قورنت مع موانى الشمال. ومن جهة أخرى كانت أنطاكية نقطة تقابل مهمة ومركزا كبيرا للفلسفة والفكر الإغريقى على الساحل السورى.

وساهمت عملية التوغل المنتظم للحضارات المختلفة إلى حدود الهلال الخصيب فى عملية تعقيدات هذه المنطقة مع بداية ظهور الإسلام. لا حاجة لأن نؤكد على حقيقة أن النهج الأخلاقى للمسيحية وخاصة بالنسبة للكنيسة الشرقية قد تأثر بشكل كبير بالفلسفة الإغريقية وأنها هى أساسا القضية المشتركة لليهودية والفكر اليونانى[٤٧] وصارت الأشكال المتطورة من الديانة المسيحية مختلفة تماما عن اليهودية التى أخذوا منها فى البداية[٤٨] وبالتدريج فإن الثقافة الإسلامية تجسدت وامتصت كثيرا من المفاهيم من نفس مصادر الفلسفة الكلاسيكية رغم أن قاعدتها الدينية وأنماطها الأخلاقية لم تتغير.

وكانت العلوم والفنون الإسلامية هى التى حققت أيما استفادة من التراث الثقافى اليونانى – كما تمثل التوغل التجارى لليونان فى الجزيرة العربية بأفضل صورة فى النظام النقدى فيما قبل الإسلام، وهناك دليل على تداول عملة أتيك Attic فى القرن الخامس قبل الميلاد فى جنوب فلسطين وشمال الحجاز[٤٩] وقد توغلت هذه

العملة جنوبا حتى ظهر أثرها فى جنوب الجزيرة العربية، فعملات المعنيين والسبئية والحميرية اللاتى غطت الفترة من القرن الثالث ق.م وحتى القرن الثانى بعد الميلاد، هى إما تأثرت أو اشتقت من عملة السكندريين والأتيك القديمة أو الحديثة(٥٠) ومع هذا يجب أن نلحظ أن هـذا التأثير كان سائدا فقط فى شكل العملة وليس فى مستواها أو معيارها، وإذا تحدثنا بشكل عام فإن كل ما فعله اليونان هو إعطاء شكل وتنظيم للمادة الاقتصادية الخام المستعملة فعلا فى الجزيرة العربية كوسيلة للتبادل(٥١).

أنشطة التجار والبحارة الإغريق فيما وراء الجزيرة العربية

من المفيد من وجهة نظرنا أن نلحظ أنشطة التجار اليونانيين فيما وراء الجزيرة العربية الأصلية وإعدادهم بما يفيد التوسع التجارى العربى بعد ذلك (فى فترة ما قبل الإسلام وأوائل العصر الإسلامى). وقد حل الإغريق محل الفينيقيين فى الحفاظ على العلاقات الدولية، وأخذوا على عاتقهم القيام بمشروع أكبر بهدف فتح الطرق البرية والبحرية، وكانت حملة الإسكندر قد نقلت الآثار المتميزة للإغريق إلى آسيا الوسطى، وتبع ذلك مشروع بحرى للوصول إلى الهند عن طريق البحر، وبالطبع كانت التجارة أول من استفاد من هذا التوسع المزدوج. وتعد مملكة البكتريان Bactrian التى امتدت فى جنوب تركستان وشمال غرب الهند نموذجا مثاليا لمملكة تجارية فقد عاشت أساسا على احتكار تجارة وسط وشرق آسيا. واستفادت الأسر الناشئة فى بارثيا وسلوقيا من الموقع الفريد لأقاليمهم، وتحكموا فى الطرق البريـــة،

كما حاول البطالمة فى مصر فتح اتصال بحرى مع أثيوبيا والهند، ففتحوا موانى جديدة، وبنوا أساطيل أبحرت فى البحر الأحمر الخطير حتى بلغت خليج عدن، وهناك التقوا مع بحارة جنوب الجزيرة العربية والبحارة الهنود وآخرين الذين احتكروا تجارة الأسواق الشرقية، وصار نفوذهم واضحا على ساحل أكسيوم حيث تأسست بعد ذلك مملكة شبه بيزنطية.

وتوغلت المسيحية داخل الحبشة تحت رعاية الكنائس المختلفة، وتم إرسال المبشرين إلى الساحل الغربى للهند، فكان من الطبيعى أن يؤدى توسع مسرح النشاط التجارى للتجار الإغريق والرومان سواء بالبر أو بالبحر إلى انتشار أوسع لثقافاتهم. ويعد ما يسمى بالفن الإغريقى البوذى فى جاندهارا على الحدود الشمالية الغربية للهند أساسا نتاج التقاء الحضارتين ويظهر هذا من اسمها. واستخدمت الأسرة البوذية الناشئة فى المنطقة - الكوشان من القرن الأول ق.م إلى القرن الرابع بعد الميلاد مواهب وموارد الفنانين الهلينيين من أجل إشباع حماسها الدينى(٥٢) وثار جدل كثير عن أثر المدرسة الجهاندرية على الفن البوذى سواء فى الهند أو الصين. وهناك رأى تقليدى يرى أن هذه المدرسة كان لها أثرها الواضح على الأجزاء الأخرى من عالم البوذية. وحسب هذا الرأى فإن صورة بوذا ليست سوى صورة طبق الأصل للمسيح، والتى تأثرت إلى حد كبير بالفن الكلاسيكى لليونان. وكانت جاندهارا المكان العكسى للهند المقر الذى انتشرت منه إيقونة بوذا بدرجات فى كل أنحاء بقية الهند والشرق الأقصى(٥٣).

وهناك رأى آخر يعتبر المدرسة الجهاندرية كمستعمرة هلينية للفنانين لم يكن لها أى تأثير على الفن الهندى الأصيل(٥٤). ولم يؤثروا على أى فن بوذى فى الصين(٥٥). وهناك رأى أكثر اعتدالا وربما أكثر قبولا ويرى أنه على الأقل فى حالة الصين فإن التوسع الفنى من الغرب (أى من شرق البحر المتوسط وغرب آسيا) كان بكل السبل ضئيلا(٥٦) لقد أحدثت العلاقات التجارية بين غربى آسيا والصين تيارا من المد والجذر الثقافى فى آسيا الوسطى، كما انتشرت محفزات الفن الإغريقى فضلا عن مفاهيم الفلسفة الإغريقية وثقافتها نحو الشرق (شرقى آسيا) حتى فى العصر الإسلامى، حين تخفت الأفكار السائدة فى شمال الجزيرة العربية والمتأثرة بالهيلينية. تحت ثوب إسلامى أو فى بعض الحالات اختلطت مع الدوافع والتأثيرات الفارسية. وعندما انتشر الإسلام نحو الشرق فإنه عبر أرضا كانت بالفعل على دراية بالثقافة الغربية (غربى آسيا)، ولن نكون مبالغين إذا قلنا فى النهاية بأنه بنفس الطريقة التى سارت فيها تجارة العرب على نهج المشروع الإغريقى برا وبحرا، واستفاد انتشار الإسلام بشكل

غير مباشر من التقاليد القديمة للمغامرين الإغريق الذين حملوا الثقافة المعقدة للشرق الرومانى بعيدا إلى قلب آسيا وإلى تخوم الشرق الأقصى .

مصر والشرق العربى :

الوضع الجغرافى، العلاقات المكانية، والاتصالات الثقافية والتجارية

يعد الجزء الأدنى من وادى النيل منطقة قامت خلال جزء من تاريخها باعتبارها أرضا للاحتكاك بين الثقافات الهلينية والعربية، واحتفظت مصر دائما بأهميتها فى المركبات الثقافية للشرق الأدنى ليس فقط باعتبارها منطقة إضافة أو كسب، بل أيضا كنطاق اتصالات تجارية والتقاء ثقافى من كلا الجانبين. وفى العصور الرومانية صارت مصر واحدة من مخازن الغلال الرئيسية للإمبراطورية مع التوجه التجارى نحو الشمال، بينما فى ظل الحكم العربى انعزلت عن البحر المتوسط واتجهت نحو الجزيرة العربية والأراضى المقدسة(٥٧).

لقد تخلت الإسكندرية عن مكانتها التى كانت فى وقت من الأوقات مركز الدراسة الإغريقية، ونقطة الاتصال مع عالم البحر المتوسط إلى مدينة الفسطاط، وبعد ذلك مدينة القطائع، وأخيرا إلى القاهرة التى برزت فى النهاية كمركز للثقافة الإسلامية. وصارت مصر المسيحية التى قاومت كنيستها بقوة وعاشت من جديد بعد عمليات الاضطهاد الأولى من الرومان، واستطاعت أن تنشر المسيحية فى النوبة وأثيوبيا – بعد قرون قليلة من تحول مصر إلى الإسلام – الوريث الحقيقى للإمبراطورية العباسية، والمركز الثقافى للعالم الإسلامى، ولا يقلل هذا من دورها فى التحكم فى التجارة بين الشرق والغرب .

إن التغير الذى حدث فى اتجاهها التجارى شرقا بعد الغزو العربى (وارتباطها الاقتصادى بالجزيرة العربية) كان فى اهتمامها الأساسى بالتجارة فى منتجاتها

الخاصة، ولم يكن دورها ممرا للسلع الشرقية، كما واصلت مصر الإسلامية دورها فى المنافسة مع السهول الشمالية للهلال الخصيب وساحل سوريا كمعبر للسلع القادمة من جنوب وشرق آسيا والمتجهة نحو جنوب وغرب أوروبا، وفى هذه المنافسة كانت السهول الشمالية للجزيرة العربية فى موقع أفضل فى نهاية الطرق البرية من آسيا الوسطى والطريق البحرى للخليج العربى، بينما تحكمت مصر فى طريق البحر الأحمر .

ويجب أن نلاحظ، مع هذا أنه فى العصور الكلاسيكية (القديمة) والعصور الوسطى كانت الطرق البحرية والبرية صعبة وخطيرة(٥٨) لكن كان لدى مصر نظام موحد فى الجمارك على عكس الحال فى شمال الهلال الخصيب الذى كان يضم عديداً من الإمارات المدنية مع نظم معقدة من الجمارك والصفقات التجارية وفى الحق أن مصر تشكل جزءا لا يتجزأ من شرق الجزيرة وقد وضح هذا من خلال علاقاتها المكانية الوثيقة والحميمة مع الهلال الخصيب والأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية. وكان لسقوط أمطار شتوية معقولة على شريط ضيق على طول ساحل البحر المتوسط لشبه جزيرة سيناء والتى تحفظ فى التكوينات الرملية السطحية طوال شهور الصيف، حيث يعد إمداد المياه من الآبار ضروريا للحفاظ على الطريق من دلتا النيل إلى ساحل فلسطين، وهذا هو الطريق الذى سلكته معظم الغزوات التاريخية إلى مصر ومنها والتى يسلكها حتى الآن خط سكة حديد تم بناؤه أثناء الحرب العظمى الأولى. وأدت الطرق العديدة وغير المنظمة على طول الأودية شبه الجافة فى سيناء الوسطى إلى خليج العقبة وشمال الحجاز. وقام البحر الأحمر نفسه بدور مهم للربط بين مصر وغرب وجنوب الجزيرة العربية، وبالإضافة إلى القناة (الترعة) بين نهر النيل وخليج السويس، كما توجد عدة طرق قوافل والتى تبدأ من منحنى قنا (حيث يكون النيل أقرب إلى البحر الأحمر)، وتتبع الأودية الجافة للصحراء الشرقية إلى الموانى القديمة ميوس هرمز، ولوكوس ليمن، وبيرنيس، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر.

وقد ساعدت هذه الطرق الأخيرة فى إقامة علاقات مع أثيوبيا والصومال والركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية إذا ما قورن بطريق سيناء الذى يؤدى إلى شمال

الجزيرة العربية. وقد عانت الاتصالات الثقافية والتجارية لمصر مع الأجزاء الشمالية والجنوبية لشرق الجزيرة العربية من تغيرات كثيرة خلال تاريخها وخاصة أثناء المرحلة الفرعونية. ذلك أنه فى وقت من الأوقات نمت العلاقات التجارية مع دول البحر المتوسط وشمال الجزيرة العربية، بينما فى أوقات أخرى تغيرت النظرة التجارية للدولة نحو الجنوب أى إلى بلاد بونت.

وهناك سبب للاعتقاد دون أن نلزم أنفسنا لأية عبارات جامدة أنه توجد بعض العلاقات بين التغير والاتجاه التجارى المصرى نحو الشرق والتغيرات المناخية التى اقترحها هنتنجتون لشمال الجزيرة العربية. وقد لاحظنا بالفعل أن فترات الرخاء يصحبها فى العادة نشاط تجارى مستقر بين مصر وحضارات شمال الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية بينما تؤدى فترات الجفاف إلى الفوضى وعدم الأمان التى تعد قاتلة للتجارة. وفى كثير من الحالات يغرى الجفاف القبائل البدوية فى شمال الجزيرة العربية إلى غزو مصر خاصة أجزائها الشمالية.(٥٩)

وكرد فعل للغزو فى الغالب تقوم أسر مصرية وطنية فى مصر العليا، وتقيم حول ثنية طيبة التى تعد مكانا مناسبا للتجارة مع بلاد النوبة من جهة والأراضى حول الجزء الجنوبى من البحر الأحمر (أثيوبيا وجنوب الجزيرة العربية) من جهة أخرى. كما أن ضعف السلطة السياسية فى مصر نتيجة للغزو من الشمال، يقابله ازدياد مضطرد فى السلطة الكنسية لطيبة – وهذا يزيد الطلب على البخور واللبان ومنتجات التوابل الأخرى من بلاد بونت والتى كانت لازمة لاستخدامها فى الاحتفالات.

هكذا تفضل الظروف الدينية والسياسية والطبيعية التوجه الشرقى لمصر جنوبا حتى تحدث ظروف أفضل فى شمال الجزيرة، وهذا يقلل أخطار الصحراء ويعيد فتح التجارة مع السهول الشمالية. ويجب أن نوضح على الرغم من هذا أن مثل هذه العلاقة التى نقترحها بين التغيرات المناخية والتوجه التجارى لمصر فى العصور المبكرة والتى توحى بأنها متغيرة كما هو الحال فى كثير من تغير العلاقات التجارية لمصر بشكل غير طبيعى (أى نتيجة للظروف المناخية).(٦٠)

وفى العهد الإسلامى انتهت آثار التغيرات المناخية عمليا، وصارت مصر ممرا مهما بين الشرق والغرب أكثر من تجارتها مع الدول المجاورة، والتى سادت الجغرافيا التاريخية لتلك الفترة.

بلاد العرب السعيدة والساحل المواجه فى أفريقيا

العوامل المؤثرة فى التوسع البحرى من الجنوب

إن الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية والساحل المقابل لأثيوبيا وشمال الصومال آخر منطقة لم نناقشها فى هذا الفصل. وهى تكون منطقة خاصة داخل الشرق العربى والتى استطاعت أن تقيم نمطا خاصا من الثقافة على الرغم من أنها ظلت على اتصال وثيق مع بقية الإقليم. ولا نستطيع أن نبالغ فى أهمية الدور التجارى الذى لعبته شعوب هذه المنطقة، والمشاركة التى قاموا بها فى نشر الثقافة العربية بحرا. ولا تزال معلوماتنا محدودة وضئيلة عن العوامل التى تبرر التوسع الملاحى من جنوب غرب الجزيرة إلى الساحل المواجه من أفريقيا، وبعده نحو المياه الهندية والصينية. ويعتبر المسح السريع لهذا التوسع أكثر من ضرورى للفهم الصحيح للعلاقات البحرية التى دشنوها مع جنوب وشرق آسيا، والمستوطنات التى شيدوها غرب المحيط الهادى.

لقد ارتبط النشاط البحرى المبكر على ساحل جنوب وغرب الجزيرة العربية مع الحافز والتشجيع الذى لقيته التجارة بين الشرق الرومانى واليونانى مع الهند كنتيجة لمحاولة ومغامرة التجار الإغريق والمصريين فى البحر الأحمر لتشييد وإقامة علاقات بحرية مباشرة مع الدول التى سبق الحديث عنها. ويصدق هذا القول إلى حد ما لكنه لا يقدم شرحا كافيا لمثل هذا التوسع على نطاق كبير مثل هذا الذى حدث فى جنوب الجزيرة العربية. ويرى المؤلف سببا ليفترض عمليه مشابهة من الجفاف - أو على الأقل تغيرا نسبيا فى الظروف المناخية أدت إلى جفاف بسيط - وقد حدث فى جنوب الجزيرة العربية فى نفس الوقت الذى اقترحه هنتنجتون للأزمة فى الشمال(٦١) " شمال

الجزيرة العربية " فقد أثر توزيع الضغط على أثيوبيا والنوبة ووسط وشمال الجزيرة على الرياح الموسمية لشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية. ويؤدى التغير فى هذا التوزيع إلى انحراف بسيط أو ضعف الرياح الموسمية على البحر العربى، ومثل هذا التغيير والذى نعتقد أنه قد أدى إلى جفاف مهم وبسيط على جنوب وغرب الجزيرة العربية ما أدى بالسكان نحو البحر.

يمكن أن نكشف أثر هذا الجفاف على هذا الإقليم فى منطقتين مختلفتين، الهضبة العليا لليمن من جهة، والمنطقة الساحلية فى الجنوب مع وادى منخفض حضرموت من جهة أخرى.

ويمكن أن نقسم الهضبة إلى ثلاثة مستويات:-

١- ما يسمى الجوف (الداخلى)، الذى يقع فى الشمال الشرقى فى ظل المطر لمرتفعات صنعاء وفى مستوى أقل من ١٢٠٠ متر (فوق سطح البحر) ويقع هذا الآن فى منطقة شبه صحراوية.

٢- الجوف الجنوبى أو مستوى مأرب على ارتفاع ١٢٠٠ - ٢٠٠٠ متر وتسقط عليه كمية أكبر من المطر.

٣- الأرض المرتفعة من صنعاء (وبقية الجبال المرتفعة) فوق ٢٠٠٠ متر (صنعاء نفسها حوالى ٢٣٠٠ متر) ويتمتع بظروف مناخية معتدلة وسقوط أمطار أكثر غزارة .

وتوضح الوثائق الأركيولوجية من جنوب غرب الجزيرة خصوصا النقوش ثلاثة مستويات متميزة من الحضارة، وربما ترتبط هذه بواحدة من تلك المستويات السالف ذكرها ويطلق عليها المعينية Minaen، والحميرية السبئية، والأثيوبية(٦٢) ومن الصعب أن نعطى أية تواريخ محددة لكل من هذه المراحل وخصوصا المرحلتين الأولى والثانية واللتان تتداخلان معا.

ولكن على العموم فإن النقش المينى المبكر ربما يعود تاريخه إلى حوالى ٨٠٠ ق.م إن لم يكن فى فترة مبكرة قليلا. وكان المركز الرئيسى للسلطة فى ذلك الوقت موجودا

فى كرناواه Qarnawah فى شمالى الجوف. وفى نهاية القرن الثامن ق.م عندما تجددت ظروف جيدة لسقوط المطر فى شمال الجزيرة العربية استطاعت القوات الأشورية اختراق طريق الحجاز وغزو بلاد المعنيين Minnaean[٦٣] وربما طرد الغزاة أمامهم قبائل (السبئيين) التى كانت فى ذلك الوقت تتجول فى تلك المنطقة شمال اليمن، وأخذت هذه الأخيرة طريقها جنوبا حتى استقروا على سهول مأرب، جنوب أراضى المينائيين وظلوا على علاقات طيبة مع جيرانهم (وأقاربهم) المينائيين حتى الأزمة المناخية التى حدثت خلال النصف الثانى من القرن السابع الميلادى[٦٤] وما صاحبها من مرحلة من الاضطرابات فى جوف اليمن، وأثناء هذه الأزمة يبدو أن السبئيين كانوا فى وضع أفضل لأنهم احتلوا الأرض الشمالية والعليا الأغزر مطرا. وسجلت إحدى النقوش الصراع بين القبيلتين والتى تحكى بأن الملوك القساوسة فى سبأ قد هزموا المعنيين نهائيا ليس قبل ٥٥٠ق.م[٦٥] وكانت نتيجة هذا الغزو أن تركزت السلطة النهائية فى الجزء الأوسط حول مدينة مأرب[٦٦].

وبعد ذلك وفى حوالى عام ١١٥ ق. م ظهرت قوة أخرى فى جنوب الجزيرة العربية، وعرفت بالحميريين الذين تقلدوا السلطة فى مكان سبأ نتيجة للاضطرابات السياسية بين القبائل. ومن الممتع أن نلحظ فى هذه الحالة الخاصة للحميريين أن توليهم السلطة لم يصحبه أى انتقال للسلطة إلى مستوى أكثر ارتفاعا (على الهضبة). وظلت مأرب تقوم بدور العاصمة للحميريين، حتى ٥٢٢ - ٥٢٥م، حين نقل الغزاة الأثيوبيون العاصمة إلى صنعاء[٦٧] (أى فى مستوى أعلى).

ويتفق هذا الانتقال مع التاريخ المقترح للجفاف الأخير فى شمال الجزيرة العربية، وعلى هذا نلخص بأمان دون استغلال الحقائق لكى نتفق مع نظرية خاصة، أنه مع القدوم التدريجى للأزمات المناخية فى نهاية العصر الكلاسيكى، وجد شعب اليمن ملاذا فى التسلق إلى المستويات العليا فى هذه الهضاب[٦٨].

وقد اختلف تأثير الجفاف على الساحل الجنوبى لوادى حضرموت إلى حد ما، وتم العثور على دلائل أركيولوجية قليلة فى هذه المنطقة، ويبدو أنه من الصعب تتبع آثار

فترات الجفاف المتتابعة والتى جاءت أساسا من أوصاف المؤلفين اليونان الذين إما زاروا أو سمعوا عنها قبل الجفاف الأخير، وحسب رأى هؤلاء المؤلفين فإن حضر موت أرض التوابل والبخور بامتياز(٦٩).

ويذكر سترابو (٢٠م) عن السلع التى تنتجها من بين هذه المنتجات المر واللبان، كما يزرع على ساحل البحر القرفة والنباتات العطرية على الرغم من أن رائحتها تزول بسرعة. كما أن إدخال هذه التوابل شبه الاستوائية مثل القرفة بين هذه المنتجات فى حضرموت له أهمية خاصة لأنها تدل على ظروف مناخية مختلفة وفى الوقت الحاضر فإن أهم المنتجات الرئيسية للوادى هى النخيل والشعير والذرة والسمسم وبعض محاصيل الإقليم المعتدل الدفىء(٧٠) وعلاوة على ذلك يصف الكتاب الإغريق وادى حضرموت بأنه غير صحى جدا، والصورة التى يرسمونها لهذا الوادى لا تختلف عن ما نراه فى أودية الغابات وهم بذلك يثيرون أسطورة قديمة ظهرت فى اسم المنطقة نفسها (٧١) وحسب قصة أحد الرحالة الأوائل كان جو الوادى معبأ برائحة قوية من البخور الذى ينشر الموت.(٧٢)

ويحكى ديودورس الصقلى (٢، ٤٨ - ٤٩) أن الأرض ترسل رائحة طيبة عند حفرها(٧٣) ويقدم سترابو (١٦، ٤، ١٩) شكلا آخر للأسطورة حيث يقول " توجد أفاع طويلة وحمراء اللون تقفز إلى أعلى الفخذ ولدغتها لا شفاء لها، لكن لا تزال هناك صورة قدمها مؤلف أعمدة البحر الإرتيرى (٨٠ م) كان عبيد الملك الذكور الذين كان عليهم أحكام كنوع من العقاب يجمعون البخور.

إن المنطقة غير صحية فى أطرافها وخطيرة حتى على الذين يبحرون على طول الساحل، وقاتلة للبؤساء الذين يعملون فى جمع اللبان الذين يموتون بسبب الإهمال والفاقة فضلا عن تأثير المناخ السيئ، كما أن المنطقة الداخلية جبلية، وصعبة الاجتياز، والجو ضبابى، ومحمل بالبخار الناتج عن الأشجار التى تحمل البخور(٧٤) (كما هو مفترض). وتستنتج من هذه الأوصاف أن باطن الوادى والسهول الساحلية لن تسهل عملية الاستقرار والاستيطان، ربما بسبب الملاريا، والأمراض الأخرى الناجمة عن

المياه الراكدة، ويؤكد هذا حقيقة أن أهم الآثار جاءت من المستويات الغربية الوسطى والعليا للوادى وتقع فى هذا الإقليم العاصمة القديمة شبوه (Shabwah) فى الهضبة الجافة بين اليمن وحضرموت، على عكس المدن الحديثة كشبيام وسايون وتاريم التى تقع فى الأجزاء الوسطى والدنيا من الوادى حيث تجعل المياه الجوفية بإمكان رى الحدائق. ولا شك أن الجفاف الأخير (الذى بدأ فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد وبلغ ذروته فى بداية القرن السادس م)، قلل المياه السطحية فى الأجزاء الوسطى والدنيا للوادى،

ومن ثم أدى إلى تحسين الأحوال الصحية وفى نفس الوقت كان له أثر مدمر على إنتاج البخور، وحدث هذا فى وقت كان طلب هذه السلعة يتزايد بانتظام فى الإمبراطورية الرومانية بسبب انتشار الديانة المسيحية وخصوصا بعد الاعتراف بها فى القرن الرابع م. باعتبارها الدين الرسمى للإمبراطورية.

كما أصبحت الحاجة ملحة للبخور خصوصا فى الكنائس السورية والنسطورية التى كانت أكثر ارتباطا بالنشاط الكنسى على حواف الصحراء الجافة من شمال الجزيرة العربية[٧٥] وكان لفشل إنتاج حضرموت والساحل الجنوبى للجزيرة العربية[٧٦] وسوقطرة وأثيوبيا للبخور لإشباع المطالب المتزايدة للشمال، أثره فى إغراء العرب على التوسع بحرا، والبحث عن كميات إضافية من البخور والبهارات التى تنتج فى أقطار أخرى حول البحر العربى[٧٧] فقد كان على العرب البحث مبكرا منذ القرن الأول الميلادى عن كميات إضافية من البخور الهندى والأخشاب العطرية لكى يشبعوا الطلب المتزايد للأثرياء الرومان الذين يستخدمون هذه السلع فى الطعام ولحرق أمواتهم، لكن الاستيراد من الهند ظل على نطاق ضيق حتى فترة الجفاف التى أدت إلى تغيير المنطقة الرئيسية للإنتاج من جنوب الجزيرة العربية نحو الهند والهند الشرقية. وظل الاستيراد من الهند على نطاق ضيق حتى فترة الجفاف التى أدت إلى تحول المنطقة الرئيسية للإنتاج من جنوب الجزيرة العربية إلى أجزاء من شرق أفريقيا، وخاصة نحو الهند وجزر الهند الشرقية.

لا يبدو أن التحول أو الضعف المقترح للرياح الموسمية فى البحر العربى (نتيجة تغير توزيع الضغط على الجزيرة العربية، قد أثر على ساحل أثيوبيا والصومال بنفس الدرجة التى أثر فيها على الساحل المقابل لجنوب غرب الجزيرة العربية. وبالإضافة إلى كمية أكبر من الأمطار الصيفية التى تسقط على الساحل الأفريقى، فإنها أيضا تتلقى كمية أقل ولكن مهمة ممثلة فى سقوط أمطار الشتاء التى تحملها الرياح من الشمال والشمال الشرقى والتى تهب من مركز الضغط المرتفع فوق الجزيرة العربية وتعبر البحر الأحمر وخليج عدن. وهكذا قدم هذا الساحل الأفريقى أرض لجوء للقبائل المهاجرة من ساحل الجزيرة العربية والذى كانت تجتاحه أحيانا عواصف رملية تهب من الداخل. لقد تأسست مملكة أكسوم على الساحل الأفريقى بدرجة كبيرة من عناصر عربية رغم أنها استقطبت أيضا عددا لا بأس به من التجار الإغريق ذوى النفوذ من مصر وسوريا[٧٨] وأصبح ملوكهم حقا سادة الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر وخليج عدن بين القرنين الرابع والسابع م. ونجحوا فى ٥٢٢–٥٢٥م. فى هزيمة اليمن [٧٩]، وهكذا يمكن أخذ التغير المناخى فى الاعتبار ضمن عوامل أخرى لانتقال مركز القوة من الجزيرة العربية إلى الساحل الأفريقى.

خلاصة: المناطق الأساسية المكونة للمشرق العربى

يقدم العرض السابق لمختلف المناطق المكونة للمشرق العربى (خصوصا أطرافها) بعض الحقائق الأساسية التى تلقى الضوء على المراحل المبكرة للتبادل التجارى والثقافى بينها وبين آسيا الشرقية .

فالمشرق العربى والذى قدم بعض الأشكال الأولى للأنماط الحديثة للحضارة، احتفظ بثقافة متنوعة وثرية على طوال تاريخه. وتلقت أجزاؤه الشمالية عناصر ثقافية من الصحراء، والهضبة، والبحر المتوسط، والتى فرضت نفسها على العناصر المحلية لمصر والهلال الخصيب. وتوضح المنطقة الجنوبية فى الركن الجنوبى الغربى والساحل المقابل من أفريقيا كثيرا من مظاهر التميز الثقافى، ولكن فى نفس الوقت تشكل جزءا

لا يتجزأ من العالم العربى (أو المستعرب) - وأخيرا فإن المنطقة الصغرى حول الخليج العربى وخليج عمان والتى لها حياة بحرية خاصة بها، كانت دائما مرتبطة عبر تاريخها وتقاليدها مع منطقة أوسع من الشرق العربى(٨٠).

وفى الحق كانت بداية التناسق الثقافى لمختلف أقاليم هذه المساحة المتسعة قبل ظهور الإسلام، وإن كان الإسلام فى النهاية يمثل مظهره الرئيسى، ويمكن تتبع العلاقات التجارية للإقليم مع مختلف أنحاء العالم إلى مطلع العصور التاريخية. وكان نشاط وتوسع سكان المشرق العربى فى بعض الأحيان كافيا لجعل جانبى العالم المتحضر يتصلان بعضهما ببعض، ومن ناحية أخرى كان إقامة علاقات عالمية يرجع إلى المحاولات التى قامت بها شعوب الشرق الأقصى والمشرق ليتصل كل منهما بالآخر عبر وسط آسيا والشرق الأدنى، وفى كلا الحالتين لعبت العوامل الجغرافية، والسياسية، والاجتماعية فى المشرق العربى دورا كبيرا فى خلق وإبقاء هذه العلاقات .

الهوامش

(١) يستخدم مصطلح الهلال الخصيب فى هذا العمل بنفس المعنى الذى قدمه هـ. برستيد أولا، ويضم فلسطين وشرق الأردن، وسوريا ولبنان وسهول الرافدين ووسط وشمال العراق، ولمزيد من التحديد لخريطة الهلال الخصيب انظر

H. Peake and H. J. Fleure: Peasants and Potters, The Corridor of Time, London 1927.

(٢) Huntington: Palestine and its Transformation, Cambridge1911. pp385-88

وفى الفصل الرابع عشر من صفحة ٣٧٣ وفى ٤٠٤ يقدم هنتنجتون أول علاقة موسعة للتوسعات القبلية من الجزيرة العربية، ويرى بأن هناك تغيرات مناخية فى العصور التاريخية، إننا نهتم أساسا فى الوقت الحاضر بالجفاف الأخير الذى وقع فى نهاية ما يسمى بفترة سقوط المطر الكلاسيكية والتى امتدت من ١٨٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ بعد الميلاد تقريبا مع ذبذبات لكنها ظهرت بشكل أفضل من ١٢٠٠ ق.م حتى ٢٠٠ بعد الميلاد انظر

C.E.P. Brook : The Evolution of Climate, London,1925,p. 144.

(٣) E. Huntington , ibid., pp. 391-393

(٤) انظر لتأسيس هذه الممالك De Lacy O,Leary : Arabia before Mahammad, London, pp. 154. 1927 وما بعدها

(٥) يمكن أن نستخلص هذا من كتابات المؤرخ العربى حمزة الأصفهانى. انظر المتن والترجمة اللاتينية .I) Gott walt 1844- 1848) ص ص ٩٠ - ٩٥ فى المتن و ٧٣ - ٧٤ فى الترجمة.

(٦) على الرغم من أن هذه القبائل جاءت من الجنوب، فإنها اقتبست اللغة العربية بلهجة قريش (قبيلة الرسول "صلى الله عليه وسلم") والخط العربى من شمال الجزيرة وليس ممكنا أن نحدد صحة هذا المثال السابق، لكن يبدو أنه ظهر قبل الإسلام.

(٧) انظر أ. موسيل (Musil): شمال نجد دراسة طوبغرافية فى مجلة الدراسات الشرقية والاستكشافات العدد ٥ نشرتها الجمعية الجغرافية الأمريكية، نيويورك ١٩٢٨ ص ص ٣١٢ - ٣١٣ ويعتقد هذا المؤلف أيضا أن انهيار قوافل التجارة بين اليمن والشمال قد أدى إلى هذه الهجرات والتى حددها فى بداية القرن السابع بعد الميلاد، ولكن هذا غير محتمل نظرا لأن طريق الحجاز الذى ربط اليمن بسوريا وكان فى كامل ازدهاره مع قدوم الإسلام والذى أصبحت فيه مكة المركز التجارى العظيم لقبيلة قريش.

(٨) انظر المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر النص العربي والترجمة الفرنسية (على نفس الصفحة) د. ج. س. ب. دى مينارد، وب ديكوريل، المجلد التاسع مارس ١٨٦١ - ١٨٧٧، والرجوع إلى المجلد الأول ص ٢١٩

(٩) النص الأصلى لكيتانى باللغة اللاتينية Studi di storia orientale vol. I, Milan, 1911, Chap. 2 pp.51-288 and Chap 3, pp. 289-400 يقدم أ. موسيل ملخصا باللغة الإنجليزية ونقدا لآراء كيتانى. انظر

Northern Negd . loc . cit . append ix on The Alleged Desication of Arabia and the Islamic Movement : pp . 304 - 314 ,

(١٠) على الرغم من أن إزالة الغابات يمكن أن تؤدى إلى جفاف طفيف.

(١١) A.Musil : Northern Negd, Loc cit, p. 318

(١٢) L.W. B. Rees,: The Transjordan Desert Antiquity, Vol. III,1929,pp. 398-399

(١٣) E. Huntington, Palestine and its Trans formation loc. Cit, chap (xvi) pp. 382 et seq

ومن أجل ملخص تاريخي لهذه الحركات السابقة انظر :

J. L. Myers, The daun of History, Home Uniw Library, 1924, chap. Y, pp. 104-119.

(١٤) للدراسة الإقليمية لشمال الجزيرة العربية انظر -- R. Blanchard. Asia Occidentale in the series of Geographic Universelle, t.VIII-I. partie, Paris 1929, pp. 186-232

(١٥) لتقدير كمية المادة الصلبة التى تحملها مختلف الأنهار فى العراق وعربستان، قارن بلا نشار (مرجع سابق) ص ص ٢٢٢ - ٢٢٥ مع

A.T. Wilson: The Persian Gulf, 1928 pp. 4-5 and D.G. Hogarte, The Nearer East, London 1903, pp. 58-59

(١٦) D.G. Hogarte: The Nearer East, loc. Cit, p. 58.

(١٧) يقدر عرض الشط فى أكبر المناطق الواسعة ٧٠ - ٨٠ ميلا من البحر إلى المستنقعات الداخلية .

١٨- للحصول على خريطة توضح الظروف الطبيعية على طول مناطق الحدود بين الصحراء وسهول دلتا دجلة والفرات انظر R. Blanchard: Asia Occidentale Loc. Cit. fig. 22,p. 217

(١٩) لمعرفة الحد الشمالي لأشجار النخيل المستمرة انظر R. Blanchard: Asia Occidentale, Loc. Cit, p. 223 and the map facing p.8

(٢٠) لمعرفة هذا الطريق والأنشطة التجارية على طوله انظر W. M. Ramsay,

The Historical Geography of Asia Minor, London 1890, pp. 27-35.

(٢١) لدراسة أكثر عن مدن الهلال الخصيب ومكانتها الجغرافية انظر

S.A. Huzayyin, Les villes Septentrionales etc. op. cit.

(٢٢) R. Blanchard: Asia Occidentale Loc. Cit p. 178

(٢٣) تسمح المعاهدتان فى أنجورا بين الأتراك وفرنسا عام ١٩٢١ وتركيا وبريطانيا العظمى عام ١٩٢٦ بهذه التحركات عبر الحدود الحديثة.

(٢٤) لتفاصيل عن هذا الحد للهلال الخصيب انظر R. Blanchard: Asia Occidentale Loc. Cit pp. 216-218 and D.G: Hogarte: The Nearer East, Loc. Cit. pp. 162 - 163

(٢٥) See W.M. Ramsay: The Historical Geography of Asia Minor, Loc cit- p. 23 also his Asiastic Elements in Greek Civilization, London 1927, p. 283.

(٢٦) ومع هذا فإن تأثير ينابيع الغاز على المراحل الأولى لعبادة النار فى فارس ما زالت محل نقاش.

(٢٧) G.G. Hill: The ancient Coinage of Southern Arabia : in the Proceeding of the Brit-ish Academy 1915 - 1916 (read May 1915) pp.82-83.

(٢٨) لتلخيص هذه التشابهات انظر L.H. D. Buxton: Encylopaedia Brianica, 14 th ed. 1929 Vol. V article on china (Archaeology) pp. 525 - 528.

(٢٩) C. Bishop: The Geographical Factors of Chinese Civilization, Am . Geographical Review, vol. XII January 1922, p. 37.

(٣٠) إن قصور تشاندراجوتا فى باتاليبوا (باليثورا كانت على نفس الطرز الموجودة فى سوسا واجباتانا بينما يعتقد هافيل أن هذه كانت استيرادا محليا والتى لم تتأثر بالفن الهندى الأصيل انظر The Ancient and Midaeval Architecture of India. A Study of Indo-Aryan civilization London 1915, pp. 1-4.

(٣١) Arthur , Leoyd,s, The Creed of Half Japan, Historical Sketch of Japenese Bud-hism, London, 1911, pp. 193-195.

(٣٢) Aurel Stein: Innermost Asia, Loc. Cit, (1928) Vol. I. p, 244 and Vol. II. P. 675 Also his serindia: Detailed Report of Exploration in C. Asia and W-China Ox. Ford, 1921, pp. 907 et seq.

(٣٣) المسعودى: مروج الذهب، المجلد الثانى ص ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٣٤) O.M. Dalton , Ibid p. 591 and p 605

(٣٥) A. Stein: Innermost Asia , Loc, Cit , vol. I. p. 244 -245.

(٣٦) The Cambridge Ancient History , Vol. I.p.431 .

(٣٧) إن هذه النقطة مثار جدال انظر A.T. Wilson: The Persian Gulf, loc. Cit. pp. 29-33

(٣٨) يمكن الرجوع إلى A. T. Wilson : Ibid, pp, 29 at seq

(٣٩) See A. T. Wilson, ibid. pp. 33-34.

(٤٠) تسمى هذه المملكة (مملكة ميسينا وكارسين).

(٤١) كان ذلك عام ٢٢٥ بعد الميلاد أن يسمع الشخص عن أول أسطول فارسى – انظر
J.T. Reinud : Memoirs sur le conmencent et la fin du royaume de la Mesene et de la Kharacene, paris 1861, p. 74. 41-

(٤٢) انظر هذا الاكتشاف فى
E. H. Warmington ,: The Commerce between the Roman Empire and India , Combridge, 1928, pp. 43-47 Also infra our Chapter III

(٤٣) عن هذه البعثة انظر
F. Hirth: China and the Romen Orient, Shanghai 1885, pp. 173 - 178.

(٤٤) E. H. Warmington . The Commerce between Roman Empire and India, 1885. pp. 157 - 158

(٤٥) مع ذلك يجب أن نلاحظ أن الاختراق الداخلى للثقافة الجديدة كان كبيراً وعلى العموم كلما اتجهنا جنوبا كلما أصبحت المنطقة التى تأثرت بالحضارة العربية أضيق وهذا لا يبطل الحقيقة أن بعض التجار العرب والفرس على الساحل ربما تبادلوا السلع مع ممالك الداخل، وتجدر الإشارة إلى البورسلين الصينى والودع الهندى الفينيسى والزجاج العربى التى نقلها هؤلاء التجار إلى موقع زمبابوى فى جنوب روديسيا انظر
G. Caton - Thompson, Zimbabwe , in Antiquity , December 1929, pp 431 - 432.

(٤٦) إن هذا الرأى لمدرسة التغيرات المناخية التى تبناها هنتجتون انظر فى هذا الصدد إلى C.E.P. Brooks : The Evolution of Climate loc Cit. p. 141.

(٤٧) See D.G. Hogarte : the Nearer East loc. Cit, p. 280.

(٤٨) De Lacy O,Leary : Arabia before Mohammed . Loc. Cit. p. 125.

(٤٩) Reference in . Hill : The Ancient coinage of Southern Arabia , Loc. Cit. p. 83.

(٥٠) G. H. Hill, ibid.,p. 82.

(٥١) G. H. Hill, ibid., pp. 82 - 83

(٥٢) See A Foucher, The Beginnings of Budhist Art (Transleted by L,A and F.W. Thomas , 1917), p. 125

(٥٣) A. Foucher, Loc. Cit., chapter 17. pp. 111-137 - pp 125 and 135.

(٥٤) E. B. Havell, The Ancient and Mediaevol Architecture of India, loc,

(٥٥) F. E. Visser (ibid. p. 99) to R. Reteruccit, L. Art bouddhique en extreme aient in Gaz. Des Beaux Arts, 1911 pp. 193 et seq.

(٥٦) كان هذا صادقا خصوصا فى حالة التغيرات التى حلت بالفن الزخرفى للصين بعد إدخال البوذية والتى جاءت من الغرب أكثر من الهند انظر
F. H. Andrews in the Introduction to the Influence of Indian Art, Loc. Cit. P. 27.

(٥٧) أحد أعمال عمرو بن العاص الغازى وأول نائب للخليفة فى مصر هو إعادة فتح قناة أمير المؤمنين التى تربط النيل مع خليج السويس عن طريق وادى الطليمات والبحيرات المرة والذى سهل انسياب المنتجات المصرية نحو الحجاز والمدن المقدسة بدلا من المدن الرومانية والبيزنطية، واستمر هذا حتى القرن السابع بعد الميلاد عندما أمر المنصور خليفة بغداد بتدمير القناة لمنع قمح مصر من الوصول إلى خصمه السياسى فى المدينة .

(٥٨) إن الرخص النسبى للنقل البحرى يمكن أن يكون أقل قيمة بالنسبة لنوع التجارة التى تنتقل فى هذا الوقت، وعلاوة على ذلك كانت مزايا الطرق البحرية قد قلت بسبب المخاطر الملاحية فى بعض أجزاء البحر الأحمر وبحار آسيا الشرقية .

(٥٩) أثناء بعض الفترات المقترحة لجفاف تظهر أسماء الملوك الساميين سواء فى مصر أو فى بابليون وتدل على وجود غزو من الصحراء انظر

E. Huntington, : Palestine and its Transformation, Loc. Cit. pp. 382 - 383.

(٦٠) خصوصا خلال الفترات التى تفتح فيها قناة النيل السويس

(٦١) انظر لمزيد من الدراسة عن هذه النقطة. s. a. Huzaygin , Changement historique du climat et du payage de liSud in Bull of the Faculty of Arts , vole III, part- I, Cairo , 1935, pp, 19-23.

وكــــذلك فى Comptes Rendus du Congres International de Geographie, Varsovil 1934, tiv Varsovie 1938, pp. 39-43

(٦٢) يمكن أن نجد نتائج هذه الآثار فى الفصل الذى كتبه ق. هوميل فى: Exploration in Arabia (with map) published in H. V. Hilperecht, Explorations in Bible Lands during the xix th century Edinburgh 1903. reference on pp. 717 - 741.

(٦٣) E. Huntington, Loc ., Cit., p. 400

(٦٤) انظر Huntington , Loc. Cit , pp 401-402.

(٦٥) Hommmel,s Explorations,----Loc. Cit., p, 730

(٦٦) إن سيادة مأرب على جنوب غرب الجزيرة العربية قد بدأت بالفعل مع الجفاف المحتمل فى عام ٦٥٠ – ٦٠٠ ق.م ومع ذلك لم يختص المعنيون المهزومون حيث نسمع عنهم حتى أوائل القرن الأول بعد الميلاد، فى استرابو، ١٦، ٤٥ ويبدو أنهم ظلوا موجودين خاصة فى أجزاء من حضر موت

(٦٧) يعزى انهيار مأرب جزئيا حسب التقاليد إلى انهيار السد المشهور ما بين ٤٤٠ و ٤٥٠ بعد الميلاد وهذا تفسير صحيح إلى حد ما لقرب المدينة رغم أنه قيل بأن الأثيوبيين قد أصلحوا السد، وربما يعزى انهيار المنطقة ككل إلى تغير مناخى أثر على الثروة التى سادت جنوب غرب الجزيرة والتى أطلق عليها الجزيرة فيلكس (اليمن أو الجزيرة العربية السعيدة فى كتابات الرومان).

(٦٨) انظر فى هذه النقطة S. A. Huzayyin Egyptian University Scientific Expedition , to S. W. Arabia : Nature . Sept. 1937 p. 513.

(٦٩) ومع ذلك فإن بعض التوابل المستوردة من الإمبراطورية الرومانية من جنوب الجزيرة هى فى الأصل من إنتاج جزيرة سوقطرة وعلى الساحل الأثيوبى وساحل الصومال بل وأيضا من الهند.

(٧٠) W. W. Lee Warner , Notes on Hadramaut, in Geographical Journal vo Lxx vll March 1931, pp. 221-222.

(٧١) حضر موت وتعنى بالعبرية "بلاط الموت" وفى اللغة العربية يعنى أصلها "الموت حاضر" وبعبارة أخرى فإن حضر موت تعنى وادى الموت ومع هذا فإن قضية الأصل الفلسفى للاسم لا زال فى حاجة إلى إثبات أو دليل.

(٧٢) يظهر هذا عند هيرودت والكتاب الآخرين التى اقتبسها

O'Leary,Arabia before Moh . Loc. Cit. pp, 98 et Seq

وهذا المؤلف الأخير لا يعتقد فى إمكانية التغير المناخى الذى صار مقترنا فى بعض الصعوبات بخصوص الحقيقة ومعنى هذه الأسطورة .

(٧٣) هل يمكن اعتبار ذلك دليلا على أن جذور البخور تنمو هناك؟

(٧٤) W. Vincent: The Commerce and navigation of the Indian Ocean, 2 vols. London 1807 Reference in vol. II pp. 336-449

يذهب البعض إلى القول بأن التجار العرب وغيرهم كانوا يبالغون فى الصعوبات التى يقابلونها فى عملية جمع البخور وذلك لرفع الأسعار التى يدفعها الرومان انظر

E. H. Brunbury, A History of Ancienr Geography London 1883, vol I, p. 219,

(٧٥) هناك سبب للتخمين بأن هذا الجفاف فى الصحراء السورية له بعض الآثار غير المباشرة على تطور النشاط الكنسى فى هذه الكنائس والأديرة التى حول الآبار والواحات المنعزلة كوسيلة مفيدة لنشر المسيحية بين القبائل المضطربة ولا يحتاج هذا الربط بين الحياة الديرية فى الواحات فى مصر وشمال الجزيرة تأكيد .

(٧٦) على ساحل ظفار توجد آثار زراعة المدرجات Encyclopedia of Islam article on Arabia vol. I. p. 369. ولا يزرع هناك سوى الأنواع الرديئة من اللبان الآن وهى التى تتحمل الجفاف.

(٧٧) يجب أن نشير إلى أنه إلى جانب الهجرات التى حدثت بسبب الجفاف، كانت هناك تحركات فى العصور الوسطى، كالتى حدثت فى القرن الخامس عشر م، والتى كانت ترجعه أساسا إلى نمو التجارة البحرية بين شرقى وغربى آسيا خلال الفترة المبكرة من حكم أسرة مينج الصينية.

(٧٨) إن الألفية فى الحبشة المسيحية وهى أقدم الأشكال التى حفظتها النقوش من القرن الرابع قد اشتقت من مجموعة من الحروف القديمة لجنوب غرب الجزيرة العربية، وكان هذا التنوع مستخدما فى بعض أجزاء من جنوب الجزيرة حيث لا تزال اللهجة الحديثة للأمهرا تستخدم فى الحديث، انظر

F. Hommel, Explorations in Arabia, loc. Cit. p. 370.

(٧٩) إنها العلاقات السياسية والاجتماعية والجنسية بين شعوب جانبى البحر الأحمر وخليج عدن التى تبرر إدخال المنطقتين داخل نفس المنطقة الثقافية لشرق الجزيرة العربية.

(٨٠) فى الدراسة الحالية لا نعالج الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية (إلا بشكل استثنائى) ويرجع هذا إلى أننا نهدف أساسا لدراسة العلاقات المكانية بين شبه الجزيرة العربية والأراضى المجاورة، إنها أيضا الأراضى الهامشية للشرق العربى والتى لعبت جزءا متفوقا فى التبادل التجارى والثقافى بين الشرق والغرب، وعلى الرغم من أن الإسلام قد نشأ فى الحجاز (الذى صار منذ ذلك الأرض المقدسة للعالم الإسلامى) فإن شعوب هوامش الشرق العربى قد نشرت ثقافتها وحملتها إلى الأقطار البعيدة فى آسيا وأفريقيا، ولم تلعب هضبة نجد أكثر من دور محدود فى اتصال الجزيرة العربية مع العالم .

الفصل الثانى

الشرق الأقصى

التعريف، العلاقات المكانية، التوجيه التجارى - المركب الثقافى

مقدمة : النطاق الثقافى الصينى ، حدوده الجنوبية

لقد ميزنا بالفعل فى شرقى آسيا بين منطقتين ثقافيتين تحت اسم ماليزيا الهندية(*)، والشرق الأقصى الأصلى (نعنى فى المقدمة) ويمثل الأول منطقة انتقال بين الثقافتين الهندية والصينية، رغم أنها فى نفس الوقت تبين ملامح كثيرة متميزة خاصة بها، ومع ذلك فإنه من الضرورى أن نتعامل فى البداية مع تلك المنطقة الثقافية الصينية من أجل فهم التعقيدات الثقافية بها وذلك على أمل تحديد العوامل التى أدت إلى توسع الصينيين والظروف التى أدت إلى نشر عناصر معينة من ثقافتهم فى العالم الخارجى، وبالإضافة إلى أن الصين ذاتها التى تشكل النواة الثقافية لهذه المنطقة، فإن هناك مساحة من الأرض تحيط بها من كل الجهات كانت بدرجة أو أخرى تحت تأثير الثقافة الصينية، ويلاحظ أن هذا النطاق الهمشى يظهر بصورة أوضح فى الشمال الغربى، والشمال، والشمال الشرقى للصين أكثر منها فى جنوبها . ومن الصعب أن نتبين الحدود الجنوبية لاختراق المؤثرات الثقافية الصينية أو امتدادها جنوبا وذلك لأسباب سنناقشها، ففى أقصى جنوب وجنوب غرب الصين كان امتصاص القبائل للثقافة الصينية لم يكتمل بعد. (يتكلم عن ثلاثينات القرن الماضى، المترجم) ولا يبدو أن

(*) يقصد ما عرف باسم الهند الصينية وهى التى تشمل ميانمار (بورما سابقا) وكمبوديا، وتايلاند، وفيتنام، فضلا عن الملايو (المترجم)

ذلك يتحقق فى المستقبل القريب[١] واقتصر الاحتلال (الاستعمار) بدرجة كبيرة على المنحدرات المفتوحة والخصبة حيث يمكن فيها زراعة الأرز، وفى كثير من المناطق التى يسكنها الأهالى المعادون للصينية كان الصينيون يأتون كتجار زائرين خصوصا أثناء فصل الشتاء. وبالإضافة إلى القيمة التجارية لهذه المنطقة كممر للتجارة مع الهند والمحيط الهندى، حاول الصينيون فى كثير من الأحوال تدعيم سلطاتهم على هذه الحدود البعيدة، أساسا لأغراض استراتيجية أكثر منها اقتصادية. وسوف نرى فى (الفصل الأخير) أن معظم رواد الاستعمار وخصوصا المستقرين المسلمين الأوائل لم يكونوا من أصل صينى، ووصلوا إلى المنطقة فى تاريخ متأخر نسبيا.

أما حركة الصينيين نحو الجنوب (وثقافتهم) داخل مناطق كوى شو، ويان نان وأجزاء أخرى من جنوب الصين فقد تأثرت بشكل واضح بالمنحدرات الشرقية والجنوبية التى كان توجيهها نحو وديان سى كيانج وسونج كوى وميكنج العليا، وقد شارك هذا فى تقوية الضغوط من جانب الصينيين على السواحل الجنوبية الشرقية وقبائل أنام والتى ساقت بدورها أمامها ما عرف بقبائل الشامس Chams مع شعوب أخرى شبه هندوسية والتى بدورها سيطرت أساسا على شمال الهند الصينية.

هضبة التبت بين الصين والهند

عرقلت السفوح الشديدة الانحدار لجبهة التبت التوسع الصينى على الرغم من أن هذه الهضبة كانت أول منطقة غمرت بسكان من شمال الصين[٢].

لم يكن هناك توغل واسع للثقافة الصينية أو طريقة للحياة من حوض سز تشوان والولايات الشمالية الغربية إلى أراضى الاستبس المرتفعة من هذه الهضبة والتى كان جذبها ضئيلا للمغامرين الصينيين. وكان انسياب الحضارة الصينية على طول المجارى العليا لأنهار هوانج هو ويانج تسى وروافدهما فى التبت وفيما وراءها حتى الهند كانت من وجوه متعددة أقل أهمية من اندفاع الثقافة من الاتجاه العكسى (الهند)

والتى جلبت فى النهاية عناصر من التبت والحضارة الهندية إلى أقاليم الحضارة الصينية، وقامت الطرق التجارية عبر الهضبة كممرات لنقل الأفكار الدينية والفنية من الجنوب. وقد تطورت أكثر أشكال البوذية(*) تخصصا وهى اللاما Lamism وحملها رجال الدين إلى أبعد من منغوليا الخارجية. وقد قوى دخولها فى شمالى الصين ديانة المهايانا (بوذية قديمة) والتى سبق أن دخلت من شمال غرب الهند عن طريق كوتان (Khutan) أو طريق جنوب تاريم. وقد دلت الآثار الأركيولوجية فيما يسمى بكهوف الألف بوذا فى لتون هوانج فى أقصى غرب كانوش تشابها فنيا مثيرا مع الفن البوذى فى نيبال(٣) واستفادت التبت كثيرا من موقعها المتوسط ما بين المنطقتين الثقافيتين فى آسيا الموسمية – الهند والصين.

ومن بين الاستعارات الواسعة التى أخذتها من عالم الهند نظام السنسكريتية للكتابة وهو ظاهرة واضحة، والتى ساعدت مع عناصر محلية من ثقافة التبت مثل اللهجات المتنوعة للتبت / بورما على إعطاء صورتها الثقافية الحالية التى تميزها عن بقية منطقة الثقافة الصينية بما نلحظ حقيقة أن البوذية قد أدخلت أصلا فى التبت عن طريق الصين(٤) وليس عن طريق مباشر من الهند وأنها ضمت الكثير من العقائد المحلية، والعادات، ومبادئ لمعتقدات صينية قديمة حتى ظهرت أخيرا فى شكل ما عرف

(*) صاحب هذا المذهب هو بوذا (المستنير) واسمه الأصلى جوتاما الذى عاش فى شمالى الهند فى القرن السادس ق.م. من أصل نبيل وعريق، وبذلك لا يكون أسم بوذا اسما شخصيا، إذ يسجل التراث البوذى أسماء مالا يقل عن ٢٤ بوذيا سبقوا جوتاما، وإن ارتبط هذا المذهب به والمبدأ الذى تميزت به البوذية هو "الطريق الوسط" أى الطريق الذى يقع بين حياة الحس والمتعة المسرفة، وبين حياة الزهد والتقشف المتطرفة، وهناك الوجود الفانى ملئ بالضيق أو السخط والنقص والداء والشر، والعطش دائما للاستهلاك، والطريق الذى أراده بوذا لأتباعه أن يسلكوه بإتباع الأخلاق، وتستخدم صيغة فى العبادات اليومية يمكن ترجمتها على وجه التقريب " أتعهد بالإحجام عن إلحاق أى أذى بالكائنات الحية، وأن لا آخذ شيئا لا يعطى لى، وأمتنع عن الممارسات الجنسية اللاأخلاقية، وعن الكذب، وتناول الخمر، والمخدرات التى تذهب العقل، والتأمل، فالسلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق. والحكمة تتمثل فى أن الحياة فانية (وإن الكل زائل) .

هذا وانتشرت البوذية وخرجت من الهند إلى الملايو والتبت وأندونيسيا والصين وتايلاند وميانمار وغيرها فى آسيا الشرقية .(المترجم)

باللامية فى حوالى وسط القرن الثامن الميلادى(٥) والتى ميزت هذه التشكيلة من الدين، وفصلتها عن الشكل الأصلى للبوذية الهندية، والنتيجة النهائية هى أن صارت التبت أكثر إرتباطا بالمعتقدات الروحية للصين الآسيوية.

وقد تبنى خانات المغول اللامية (باعتبارها الديانة شبه الرسمية لإمبراطوريتهم) من أديرة التبت، ومع إنهيار الهند الشمالية الغربية كموطن أصلى للفقه البوذى، صارت الأديرة فى التبت المراكز المعترف بها للفكر الروحى الثقافى فى وسط آسيا، وكان هذا بداية تدشين حقبة جديدة من التبادل الثقافى المنتظم مع الصين والتى إنتشرت ثقافتها تدريجيا فى التبت .

حوض تاريم، العلاقات المكانية مع الصين

موقع وسط بين الصين والهند وغربى آسيا

يعد حوض تاريم منطقة أخرى كانت على علاقة وثيقة مع الصين منذ فجر التاريخ أو حتى قبيل العصور التاريخية. ولعبت الواحات الخصبة والمروية بمياه الواحات دورا مهما فى العلاقات التاريخية بين الجانبين الشرقى والغربى للقارة، حيث مثلت هذه مواضع مناسبة لقيام مستعمرات للتجار والجنود والمزارعين الصينيين زرعت على طول طرق التجارة العالمية التى تحيط بالحوض من الجانبين. وعلى الرغم من أن المستقرين فى الواحات عند حضيض التين طاغ وكوين لن، وتيانشان قد احتفظوا بعلاقات وثيقة مع بدو التبت مثل كاشجاريا ودزونجاريا، فإن حوض تاريم ككل لم يكن أبدا مسرحا للبداوة على نطاق واسع، حيث حددت الأمطار القليلة نسبيا، وقلة الرطوبة الجوية أراضى الرعى فى الممرات الضيقة على جوانب المجارى المائية. ولم تقدم هذه البيئة خلال العصور التاريخية إمكانية وجود بدو من أى نوع، بل مجتمعات قليلة الأهمية مثل الدولانز Dolans الحاليين على نهر يارقند أو العشائر المتناثرة لجماعات لبولايك التى تعمل بالصيد فى الأجزاء الدنيا من تاريم.(٦)

وهذه نقطة ذات اهتمام جغرافى متميز لأنها تفسر السبب فى أن قبائل أراضى الاستبس فى هوينج نو، والأتراك، واليوجور، والمغول وغيرهم الذين احتلوا بشكل متتابع شمال وشرق وشمال سفوح تيان شان خلال آخر ألفى عام كانت دائما مستعدة للإغارة أو يتقاضون جزية من الواحات والتى تميز طريق التجارة الشمالى لحوض تاريم (إلى جنوب من تيان شان)، لكن من الواضح أنهم لا يستقرون فى هذه الواحات بشكل دائم، ومن جهة أخرى فقد كان المستعمرون الصينيون فى هذه الواحات يعتبرون أنهم فى بلادهم، لذلك فإن نسبة معقولة من السكان الحاليين فى حوض تاريم كانوا كلية أو جزئيا من أصل صينى فى أسلوب حياتهم، كما أعدت العوامل الجغرافية من جهة أخرى هذا الحوض ليلعب دوره التاريخى الرئيسى على أنه القناة التى دخلت من خلالها الحضارة الصينية القديمة من جهة، وشمال الهند. وإيران وشمال الجزيرة العربية بل وحتى العالم الهلينستى(*) من جهة أخرى فى اتصال طويل مع بعضها البعض، فقد كانت اتصالات منتظمة عبر هذا الحوض منذ أوائل عصر النحاس. ويبدو أن المراحل الأولى لهذه العلاقات قد تميزت أساسا بتدفق العناصر الحضارية من الغرب إلى الشرق[٧] ولكن ما إن خرجت الصين مما يسمى مرحلة التكوين، حتى ازداد انسياب حضارتها قوة نحو الغرب بشكل متزايد، وكلما تركزت السلطة السياسية فى شمال الصين فإن الاتجاه نحو الغرب (من خلال الطرق البرية) يصبح مظهرا أساسيا للسياسة الاقتصادية، وتصبح الثقافة الصينية قادرة على تأكيد وجودها فى واحات تاريم، لذلك فهناك سبب قوى لاعتبار هذا الحوض امتدادا غربيا للنطاق الثقافى الصينى. لكن قصة العلاقات الثقافية بين الصين ومنطقة تاريم تستحق دراسات أكثر لأنها تساعد على إلقاء أضواء أكثر على السؤال عن الصراع بين التيارات الثقافية من الصين وغرب آسيا عبر الأجزاء الوسطى من القارة. ولعل الامتداد الغربى لولاية كانسو على طول وادى نهر سولى هو وروافده التى تصرف مياه السفوح الشمالية لجبال نان شان يصور أصدق تصوير العلاقات المكانية بين حوض تاريم وشمال غرب الصين.

(*) الحوض الشرقى للبحر المتوسط.

وقد امتلأ هذا الممر الذى يعد كواحد من أهم البوابات من وإلى الصين بالمراكز التجارية والعسكرية المهمة مثل ليانج شو، وكان شو، وسوشو، وتنهونج وغيرها. وتم بناء سور من الحجارة فى الجزء الأخير من القرن الثانى ق.م كامتداد للسور العظيم لكى يؤمن المشروع التجارى للصين على طول هذا الطريق(٨).

وكان بدو التبت فى الجنوب وهؤلاء الذين يسكنون سهل أتسن جول فى الشمال يهددون هذا الطريق بشكل مستمر(٩)، وكان المشروع الدفاعى الضخم الذى افتتحه الإمبراطور الأول ومؤسس الصين (شى هوانج) فى أواخر القرن الثالث ق.م قد تبعه بطبيعة الحال سياسة التوسع التجارى والسياسى خاصة فى ظل حكم ووتى Wu-ti (١٤٠-٨٧ ق.م من أسرة هان السابقة). قد أرسل هذا الأخير قائده شانج شين فى حملة لاستكشاف الأرض التى هاجرت إليها القبائل المجاورة والمسالمة من جماعات يوه شى بعد أن أجبرهم هيونج نو القوى للجلاء عن سهل سوليوهو. وتبع هذه الحملة حملات أخرى مما أصبح لزاما على الإمبراطورية من اتباع سياسة التوسع قدما، وصارت هناك حاجة لحماية ممر سوليو بعد هجرة جماعات يوشى غربا، وكان لابد من تأسيس أبراج مراقبة ومستوطنات عسكرية. واستخدمت هذه المحطات كقاعدة عمليات للتقدم غربا وفتح طرق التجارة، وأصبحت سلطة الصين ملموسة فى منطقة لولان القديمة والتى تقع تقريبا المركز الهندسى لحوض تاريم قبل أن تصل فى النهاية لأجزائها الغربية وامتد أثر النفوذ الصينى حتى إقليم لولان القديم(١٠).

ومع تطور النشاط التجارى والقدرة السياسية صار لثقافة الصين فرصة لا مثيل لها لتدعيم نفسها فى هذه الواحات، وفضلا عن المهاجرين الصينيين الذين جاءوا معهم واحتفظوا بالعديد من عناصر الحضارة الصينية، يبدو أن العديد من المستوطنين الأصليين فى الواحات قد انتهجوا عادات وأنماط حياة الصينيين. واستفادوا أيضا من التكنولوجيا العالية التى أدخلها الصينيون، والتى ساهمت فى التطور الصناعى والزراعى للواحات، ولكن فتح الطرق البرية عبر وسط آسيا فى نفس الوقت قد سمح بقدر متساو اختراق العناصر الثقافية من الهند وغرب آسيا. وتبرز القطع الصوفية

والسجاد الذى أخذ من موقع لولان Lou Lan (وهى من المصنوعات المحلية) تشابها مثيرا مع تلك المأخوذة من غربى آسيا والعالم الهيلينى(١١).

كما تأثرت مجموعتان من الواحات إلى الغرب من لولان بالتيارات الحضرية من غربى وشرقى آسيا، وهما جماعة تورفان على الحواف الشمالية للحوض ومجموعة كاشجاريا كوتان فى الغرب والجنوب الغربى. وكان التحكم والسيطرة على الجماعة الأولى ضروريا للصينيين لكى يضمنوا تأمين طريق التجارة الشمالى ضد بدو دزونجاريا الذين يأتونه من طرق فرعية. وبعد أن استمرت معظم المنحدرات الجنوبية لتيان شان وواحاتها لفترة معينة أرضا للصراع بين البدو والصينيين، خضعت للسلطة الصينيــة فى القرن الأول ق.م وتم ضم تورفان نفسها عام ٦٠ ق.م(١٢).

ومنذ ذلك الحين تلقت هذه المنطقة موجات متنوعة من الحضارة الصينية التى ازدادت قوة خلال فترات تالية، والتى استمرت فيما بعد، وميزت سكانها عن سكان الواحات فى أقصى الطرف الجنوبى والجنوبى الغربى من حوض تاريم. وكانت السيطرة على منطقة تورفان فى كل الأحوال كافية لحماية الطرق التجارية، ووجد الصينيون أنفسهم مجبرين على متابعة الغزوات إلى أبعد،، على المنحدرات والسهول الشمالية لتيان شان Tien Shan والتى كان بدوها يهددون بسهولة الجنوب من خلال الممرات الكثيرة فى هذه الجبال(١٣) وعلى الرغم من أنه من فترة إلى أخرى كانت السلطة السياسية وبالتالى الأهمية الثقافية للصينيين قادرة على أن تثبت نفسها فى هذه الواحات، فقد حاول البدو النشيطون والمتحركون دوما فى الشمال بسط نفوذهم على المستوطنات المبعثرة على الحدود الشمالية لحوض تاريم. وكانت بعض الطبقات الحاكمة فى الواحات من أصل بدوى أو على الأقل كانت تربطهم علاقات قرابة دموية مع العشائر الرعوية القوية، لذلك تشرب المزارعون وحتى ذوو الأصول الصينية العديد من العادات والتنظيمات الاجتماعية السائدة فى إقليم الاستبس. ولا يزال بعض سكان الواحات يجمعون بين الرعى والزراعة، وهناك أكثر من مثال للقبائل شبه المستقرة، والتى ثارت ضد السيادة الصينية، وحركوا مساكنهم إلى سهول الاستبس المكشوفة فى دوزنجاريا(١٤).

والحقيقة فإن النمط العام للحضارة الذى يسود هذه المستوطنات يعد إلى حد كبير هو مزيج من الثقافتين الصينية والبدوية. وتتحدث الوثائق الصينية فى القرنين السادس والسابع بعد الميلاد عن السكان عن أن الذكور فى تورفان يرتدون ملابس تشبه جيرانهم من البرابرة بينما ترتدى النساء ملابس ويصففون الشعر على الطريقة الصينية[١٥] وهناك عناصر ثقافية أخرى أكثر تقدما مثل شكل الكتابة ونظام التقويم فهى نفسها الموجودة فى الصين ولكن هناك كتابات أجنبية أخرى (ليست صينية) أو كتابات هو Hu مستخدمة أيضا[١٦] وتكشف الآثار الحديثة فى مقابر أستانا astana التى تنتمى إلى الفترة الممتدة من حوالى النصف الثانى من القرن السادس إلى النصف الأول من القرن الثامن بعد الميلاد أنها أكثر تعقيدا، فهى تدل على أن هذه المنطقة كانت تحت تأثير ثقافى ثلاثى من الصين وعالم البدو وغربى آسيا[١٧] وفى الحقيقة يبدو أن هذه المنطقة قد قامت بدور المعبر الذى انتقلت من خلاله عناصر من الثقافة الغربية والتى بلغت الصين ذاتها. كما أن الشكل المتطور من النسيج والذى اخترع فى الشرق الأدنى والذى كان أكثر مناسبة لإنتاج أنماط وأشكال أكثر من النوع الصينى القديم بلغ وسط وشرقى آسيا ما بين القرن الرابع والنصف الثانى من القرن السادس الميلادى[١٨] وبنفس الطريقة فإن تصميمات نسيج غربى آسيا بلغت اليابان[١٩] كما وصلت الأفكار الدينية من الغرب وبنفس القدر، وتبناها الصينيون سواء فى الواحات وفى الصين ذاتها.

وتتحدث وثائق وسجلات القرنين الرابع والخامس عن شعب تورفان أنهم يعبدون روح السماء والتى تدل على المانوية التى كانت منتشرة فى بابليون، بينما فى نفس الوقت يؤمنون بالتعاليم البوذية[٢٠]، وبعد ذلك حل الإسلام محل هذه الديانات وخاصة بعد غزو المغول الذى إفتتح طرق وسط آسيا، وصارت السمة المسيطرة فى الجغرافيا الروحية لوسط آسيا.

وعلى الرغم من هذا يجب أن نلاحظ أنه رغم قوة هذه الاختراقات الثقافية من غربى آسيا إلى الجزء الشمالى من حوض تاريم، فإنها لم تتمكن من أن تقتلع نموذج الحياة الصينى الذى كان مناسبا بدرجة كبيرة مع هذه المستوطنات الزراعية. ومن الواضح

أن الركن الجنوبى الغربى من حوض تاريم كان أقلها تأثرا بالثقافة الصينية. وفى الوقت الذى تحركت فيه الحضارة الصينية نحو الغرب كانت واحات كاشجاريا ومنطقة كوتان Khotan قد تأثرت بقوة بشمال غرب الهند والشرق الأدنى.

وقد دخلت البوذية مصحوبة بالفن البوذى الإغريقى (الذى ازدهر فى جاندهار وإقليم الشمالية الغربية) إلى هذه الواحات التى صارت المركز الرئيسى التى تلقت منه الصين هذا الدين. وعلى الرغم من أنه يمكن تتبع العلاقات الثقافية والتجارية بين الصين وكوتان إلى عصور ما قبل التاريخ إلا أن الوثائق الصينية تشير إلى أن العلاقات السياسية بين الدولتين قد بدأت أولا فى عهد الإمبراطور ووتى (ق.م 87 - 140 Wu-ti)[٢١]

وتتحدث الحوليات فى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد عن شعب مملكة لوثيان Luth-ian (Khutan) باعتباره من أتباع بوذا، والذين بنوا معابد فخمة وقدموا الكثير من القرابين[٢٢]، وتأكد هذا مرة ثانية من روايات الحجاج الصينيين الذين زاروا المنطقة فى أزمنة بعد ذلك وتكشف الآثار الأركيولوجية التى تم كشفها فى هذه المواقع كتلك الموجودة فى نيا Niya تأثير البوذية من الهند[٢٣] كما أن الأضرحة وبقايا الأبراج تؤكد أن البوذية التى تمثل أعظم مساهمة للهند فى المركب الثقافى للصين ولوسط وشرقى آسيا كانت ولعدة قرون لها مكانتها السيادية فى الحياة الدينية لهذا القسم من تاريم. ويتضح أيضا أن التأثير القوى للثقافة الهندية[٢٤] من خلال السجلات المكتوبة والتى عثر عليها فى مواقع مختلفة، ومعظمها مكتوب باللغة السنسكريتية والكاروشتى، وإن كانت النصب الخشبية دون شك من أصل صينى[٢٥]. وفى الحق فإن هذا الركن من تاريم له الحق فى الادعاء بأنه مرتبط بدولة سيرانديا Serindia القديمة والتى تشير الآن على ولاية كوتان الحديثة[٢٦] – وهذا الاسم نفسه هو شكل مشترك من الاسمين سيريكم Sericum والهند[٢٧] وربما يعكس الاختراق المزدوج لهذه المنطقة من جانب الصين والهند[٢٨] – ومع هذا فإن تأثير الأخيرة فى بدأ الانهيار خاصة بعد النكسة الكبرى التى أصابت البوذية فى الهند ذاتها بسبب إعادة إحياء الفعال للهندوكية ما بين القرنين الخامس والسابع بعد الميلادى .

تتحدث روايات أسرة تانج Tang (٦١٨ بعد الميلاد وما بعدها) عن الاحترام الشديد لملوك كوتان لبوذا، لكنهم لم يشيروا إلى احتفالات كبيرة فى العصور السابقة[٢٩] ولم يعد هناك ذكر لهذه العقيدة بين سكان كوتان بعد عام ٦٣٢[٣٠].

وقد عجل الانتصار العربى فى أوائل القرن الثامن وانتشار سلطة الخلافة إلى حدود ما يسمى الآن التركستان الشرقية بتقهقر البوذية واتجاهها نحو الشرق، ومنذ ذلك التاريخ ازدادت العلاقات الروحية لغرب تاريم مع المشرق العربى على حساب علاقاتها السابقة مع العالم الهندى .

وكان التيار الجديد من الغرب أقوى من التأثير الهندى ومع ذلك لم ينجح فى القضاء التام على التأثير الثقافى الصينى[٣١]- وحتى فى الوقت الحاضر توجد نسبة لا بأس بها من المستوطنين الصينيين فى الواحات. وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من السكان مسلمون، فإن بعضهم وخاصة هؤلاء الذين وصلوا حديثا من الصين ما زالوا يمارسون معتقداتهم الأخرى. ولم يكن الصينيون قادرين على فرض بعض ملامح حضارتهم على هذه المنطقة فحسب بل إنهم اتخذوها قاعدة لنشر ثقافتهم فى أجزاء أخرى من وسط آسيا والشرق الأدنى. ويجب أن يلاحظ مع هذا أن الحضارة الصينية فى تقدمها ناحية الغرب كان عليها أن تكافح بشدة التيارات الثقافية القوية من الجانب الآخر، وفى الحق فإن قليلا جدا من الجانب الفلسفى أو الدينى للحضارة الصينية يعزى إلى الغرب (غرب آسيا). فلغتهم التى لا تزال تحتفظ بأشكالها ذات المقطع الواحد ونصوصها المكتوبة التى تعد رمزية فى طبيعتها، لم تستطع القيام بأى عمل هجومى أو حتى مقاومة حقيقية للنصوص أو اللغات الأكثر تقدما والأكثر تعبيرا فى غربى آسيا، وإن كان هناك مجال واحد حاولت الصين فيه بذل جهد مهم للتأثير فى الغرب (غربى آسيا) ونعنى بهذا فن النسيج[٣٢]. وهذه هى النتيجة الضرورية لنوع التجارة التى حملتها الطرق البرية، وخلال الفترة محل هذه الدراسة كانت المنسوجات الحريرية والتى تمثل أكثر المنتجات التى تظهر القدرة الصناعية والفن الصينى أهم صادرات الصين الصناعية، وكانت الشهرة التى حظت بها بين سكان الشرق الأدنى

ما جعل فى الإمكان للسلع الصينية التأثير على الفن فى غرب آسيا[٣٣] ولسوء الحظ توضح العينات الباقية من منسوجات العصر البيزنطى المبكر عدم وجود تأثير للنفوذ الصينى[٣٤]. بينما نجد أن المنطقة التى ربما تكون قد ظهر فيها مثل هذا التأثير هى بارثيا، أما بقية فارس - فلم تعطنا أية عينات تنتمى للعصر المسيحى المبكر، عندما كانت المساهمة الصينية فى أقصى ذروتها .

وقد أدى ذلك إلى الرأى بأن تغلغل التأثير الفنى الصينى كان ظاهرة واضحة فى التفاعل الثقافى بين الشرق والغرب خلا العصور الكلاسيكية، ومع ذلك فهناك حقيقة أساسية فى العصور اللاحقة عندما أعيد فتح العلاقات التجارية الحميمة بين الصين وفارس عن طريق البر أو البحر وعن الطريق الأخير تمت استعادة العديد من طرز من النسيج الصينى[٣٥].

والآن يمكننا أن نختتم القول فيما يختص بحوض تاريم ككل بأنه يقع على مهمش الحضارة الصينية، حيث تسود أنماط الحياة والتقنية الزراعية الصينية فى مختلف الواحات وإن كان المظهر الروحى فى حياة سكان الواحات مستعاراً من غربى آسيا وكما أن كانسو ذات شخصية صينية بالكامل بينما تحتفظ واحات الحافة الشمالية للحوض بعلاقات وثيقة مع استبس منحدرات جبال تيان شان، بينما يقع ركن كاشغر وكوتان تحت التأثير الواضح لكل من الهند والغرب. وهكذا فقد كان حوض تاريم الذى يمثل قلب آسيا معبرا للتيارات الثقافية من الصين والهند وغربى آسيا.

استبس منغوليا ومنشوريا

الأنشطة البدوية على الحدود الشمالية للصين

إذا عدنا إلى الأقاليم المكونة للنطاق الثقافى الصينى، نأتى إلى سهول الاستبس فى منغوليا ومنشوريا التى تستحق دراسة قصيرة، وهى تختلف عن حوض تاريم فى أنها تمثل مرحلة من النشاط البدوى بامتياز، ولا يمكن أن نبالغ فى الدور الذى لعبته

فى قصة البشرية فى شرقى آسيا، فقد شهدت حوافها الجنوبية خاصة منغوليا الداخلية واحدة من الاتصالات الحميمة – على الرغم من أنها غالبا عنيفة – بين سهول الاستبس والأراضى الزراعية التى لا تفصلها عنها أية حدود طبيعية. وكان بناء السور العظيم كرمز لسياسة الدفاع عن النفس التى انتهجها السكان المستقرون فى شمالى الصين، لكنها لم تنجح تماما فى منع اندفاع البدو من سهول الصين الشمالية، ولم تضع أى حد للتوسع الصينى فى منطقة البرابرة[٣٦]. وكانت السهول الشرقية (منغوليا ومنشوريا) دائما المصدر المباشر لتهديد أمن شمال الصين الذى يعد عدم استقرارها السياسى ومركباتها الثقافية فى بعض الأحوال نتيجة مجاورتها لعالم الرعاة. ويمكن أن نعتبر هذا الأخير مسئولا عن وجود بعض العناصر الرعوية فى النظام الاجتماعى الذى نشأ وتطور أولا فى شمالى الصين وانتشر تدريجيا نحو الجنوب[٣٧].

ويبدو أن السهول المفتوحة لمنغوليا الداخلية والتى شهدت استعمارا نشطا من المهاجرين من الصينيين قد لعبت دورا مهما فى فجر الحضارة فى شرقى آسيا. وكانت اكتشافات أدوات من العصر الحجرى الحديث والتى يبدو أنها كانت تستخدم كمحاريث، تعتبر أقدم هذه الأنواع فى هذا الجزء من القارة[٣٨].

ويوحى هذا أن الاندفاع شرقا للمعرفة الزراعية قد بلغ داخل منغوليا قبل أن يبلغ فى النهاية سهل الصين العظيم. ومرة ثانية فإن حافة الاستبس كانت تستخدم فى فترات تاريخية كقاعدة أمامية للغزاة البدو الذين كانوا يتجمعون فيها قبل أن يهاجموا السهول الصينية[٣٩].

وتقع صحراء جوبى (Gobi) التى تعد الحد الحقيقى بين أراضى البدو الخلص وأراضى المستقرين وأشباه المستقرين فيما وراء هذه السهول الاستبسية.[٤٠] وقد ثبت الصينيون أنفسهم بشكل منتظم فى الولايات الجديدة من منغوليا الداخلية وأيضا فى سهول منشوريا (خصوصا قبل الأزمة العسكرية) والتى تعرضت لتغيرات أساسية فى وضعها الثقافى ونظرتها الاقتصادية[٤١] ويوجد قدر معقول من الهجرة الموسمية للعمال الصينيين إلى الأراضى الجديدة المكشوفة فى الشمال فضلا عن الهجرة الدائمة[٤٢].

ويجب أن يكون واضحا هنا أن هذه ليست المرة الأولى فى التاريخ التى تنتشر فيها الثقافة الصينية على جزء من شرقى الاستبس. إن حاجة القبائل الرعوية للبوذية التى دخلت من التبت والصين خاصة فى عصر أمراء المغول قد ساعدت على تطوير حياة شبه مستقرة حول الأديرة التى تميز هذا الدين بشكل قوى. وبالتالى قلل هذا أنشطة القبائل وحركتها، وسهل اختراق التجار الصينيين والمزارعين الذين جلبوا معهم نمطا جديدا من الثقافة(٤٣) ولقد استفادت سهول الاستبس الشرقية من استيراد عناصر ثقافية أجنبية من مراكز أخرى أكثر من الصين نفسها، ولغتها المنطوقة هى التاى(٤٤) وكتابتها تنتمى إلى غربى آسيا، كما يعد النظام المغولى للكتابة تطويرا عن التركية (العربية) رغم أنها تشبه الصينية فى أنها تقرأ إلى أسفل الصفحة(٤٥)، وقد تأثرت أيضا بكتابة التبت (السنسكريتية) والتى تبدأ من ناحية اليسار(٤٦). أما لغة المانشو فقد تم جمعها بتوجيه من نورهاشى أحد أسلاف أسرة مانشو الحديثة عندما شعر أتباعه بالحاجة إلى لغة مكتوبة(٤٧) وهى معدلة ومطورة عن المغولية، ومع ذلك فإنها قد تعرضت للانحلال شأنها فى هذا شأن قدر كبير من أدب المانشو الذى تغلبت عليه وتشربته الصينية، وفى الحق فقد تزايد غزو الثقافة الصينية واعتدائها على أطراف الاستبس، وقد يبرر هذا أن هذه الأخيرة على أطراف النطاق الثقافى الصينى(٤٨).

كوريا واليابان، موقعهما على هامش الصين

يبقى أمامنا الآن أن ندرس شبه جزيرة كوريا وأرخبيل اليابان اللذين لم يمكنهما وضعهما الجغرافى فى الهامش الشمالى الشرقى للشرق الأقصى من القيام بدور مهم فى التفاعل التجارى والثقافى بين غربى وشرقى آسيا، ومع ذلك فقد وصلت إلى اليابان العديد من العناصر الثقافية التى كانت قد انتشرت من غربى ووسط آسيا على طول الطرق البرية. ويبدو أن العوامل الجغرافية جعلت شعب هذا الأرخبيل على اتصال مع أرض القارة فى الوقت الحاضر تواصل أعمالها منذ أزمنة ما قبل التاريخ. وإذا كانت كل من كوريا واليابان فى عزلة، نسبية، والتى مكنتهما من تشكيل نوع من

الثقافة الخاصة ومع ذلك على كل الأحوال لم يكونا منعزلين تماما عن الاتصال مع حضارات أخرى للقارة. وقاما بدور الملاذ والملجأ للاجئين المطرودين من عالم الصين نتيجة ضغوط الرعاة والحرب الأهلية فضلا عن المغامرين الطموحين الذين وجدوا حظهم ومستقبلهم فى دفع غزواتهم أبعد نحو الشرق. وظلت كوريا خصوصا فى منحدراتها الشمالية محمية من استبس منشوريا بواسطة سلاسل شانج باشان وسلاسل أخرى فى جنوب شرقى منشوريا، وإن كان من السهل اختراقها برا من شيهلى، ولايو تونج، وبحرا من شان تونج. ويقوم البحر الذى يطوق اليابان بوظيفتيه،، الحماية فضلا عن الاتصال. فالمسافة من شبه جزيرة شان تونج إلى جزيرة كيوشو تزيد قليلا عن ٨٠٠ كيلو مترا وتقوم قمة جزيرة كيلبارت كعلامة أرضية مميزة بينهما .

ونظرا لأن ممر كوريا ضيق فقد سهل للبحارة الملاحة وإذا كان من الصعب أن نحدد تواريخ وصول تحركات الشعوب الأولى إلى اليابان، لكن المؤكد أنهم شقوا طريقهم إلى هناك عبر كوريا. وكانت جماعات الإينو Ainus التى عرفت الكلب فقط من بين الحيوانات المستأنسة(٤٩) قد وصلت فى مرحلة مبكرة جدا نسبيا، ومن المؤكد كان قبل استئناس الحصان فى وسط آسيا حوالى ٢٦٠٠ ق.م.

وكانت الموجة الثانية من البشر إلى اليابان هى أشباه المغوليين الذى نعتقد أنهم قاموا بأكثر من موجة استقرار فى اليابان فى أوائل الألفية الأولى ق.م وإن كان غزوهم لم يتزايد إلا مع نهاية الألفية الأولى(٥٠). ويمكن أن نعتبر هذه الحركة كجزء من التوسع العام لشعب المغول فى كل آسيا الشرقية، ومع هذا من المفترض أن نتذكر أن الكوريين واليابانيين والالوشيان يتحدثون مجموعة من اللغات ذات أصل واحد والتى تختلف تماما عن اللسان البسيط ذى المقطع الواحد بلغة الصينيين. ويمكن أن نفسر ذلك على أساس أنهم يمثلون هجرة متأخرة من المقر الأساسى لشعب المغول عن هجرة الصينيين. أما الجزء الجنوبى من أرخبيل اليابان فهو أكثر تعقيدا فى تكوينه البشرى لأنه يضم بعض العناصر الملاوية. فقد ساعدت الرياح الموسمية التى تحدث ظروفا شبه استوائية لهذه الجزر الملاويين وفضلا عن المهاجرين من جنوب الصين على العيش هناك(٥١).

ومع ذلك فعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى أشكالها الجسدية، فإن اليابانيين أساسا من المغول سواء من الناحية الثقافية أو السلالية. ولم يصبح شعب الوس Wos من سكان الجزر حتى القرن السابع الميلادى، وقبل أن يتم طردهم من الساحل المقابل لكوريا كانوا قد اكتسبوا العديد من العناصر الحضارية من القارة. وتتضح علاقاتهم الوثيقة مع كوريا بصورة جلية من خلال التشابه بين التنظيمات القبلية المبكرة(٥٢) فى هذين القطرين ، وقد تلقى اليابانيون فى فجر العصر المسيحى من كوريا فن زراعة الأرز المروى الذى لا يزال مرتبطا فى اليابان بالثور الكورى بدلاً من الجاموس الصينى(٥٣).

وزاد اليابانيون حوالى القرن الرابع بعد الميلاد من ثروتهم من خلال إدخال صناعة الحرير التى تعد منتجاتها فى الوقت الحاضر(*) السلعة الأساسية فى صادراتهم، كما أن كوريا قد قامت بدور الجسر الأرضى الذى عبرت فيه الحضارة الصينية طريقها إلى اليابان، كما أغرت ثرواتها ومواردها العديدة اليابانيين والصينيين على الحفاظ على علاقاتهم الودية مع أمرائها(٥٤) وعن طريق كوريا كوسيط تم نقل استخدام المعادن التى من المفروض قد بدأت فى غربى آسيا ومنها إلى الصين، وأخيرا بلغت اليابان.(٥٥) وكان استحواذ الوو Wo المغول (فى اليابان) على الأسلحة المصنوعة من الحديد ذا آثار بعيدة المدى على توحيد الدولة تحت سيادتهم. وكانت الخطوة التالية لتحقيق الوحدة التامة تحت هذه السيادة فى أوائل القرن السابع عشر عندما تم تبنى القوانين والديانة البوذية(٥٦) وكان هذا الدين عاملا قويا فى تمدين وإخضاع وربما تهدئة شعب الإينو القوى والعنيف والذى صار من التابعين والمخلصين للعقيدة الجديدة. ومع انتشار البوذية (من الصين) فإن الحروف الصينية ورموزها والتى كانت ضرورية للقراءة وفهم الكتب المقدسة دخلت هى

(*) يقصد فى ثلاثينيات القرن الماضى.

الأخرى إلى كوريا واليابان(٥٧). وتم تعديلها فى كوريا حسب القواعد النحوية الكورية فى بداية القرن السابع حتى تم إحلالها أخيرا بهجائية بسيطة والتى عرفت بـ إن مون (En Moun) فى القرن الخامس عشر. على حين أنها فى اليابان تم تعديلها حسب نظام الأصوات اليابانية ومناهجها فى القرنين الثامن والعاشر، وعلى العموم فقد ظلت أساس الكتابة اليابانية، ومع انتقال تيار الثقافة الصينية فى ذلك الوقت انتقلت أساسيات الفن البوذى إلى اليابان، والتى كما سبق أن ذكرنا كانت تلقت عناصر فنية من قطر بعيد(٥٨) مثل (إيران) فارس، غير أن أهم مساهمة قدمتها الصين إلى الثورة اليابانية فى القرن السابع هى إدخال الرهبان والنساك بعض مفاهيم الكونفوشية والتى وجدها الأمراء فى كوريا واليابان عاملا مهمًا لإثبات تميزهم السياسى والاجتماعى لسيادة أقطارهم وشعوبهم. وكانت كوريا حتى ذلك الوقت مقسمة بين ثلاث ممالك صغيرة، بينما شكلت اليابان اتحادا كونفدراليا وهن التماسك من القبائل، وكان كبار أمرائهم ليسوا أكثر من نبلاء أقوياء بين أتباعهم من زعماء القبائل.

ومن جهة أخرى تعرف الكنفوشيوسية الدولة بأنها هى التى لها أمير أسمى يخضع له كل رعاياه، وفى الحال فهمت اليابان فائدة مثل هذه المؤسسات، وحاول أمير سيان توكو تابين الذى درس علي أيدى كهنة البوذية فرض سيادته المطلقة كأمير وحيد بإصدار قراراته السبعة عشر فى عام ٦٠٤م وكان الإصلاح الإدارى والسياسى فى القرن السابع الميلادى سريعا جدا وعميقا لدرجة أنه يمكن مقارنته بالتغير الذى حدث فى القرن التاسع عشر(٥٩).

وفى الحقيقة أن العوامل الأساسية فى الشخصية السياسية والاجتماعية لليابان قد استمدتها من الصين، أرض المجتمعات العريقة والتقاليد الراسخة. وما زالت الاستعارات التى قامت بها اليابان خلال مرحلة تكوينها قائمة حتى يومنا، ومهما كانت التغيرات الحالية فى تنظيم الدولة والمجتمع اليابانى، فالوضع العام لثقافتهم وحضارتهم تظل أساسا صينية فى الأصل.

الصين الأصلية، مركز الحضارة فى الشرق الأقصى

التميز، والتجانس، واستمرارية الثقافة الصينية،

الأقاليم الرئيسية فى الصين

مع التعرف فى العرض العام السابق على النطاق المهمش لمنطقة الثقافة الصينية، نتقدم إلى دراسة أكثر تفصيلا عن الصين الأصلية نفسها والتى تعد دون نقاش بؤرة الحضارة فى الشرق الأقصى[٦٠].

تتسم الحضارة الصينية عموما بثلاثة مظاهر بارزة هى التميز، والتجانس، والاستمرارية، وبالنسبة للتميز يمكن القول باختصار إنه على الرغم من أن الصين استعارت عناصر عديدة من حضارتها المبكرة من غربى ووسط آسيا[٦١] فلها نمط متميز من الثقافة التى ظلت بوجه عام مختلفة جدا عن الثقافات الأخرى فى القارة الآسيوية. وأما عن تجانس واستمرارية هذه الحضارة فما هى إلا نتيجة عوامل عديدة تعمل سويا، ويجب أن نعالجها معا .

من الضرورى أن نلحظ أنه على الرغم من إهمال العوامل الجغرافية فى انتشار ونشر الثقافة الصينية، فإنه من الصعب اعتبارها مسئولة كلية عن اتساق هذه الحضارة فوق المنطقة الصينية. وفى الحقيقة فإن الصين لا تشكل منطقة طبيعية واحدة، فعلى الأقل توجد خمس وحدات إقليمية لكل منها وضع وتوجه يختلف عن الآخر.[٦٢]

فشمالى الصين والذى يعد مفتوحا أمام الغزوات الجماعية من سهول الاستبس الشرقية تعد إقليما خاصا بذاته، ويحدها من الجنوب حد نباتى ومناخى واقتصادى ويمثله تسن لنج وامتداده إلى فويو شان وهو ايانج شان[٦٣] أما حوض أو أحواض يانج تسى كيانج فتقسم إلى وحدتين؛ الحوض الأدنى الذى يعد القلب الحقيقى للصين الحديثة حيث يلتقى الشمال والجنوب ويتصلان بالعالم الخارجى، والحوض الأحمر سزتشوان الذى يعد إقليما متميزا . ويتجه شمال شرق الصين نحو البحر وله علاقات

بحرية قوية مع الهند الصينية وماليزيا، بينما الهضبة الجنوبية الغربية منطقة حدودية شبه منعزلة يصعب الوصول إليها من كافة الاتجاهات لذلك كان تنوع المناطق الطبيعية داخل الصين مما يجعل من الصعب أن نتوقع نمو ثقافة موحدة فى كل أنحاء الدولة.

ومع ذلك يمكن أن نقول باطمئنان إنه إذا تجاهلنا بعض الفروق الإقليمية، فلا يوجد فى أى مكان فى العالم يمثل هذه الأقاليم المعقدة أو به الأعداد الضخمة من السكان له ثقافة أكثر توحيدا.

والاحتمال المهم بأن الحضارة الصينية انتشرت فوق كل المنطقة من مركز محدد تماما فى الشمال الغربى والشمال (على الرغم من أن هذا غير مقبول من كل دارسى الصين) وأنها ارتبطت بنظام اجتماعى ومحافظ منظم بشكل كبير، فيمكن النظر إليه على أنه من العوامل الرئيسية المسئولة عن هذا التماثل والتجانس.

ويمكن القول أيضا بأن الظروف الجغرافية فى هذه المرحلة، إن لم تستطع تفسير هذا الانتشار الواسع فهى على الأقل جعلتها ممكنة. فالسمة الطبوغرافية للصين بشكل عام تسمح بتداخل ثقافى وعلاقات اقتصادية سهلة بين الأقاليم المختلفة، ومن ثم تؤخر أو حتى تمنع عملية التميز الإقليمى، ويتضح هذا بشكل أفضل فى مرحلة التكوين عندما كانت العناصر الحضارية تنتقل من إقليم إلى إقليم. يجب أن نجرى دراسة أولية لتوحيد الدولة التدريجى لكى يكون لدينا فهم صحيح لوحدة الصين، ومكانة بعض الأقاليم المهمة وعلاقتها بالعلاقات الثقافية والتجارية لكل المنطقة خلال العصور التاريخية.

ومن المتفق عليه الآن بوجه عام أنه مهما كان ميلاد الحضارة الصينية فإن انتشارها التاريخى قد بدأ من وادى وى هو wei Ho الخطير والمزود بالممرات والطرق التى تربطه بالأودية الخصبة والأحواض الواقعة إلى الشرق والجنوب. فالشريط الضيق من تربة اللويس الخصبة على طول المجرى الرئيسى لنهر هوانج هو الأعلى (قبل أن يخرج من الهضبة الغربية) يربط وادى وى (Wei) مع أودية فن (Fen) ولو الأدنى.

ويعتبر موقع وادى وى (Wei) مثاليا للسيطرة على اتصالات الصين مع وسط وغربى آسيا. وتؤدى مجاريه العليا إلى منطقة كوكونور والتبت، بينما يربطه ممر وادى سو لى Su Lei والمستنقعات الدنيا لنهر تاريم Tarim.

وقد استخدم الغزاة الجدد الذين أتوا من الغرب وادى وى Wei كقاعدة مناسبة واصلوا منها غزو بقية الصين، وزاد من أهميته حقيقة خصوبة أرضه وحدوده الواضحة والتى جعلته إقليما ناميا يتقبل غرس أفكار أجنبية فيه.

وحين ظهرت الإمبراطورية الصينية إلى الوجود، دشنت سياستها التجارية على أساس الطرق البرية، ونال هذا الوادى أهمية أكثر باعتباره المنفذ الوحيد الذى يمكن حمايته بسهولة. وما زالت عاصمته (شانج نجان القديمة) (الحديثة سيان فو) فى مرات عديدة هى مقر حكم كل أو معظم الصين تحتفظ بقدر كبير من دورها التاريخى باعتبارها مركزا للاتصال الثقافى والتجارى مع آسيا الغربية وعالم البدو. ويماثله أيضا حوض نهر فن هو فى شمال غرب الصين الذى كان يضم مجتمعا مزدهرا ودولة قوية مستقلة. وكان على اتصال سهل بالطرق البرية لوسط الصين لكن كانت له ميزة (أو عدم ميزة!) على وادى وى فى أنه يجد حماية نوعا ضد الغزوات المتلاحقة من الغرب (خاصة فى فجر التاريخ).

كما أضاف لأهميته أيضا موقعه المتوسط بين وادى وى (Wei) والسهول الشرقية ونشأت هنا أقدم الأساطير، واستقرت أقدم الأسرات الحاكمة وهى أسرة هسيا Hasia فى مجراه الأدنى.(٦٤)

ويعد وادى نهر لوهو Lo Ho آخر هذه الروافد التى تؤخذ فى الاعتبار، ويقع فى منطقة غنية محددة جيدا ويتحكم فى مدخل الجزء الأدنى من النهر الأصفر Yelllow River. كما تؤدى سهوله المكشوفة إلى منابع نهر هان كيانج عبر تسن لينج - Tsin Ling.

وكان للموقع المتوسط لهذا الوادى بين السهل العظيم Great Plain وروافد الأودية الشمالية الغربية وأحواض الصين الوسطى أن أصبح مسئولا عن الدور الكبير

الذى لعبه فى توحيد هذه البلاد. وتعتبر مدينته القديمة (هو نان فو الحديثة) واحدة من أقدم العواصم فى الإمبراطورية، ولعل هذا سببا وجيها لأن نفترض أنه قبل أن يصل سكان هذا الوادى أى عناصر من الحضارة الغربية عن طريق وى هو Wei Ho (آخر الألفية الثالثة ق.م) كانوا على اتصال مع المجتمعات الناشئة فى السهول الشرقية والتى كان من المحتمل فى ذلك تتقدم نحو أعالى الوادى. وعندما صارت الجحافل الغازية الآتية من الغرب الدعاة الرئيسيين للثقافة الصينية فيما بعد فى الجنوب، جاءوا وسيطروا على لوهو، ولكنهم اعتبروا دى هو هو الجبهة والقاعدة المريحة لغزو السهول الشرقية من جهة والأحواض الجنوبية من جهة أخرى. وكان تحرك الصينيين نحو الجنوب، ونشر ثقافتهم فى نفس الاتجاه يصنع واحدا من أمتع فصول قصة البشرية فى آسيا الشرقية. ويميل أرشيباد ليتل إلى الاعتقاد بأن هذا التوسع يرجع أساسا إلى ضغط البدو من أقصى الشمال، ولكن يلفت بكستن Buxton الإنتباه إلى الحاجة الاقتصادية والحياة غير الآمنة فى الشمال المزدحم بالسكان (أى السهول الشمالية) والجذب النسبى لوادى يانج تسى (Yang Tse) الأكثر إنتاجية.

ومهما كان الأمر فإن الرأى الأخير يقلل من المشكلات التى تواجه المستعمر الأقل تجهيزا فى العصور الأولى بسبب المستنقعات والغابات فى الجنوب(٦٥) ومع هذا هناك ما يدعو للتفكير بأن من بين العوامل العديدة التى أغرت الصينيين للتحرك جنوبا هى سياسة التوسع التى تبناها الغزاة الغربيون، والتى كانت فرقها العسكرية الطموحة تجد حظها فى قيادة جماهير من شعوب شمالى الصين إلى مناطق غابات البرابرة الجنوبيين. وقد حملت الموجات المتتالية لهؤلاء الغزاة معها أسلحة معدنية جديدة ضرورية لمثل هذا المشروع وكنا قد ذكرنا من قبل الحقيقة الجلية بأن سكان التبت قد انتقلوا من وسط هوانج هو إلى منطقة كوكنور بحسب أوامر الإمبراطور فى أواخر الألفية الثالثة ق.م.(٦٦)

وقد تمثلت نفس سياسة التوسع فى الاستعمار الأخير للأقاليم غير المشجعة نسبيا فى الجنوب والغرب والتى استوطنها مستقرون شبه صينيين تحت حكم المغول.

كما حاول المانشو فى أزمنة حديثة مع بعض النجاح إقامة مستعمرات جديدة على الحدود الجنوبية الغربية. ومهما كانت العوامل التى أدت إلى هذا التقدم جنوبا فقد نجح الصينيون فى نشر ثقافتهم ونظامهم الاجتماعى فى الجنوب وفى دفع القبائل الأصلية أمامهم، أو فى بعض الحالات امتصاصها[٦٧] ويقدم هنتنجتون ملاحظة مهمة فيقول إنه فيما عدا المناطق التى استقر الأوروبيون فيها حديثا لا توجد منطقة أخرى بين درجتى عرض ٢٥ درجة و ٤٠ درجة أظهرت تقدما حقيقيا مثل جنوبى الصين[٦٨].

وفى الحق فإن المستعمرين الصينيين للأحواض الوسطى والجنوبية كانوا أكثر تقدما عن نظرائهم فى الشمال. ولعل عملية الاختيار الطبيعى والتى مر بها المهاجرون الشماليون تتمشى مع عوامل أخرى مثل الاتصال المستمر التى احتفظ بها البحارة فى الجنوب مع العالم الخارجى، يعتبر كافيا ليعلل الاختلاف بين يقظة ونشاط الجنوب وتحفظ الشمال[٦٩].

ويمكن الاقتراب من وادى يانج تسى من نقاط عديدة عبر التسن لنج، فهناك اقتراب سهل نسبيا من أعالى ويهو (Wei Ho) إلى أعالى تشيا كيا لنج من سيزتشوان.

وتحكى بعض التقارير الأسطورية عن أباطرة جاءوا من الغرب، جاءوا ليستقروا فى هذا الاتجاه[٧٠] ويبدو أن تجار شوه (سيزتشوان) قد لعبوا دورا كبيرا فى التجارة المبكرة بين شمال غربى الصين وشرق تركستان والتبت والهند. وظلت المراكز الرئيسية للنشاط لفترة طويلة فى الجزء الشمالى من الحوض الأحمر (سيزتشوان) الذى هو أقرب إلى الوادى الأكثر تحضرا فى وادى وى (Wei) رغم أن شعب شوه قد استقى عناصر ثقافية على طول امتداد الطرق فى الجنوب الغربى.

ويقال إن هؤلاء التجار احتكروا جزءا من تجارة الشب، التعريت(*) فى تركستان (كاشجاريا وكوتان) وهو حجر يقدره الصينيون كثيرا كعلامة للسلطة والقوة فى تاريخ يمكن تتبعه إلى أيام حكم أسرات الهسيا والتشانج[٧١].

(*) نوع من الأحجار الكريمة. (المترجم)

ومن بين الطرق القديمة العديدة التى تتفرع من سيزاتشوان نحو الغرب، ذلك الذى يمتد من شنج تو متجها إلى تاتسين لو على الحدود الغربية من الحوض حيث يستمر عبر جنوب كوكونور فى اتجاه شمالى غربى محاذيا الحافة الجنوبية لجبال كوين لن ويعبرها إلى كوتان(٧٢) وهناك طريق آخر أكثر حداثة نسبيا يتفرع فى تاتسين لو مؤديا إلى ليتانج وباتانج وساديا عند وادى أسام ويتبعه إلى باليبوثرا (باتاتا) على نهر الجانج. وهناك طريق ثالث لا يقل أهمية يصعد إلى كن شو كيانج إلى وسط ينان حيث ينحرف نحو الجنوب الغربى حتى يصل إلى بهموا Bhamo عند رأس حوض بورما ترو والذى ساعد على إعاشة مجتمعا متحضرا فى تاريخ مبكر عن أسام. والعلاقات الوثيقة بين الحوض الأحمر فى سيزاتشوان والأقطار المجاورة خارج الصين الأصلية زادت من قيمته، وساعد على تطوير شكل خاص من الحضارة، وإقامة دولة منفصلة بذاتها لعدة قرون قبل أن تدخل فى إقليم تشن Chin (شمال غرب الصين) أواخر القرن الرابع ق.م. ومنذ ذلك الوقت صار النفوذ الصينى أكثر وضوحا، وصارت سيزاتشوان كبؤرة انتشرت منها الثقافة الصينية فى التبت والجنوب الغربى .

ومن المراكز التى تدعو إلى الاهتمام فى حوض اليانجتسى وهو الحوض الأوسط لهوبية (Hu-Peh) امتداده فى وادا الهان (Han) والذى شكل ممرا طبيعيا للاتصالات المبكرة مع أودية الشمال الغربى، وما بين سلاسل فونيوشان وهيواى نانج شان واللذان يكونان سلاسل امتداد لشن لينج، هناك فجوة منخفضة تغطيها تربة طينية صفراء تربط الجزء الشمالى الشرقى من وادى الهان Han مع الامتدادات الجنوبية للسهل العظيم. وهناك اتصال سهل متاح من وسط يانجتسى الأوسط إلى جنوب وجنوب غربى الصين عن طريق المرتفعات الجنوبية.

ويبدو أن دولة تشو Ch,u التى بلغت أوج قوتها العليا فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد قد حافظت على علاقاتها التجارية مع دول فى أقصى الجنوب مثل بورما، بل حتى الهند بفضل طريق ينان. وقد أرسلت فى أواخر ذلك القرن جيشا إلى روافد اليانجتسى للسيطرة على منطقة تاليفو غربى ينان لإحكام السيطرة على هذه التجارة

ومنعها من الوصول إلى دولة العدو فى تشن فى شمال غربى الصين، بواسطة التجار فى شوه[٧٣] وحاولت أيضا غزو المراكز المهمة لسيزاتشوان، ولكنها لم تنجح إلا فى ضم جزئه الشرقى. أما حوض هوبيه فقد تلقى العناصر الأساسية من حضارته المادية أى ثقافة الأرز والتى ارتبطت مع الجاموس المائى والثور الهندى ذى السنام (الزيبو) من الأقطار الموسمية فى أقصى الجنوب. وتسود الآن ثقافة الأرز فى هذه المنطقة فى الهند وبورما وماليزيا والهند الصينية وشمال ووسط الصين وغيرها.

يميل مايرز (Myres) إلى الاعتقاد بأن أصل زراعة الأرز المروى فى سيزتشوان، لكنه لم يقدم إلا دليلا ضعيفا لدعم رأيه[٧٤] ومن جهة أخرى تتفق معظم الثقافات أن الممارسة الأولى للزراعة كانت فى مكان ما حول رأس خليج البنغال، ويعتقد بيشوب (Bishop) أنه دخل فى اليانجتسى، وفى وقت ما إلى جنوب الصين بوجه عام من خلال طريق التجارة الشهير عبر بورما ويانان[٧٥] وعلى الرغم من جاذبية هذا الرأى فلا يمكن قبوله. ولم يعد إقليم جنوب غرب الصين الأكثر كثافة فى غاباته والصعب اجتيازه يعد مقبولا لمثل نظام زراعة الأرز المعتمد على الرى خاصة أنه فى ذلك الوقت كانت تقطنه بالكامل قبائل غير متحضرة. وفى الحقيقة يبدو أن تطوير طريق التجارة فى هذا الاتجاه قد جاء فى تاريخ متأخر نسبيا.

ومن المفيد أن نتذكر حسب التقاليد أن جماعات اللولو فى يئان لم تعرف زراعة الأرز أو الذرة حتى أدخل الصينيون القادمون من أقصى الشمال هذه المحاصيل فى بلادهم[٧٦] وفى غياب أية مادة علمية محددة فيما يختص بالطريق الذى اتبعته هذه الثقافة من الهند إلى الصين، فإننا نجد من المعقول أن نقول إنها انتشرت على طول الخط الساحلى للدلتاوات من البنغال إلى بورما، والصين الهندية وأخيرا جنوب ووسط الصين. وأيد هذا الاقتراح إشارة فى القرن الحادى عشر الميلادى دخول أرز التلال فى الصين من أراضى مملكة شامبا فى الصين الهندية.[٧٧] ومهما تكن صحة قصة نشر زراعة الأرز فى جنوبى آسيا الشرقية، فمن المحتمل أنها وصلت وسط يانجتسى بفترة طويلة قبل أن يبدأ صينيو الشمال الغربى فى الانتشار نحو الجنوب إلى أرض تشو

(Chu)، وفضلا عن الإشارات الأولى عن هذه البلاد الأخيرة في التقارير الأسطورية لشمال الصين، فإن أول إشارة للتطور الثقافي في إقليم يانجتسي ترجع إلى المرحلة المبكرة من الألفية الأولى ق.م، وقد وصفت حينئذ بالبلاد البربرية (ليست صينية) لشنج شو أو "أرض الغابة" التي تقع تحت سيطرة شو (chu)[٧٨] وتوسعت هذه المملكة تدريجيا حتى ضمت المنطقة ما بين شوق سيزتشوان والبحر، كما أنها أخضعت القبائل المتوحشة في هواي (Hwai) (في منطقة مستنقعات في كيانج سو إلى جنوب شرق السهل العظيم الذي لم يتمكن الصينيون من غزوه. وعاق التقدم من السهل العظيم إلى إقليم كيانج تسو المنخفض عن المستنقعات الممتدة هناك. وعلى هذا كان من السهل على شعب الشن (Chin) شمال غربي الصين أن يتوسعوا عن طريق وادي هان (Han) وهيوبيه حيث استطاعوا الاقتراب من يانجتسي الأدنى (أكثر من محاولة الدخول من الطريق المباشر عبر الجزء الجنوبي من السهل العظيم و مستنقعات هيواي (Hwai). وكان الموقع الاستراتيجي لمنطقة هان شونج في أعالي مياه الهان بين الشن (Chin) والشو مما جعله نقطة الارتكاز في توحيد الشمال والجنوب تحت سلطة الشن.

وقد ازدهرت دولتان بحريتان حول مصبات أنهار يانجتسي والأراضي الساحلية المجاورة في حوالي منتصف الألفية الأولى ق. م، ومن هذه كانت الوو (Wu) والتي استطاعت في فترة من الفترات أن تتحدى بل أن تسحق العاصمة القديمة في تشو (Chu) بينما بدأت الثانية يوه (Yueh) في خليج هانج تشو وانتهت بضم الوو (Wu) وأسست عاصمتها على خليج كياشو في جنوب شان تنج[٧٩].

وفي النهاية على الرغم من هذا فإن كل هذه المنطقة البحرية مع جزء من ساحل الصين إلى الجنوب ضمها تشو الذي سهلت غزواتهم المهمة التالية لشن Chin لتوحيد كل الصين. وكان من السهل على الأخير غزو دولة واحدة امتدت فوق إقليم متسع يمتد إلى أبعد من قبضتها الفعالة أكثر من تحدي سلسلة من الدويلات الصغيرة لكل منها حكومة محلية قوية، وخطة محددة للدفاع عن نفسها. ورغم هذا فإن بعض أجزاء الساحل الصيني مثل شاطيء المنطقة الساحلية لفوكين الحالية لم يستطع شن Chin غزوه

حقيقة. وكان توجيه هذه المنطقة الساحلية أساسا بحريا، إذ يعزلها عن الداخل سلاسل جبلية مرتفعة تكسوها الغابات. ودخلت اللغة الصينية وثقافتها من خلال التوغل البحرى من مصبات أنهار يانجتسى وسيكيانج (فى اتجاه الشمال والجنوب) رغم أن المنطقة تحتفظ بثقافتها المتميزة حتى الوقت الحاضر. وتم إرسال قوات أول إمبراطور صاحب سيادة (شيه هوانج تى) إلى الوادى سيكيانج الغنى من خلال عدة طرق أحدها الذى يتبع وصلة خط السكة الحديد الحديث ما بين هان كو وكانتون، وكان أكثرها أهمية. ورغم أنه تم إخضاع والسيطرة على هذا الوادى، فإنه نجح بسرعة فى التخلص من الحكم الصينى، ولم يتم استعادته حتى نهاية القرن الثانى ق.م. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المنطقة أكثر ارتباطا بالمجال الثقافى للصين، وإن حافظت على علاقاتها الثقافية والتجارية مع عالم ماليزيا الهندية ولقد أدى التقدم المنتظم لتوجه الصين نحو الجنوب إلى تأثير عظيم على شعب أنام والشعوب الأخرى فى شمال الصين الهندية، والتى انتهى بها الأمر بالتقهقر جنوبا والانهيار التام النهائى لملكة تشامبا فى القرن الخامس عشر الميلادى. وانفصلت أنام (Annam) والتى ظلت لعدة قرون مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الصينية خلال القرن التاسع عشر. ورغم هذا لم يكن للصينيين تأثير قوى هناك، وفى أنام نقترب بالفعل إلى حدود منطقة ثقافية جديدة تختلف حضارتها وتقاليدها ونظرتها عن تلك الموجودة فى عالم الصين. ومن العرض السابق نستطيع أن نستنتج أنه رغم تنوع الأقاليم الطبيعية داخل الصين، فإن السهولة النسبية للاتصالات بين معظم هـذه الأقاليم قد جعلت فى الإمكان نمو وانتشار ثقافة موحدة.

ومن الحقائق الملحوظة أن هذا الاتساق الثقافى استمر لفترة لا تقل عن أربعين قرنا أو نحو مائة جيل (رغم أنه ليس فى كل الصين). وفى الحق توصف الصين بأنها مسرح (مشهد) أقدم حضارة معاصرة، وأكبر وحدة ثقافية على وجه الكوكب.[٨٠] وليس من السهل تحديد القيمة النسبية لمختلف العوامل التى تعلل استمرارية هذه الحضارة التاريخية. ومثل معظم الحضارات الزراعية كان لدى الصين نظام ثابت

من النشاط الذى يميل إلى خلق نظرة محافظة للحياة، لكن على عكس الحضارات القديمة والوسيطة فى دولة مثل ما بين النهرين التى يعتمد رخاؤها إلى درجة كبيرة على الإبقاء على نظام صناعى من الرى والذى يعوض نقص المطر، ولكن الصين تتمتع بأحوال مناخية مختلفة، والتى تجعل من إهمال مشروعات الرى أقل تدميرا لاستمرارية الحضارة.(٨١)

ومرة ثانية بالمقارنة مع مصر التى تعد دولة صغرى يسهل للتيارات الثقافية أن تخترقها والتى تنساب على الجزء الأدنى من وادى النيل، وتحول اتجاهاتها الثقافية فى اتجاه أو آخر، فإن الصين دولة واسعة تضم مجموعة ضخمة من الموارد التى تمكنها من هضم أية تيارات ثقافية التى قد تشق طريقها إلى الأطراف القصوى للقارة.(٨٢) وعلاوة على ذلك فإن النظام الاجتماعى الذى يسود الصين يعد عاملا آخر لحفظ شكل ثابت غير متغير من الثقافة. ويربط النظام العائلى الصارم كل جيل بأسلافه، ويعطى أساسا باحترام الأجداد، والتى تجد تعبيرا فى اتباع الأجيال الصغرى لتقاليد الأجيال الأقدم. وهذا مما جعل الصينيين يرون فكرة أن الحاضر ليس سوى إعادة إحياء ماض حى، وكان النظام البيروقراطى علامة متميزة فى إدارة هذا القطر ساعد بقدر متساو على نمو وازدهار ميول وأهواء محافظة بين شعب المملكة الوسطى.(٨٣)

وباختصار فإن قصة الصينيين هى قصة شعب (أكثر من أى شعب فى العالم) عاش سويا يربطه نظام اجتماعى عام، وتقاليد ونظام عام للملكية والحكومة، وأخيرا لغة مشتركة مكتوبة ونظام عام للتعلم. وعلى الرغم من الكثير من العناصر الثقافية المستوردة التى أخذوها عن العالم الخارجى (سوف ترى بعضًا منها فى الفصل الأخير من هذه الدراسة) فقد نجح الصينيون فى الحفاظ على تكامل شخصية حضارتهم. ولا يمكن أن يعزى هذا إلى العزلة النسبية التى من المفروض أن تمتعت بها هذه البلاد زمنا طويلا ولكن فى الحقيقة هى نتاج عوامل محلية أعطت للحضارة الصينية خط تطورها الخاص والمتميز عن الحضارات الأخرى.

اتصال الصين بالعالم الخارجي

العوامل المؤثرة في التوسع ما وراء البحار

والتداخل مع آسيا الوسطى - شمال الصين والاستبس

قبل أن ننهى هذا العرض الأولى لنطاق الثقافة الصينية، فمن المستحسن أن نرسم صورة عامة للتوجه التجارى الصينى على طول الطرق البرية والبحرية. وسوف يكون هذا مساعدا بشكل لا يمكن تقديره للفهم الصحيح للظروف التى فى ظلها اتصلت هذه البلاد بالعالم الخارجي. إن قضية العلاقات البرية مرتبطة تماما بنطاق إقليم الاستبس فى أوراسيا والذى عانى من حين إلى آخر من ثورات وتقلبات اجتماعية وسلالية كبيرة. وفضلا عن النتائج السياسية لمثل هذه الثورات فقد تركت أثارا بعيدة المدى على التوجه التجارى للدول المستقرة والأكثر تحضرا على حواف القارة، كما تركت آثارها على التيارات الثقافية التى جاءت من مختلف الأركان والتقت على المسرح العام لآسيا الوسطى(٨٤). ويصدق هذا بشكل خاص على العهد الإغريقى الرومانى والفارسى العربى والذى يهمنا بوجه خاص، وعلى هذا سوف نعالج بشكل أكثر تفصيلا مختلف الآراء التى قدمها دارسو الجغرافيا التاريخية لآسيا الوسطى وخاصة أسباب هذه الاضطرابات. يمكن أن نقارن بحق سهول الاستبس بمحيط ضخم يضم حركة موجات سطحية مستمرة بدون حركة أفقية للمياه، ولكن تتعرض سواحله من حين إلى أخر لطغيان بحرى كبير. يرى هنتنجتون وأعضاء مدرسته أن هذه الاضطرابات الواسعة ناجمة عن الأزمات المناخية التى تؤثر على أراضى المراعى، وتجبر البدو على البحث عن ملاذ فى أماكن فيما وراء أراضيهم، وحاولت هذه المدرسة تتبع الأدلة التى تؤيد هذه النبضات المناخية خلال العصور التاريخية فى المنطقة الممتدة من الهضبة الجافة وأحواض آسيا الغربية حتى السهول شبه الصحراوية على الحدود الشمالية الغربية للصين. ويرون أن مستوى المياه فى بحر قزوين والذى يعتمد بدرجة كثيرة على كمية الأمطار داخل هذا الحوض المائى قد عانت من سلسلة من الصعود

والهبوط منذ فجر الحقبة (العصر) المسيحى.[٨٥] إن كثرة المواقع فى المناطق الزراعية المستقرة القديمة فى أماكن تعد الآن جزءا من صحراء تكلا مكان فى حوض تارم، ووجود أحواض جافة مثل لوب نور، كلها تقدم دليلا أكثر على التغيرات المناخية.[٨٦] ويذهب هنتنجتون إلى أبعد من ذلك حيث يقسم تاريخ الصين إلى دورات - من الغزو (الهجرة) والتقدم، والانحلال، والفوضى، تم الغزو مرة ثانية والتى يربطها بالنبضات المناخية فى آسيا الوسطى.[٨٧] قد لا يخلو مثل هذا الاقتراح كلية من الحقيقة، ولكن من المؤكد أنه يشوه بعض الحقائق فى قصة العلاقات الصينية مع سهول الاستبس. وهناك حقا مدرسة ترى أن غزوات البدو على الصين مبنية على أسس اقتصادية وسياسية صرفة، على الرغم من أن أفرادا من هذه المدرسة يقبلون الرأى بأن التغيرات المناخية ربما حدثت مع نهاية العصور الجليدية عندما مرت الأقاليم المناخية بقدر كبير من الإحلال وإعادة التوزيع، والتى استمرت حتى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية المبكرة، وقد وجدوا أسبابا للاعتقاد على الأقل أنه فى آخر ألفى عام لم يوجد تغير ملحوظ فى المناخ. وكان المجال الرئيسى الذى دعم لتأكيد رأيهم تمثل فى حوض تاريم.

كما أشار مستكشفون أمثال سفن هيدين وبعد ذلك بسنوات سكومبرج أن الدمار فى هذه المواقع المهجورة وفى جفاف البحيرات القديمة ما هو إلا نتيجة التغيرات فى المجارى النهرية، والتى عملت بشكل متصل مع عوامل أخرى بشرية صرفة[٨٨]. ويؤكد أوريل ستين الذى درس المنطقة بصورة أكبر أن الانكماش المتزايد فى احتياطى الثلاجات والتى تغذى معظم مجارى حوض تاريم، وخصوصا من ناحيته الجنوبية - وهو أحد الأسباب الرئيسية للنقص التدريجى لموارد المياه.[٨٩]

قدم نفس المؤلف عدة نقاط ممتعة لا نستطيع أن نناقشها الآن، لكن ينتهى بشكل قاطع إلى أن الأحوال المناخية فى هذا الحوض مع بداية العهد المسيحى كانت جافة كما هى الحال فى الوقت الحاضر، وأنه لم تحدث أية تأثيرات مهمة منذ ذلك الحين.[٩٠] وقد أشرنا مع هذا إلى الجبال على أطراف حوض تاريم قد حالت تماما دون توغل

موسع للتيارات الهوائية من المحيط الهادى والمحيط الأطلنطى.[٩١] ومن ثم فإن أى تغير فى كمية الرطوبة التى تحملها هذه التيارات فى قلب آسيا يكون تأثيره ضئيلا على أحوال هذا الحوض. ومن جهة أخرى فإن سهول الاستبس الحقيقية التى تأثرت بهذه التيارات، والتى تشير الشواهد عن احتمالية حدوث هذه الفترات من الأزمات المناخية والتى تمتد من سهول متشوريا ومنغوليا – بما فى ذلك امتداداتها الجنوبية إلى إتمن جول والحدود الشمالية الغربية للصين – حتى دزونجاريا وتين شان، ثم غربا إلى تركستان (التى ترتبط بهضبتى إيران وآسيا الصغرى من جهة، وأحواض جنوب روسيا من جهة أخرى). ولهذا وعلى وجه التحديد لا يشارك حوض تاريم فى نفس الظروف المناخية والنباتية مع سهول الاستبس المجاورة فى آسيا الوسطى. ورغم هذا فإن امتداد التغيرات المناخية من الاستبس لا يمكن قياسها بأمانة من خلال تدفقات البدو أو الإغارات على دول مثل الصين، رغم أن المناخ دون شك يعد العامل المحدد فى مثل هذا الانتشار من أراضيهم العشبية.[٩٢] وقد يكون هناك سبب جيد للقول بأنه يمكن أن نتتبع تأثير هذا التغير فى التحول التدريجى نحو الخارج – أى من المنطقة المجاورة مباشرة لشمال غرب الصين نحو أقصى الجنوب الشرقى والغربى للاستبس حتى المنطقة الرئيسية لنشأة البداوة أو ما يمكن أن نسميه ثورة الطرد المركزى التى بدأت منها تدفقات البدو.

إن تاريخ الحركات البدوية خلال أخر ألفى عام معقد جدا وتعد المجتمعات القبلية العديدة التى تبعت بعضها البعض على المسرح بمثابة إعادة هذه الشعوب لنفس المسرحية. ومع ذلك من الممكن أن نقسم المهاجرين إلى جماعتين متميزتين تتفقان مع القسمين الشرقى والغربى لسهول الاستبس .

فكانت جماعات هيون نيو لقرون قليلة قبل المسيح تسيطر على سيولى هو وممرات إتس جول والتى تحركت منها عبر صحراء جوبى قبل أن تتجه نهائيا نحو الغرب. وعندئذ انتقل مركز النشاط البدوى إلى تين شان ودزونجوريا حيث أسس الأتراك الأوائل إمبراطوريتهم (أخلاط متنافرة) فى القرنين السادس والسابع الميلادى[٩٣] كان

هذا التنظيم منقسما فى وقت إلى قسمين: اليوغور Uigurs على مرتفعات تيان شان وما عرف الأتراك الغربيون فى ترانسكوكسينا ورغم أن اليوغور احتلوا الأراضى الأفضل من ناحية موارد الماء، وكانوا قادرين على العيش بعد الأتراك الغربيين الذين تفككوا فى أوائل منتصف القرن السابع، ولكن ظل اليوغور فى الجزء الأكبر من تاريخهم تحت شكل ما من السيادة الصينية، وفى النهاية قضى عليهم القرغيز من شمال تركستان فى النصف الأول من القرن التاسع.(٩٤) ومنذ ذلك التاريخ اندفعت قبائل ترانسكوكسينا وشمال تركستان إلى جنوب تركستان، وخراسان، واستولت على الجزء الأكبر من الهضبة الإيرانية وآسيا الصغرى.(٩٥) وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وجدنا الإمبراطورية السلجوقية الواسعة التى بدورها ورثها الشاجاتاى وتيمور لانك خلال القرنين التاليين. وتوقف التدفق البشرى الآتى من الغرب مع قيام الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عندما انتشرت جحافلهم فى شبه جزيرة البلقان ولعدة قرون وصاروا سادة الشرق الأدنى بلا منافس.(٩٦) وحدث تحرك خارجى آخر من مركز القوة الرعوية فى الاستبس الشرقية، فقد ورثت قبائل عديدة مختلطة من التنجوس، والأتراك، المقر القديم لهيونج نو على الحدود الشمالية الغربية للصين ونجحوا فى السيطرة على شمالى الصين على فترات بين أسرتى الهان والتانج (من القرن الثالث حتى السابع بعد الميلاد وتم منذ القرنين التاسع والعاشر فى السمع عن قوة الكنز (Kins) والكيتاى (Khitay) الذين نشأوا فى منغوليا الداخلية وسيطروا مرة واحدة على المنطقة من كوريا حتى غرب تركستان. وأخيرا انتقل صولجان السلطة فى السهول الشرقية إلى مغول منغوليا الخارجية، وهى بلاد أكثر مطرا وأكثر تكيفا مع البداوة، وتبعهم المانشو Manchus وأراضيهم غنية بالمراعى وتمتد فى أقصى أطراف الاستبس، وتفصلها حواف سلاسل خنجان عن منغوليا. وهكذا يمكن القول إنه كانت هناك حركة خارجية من ثورة البداوة نحو أطراف القارة، وتعد هذه الظاهرة أكثر أهمية لدرجة أنه لا يمكن تجاهلها من الجوانب الشرقية وأيضا الغربية من الاستبس الآسيوى.

ليس من المقبول تفسير هذا على أن قوة الطرد المركزى فى عالم البداوة اقتربت من نهايتها (لأن مراكز الانتشار قد بلغت أقصى هوامش الاستبس) وأنه لا توجد إلا فرص محدودة فى المستقبل لأى مركز تفريخ يظهر فى آسيا الوسطى طالما أن الظروف المناخية والسياسية الحالية مستمرة كما هى فى عملها[٩٧] ونعتقد أنه من بين العوامل المتعددة التى تعلل تدهور الاستبس يتمثل فى هدوء نسبى للتيارات الهوائية الرطبة الآتية من المحيطين الهادى والأطلنطى[٩٨].

وفى هذا المقام نلاحظ أنه قبل انهيار إمبراطوريتهم فى أوائل القرن التاسع الميلادى، كان ضعف شعب اليوغور (Uigurs) بسبب زيادة تساقط الثلوج مما أدى إلى تضييق أراضى المراعى، كما أدى إلى هلاك ماشيتهم[٩٩].

وقد يرجع هذا إلى اضطرابات جوية ذات طبيعة غير عادية، وفى نفس الوقت قد يرجع إلى انخفاض نسبى فى درجة الحرارة، مما يؤدى إلى زيادة تمدد الضغط المرتفع والذى يؤدى إلى منع وصول التيارات الهوائية إلى الداخل (على الأقل فى بعض الفترات) ويجب القول بأنها نظرية ما زالت عرضة للتصحيح، على العموم فإن مسألة الجفاف فوق الاستبس الآسيوى ما زال فى حاجة إلى مراجعة فى ضوء الأحوال المناخية فى هذا الإقليم، وإذا كانت هذه الدراسة لا تدخل ضمن عملنا الآن، فإنها قد تلقى ضوءا جيدا على كثير من المشكلات السلالية، والاجتماعية، والدينية، والسياسية لعالم البداوة، والذى سنعالجه فى الفصول القادمة .

التوجه التجارى للصين برا وبحرا

جنوب الصين والتوسع والتبادل البحرى

مهما كانت الأسباب الرئيسية للاضطرابات التاريخية فى آسيا الوسطى، إلا أنها تركت آثارا على العلاقات التجارية فى فترات مختلفة، وبينما أدت بعضها إلى فوضى طويلة وفصلت الجانب الشرقى الصينى عن الجانب الغربى للقارة، فقد أدى بعضها

الآخـر إلى فـرض الأمن على طول الطرق البـرية، ومن ثم شـجع على تبـادل السلع والثقافة. إن الاختلاف شيق خصوصـا فى حالة العلاقات الخارجية للصين. فبعد أن اتحدت الصين فى ظل تشن Chin استولت وسيطرت على طريقين للتجارة مع غربى آسيا أعنى البر والبحر. والاختلاف بينهمـا مقيد فيمـا يختص بعلاقـات الصين الخارجية، وذلك أنه فى عصور تركيز سلطة الإمبراطورية فى الشمال (وعاصمتها فى مكان مثل سيايفو أو هونان فو) كان هناك جهد متواصل لتوجيه النشاط التجارى نحو الطرق البـرية، بينمـا على العكس عندمـا تراجـعت السلطة نـحـو الجنوب (وأقـامت عاصمتها فى مكان ما فى حوض يانج تسى الأدنى)، اعتمدت مشروعات التجارة على البحر بدرجة كبيرة. لا يدعى هذا التعميم أى تدقيق فى كل التفاصيل ولكن فى الأساس هناك مواثيق مدعمة تعود إلى الأزمنة الكلاسيكية والوسطى، والتى تشير إلى التغيرات السريعة فى الاتصالات البرية والبحرية بين الشرقين الأدنى والأقصى(١٠٠) وسواء أكانت الحكومة الشمالية فى الصين من أصل صينى أو أصل بدوى، فإنها بشكل طبيعى ترتبط فى مشروعاتها للدفاع عن الحدود والتوسع السياسى سياسة تجارية تعنى بحماية الطرق ضد غارات البدو.

ومن جهة أخرى، فإن أية حكومة جنوبية ستكون فى وضع أفضل للسيطرة وحفظ سواحل وموانى الصين ضد خطر القرصنة، وتشجيع مشروع الملاحة سواء فى البحار المجاورة للملايو الهندية، والهند، والبحار الغربية فى أقصى الركن الجنوبى الغربى للقارة.

وبعد تقوية نفوذها خلال القرون القليلة الأولى، كانت الصين مهتمة إلى حد كبير بفتح علاقات برية، وبعد سقوط الهان Han (فى ٢٢٠ بعد الميلاد) سيطر البدو على آسيا الوسطى ومعظم الصين، وأسست الأسر الوطنية لنفسها كيانات فى وسط وجنوبى الصين – واعتمدت هذه الأسر الأخيرة على تجارة نشأت فى البحر، والتى تطورت ونمت خصوصا تحت مايسمى سنج المبكرة Early Sung (٤٢٠-٤٧٨م) وتم إرسال بعثات استكشافية إلى أعالى البحار، وشجعت التجار الأجانب على الاستقرار فى موانى الصين، ثم جاءت بعد ذلك فترة التانج (Tang) (٦١٨-٩٠٦م) وخلالها تطور قدر معقول من التجارة عبر الطرق البرية التى أعيد افتتاحها رغم

الحفاظ على جزء من النشاط البحرى، وأرسلت البعثات الاستكشافية البحرية وشجعت التجار على الاستقرار فى موانى الصين، ثم ما لبثت أن تبعتها فترة أسرة تانج Tang (٦١٨-٩٠٦م)، وفى عهدها تحرك قدر كبير من التجارة على الطرق البرية الجديدة، وإن ظل جزء من النشاط البحرى مستمرا، وحين سقطت هذه الأسرة دخلنا فى فترة أخرى من الاضطرابات فى شمالى الصين، وشيدت الطرق البرية مرة أخرى، ولذلك نمت سلاسل من الدول البحرية والأسر فى الجنوب، وأعادت الملاحة البحرية. ومع سقوط هذه الأسرة قامت (حلت) فترة من الاضطرابات فى شمالى الصين، وتعطلت الطرق البرية مرة ثانية. وهكذا تحت حكم أسرة سانج (Sung) الثانية (٩٦٠ - ١٢٦٠) شارك الملاحون الصينيون فى التجارة والنقل عبر البحار الجنوبية، ورغم استمرار هذا إلى حد معين تحت أباطرة المغول، إلا أن فتح الطرق البرية عن طريق االمغول أثر على التبادل البحرى الذى لم يسترد عظمته حتى عصر أباطرة منج Ming الأوائل فى جنوب الصين، ومع ذلك فإنه عندما تركزت الأسرة الأخيرة فى الشمال، وكرست جهودها لمشكلة المانشو البدو، وأهمل التوسع البحرى تدريجيا، وانهارت العلاقات البحرية مع العالم الخارجى، والتى لم تسترد عافيتها حتى عصور حديثة، هذه كل قصة العلاقات الصينية الخارجية فى إطارها المبسط، ولكن يكمن خلفها الكثير من الاعتبارات سوف نناقشها فى الفصلين الثالث والرابع من هذه الدراسة .

المنطقة الثقافية الهندية الماليزية

العلاقات الثقافية والمكانية مع الصين والهند

الاتصالات الثقافية فى آسيا الموسمية

لقد أدى التوسع البحرى للصين إلى اتصالها مع المنطقة الثقافية للهند الماليزية التى رغم أنها من الناحية الفعلية خارج إطار الشرق الأقصى الصينى فإنها مرتبطة بشكل وثيق معه، وبالتالى فهى تستحق الإشارة فى هذا الموجز[١٠١].

لقد كان ضغط شعوب المغول من شرق آسيا على تلك المنطقة من الهند الصينية وماليزيا من جانبين، برى وبحرى. ومنذ أزمنة لا يمكن تحديدها بكل دقة، انقضت القبائل السابقة على الركن الشمالى الشرقى من القارة سواء عبر الأودية العليا فى ميكنج، مينام، وسلوين، وإيراوادئ وعلى طول السهول الخصبة ودلتا الساحل الشرقى. لقد دفعتهم الهجرة إلى أراض كانت تحتلها بالفعل قبائل بدائية أصيلة أو من مهاجرين من العالم الهندى والملايو[١٠٢] وازداد التقدم ناحية الجنوب سرعة بعد قيام الإمبراطورية الصينية، والتى أرسلت أسرها الموحدة من تش دايان Han قواتها إلى أبعد من شمال الهند الصينية. وخضعت أنام نفسها للإدارة الصينية من عام ١١١ ق.م حتى ٩٣٩ ميلادية، كما اعترفت بالسيادة الاسمية للإمبراطورية ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر. ورغم التسرب النسبى المحدود للمهاجرين الصينيين جنوب مناطق كوانج سى وكوانج تونج، فإن الثقافة الصينية والوسائل التكنولوجية الريفية تسربت تدريجيا بين شعب أنام والذى انتشر تحت الضغط من الشمال من تنج كينج جنوبا حتى كوشين صين[١٠٣].

يختلف المظهر الثانى للتوسع الصينى فى جنوب شرقى آسيا والذى تم من البحر فى تاريخه وطبيعته عن التقدم على الطرق البرية. ورغم أن فنون بناء السفن والملاحة قد تطورت على سواحل فوكين (Fu Kien) ومنطقة كانتون مع بداية العصر المسيحى، فقد كان البحارة فى هذه السواحل مشغولين أساسا بالتجارة المحلية والقرصنة أكثر من العمل فى تجارة ما وراء البحار الشرعية. وظل نصيب البحارة الصينيين (البحارة الذين لديهم نمط ثقافة صينى) دون أهمية حتى قامت الأسر الصينية فى جنوب الصين بحمايتهم بعد عدة قرون. ويجب أن نلاحظ مع هذا أنه منذ بداية تاريخها شمل النشاط البحرى قدرا معينا للهجرة من الصين إلى أشباه الجزر والجزيرة المجاورة والتى تلقت عبر هذه الوسيلة قدرا من الثقافة الصينية[١٠٤] وتلقت الهجرة دفعة جديدة فى الأزمنة الحديثة خصوصا منذ إدخال النظام الاقتصادى للإنتاج (المزارع وغيرها) والتى تعتمد بقدر كبير على مهارة وحماس العمالة الصفراء.

وقد حظيت الإضافة التاريخية للتطور التجارى والثقافى للملايو الهندية بدعم جديد للأنشطة الاقتصادية لهذه الأقطار. ويعد الصينيون فى جميع الأحوال العنصر الأجنبى المهم فى الملايو الهندية، وفضلا عن العناصر الأوربية الحالية فإن العرب الذين أدخلوا ثقافة جديدة كلية سوف نشير إليها فى الفصل الأخير، كما أن الهنود مثلوا تيارا من المهاجرين كان أكثر تبكيرا .

وحقا، فقد شق الملاحون الهنود طريقهم إلى البلاد التى عرفت عند الكتاب القدامى باسم شبه جزيرة الذهب (تيناسيريم). فى وقت امتد التوسع الصينى بالكاد إلى ما بعد يانج تسى، وقام المغامرون والتجار بعملية فرض الثقافة الهندية فى غرب وجنوب الهند الصينية وكثير من أجزاء أخرى من أندونسيا وشبه جزيرة الملايو، ورغم أن هؤلاء التجار كانوا يشكلون أقلية عددية، فإنهم شكلوا أرستقراطية هندية جديدة لا تزال موجودة إلى الوقت الحاضر .

ودخلت البراهمية (الهندوسية) فى مثل هذه الجزر البعيدة مثل جزيرة جاوا فى أوائل القرن الأول الميلادى، بينما جاءت البوذية بعدها بحوالى خمسة قرون، وبنفس الطريقة انتقل الفن الهندى إلى المجتمعات الجديدة حيث ازدهر لفترات عندما انهارت أو حلت محلها فنون أجنبية أخرى فى عدة مناطق من البلاد. وعلى خلاف البحارة الصينيين الذين لم يزد نفوذهم فى الهند الصينية إلا بقدر معين، استطاع (الراجا) الهنود تأسيس ممالك قوية، والتى سيطرت على التجارة فى تلك الفترة الحرجة والمهمة من طرق التجارة البحرية، وامتدت مملكة جريفجاية فى سومطرة، ومدت سيادتها على غرب ووسط جاوة، وجزء من شبه جزيرة الملايو، وطورت مركزا ثقافيا فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى، والتى تظهر آثار المعمارية فى اليدودور الشهير. إن ممالك جنوب الهند الصينية أو ما يسمى كامر وشامبا تداولا السلطة بينهم فى هذا الجزء من الهند الصينية، وتركت آثارها فى بعض أماكن مثل أبخكود (٧م)، ورغم الصراع بين الممالك الجنوبية وممالك شمال أنام وشرق الهند الصينية، والذى يعكس المنافسة بين الحضارتين الهندية والصينية للسيادة على الهند الصينية، فقد انتهى بالانتصار

السياسى للهند والذى ترك آثارا ممثلة فى الدين والفن والتقاليد والتى لا تزال لها اليد الطولى فى الثقافة فى هذه المنطقة. وفى الحقيقة يكمل التوسعان الثقافيان بعضهما البعض وذلك بتزويد ماليزيا الهندية شخصيتها الحالية كمنطقة وسيطة بين حضارتين من آسيا الموسمية.

ورغم هذا يجب ألا ننسى أنه مهما كانت قوة الاستعارة فى هذه المنطقة الانتقالية من الهند والصين وغربى آسيا أو غربى أوربا، فلم ينجحوا فى تقليل آثار العوامل المحلية أو فى تغيير أسس الثقافة والحياة الاجتماعية فى ماليزيا الهندية ككل.

إن معظم السكان (بغض النظر عن أصلهم) هم جماعة ذات لغات مشتركة يتحدثون بها وتختلف عن لغات الهند أو الصين. فالعزلة تعطى هذه المجموعة الثقافية وضعا جغرافيا تقوم عليه الحياة الاقتصادية على الجمع بين الأنشطة البرية والبحرية. كما لعبت بعض العناصر الأصلية للسكان خاصة ذوى الأصول الملاوية دورا مهما فى التجارة المحلية وفيما وراء البحار، وامتد مسرح نشاطهم من جنوب اليابان إلى شرق آسيا حيث أسسوا مناطق مستقرة وأدخلوا ثقافتهم ولغاتهم. ويمكن أن نقارن دورهم فى مياه المحيط الهندى والبحار الشرقية مع دور الفينيقيين أو الإغريق على البحار الغربية.

وباختصار لا يمكن المبالغة فى أهمية المركز الذى تحتله ماليزيا الهندية كمحطة للاتصال التجارى بين شرقى وغربى آسيا والدور الذى لعبته شعوبها كناقلى التجارة فى مختلف الاتجاهات، وسوف نعالجه أثناء هذه الدراسة عندما تسنح الفرصة.

تعقيب على الأسر الصينية وتواريخها.

ما يلى قائمة ملخصة لأهم الأسر التى حكمت الصين (أو جزءاً منه) والتواريخ التقريبية لفترة حكمهم، وحيث إن الكتب عن تاريخ الصين غير متاحة دائما، فلقد وجدنا أنه من المناسب أن نقدم هنا مثل هذه القائمة[١٠٥].

من سوء الحظ لا يوجد اتفاق مطلق فى الدراسات التاريخية على التواريخ الدقيقة لمختلف الأسر حول قيامها، وسقوطها، متمثلة في الحوادث الطويلة والتدريجية التى تغطى عددا من السنوات والتى لم تحدث فى تاريخ محدد.

وعلى هذا فإن القائمة التالية تقدم فكرة مناسبة بشكل تقريبى لأغراض العمل فى هذا المجلد الحالى(١٠٦).

١- هسيا (هيا) ٢٢٠٥ ق.م - ١٧٦٦ ق.م

٢- شانج (ين) ١٧٦٦ ق.م - ١١١٢ ق.م

٣- شو ١١٢ ق.م - ٢٥٥ ق.م

٤- تشن (تسن) ٢٢٣ ق.م - ٢٢١ ق.م - ٢٠٩ ق.م

٥- هان سابقا أو سى هان (غرب هان: ٢٠٦ (أو ٢٠٩ ق. م - ٢٥٩م.

٦- بعد ذلك (شرق الهان) ٢٥م- ٢١٩ (٢٠) بعد الميلاد.

٧- أسر صغيرة (معاصرة لبعضها البعض)

ما بين الهان والتانج:-

ثلاث ممالك: ٢٢٠ م - ٢٦٥ م

شن: ٢٦٥ م - ٤١٩ م

أسر وى ٣٨٦م - ٥٥٠ م

سيو ٥٨١ م - ٦١٨ أو ٦١٩ م

٨- سنج (سنج المبكرة، جنوب الصين)

٤٢٠ م - ٤٧٨ أو ٤٧٩م

- تانج ٦١٨م -٠ ٩٠٧م

- فترة خمس أسر ٩٠٧م - ٩٦٠م

سنج أو سنج المتأخرة (شمال) ٩٦٠ م - ١١٢٧ م

٩- سنج أو سنج المتأخرة (جنوب) ١١٢٧م - ١٢٧٩م).

١٠- كيتانا ٩١٢م - ١١١٧ م

١١- نوشين ١١١١ م - ١٢٣٢ م أو ١٢٣٤م

١٢- يوان (مغول ١٢٢٩م - ١٢٦٠م أو ١٢٧٩م و ١٢٦٠ أو ١٢٨٠ م - ١٣٦٨م.

١٣- منج: ١٣٦٨ م - ١٦٤٣ أو ١٦٤٤ م.

١٤- مانشو (تسنج) ١٦٤٤ م - ١٩١١م

١٥- جمهورية: ١٩١٢.

الهوامش

(١) لمعرفة بعض المصاعب التى واجهها المهاجرون الصينيون فى هذه المنطقة انظر

J. Sion: Asia de Mousons (in Gographie Universelle, Ix. I re partie) Chine-Japon - Paris, 1928, pp 146- 247.

(٢) حسب المصادر الصينية انتقل سكان التبت أساسا من وسط هوانج هو إلى كوكونور حسب أمر إمبراطور أسطورى من الألفية الثالثة ق.م انظر

F. Grenard : Haute Asie (in Geographic Universalle, I, VIII) Paris 1929 pp. 362-363

(٣) لمعرفة التأثيرات الفنية لنيبال فى منطقة تون هونج – انظر

A. Stein, Serirdia, Oxford, 1921, vol. II, pp. 861 - 863.

(٤) يبدو أن البوذية قد دخلت أساسا إلى التبت من الصين والتى تلقتها من شمال غرب الهند (أرض العقيدة) عن طريق جنوب تاريم، وفى أديرة التبت، وتطور الشكل المتخصص من اللامية البوذية تدريجيا قبل أن يعاد انتشاره فى الصين لدراسة أكثر تفصيلا عن انتشار البوذية فى مناطق متفرقة من الفصل الخامس من الدراسة .

(٥) Seven Hedin, Trans-Himalaya, 3 vol, London, 1910-1913, Reference in vol, III p.314

(٦) A. Stein, Innermost Asia, Its Geography as a Factor in History, Geog, Journal , vol. lxv No. 5(May, 1925), p. 391.

(٧) C. Bishop, Beginnings of Civilization in E. Asia, in Antiquity 1940, pp. 301-316

(٨) لقد أوضحت السجلات التى ألقت الأضواء على حفريات السير أوريل ستين على طول هذا السور وأفادت أنه قد بنى فى الوقت الذى كانت فيه علاقات الصين مع دول الغرب، وقد تمت هذه أول مرة من خلال وسط آسيا – انظر هذه المقالة فى . G. J. ibid, p. 395

(٩) تشكل سهول إتسن جول مشتلا للبداوة فى صحراء بيشان ومجاورة للحدود الصينية وكممر للغزو شمال جوبى.

(١٠) تدعمت السلطة الصينية هناك فى الفترة من: العقود الأخيرة للقرن الثانى ق.م حتى الربع الثانى من القرن الرابع بعد الميلاد رغم أنها صارت أقل أهمية بعد عام ٢٧٠ بعد الميلاد – انظر

A. Stein , Innermost Asia, Oxford 1928, vol. I pp. 229-230 also his Serindia, loc. Cit vol . I , p. 408.

(١١) A. Stein : Innermost . Asia , Loc. Cit , vol. I. pp. 231 and 241

ومن جهة أخرى فإن الآثار الحريرية هى صينية فى طبيعتها وتصميماتها وربما تم استيرادها من الصين.

(١٢) A. Stein : Innermost Asia , Loc. Cit, vol. II, p. 571.

(١٣) فى ظل الإدارة الصينية، فإن ما يسمى بمديريات انتريور ويوستيريور شوسية والتى تتمشى مع المنحدرات الاثنين لتين شان كانت متصلة معا، وكان هذا فى الأساس مرتبطا بالأحوال الطبيعية للبلاد.

(١٤) وكمثال لمثل هذه التحركات التى وقعت فى القرن الأول انظر

Innermost Asia Loc,Cit, vol,11.,p.572 Astein, Idem, Vol. II, p. 577.

(١٥) هناك إشارة إلى وفرة من السوجديان تم اكتشافها من تورفان ومواقع أخرى فى وسط أسيا مثل تون هونج غرب كان شوه فى

Stein , Serindia , Loc. Cit . vol. II,pp.646,668,76 et seq.

(١٦) للمزيد عن آثار المدافن التى تدل على السمة المختلطة لهذه المنطقة فى نظامها فى الدفن وغيرها – انظر

A . Stein : Innermost Asia, Loc Cit . Vol II, pp. 646, 668, 67 et sea

(١٧) A . Stein , Innermost Asia, Vol. I, pp. 233 et sea

(١٨) يظهر هذا التأثير الغربى بشكل أفضل فى تصميمات النسيج الصينى فى القرون السابع والثامن بعد الميلاد افتتحت طرق التجارة فى ظل

(١٩) A Stein, Innermost Asia , Loc . Cit. vol. II. P. 576.

(٢٠) A. Remusat, Histoire de le ville de Khotan tiree des annals de la Chine et traduite de chinois, Paris 1820 p. I. Also Sven Hedin, Through Asia, London, 1898, vol. II. P. 776.

(٢١) A. Remusat , Histoire de la ville de Khotan, loc. Cit. p. II

(٢٢) انظر A. Stein,s article in Geo. Gournal (1925) loc. Cit. pp. 485 - 486.

(٢٣) نعنى بالثقافة الهندية ببساطة تأثيراً ثقافياً فى الهند أكثر منه أى نمط خاص من الثقافة التى تسود فى كل الهند.

(٢٤) A. Stein, in Geog. Journal , idem p. 486.

(٢٥) F.F. von Richthofen, China: Ergebnisse eigener Reisen und darouf gerundeter Studien, Berlin 1877 vol. I pp. 500 - 551.

(٢٦) لهذا الاقتراح اللطيف والتشابه فى تشكيل الاسم سيرندا والهند الصينية انظر

G. Coedes, Textesd, auteurs grecs et Latins relatifs al, Extreme Orient depuis le Iv Siecle av, J.C. jusqu au xiv siecle recueillis et traduits, paris 1911 Introduction p. xxix.

(٢٧) سوف نناقش ارتباط الاسم سيركوم مع الجزء الشمالى الغربى من الإمبراطورية الصينية بشكل أوسع فى الفصل التالى.

(٢٨) A. Rumsat, Histore de la ville Khotun, loc. Cit. pp. 37 et seq,

(٢٩) Sven Hedin, Through Asia, Loc. Cit. vol . II p.785.

(٣٠) يجب أن نتذكر أن مصطلح غرب تستخدم هنا لتدل على غرب آسيا عموما.

(٣١) مارست الصين أيضا تأثيرها على بعض أشكال الرسم فى إيران.

(٣٢) لا يمنع هذا من حقيقة التوغل الفنى من الجانب الآخر أى غربى آسيا والتى كانت أكثر فعالية وأهمية .

(٣٣) O. M. Dalton, Byzantine Art and Archaelogy, Loc. Cit. p. 586.

(٣٤) بالإضافة إلى تأثير الصين على فن النسيج والرسوم فى فارس فإنه تم تقليد البورسلين الصينى فى مصانع الدولة - أيضا انظر

Vide infra Appendix to Chapters III and IV

(٣٥) يجب أن نلاحظ هنا أن الأمان الذى هيأته زاد من اتصال الصين ووسط آسيا وساعد على امتداد مستعمراتهم فى أجزاء معينة مثل منطقة تون هونج التى يحميها خط من الحجر الجيرى، وليس صحيحا أن تعتبر السور العظيم على أنه مجرد رمز لسياسة الانعزال من جانب الصين.

(٣٦) مع هذا لا يوجد توافق عام بين دارسى الصين حول القيمة الحقيقة ومدى مساهمة الاستبس فى قيام وتطور الثقافة الصينية.

(٣٧) L. H. D. Buxton, in Encyc. Britannica 14 th ed. (1929) article on Chjina (ethnography and archaelogy) Vol. V, pp. 525 - 526.

(٣٨) كان هذا خصوصا حالة الكيتاى والمغول.

(٣٩) فى الحقيقة فإن منغوليا قد تأثرت قليلا بالثقافة الصينية.

(٤٠) وضح هذا فى جنوب متشوريا حيث استورد اليابانيون عناصر مركبة من ثقافة أوربا الغربية.

(٤١) إن الاضطرابات السياسية والعسكرية الحالية حينئذ فى الشرق الأقصى من المحتمل أن تتداخل مع هذه العملية فقط بشكل مؤقت.

(٤٢) سوف نناقش الاختلافات السياسية والدينية والثقافية بين شرق وغرب الاستبس الآسيوى وعلاقاتها بالصين فى الفصل الأخير من هذا العمل.

(٤٣) ينتمى المغول إلى الأتراك بينما المانشو أصلهم من شعب التونجوس.

(٤٤) قام بهذا التعديل باسبا وهو قسيس من التبت يعمل فى خدمة كوبيلاى خان - انظر

L. H. D. Buxton: China , The Land and the population , a Human Geography Oxford 1929, p. 175.

(٤٥) توضح الكتابة المغولية التى وضعت على أساس التركية (العربية) وتأثرت بالنظم الصينية والتبتية فى الكتابة الطبيعية المختلطة لوسط آسيا التى تلقت عناصر ثقافية من مختلف الاتجاهات.

(٤٦) L. H. D. Buxton, ibid., pp. 175 - 176.

(٤٧) من الواضح تماما أنه ما إن تنتهى الاضطرابات السياسية فى الصين الشمالية فإن الهجرة الموسمية والدائمة فى منغوليا الداخلية ومنشوريا سوف تستمر وقد تكون أكثر نشاطا حتى فى ظل الإشراف اليابانى.

(٤٨) لمعرفة هجرة الإينو انظر – C. W. Bishop, The Historical of Early Japan in the Am. Geographical Review Vol. XIII, January 1923 pp. 34 - 44.

(٤٩) C.W. Bishop, ibid, pp. 44-45.

(٥٠) تختلف اليابان فى هذا المقام عن بريطانيا التى جاء سكانها من درجات عرضية تتراوح بين المناخ المعتدل البارد لشمال أوربا والمعتدلة الدفيئة للبحر المتوسط

(٥١) See Maurice Counrant, La Coree jus qu,au Ix Siecle, ses rapports avc de Japan et Son influence, sur les Origines de la Civilization japonaise in Toung Pao, vol. Ix, 1898,pp. 6-7

(٥٢) ثلاثينيات القرن الماضى Also reference in Lloyed, The Creed of Half Japan : Historical Sketches of Japanese Buddhism London, 1911

(٥٣) C. W. Bishop, The Hist Geog etc, Loc. Cit, p. 53

يرى بيشوب بالمنطق أن هذا النمط من الزراعة أدى إلى ثورة فى النظام الاجتماعى لهذه الدولة بخلق طبقة من العبيد الذين يعملون فى الحقول.

Courant, ibid, pp. 13,

حيث أعطى تقريرا عن ثراء كوريا خصوصا فى القرن الثامن والتاسع بعد الميلاد.

(٥٤) عرف البرونز هناك حوالى القرن الثانى بعد الميلاد والحديد بعد قرن أو اثنين بعد ذلك

W. Bishop, The Hist. Geog of Early Japan loc. Cit. pp. 50-51.

(٥٥) تم الاعتراف بالبوذية رسميا فى الصين فى القرن الأول بعد الميلاد وبعد ثلاثة قرون دخلت البوذية إلى كوريا ومن ثم انتقلت إلى اليابان انظر

A. LLOYD : The Creed of Half Japan loc. Cit , pp. 168 et seq and 171 Also M. Courant : La Corer ete loc . cit. pp. 21 et seq.

(٥٦) M. Courant, ibid, pp. 23-26.

(٥٧) See Supra, p. 49. footnote I

وعلى الرغم من أن نسيج شعب الإيتو Ito قد وجد فى نارا والتى تحمل ملامح ساسانية قد تكون ببساطة مستوردة فى اليابان من خلال التجارة ولكن مثل هذه الواردات لم يكن لها تأثير على الذوق اليابانى

(٥٨) M . Courant, La Coree l etc loc. Cit, pp. 26 - 27

(٥٩) يجب قراءة هذا النص بمساعدة خريطة طبيعية مفصلة عن الصين .

(٦٠) لدراسة التقرير العام عن استعارة الصين من غرب ووسط آسيا انظر

C. Bishop, Beginnings of Civilization in East Asia, in Antiquity, Sept. 1940 pp. 310 - 316.

(٦١) حسب مشروع P. M. Roxby في مقال عن الصين في الموسوعة البريطانية، المجلد الرابع عشر عام ١٩٢٩، المجلد الخامس ص ٥١٢ .

(٦٢) بشأن خط التقسيم هذا انظر

J. Sion, Asia des Monssons loc, cit. I re partie, p. 58

(٦٣) See C. W. Bishop. The Geographical Factors in the Development of Chinese Civilization in Am - Geog Review vol XII Jan 1922, p, 28 and also J. Sion Asie des Moussons Loc. Cit, re partie p, 79.

(٦٤) يوجد إشارة للرأيين في

L. H. D. Buxton , Ching, the land and the Population , Loc. Cit . pp. 162 0 163.

(٦٥) Vide Supra, p. 42, footnote I. Reference in F. Greenard, Haute Asie (in Geog, Universelle. (T. viii) Paris 1929 pp, 362 - 363.

(٦٦) هذا لا يلغى حقيقة أنه بسبب العوامل المناخية وغيرها يظل الجنوب أساسا مختلفا عن الشمال في الأسس الاقتصادية لأنماط حياته .

(٦٧) E. Huntington, The Characrer of Races, New York and London , 1927, p. 158.

هذه عبارة عامة لا تشمل مثلا مناطق محدودة نسبيا كما في وادى النيل الأدنى

(٦٨) E. Huntington, The Characher of Races Loc. Cit. pp. 194 et sea

(٦٩) Terien de Lacouperie, Western Origin of early Chinese Civilization , London, 1894, p. 46

(٧٠) T. de Lacouperie, ibid, p. 46

للمزيد عن الأحجار الكريمة وتجارتها في العصور المبكرة انظر – Idem, p, 31 ومن أجل التوصل إلى التواريخ التقريبية للأسرات الصينية، سنورد ملخصا في نهاية هذا الفصل.

(٧١) T. de Lacouperie , ibid, p. 50 .

(٧٢) See C. W. Bishop, in the Geog. Review , 1922 Loc. Cit . p. 34.

(٧٣) See J. L. Myres in the Universal History of the World (ed by , T, B. Hammerton , London) Chap 14 on the Rise of Ordered Civilizations , p. 445.

(٧٤) C. W. Bishop, in Geog, Review 1922, Loc, Cit., p. 35.

(٧٥) J. Sion, Asie des Moussons loc, Cit. I ra Partie, pp. 145 - 146

(٧٦) See G. Phillips, Two Mediqual Fu-Lcien Ports : Chuan. Chow and Chang- chow in Toung pao, Vol, VI, 1895, pp. 450 - 451

(٧٧) يتكون الحرف (بالصينى) الذى يكتب به كلمة شو أحد أجزائه رمز الغابة انظر
C. W. Bishop, in Geog, Review 1922, ibid, p. 34.

(٧٨) انظر C. W. Bishop, Idem, pp, 35-36

(٧٩) لكى نستخدم اصطلاح ب. م روكسبى فى مقاله عن الصين فى دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة المجلد الخامس ص ٥٠٨ .

(٨٠) شاهدنا في العصور الحديثة أن إهمال الأتراك لأعمال الرى فى العراق أدى إلى دمار اقتصادى للدولة.

(٨١) على سبيل المثال القضاء بين تاريخ مصر فى العصرين اليونانى والرومانى، والعربى .

(٨٢) يعد إنشاء ما يسمى تقاليد المكاتب أحد مساوىء البيروقراطية .

(٨٣) سوف نرى بعد ذلك في هذا العمل أن تحقيق الاستقرار والأمان على طول الطرق البرية سواء من جانب السلطة الصينية أو بعض التنظيمات القبلية يشجع على التلاحم والتداخل عبر آسيا الوسطى على حساب العلاقات البحرية والعكس بالعكس .

(٨٤) بعد الاحتفاظ بمستوى مرتفع نسبيا طوال القرون الأولى من العصر المسيحى، يقال إن مياه بحر قزوين قد هبطت وقد بلغت أعلى قمتين لمستواه فى نحو القرن السابع، وبداية القرن السابع عشر الميلادى.
لمزيد من التفاصيل انظر
E. Huntington : The Pulse of Asia, Boston 1907 pp. 356 et seq and C. E. P. Brooks, The Evolution of Climate, London 1925, pp, 153 - 154.

(٨٥) E. Huntington, ibid pp, 239 et seq and 378 - 379.

(٨٦) E. Huntington, The Character of Races New York 1927, Chap. X pp, 148 - 157
يشير س.و. بيشوب إلى العلاقة الممكنة بين التغيرات المناخية والغزوات الأولى وتغير الأسر فى الصين – انظر إلى مقاله فى
Geographical Review, 1922, Loc. Cit. pp, 31 - 32.

(٨٧) Sven Hedin, Through Asia Vol . II (London 1898) Chap , LXX pp, 864 - 884, R. C. F. Shomberg, The Climatic conditions of the Tarim Basin in Geographical Journal, vol, 75 (1930), pp, 315 et seq
ومن الواضح رغم هذا يعترف المؤلف الأول بإمكانية التغيرات المناخية فى أجزاء أخرى من آسيا مثل حوض قزوين انظر له
Overland to India, Vol. II , London 1910, p. 225.

(٨٨) فى الوقت الحاضر لم تصل مياه هذه المجارى المائية إلى أبعد من صحراء تكلما كان الحال فى الأزمنة السابقة عندما كانت نهايتها واحات نيا ، ودان دان، وأويليك، وأندريه – وهى حاليا حطام على حين أنها كانت مزدهرة فى الماضى .

انظر المقال فى

Inner most Asia in Geog, Journal Vol. LXV (June 1925) p. 489.

(٨٩) انظر مقالته فى ibid , pp, 474 and 486-489

(٩٠) فى بداية هذا الفصل Vide Supra

(٩١) فى أمثلة كثيرة كان الضعف السياسى للصين كافيا لدعوة مثل هذه الطرق الفرعية، ويقترح مؤلفو The Corridors of Time أن الاعتماد المتزايد على الحصان فى النصف الثانى من الألفية الثالثة ق.م أدى إلى مزيد من الحركة فى الاستبس، وبالتالى انتشار السكان فى ذلك الحين.

(٩٢) انظر للمزيد عن هذه الامبراطورية E. H. Parker, A Thousand Years of the Tartars, 2 nd ed., London 1924, Bk IV Particularly pp- 131 et sea .93- E. H. Parker , ibid., pp. 190 and 207.

(٩٤) على الرغم من أن العوامل المناخية ربما يكون لها شىء ما فى هذه الحركة ومن المؤكد أن توسع الكيتى وبعد ذلك المغول أغرى الأتراك على الهجرة غربا .

(٩٥) من المفيد أن نلاحظ على الرغم من أن تيمورلنك قضى على قوة بيازيد الأول فى أراضى أنجورا عام ١٤٠٢ إلا أن إمبراطورية الثانى قدر لها أن تعيش أكثر من الأولى، ويرجع هذا إلى حد ما للموقع المناسب للعثمانيين على الحافة الغربية – الأفضل مصادر مياه – للسهول.

(٩٦) للمزيد عن هذه الإمبراطورية انظر

E. H. Parker, A Thousand Years of the Tartars, 2 nd ed, London 1924 Bk IV , Particularly pp, 131 et sea.

(٩٧) خلال القرون القليلة الأخيرة حدثت عدة تقلبات فى آسيا الوسطى، ولكن إلى حد انتشار غزوات أوسع كلها برهنت على الفشل (أى الإمبراطورية الإسلامية قصر الأجل ليعقوب بك فى السبعينيات من القرن الأخير) ومن المفيد أن نلحظ أن تقدم روسيا من الغرب والتقدم الحالى – لليابان من الشرق سوف تقلل فرصة أى إحياء للبداوة أو انتشار البداوة من سهول آسيا فى المستقبل القريب .

(٩٨) على الرغم من أن جزءا صغيرا من المطر يسقط فى داخل آسيا وخصوصا فى أوائل الربيع يعد سمة تقليدية إلا أن معظم الأمطار التى تسقط على أراضى المراعى فى شرق ووسط وغرب وجنوب غرب آسيا من خلال ثلاثة أو أربعة تيارات هوائية:

١– من المحيط الهادى عبر شمال الصين

٢– من المحيط الأطلنطى عبر سهول أوربا

٣- من المحيط الأطلسى عبر البحر المتوسط والهضبة الإيرانية (انخفاضات جوية شتوية)

٤- وأخيرا من البحر الغربى إلى جنوب الجزيرة وأجزاء من إيران

ويبدو أن كل من هذه التيارات قد تأثر بطريقة أو أخرى بنفس مناطق الضغط القارى التى تؤثر فى الآخرين.

(٩٩) E. H. Parker, A thousand Years of the Tartars, Loc. Cit, pp. 206 - 207.

(١٠٠) يعتمد المؤلف فى استنتاج هذا التعميم على السجلات الصينية والغربية (أساسا العربية).

(١٠١) يدخل جزء من هذه المنطقة أحيانا تحت ما يطلق عليه التعبير الفرنسى " الشرق الأقصى " ويبرر هذا إلى حد ما أن بعض المظاهر الثقافية الصينية تتمثل بقوة فى الإقليم الساحلى لتونج كينج وأنام، ولكن لا يمكن اعتبار أن شمال وشرق الهند الصينية كجزء من المنطقة الثقافية الصينية .

(١٠٢) عن أثر تقدم الشعوب المغولية من الحدود الصينية التبتية إلى الهند الصينية انظر الخريطة الواردة فى J. Sion, "Asia de Moussons, loc. Cit., Inde, Indochine والجزء الثانى Inde, Indo-chine Insulinde شكل ٧٠ الذى يبين توزيع شعوب الثاى وأنام من بين العناصر القديمة للسكان، وأيضا صفحات ٤٠٤، ٤٠٧ .

(١٠٣) للتعرف على أثار الثقافة الصينية عن أنام انظر المرجع السابق J. Sion صفحات ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١٠٤) على الرغم من هذا فالهجرات كانت ذات طبيعة مؤقتة، وبالتالى كانت تأثيراتها السلالية غير ظاهرة، وذابت السلالات الخليطة فى مجموع السكان .

(١٠٥) ومن جهة أخرى، فلم يعتقد أن هذا ضرورى فى حالة المشرق العربى الذى كان تاريخه فى الفترة موضع النقاش متوفر فى معظم الأعمال العامة الخاصة بالتاريخ القديم والوسيط.

(١٠٦) توجد قائمة فى:

H. Cordierpla C hine , Payot , Paris, 1921, pp. 135-138.

الفصل الثالث

العلاقات التجارية فى الفترة الإغريقية الرومانية

(أواخر القرن الرابع ق.م حتى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد)

دراسة لافتتاح الطرق

قدوم الإسكندر وافتتاح الطرق البرية

كما يحدث فى الحروب العظمى من تقابل مختلف الأقطار والشعوب فقد سجل قدوم الإسكندر نقطة تحول فى قصة الحضارة الإنسانية فى الشرقين الأوسط والأدنى. وتستمر المرحلة التى نستهلها فى التوجه التجارى والمركب الثقافى فى هذه المنطقة ليس فقط خلال ما يسمى بالفترة الإغريقية الرومانية، ولكن أيضا حتى الحقبة الإسلامية. وقد ظل نشاط التجار الإغريق أساسا مقصورا على الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وأدى الاتصال المبكر بين الحضارات الإغريقية والفارسية إلى إنعاش بسيط للتجارة فيما وراء بلادهم حتى القرن الرابع ق.م. ففضلا عن تجارة بسيطة فى مياه البحر الأحمر كانت باقية من عصر الملك سليمان وميناءه القديم فى أيزون - جابر، أيلا، (العقبة الحديثة) وما يسمى بالطريق الملكى أو عبر Via Regia (١) والمؤدى من إفسوس على الساحل الغربى لآسيا الصغرى عبر بوابات صقلية إلى سوسا. والتى عملت كممر للخدمات الحكومية والأعمال الخاصة بملوك فارس القديمة، فقد كانت التجارة والتبادل الحضارى بين الجوانب البعيدة للعالم المتحضر فى الشرق والغرب ضئيلا.

وقد انتقلت حضارة الإغريق على الجسر البرى لآسيا الصغرى من خلال رحلة وحملة الإسكندر، وساعدت على إحداث ثورة فى الشرق امتدت إلى الهند وقلب آسيا. بعد سنوات قليلة من بداية الحملة فى عام ٣٣٤ ق.م، استطاع أن يهزم إمبراطورية الأخمينيين والتوجه إلى إكباتانا والأقاليم الشرقية. وفى عام ٣٢٩ ق.م اتجه إلى بكترا (بلقاه) وعبر الأكسوس(*) إلى مارسندا (سمرقند) عاصمة سوجهديانا (Sughdiana).

وفى ربيع عام ٣٢٨ ق.م استولى على المركز التجارى لمروى (مروى أو مرو) وبعدما أعاد النظام فى منطقة التركستان التى كانت خاضعة له، وقاد قواته إلى الهند فى عام ٣٢٧ ق.م. وبصرف النظر عن التأثير الذى لا يمحى والذى تركته محاولاته على عقول وخيالات وعلى شعوب غربى آسيا ككل، فإن مشروعه العظيم فتح فى النهاية العالم المغلق للشرق الأوسط أمام تجار البحر المتوسط. وقد أدى تدمير عظمة الإمبراطورية الفارسية واختفاء شخص الإسكندر من المسرح إلى انتكاسة بعيدة المدى فى المنظور السياسى لكل المنطقة وعلى الرغم من أن إمبراطورية الإسكندر قد قسمت بين قواده المتنافسين، فقد استمرت الحرب الأهلية التى نشبت بين هؤلاء لمدة أكثر من أربعين عاما، وكانت مسئولة (بشكل مباشر أو غير مباشر) عن اتصالات جديدة بين مختلف أجزاء الشرق الأدنى والأوسط[٢] واستولى الأمراء المحليون على السلطة حتى فى شمال الهند، واستطاع أحدهم ويدعى شاندرا جوبتا تحدى وهزيمة القائد المشهور سليوكس الأول، وقامت مملكة إغريقية فى وسط آسيا وهى مملكة بكتريا فى عام ٢٥٦ ق.م بزعامة ديودوتس، حاكم الألف مدينة فى بكتريا، وكان مقدرا له أن يلعب دورا مهما فى التجارة بين الشرق والغرب وبسطت مملكته نفوذها تدريجيا على شمال غرب الهند، وواصل تجارهم العمل كوسطاء للتجارة حتى بعد سقوط مملكتهم على يد القوة المتقدمة ليوهشى (Yueh - Chi) والذى هاجر من الحدود الشمالية الغربية للصين فى حوالى منتصف القرن الثانى ق.م[٣] وتأسست مملكة مشابهة رغم أنها كانت أكثر

(*) نهر أموداديا وهو أحد نهرين يصبان فى بحر آرال والآخر سيرا داريا (المترجم)

ديمومة وتأثيرا (فى نفس الوقت مثل بكتريا) بزعامة أسرة Arsacids فى بارثيا (شمالى إيران) التى احتلت مكانة حيوية وحاسمة فى السيطرة على الطرق البرية، وخصوصا الطريق الذى قامت عليه تجارة الحرير، وكما سنرى فيما بعد تركزت عملية السيطرة على التجارة بين الهند ووسط وشرق آسيا من جهة، والشرق الرومانى من جهة أخرى فى أيدى تجار هذه المملكة حتى تحطمت فى النهاية على أيدى أسرة الساسانيين حوالى عام ٢٢٨ بعد الميلاد .

البطالمة وطريق البحر الأحمر

طالما أننا معنيون بالعلاقات البحرية، فيبدو أنه كان لقدوم الإسكندر أثر كبير مساو لأثر الفرس، وأدرك الغازى المقدونى تماما أهمية مثل هذه العلاقات، وكان قصده تدمير سياسة الأخمينيين الذين عرقلوا بشكل واضح النشاط البحرى، ويقال إنهم أغلقوا فعلا مصبات أنهار الرافدين عن طريق السدود المفيدة لأغراض الرى وإن كانت قاتلة للملاحة[٤].

ورغم أن الرحلة البحرية لنيركوس (أميرال بحرية الإسكندر) على طول ساحل مكران لم تحقق نجاحا، فإنها بالتأكيد ساعدت على إثارة اهتمام الإغريق للمشاركة فى أنشطة البحار الجنوبية، والتى كانت حتى ذلك اليوم فى أيدى بحارة الخليج الفارسى أو سواحل جنوب الجزيرة العربية .

ومع ذلك كان التقدم الحقيقى للتجار الإغريق فى البحر الأحمر ما قدم بديلا أكثر قبولا فى الخليج العربى. وما هو جديد بالذكر هنا أن قدم العلاقات المصرية مع بلاد بونت حول الجزء الجنوبى من البحر الأحمر وخليج عدن ليست محلا للنقاش، وترجع أول محاولة مسجلة من الفراعنة لضمان علاقات تجارية حميمة مع هذه المنطقة إلى الأسر الخامسة، عندما أرسل الملك ساحورع (٢٧٤٣ - ٢٧٣١ ق.م) حملة ناجحة عبر الصحراء الشرقية وعلى طول الساحل الأفريقى[٥].

وازدادت أهمية قفط منذ ذلك الوقت لعلاقتها مع بعض مناجم الصحراء الشرقية، كما استخدمت أيضا كنقطة مريحة لعبور نفس الصحراء من أضيق أجزائها حيث تتسلق أودية جافة إلى سلاسل تلال البحر الأحمر. ولم يختلف التجار إلا بشكل عارض على مختلف الطرق الأخرى التى توصل إلى مواقع الموانى فى بيرينس (رأس بنياس) ولوكوس ليمن (القصير) ومويوس هورمس أبو شعر) إلا بين الحين والحين. وعندما انتقلت مصر إلى حكم أسرة لاجيد (البطالمة) فى نهاية القرن الرابع ق.م، بدأ ظهور مرحلة جديدة من العلاقات التجارية الحميمة (الوثيقة). وأظهر الحكام الجدد خصوصا بطليموس فيلادلفيوس الثانى اهتماما كبيرا بالتجارة مع سواحل إثيوبيا وجنوب غرب الجزيرة العربية، والتى استطاعوا الحصول منها على البخور، العاج، والبهارات، والعبيد، ودرع السلحفاة، وغيرها من السلع الواردة حتى من الهند فضلا عن الفيلة التى صارت عنصرا مهما فى الجيوش الهلينية، ولهذا الغرض استردوا بحرص الطرق التى تربط قفط مع البحر الأحمر وزودوها بمحطات الراحة والحراسة، وأقاموا خدمة بين موانيهم والبحار الجنوبية (انظر خريطة رقم١) وقاموا أيضا بإعادة حفر القناة المتفرعة من الفرع البيلوزى للنيل، على طول وادى الطميلات إلى البحيرات المرة وخليج السويس، كما شيدوا المرافىء الجديدة فى أرسنيوس أو كليوباتريس (أردشرود قرب السويس) على رأس البحر الأحمر(٦) ورغم المشكلات الملاحية، استطاع البطالمة زرع مستعمرات تجارية من المصريين المتأغرقين حتى جزيرة سوقطرة(٧)، ومع هذا صار هؤلاء التجار قانعين بالوصول إلى خليج عدن حيث التقوا مع تجار عرب وهنود وتبادلوا معهم السلع، وفى الحقيقة فهم لم يصلوا إلى المستوى الذى حققته أنشطتهم التجارية فى عهد البطالمة الأوائل، ومن جهة أخرى أدى انهيار التطور الزراعى لمصر فى عصر البطالمة الأوائل تدريجيا إلى انخفاض القوة الشرائية للمنتجات الشرقية، على حين أدى قيام الإمبراطورية الفارسية فى شمال إيران إلى تحول جزء من التجارة الشرقية والهندية إلى الطرق البرية، ولم تبدأ التجارة فى البحر الأحمر فى استرداد تجارتها المفقودة إلا بعد قيام روما، ولكن قبل أن نبدأ فى مناقشة المراحل المتتالية للمشروع الرومانى فى التجارة الشرقية برا وبحر، وهى مناقشة سوف

تشمل حتما تفاصيل عن الاقطار الوسيطة ومراكز توزيع السلع ومشروعات التجارة خاصة فى الهند وإيران – فإن الملامح الرئيسبة فى جهود الصين المبكرة لإقامة تبادل مع غربى آسيا يتحتم مناقشتها بشىء من التفصيل على أمل أن تساعدنا مثل هذه الدراسة لفهم الوضع الجغرافى لمختلف الطرق التى فتحها الصينيون، وتبعتها التجارة خلال الأزمنة الرومانية الإغريقية أو العصور الإسلامية .

جهود الصين لفتح الطرق البرية والبحرية

نحو الغرب[٨]

الوضع الجغرافى للطرق البرية الجديدة

من المعروف أنه حدث تغير سياسى كبير فى الصين فى نفس زمن حملة الإسكندر ولمدة قرن بعد ذلك، وقد تولت الدولة الصغيرة شن Chin مهمة توحيد الدويلات الفيدرالية الصينية المرتبطة المفككة حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، ويسجل حكم أول إمبراطور لشن ويدعى شيه هوانج تى فى أواخر القرن الثالث ق.م عهدا جديدا فى علاقات الصين مع العالم الخارجى، ومنذ بداية عصره وربما للقرن التالى من الأحوال غير المستقرة نسبيا كان لمختلف أجزاء الإمبراطورية مثل شوه Shuh (سترتشوان) وليانج (الحدود الشمالية الغربية) وبعض النقاط الأخرى على ساحل البحر علاقاتها التجارية الخاصة مع بعض الأقطار الأجنبية سواء برا أو بحرا[٩] ومن بين أهم إنجازاته – فيما يختص بالنظرة العامة للصين ككل – هى تدشين سياسة حدودية منتظمة نحو البدو فى ظل رقابة إمبراطورية وقد ظل الهدف الأساسى للمشروع استراتيجياً لفترة من الوقت، ولكن أدى انتشار السيادة الإمبراطورية على الحدود تدريجيا إلى تنظيم أفضل للعلاقات بين أراضى الاستبس والأراضى الزراعية، وبرزت مراكز للتسويق والتبادل التجارى ليس للمنتجات فحسب، بل أيضا للثقافة على طول خط الاتصال. وتطورت هذه السياسة ووصلت إلى نتائج منطقية فى عهد أسرة

هان التى جاءت بعد ذلك، وفى عام ١٧٠ ق.م أرسل الإمبراطور خصيًا صينيًا إلى كايوك Kayuk رئيس قبائل هيونج نو، ولكن بعد أن تخلى هذا الخصى عن ولائه لإمبراطوره، نصح الرئيس البربرى بالكلمات التالية:

"إن كل قبيلتك (جماعتك) تساوى فى عددها سكان ولايتين صينيتين، لكن سر قوتك يكمن فى استغنائك عن الصين فى كل حاجياتك الضرورية، إننى ألاحظ إعجابا متزايدا بالمنتجات الصينية. فكر فى كيف أن خمس الثروة الصينية تكفى لشراء كل شعبك، إن الحرير والستان لا تناسب تلك الحياة الخشنة التى يحيونها مقارنة باللباد، ولا حتى السلع الطيبة للصين وفى متناول اليد كالجبنة والمشروبات الروحية".(١٠)

وقد تجددت الاضطرابات على الحدود فى عهد كايوك (هيونج نو) واحتل يويه تشى ممر سوليهو (Su Lei Ho) الذى يفصل البدو الذين يرعون الأغنام فى التبت عن راكبى الخيل (مربو الخيول) فى الشمال، والذين أجبرهم الهيونج نو على الهجرة نحو الغرب، وعبروا سلاسل الصين (تين شان) بالقرب من كوليجا الحديثة، و شقوا طريقهم بصعوبة عبر المنطقة إلى لوسن من كوبدو ايلى الحديثة، و كانوا من المحتمل مهاجرين من كانسوه، هبطوا إلى بحر أرال (Aral). وعندئذ قسموا هذه المملكة بينهم وبين البارثنيين بعد أن استفادوا من ضعف الحكام الإغريق فى بكتريا، ومدوا إمبراطوريتهم إلى سهول شمال غرب الهند، وعرفهم الكتاب بعد ذلك تحت اسم غامض يدعى إندو سكيثيان.(١١)

ولكن عندما تم طرد يوه تشى من مقرهم القديم حيث كانوا فى تحالف مع الصينيين صار الوضع على الجانب الآخر أكثر خطورة، أرسل إمبراطور الهان ووتى Wuti (١٤٠-٨٧ق.م) قائده الشاب تشانج شين للبحث عن أماكن وجودهم لكى يقنعهم بالعودة إلى أماكن سكنهم القديم تحت ضمان وحماية الإمبراطورية عام (١٣٨ ق.م.)(١٢). و يقال إن توسع الصين فى وسط آسيا، واتصالها الرسمى مع أقطار الغرب قد بدأ مع هذه الحملة. وعندما وصل أخيرا تشانج شين إلى تايوان (فرغانة) بعد عدة محاولات من المصاعب بما فيها عشر سنوات من الأسر لدى الهيونج نو، حصل على

مرشدين لكى يرشدوه إلى معسكرات يوه تشى، ثم إلى شمال نهر أكسس Oxus وجد الأخيرة ثابتة تماما لدرجة أنها لم تقبل طلبه. وعلى الرغم من أن البعثة فشلت فى هدفها المباشر، فكانت النتيجة التى وصلت إليها من وجهة نظر العلاقات التجارية بعيدة المدى، لدرجة أن تشانج شن لقب بحق " فاتح طرق التجارة " وعندما عاد تشانج شين إلى وطنه أحضر معه معلومات مؤكدة عن الدول التى رآها فى آسيا الوسطى فضلا عن الهند وإيران (فارس). كما يقول أ. ستين إنه هو أول من كشف للوجود الصينى شعبا ذا حضارة عظيمة فيما وراء حزام القبائل البربرية الذين صاروا مطوقين داخل حدود أراضيهم(١٣).

وعلى عكس مارك بولو الذى لم يجد تقديرا عند عودته إلى أوربا العصور الوسطى لقى الرحالة الصينى ترحيبا، وتم تصديقه ومنحه أعلى تقدير باعتباره الرحالة العظيم(١٤) ومن بين الملاحظات الشيقة التى ذكرها عن التجارة فى الأسواق الغربية هى أنه شاهد بعض الأقمشة من شوه (Shuh)، (ومن الواضح أنه حرير من سزتشوان) وعصا البامبو (الخيزران) من كونج (القسم الغربى من سزتشوان) كما بلغ بكتريا – توكهارستان وتايوان (فرغانة) عبر شنتو (السند) وهى منطقة حارة، منخفضة، ورطبة على بعد عدة آلاف من اللى (تساوى ثلث ميل) جنوب شرق بكتريا حيث عاش الناس فى المدن ويسيرون إلى الحرب على ظهور الفيله(١٥).

وقد ذكر ثلاثة طرق من الصين إلى الغرب :

٢٥- عبر التبت الذى وصفه بأنه خطير جدا .

٢٦- عبر حوض تاريم الذى كان تحت السيطرة الكلية لقبائل هيونج نو وهم غير أصدقاء.

٢٧- عن طريق سزتشوان، الحد الجنوبى الغربى للهند والذى كان الأكثر أمانا وصلت منه البضائع والسلع التى شاهدها فى توكهارستان.(١٦)

ولا يترك هـذا أى شك فى أن عـلاقات الصين الخارجيـة فى ذلك الوقت كانت لا تزال فى أيدى تجار شوه القديمة (سيزتشوان) وأن الطرق البرية الوحيدة التى كانت تسلكها التجـارة كانت فى الجنوب الغربى.(١٧) و يرجع أول ذكر لتبادل تجارى على طول هذه الطرق إلى بدايات أسرة شـو (القرن الحادى عشر ق.م) ويقال إن ملكها قد تلقى جزية من وسط غرب يون نان بما فى ذلك قرد يعرف فيها باسم كودانج وهى الاسم الدرافيدى لهذا الحيوان. (١٨)

ومع ذلك لا يوجد أى دليل معتمد لأية تجارة فى هذا الاتجاه حتى القرن الرابع ق.م أى بعد تأسيس مستعمرات هندو (Hindu) على ساحل بيجو (Pegu) من حوالى القرن الخامس ق.م وبعده (١٩) من جهة وقيام مملكة تشاندرا جوبتا (٣٢٠-٣١٥ ق.م) حول باليبوثرا فى أقصى الحد الشرقى لهندوستان من جهة أخرى. (٢٠)

وفى الحق فقد ساعد انتشار الهندوس وثقافتهم نحو الشرق والشمال الشرقى على فتح هذه الطرق لعدة قرون قبل قدوم الصينيين وثقافتهم إلى أقصى الركن الشمالى الغربى من إمبراطوريتهم، ونتيجة لتوصيات تشانج تشن إلى الإمبراطور وى تى، يقال إن الأخير قد أرسل عدة حملات ناجحة لكشف طرق الجنوب الغربى لكى تنتهج (تتبنى) سياسة تجارية إمبراطورية مع الهند، وأخيرا الأقطار الغربية خاصة تاهيا (Tahia) (بكتريا) التى يقال إنها مليئة بالأشياء الغريبة وسكان يعيشون فى مساكن ثابتة، لكن مع وجود جيوش ضعيفة، وتعتمد اعتمادا كليا على منتجات الصين الغالية. (٢١)

ولكن تم إحباط هذه المحاولة بسبب مقاومة قبائل التبت والحدود الجنوبية الغربية، والذين بلا شك استفادوا من التحكم فى الطرق التجارية، وتحول الصينيون فى الحال نحو طرق تاريم. وفى هذا المجال وجدت أربعة طرق حاولوا إجراء تجارب عليها.(٢٢)

١- ما يسمى الطريق الجنوبى على طول المنحدرات الشمالية لمرتفعات نان شان وكوين لن عبر خط من الواحات القديمة حتى نصل إلى كوتان وما بعدها وبداية استخدامه كانت من المحتمل بعيدة فى القدم وهو يقدم طريقا مريحا للعلاقات مع

كشمير وشمال غرب الهند (عبر الممرات بين شرق هند كوشان والحافة الغربية لكاراكورم)، لكنه أقل أهمية وأقل ملاءمة للاتصالات المباشرة مع غرب تركستان والتى يمكن الوصول إليها بسهولة عبر الممرات الواقعة شمال مرتفعات البامير [٢٣].

٢- طريق الوسط أو طريق لولان والذى يتبع ممر سوليوهو إلى طبقات الملح للبونور والذى يلتف حول الجانب الشمالى الشرقى منها حتى يصل إلى الموقع القديم للوليان (٣٠َ ر ٤٠ شمال، ٤َ ر ٨٩ شرقا وهكذا إلى الموقع الآخر القديم لينج بان، وبعده يتجه شمالا إلى واحة كورلا، ويتبع حقيقياً مرتفعات تين شان إلى سلاسل كاراشاهر، وكشغر ويهبط نحو الغرب[٢٤]. و يخرج منه عند كشغر فرع إلى الشمال الغربى إلى شمال سوجهديانا .

٣- ما يسمى الطريق الجديد نحو الشمال أو الطريق الشمالى الجديد، على طول سولى هو إلى بوابة جاد (يومن كو بالقرب من واحة تانج هوانج) حيث يأخذ اتجاه الشمال الغربى بعيدا عن جوانب أحواض الملح، ولكن يعبر أطراف السلاسل الصحراوية من غرب بى شان، ويتجه مباشرة إلى واحة جوشن إلى تورفان متجها شمالا على طول الحافة الجنوبية من تين شان إلى الغرب[٢٥]، وعند جوشن يتفرع منه طريق إلى دزونجاريا وأقصى شمال غرب تركستان.

٤- وأخيرا الطريق طريق هامى (كومول) أو ما يسمى الطريق المرتفع والذى يبدأ من أنهسى على نفس ممر سوليوهو، ويأخذ اتجاها شماليا، عبر الهضبة الصخرية الجرداء لصحراء بى شان إلى حوض هامى حيث ينقسم إلى فرعين، أحدهما صغير يتجه نحو حوض بيركول ودزونجاريا، وطريق رئيسى يتجه إلى الغرب ويتصل بالطريق الآخر (ربما عند كوشا)[٢٦].

ومن المفيد أن نلاحظ أن جزءاً من التجارة كان يتم بالتأكيد على طول الطريق الجنوبى على الرغم من التوسع الصينى فى العصور الأولى، كما يظهر من المعلومات العديدة من واحاتها القديمة والتى تنفصل عن بعضها البعض بعدد كبير من المستنقعات فى تكلامكان، وقد اهتم فاتحو الطرق الإمبراطورية بثلاثة طرق شمالية

أخرى، والتى رغم تعرضها لغارات وحشية من البدو فإنها مزودة بمحطات كانت للراحة، وأراض هى مراع للقوافل التى تعبر الطريق. وكانت السيطرة على هيونج نو على المنحدرات الشمالية لنان شان، بعد طرد يوش تش معناها إغلاق الطريق الطبيعى الوحيد من شمال غرب الصين إلى الغرب، فى حين كان هدف المشروعات الصينية العسكرية كسر وتحطيم هذا الحاجز.

وبعد تطهير حدود ليانج تشو وكان تشو من البدو حوالى ١٢٠ ق.م اضطر الإغريق إلى التقهقر شمالا فى الصحراء، وبعد عقد من الزمان أمر الإمبراطور ووتى (Wu ti) بتوسيع السور العظيم وامتداده شمال المنطقة التى استولوا عليها حديثا ما بين سوشو وبوابة جيد Gede.

وهناك شك بسيط فى أن هذا المسمى بخط الحجر الجيرى كان المقصود منه حماية الطريق السريع من شمال غرب الصين إلى وسط آسيا، ولكى يؤكد أمانا أكثر (من هيونج نو) للمستعمرات الصينية التى زرعت على طوله. وفى هذا المقام يمكن القول بأن الهدف هو الربط الوثيق بين المشروعات الدفاعية ضد الجيران المباشرين، والإبقاء قدما فى علاقات وثيقة مع الأقطار الأكثر تحضرا فى الغرب. وفى الحقيقة يبدو أن الهدف الرئيسى للسياسة الصينية فى آسيا الوسطى هو فتح تجارة مفيدة مع المراكز التجارية فى غربى آسيا أكثر من التوسع السياسى المحض فى واحات تاريم. ثم نسمع عن حملة عسكرية صينية فى بداية ١٠٨ق.م. أرسلت لكسب ولاء رئيس شانشان أو لولان، ولاستعراض السلطة الإمبراطورية فى منطقة شورشيه (بالقرب من تورفان) والتى عبرها تستطيع غارات البدو بسهولة تهديد الطريق حيث يوجد عند حضيض مرتفعات كوروك طاغ (Quruq Tagh) [٢٧]. ومع هذا فقد كانت مهمة صعبة على القوات الصينية أن تؤسس سيادة إمبراطورية بطريقة دائمة وفعالة، خاصة فى مناطق كانت الظروف البشرية والطبيعية ضدهم. وما إن ينتهى عقدان من الزمان بعد إخضاع لولان واستخدامها كرأس جسر شمالى للطريق عبر هذه الأراضى الواسعة الجافة فى لوب نور حتى قام سكانها بمحاولة لقلب السلطة الصينية. وارتباطا مع

الأحداث التى تلت عام ٩٢ ق.م نقرأ فى حوليات أسرة هان السابقة أنها كانت دائما تسعى لمشاركة سكان شان شان لتزويد المرشدين لحمل الماء، ومن ثم تقديم الإمدادات لمواجهة مبعوثى الصين، ولكن نظرا لكونها دائما معرضة لغارات الجند الهجومية، قرروا أخيرا أنه من غير المناسب أن تقيم اتصالا مع الصين(٢٨).

ويصور هذا الصعوبات الاستثنائية التى صاحبت تعهد الصين فى أن تشق طريقها نحو الغرب، ورغم وجود حامية صينية صغيرة فى لولان فى القرن الثالث بعد الميلاد، وفى استخدام المحطة على طريق التجارة حتى الربع الثانى من القرن الرابع(٢٩) فيبدو من المؤكد أنه مع فجر العصر المسيحى توقف هذا الطريق عن أن يكون الطريق الرئيسى (السريع) لحركة الانتقال الصينية عبر آسيا الوسطى، وبالفعل فى حوالى عام ١-٥ بعد الميلاد تتحدث الوثائق الصينية عن "الطريق الشمالى الجديد" والذى اختصر بشدة الرحلة من بوابة جاد) إلى تشونشيه (جوشن)(٣٠) ويبدو أنها تعنى أساسا جعل الوصول إلى المنطقة الأخيرة أسهل من الصينية ومن ثم إلى الاعتماد الوثيق عليها، ولكن ثبت أنها مفيدة للتجارة كبديل لطريق لولان. ومع ذلك كانت الاضطرابات السياسية للصين عند سقوط أسرة هان السابقة (٩ - ٢٥ بعد الميلاد) وخلال أول خمسين عاما أو نحو ذك من حكم أسرة هان اللاحقة (٢٥ وما بعدها) بعد الميلاد، ما أدى إلى تجديد سيطرة البدو على الطرق البرية والذى أدى إلى قطع التبادل والاتصال.

وكما يعتقد فقد أثر ضعف الاتصال المباشر عبر آسيا الوسطى وتحول جزء من تجارة الصين مع أقطار غرب آسيا (وأقطار فيما وراء أقصى الحد الغربى للتوسع الصينى فى آسيا الوسطى) نحو طرق جنوب غرب الصين (والهند)، والتى يبدو أنها شهدت نشاطا متزايدا خلال القرن الأول بعد الميلاد، وقد انعكس هذا فى الحوليات الصينية والتى تتحدث عن امتداد السلطة الصينية فى منطقة زعيم شان (جنوب يون نان) والذى مع نهاية نفس القرن منح خاتماً ذهبياً وشريطاً أرجوانياً وهى شعار أمير تابع(٣١) وينعكس هذا بوضوح أكثر فى سجلات ومؤلفات الكتاب الرومان المعاصرين

الذين يناقشون التجارة مع الصين خصوصا مؤلف بيروبليوس البحر الأرترى (حوالى عام ٨٠م) والذى تحدث عن مدينة تيناى (فى مكان ما جنوب أو وسط الصين، كانتون!) ربما أقل من نانكنج! يقول منها يأتى "الحرير" سواء كان خاما أو مغزولا فى خيوط أو منسوجا فى قماش تجلبه القوافل) عبر بكتريا إلى باريجازا (باروش) أو عن (طريق جنوب غرب الصين) والجانج إلى ليموروكى (ديمركا، تاميلكام، فى وطن التاميل)[٣٢]. وعلى الأقل فإن التجارة المألوفة للحديد والحرير والمصنوعات الجلدية الصينية وخاصة الفراء التبتى الذى ذكره بلينى (٢٧ - ٧٩ م) من الظاهر أنها اتبعت الطرق الجنوبية الغربية والتى لا يزال بطليموس يتحدث عنها بعد نصف قرن[٣٣]. ومع ذلك فإنه فى زمن بلينى أعاد الصينيون فتح طريق تاريم فى أوائل ٧٣ ميلادية، كما بذلوا بعض الجهود لمواصلة السياسة التى كانت مؤجلة للتوسع فى آسيا الوسطى.

ومن المفيد والممتع أنه بدلا من تتبع الطريق القديمة للولان (طريق الوسط) أو بوابة جيد (Jade) (طريق الشمال الجديد) انتهج الصينيون فى ذلك الوقت طريقا جديدا، ومباشراً عبر صحراء بيشان إلى واحة هامى الوفيرة المياه (قارن خريطتنا رقم ٥). ويمتد هذا الطريق المسمى "الطريق السريع" على أراض جدباء فى الصحراء والاستبس الصحراوية، لكنه يختلف عن طريق لولان القديم حيث إنه لا يحتوى على مسطحات طويلة وميتة تماما مثل طريق الحافة الشمالية الشرقية فى لوب نور، كما أنه يضم فى نهايته واحة (هامى) والتى هى أفضل من لولان للقيام بوظيفة رأس جسر[٣٤]، وعلى الرغم من هذا فإن الطريق السريع كان أكثر عرضة لغارات البدو، فقد كان حقا المعقل القوى المسيطر القوى فقد كان تحت السيطرة القوية لهيونج نو على أراضى الحشائش الغنية لتيان شان الشرقية، وأحواض كومول (هامى)، وباركول التى أغرت الصينيين عند البحث عن طريق أقصر وأسهل إلى منطقة جوشن فى السنوات الأولى من القرن الأول بعد الميلاد لفتح الطريق الشمالى الجديد بدلا من محاولة اتخاذ طريق أنهيسى إلى هامى (Hami) كالطريق السريع (High Road).

وفى يوميات هان السابقة (٢٠٦ ق.م – ٩ أو ٢٥ بعد الميلاد) لا يوجد ذكر لشعب الواحات فى تيان شان الشرقية، والذى ظل طوال ذلك الوقت تحت سيطرة بدو من الشمال [٣٥] ولم يكن تدمير قوة هيونج – نو فى هذه المنطقة من الاستبس أمرا سهلا، ونتج عن سلسلة من احتلال وجلاء الصينيين من الواحات. فلقد تذبذبت السيادة الإمبراطورية على هذا الجزء من تيان شان والمناطق الأبعد ناحية الغرب كثيرا حتى الحملة الناجحة لبان شاو فى نهاية القرن الأول بعد الميلاد[٣٦] ولكن ما إن أصبح طريق هامى مألوفا تدريجيا حتى صار الممر الرئيسى للتجارة خاصة منذ انهيار الطريق الجنوبى نتيجة لثورة أهالى التبت، والغارات ابتداء من القرن السابع وما بعده، وحتى الوقت الحالى فإنه لا زال الأكثر استخداما بين كل الطرق سواء للتجارة أو للعمليات العسكرية [٣٧].

أول اتصال مباشر للصين مع جنوب غربى آسيا

(أدلة من السجلات الصينية)

ومما هو جدير بالذكر أن نلفت اهتمامنا إلى تأثير استخدام بان شاو على طرق التجارة والتبادل بين الصين مع أقصى أقطار غربى آسيا، ففى تسعينيات القرن الأول بعد الميلاد عهد إلى بان شاو مهمة تدعيم السلطة الصينية بشكل دائم على الواحات الغربية لتاريم، وقد تقدم لتحقيق هذا عبر "الطريق الجنوبى" على طول حضيض جبال كوين لن حتى سيطر تماما على كوتان ويرقند وكشغر، كما أخضع الدويلات الصغيرة العديدة فى غرب تين شان، وبعد أن دخل فى علاقات دبلوماسية مع بارثيا أرسل مبعوثا هو كان ينج إلى تاتسن التى ارتبطت عموما بالشرق الرومانى أو بشكل أخص الحد السورى للإمبراطورية الرومانية[٣٨] وصل السفير إلى البحر الغربى (سى هى) لكن مخاطر الرحلة البحرية حول شبه الجزيرة العربية التى أرسلت منعته من الوصول إلى موانى تاتسن[٣٩] وبعد أن وصل إلى ميناء تياوشيه (تياوشى) وكان على وشك أن

يأخذ طريقه عبر البحر، كما تحكي ال هوهان شو Hou Han-Shu، بحارة التخوم الغربية لأنهاسي (فارس) (٤٠) أن البحر واسع وعظيم ورياحه جيدة ومن الممكن عبوره في نحو ثلاثة أشهر، ولكن إذا واجهته رياح بطيئة قد يستغرق عامين، ولهذا السبب فإن الذين يأخذون طريق البحر يحملون معهم على ظهر السفن إمدادات ومؤن ثلاث سنوات، إن في البحر شيئًا ما يجعل الإنسان يحن إلى وطنه كما فقد الكثيرون حياتهم، وعندما سمع كان ينج (Kan Ying) هذا توقف(٤١).

وقد أثارت كل المعلومات التي جلبها السفير معه إلى الوطن عن غربي آسيا اقتراحات شيقة بخصوص تحديد الموانى التي رآها أو التي سمع عنها أو حتى الطرق والظروف الملاحية على البحار الغربية في عصره. ويحدد ف هيرث ميناء بلاد تيوتشيه بأنه الحيرة Hirah (حوالي ٣٠ر٣٢ شمالا X ٢٠ر٤٤ شرقا بالقرب من كربلاء الحديثة) أو ميناء نهري يوجد في نفس موقعه، والذي حكم كمركز تجاري مهم سواء لطرق القوافل القادمة من الجانبين البارثية الفارسي أو الروماني وتقلع منه السفن الصاعدة نهر الفرات(٤٢) ومع هذا يوجد سببان لمعارضة تماثل أو تشابه وإبدال ميناء آخر سبق أن ذكر رغم عدم وجود أدلة-من جانب هـ كوردير H.Cordier (٤٣) وفي المقام الأول نلاحظ أنه رغم أن موقع الحيرة ربما شغله معسكر من زمن لا يمكن تأكيده (٤٤) فإن مدينة الحيرة التي ذكرت في عصور ما قبل الإسلام باعتبارها مركزا تسويقيا عظيما وميناء نهريا للتجارة الشرقية (الهندية والصينية) قد شيد فقط في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد، عندما هاجرت قبيلة الأزد (Uzd) من جنوب غرب الجزيرة العربية عن طريق البحرين وساحل الإحساء (الحسا) حتى وصلت إلى السواد (الأرض السوداء غربي العراق) وقد أغراها الساسانيون بالاستقرار والقيام بدور الوسيط والفاصل على حدود إمبراطوريتهم(٤٥) كما أن مدينة الأنبار التي سبقت مدينة الحيرة في نفس الموقع عرفت بأنها بدون تجارة أو نشاط نهري يبرر ارتباطها مع ميناء تيوشيه. وفي المقام الثاني تتحدث الوثائق الصينية عن الميناء الأخير على أنه يقع على ساحل البحر العظيم(٤٦) والذي لا يعني إطلاقا أية من بحيرات الفرات كما يقصد هيرث Hirth. وفي وصفهم

لرحلة البحر من هناك إلى موانى تاتسن Tatsin (فى الجزء الشمالى من البحر الأحمر) لم يذكر وصفهم الصينيون لملاحة نهرية قبل أن يصل أى شخص إلى الخليج العربى، ومن ثم فإنه من المقبول أن ميناء تايوشيه) وكانينج يعنى أحد الموانى على رأس الخليج الأخير مثل شاراكس سباسينو (المحمرة) ومن المحتمل أبو لوجوس (الأبله عند العرب) الذى بدأت تظهر أهميته فى ذلك الوقت وحقا لقد ظلت مقدمة الملاحة فى الخليج الفارسى خلال القرن الأول بعد الميلاد ولمدة قرنين أو ثلاثة بعد ذلك فى موانى الجزء الأدنى من النهر والتى حلت الحيرة محلها باعتبارها مكانا مناسبا لتقابل سفن البحر وطرق القوافل التى تعبر الصحراء السورية من بالميرا (تدمر) ودمشق.

ولم تكن أراضى ميسنا وكاراسين والتى تقع فى منطقة شط العرب ملحقة بشكل بالإمبراطورية الإيرانية (الفارسية) حتى عام ٢٢٥ بعد الميلاد[٤٧] وكانوا أسياد الخليج الفارسى، وقد مكنهم موقعهم الجغرافى من أن يلعبوا دورا مهما فى تجارة فارس والدول الشرقية الأخرى مع العالم الرومانى، وبذل تراجان حوالى ١١٥ بعد الميلاد جهدا لكنه غير موفق لجعل هؤلاء الملوك تابعين لروما بدلا من فارس[٤٨] لكى يضمن إشراف الرومان على الملاحة وتنظيم الجمارك فى موانيهم. ومن المحتمل أن البحارة العرب فى هذه الموانى والذين خافوا من قيام علاقات مباشرة بين شرق ووسط آسيا من جهة والإمبراطورية الرومانية من جهة أخرى، أى بين البلاد التى قاموا فيها بدور الوسيط لدرجة أنهم منعوا السفير الصينى من من مواصلة رحلته إلى تاتسين Tatsin. أما بالنسبة للطريق الذى اتبعته السلع الصينية من الحدود الغربية لفارس إلى أسواقهم النهائية فى تاتسين، فهناك شك بسيط أنه فيما عدا زمن الحرب كانت طرق القوافل تعمل بالكامل عبر الصحراء السورية وسهول شمال الهلال الخصيب وهضبة كردستان وأرمينيا[٤٩]، ورغم هذا فإن الفقرة التى سبق نقلها من الحوليات الصينية تجعل من الواضح أن جزءا من التجارة كان يرسو فى الموانى الدنيا لميسوبوتاميا (العراق) وتنتقل حول شبه الجزيرة العربية إلى الموانى الشمالية للبحر الأحمر، ولقد تأكد هذا من فقرة أخرى من نفس الوثيقة والتى تجرى على النحو التالى " إن القادم

من الطريق البرى لفارس تجعلك تدور فى البحر، وتأخذ اتجاها شماليا، وتخرج من الجزء الغربى من البحر حيث تتقدم إلى تاتسين(٥٠).

إن تشخيص ميناء بلاد تاتسين وتوافقه بتويوشين لا يزال مثار نقاش، ولكن هيرث يقدم اقتراحا لطيفا أنه ربما كان أيلا Aila القديم أو إيلانا (ايزون جبر الملك سليمان) أو ميناء العقبة الحديث عند رأس خليج العقبة (ستينوس ايلاتيتكوس) وليس أى موانى مصرية على الساحل المواجه لخليج السويس كما قد نتوقع(٥١).

وقد استخلص هذا من حقيقة أن تجارة الصين تختلف عن تجارة الهند فى أن معظمها يتكون من المنسوجات الحريرية والتى كانت قبل أن تطرح على السوق الرومانى كانت تمر بعدة عمليات من التشطيب (الصباغة أو حتى فى نسجها خيوطا وإعادة نسجها) فى مدن وموانى سوريا وفينيقيا مثل صور وصيدا وبيروت، هذا وبينما تنقل العطور والعاج واللؤلؤ الهندى العربى وبخور شرق أفريقيا إلى بيرنيس وموبس وهرمز وأرسنيو وكلسما، حيث تنقل إلى أسواق الإسكندرية، فكان حرير الصين يرسو فى أيلا (أو أحيانا فى لوس كوم حيث الحورا على ساحل الجزيرة العربية) وبعدها تنقلها القوافل إلى سوريا .

وقد ازدادت أهمية الموقع الجغرافى المناسب لسوريا فى علاقته بالتجارة الشرقية على طول الطرق البرية لأنه مناسب للتجارة البحرية ليس فقط من خلال الخليج العربى ولكن أحيانا عن طريق البحر الأحمر - وقد ساعد موقع سوريا على منافسة مصر بشكل ناجح فى السيطرة على التجارة وتسويق أنماط معينة من السلع حتى خلال العصور الوسطى. ويرجع ظهور أهمية خليج العقبة إلى العصر الرومانى اليونانى الذى ندرسه الآن إلى زمن الإسكندر وأوائل عصر البطالمة بعد أن دمر خلال خمسة مرات متتالية ميناء صور الفينيقى، مما أجبر تجارها لنقل نشاطهم إلى ميناء أيلا (Aila) حيث أعادوا تجديد تقاليدهم السابقة وكذلك ما عرف بأساطيل تارشيش (فى هيرام، وسليمان، وجوهوشابور وأهازيا) والتى اشتق منها ديلاكويرى الاسم الصينى تاتسين(٥٢).

اعتبارات أخرى لاتصال الصين بدول غربى آسيا خلال القرون الأولى (المبكرة)

من العصر المسيحى، أدلة من الوثائق الغربية

يسجل التوسع الصينى فى ظل أسرة هان اللاحقة (٢٥ - ٢٢٠ بعد الميلاد) مرحلة ثانية لفتح طرق التجارة البرية (وكانت المرحلة الأولى لأسرة هان السابقة) خلال الفترة محل الدراسة فى الفصل الحالى، وبالإضافة إلى الوثائق الصينية التى تم ذكرها هناك وثائق أخرى تركها المؤلفون الغربيون، وتشير إلى نفس التجارة البرية فى ذلك الوقت. ويغطى وصف كان ينج، وحوليات هان كل الطريق من الصين إلى سوريا، ولكنها تترك ثغرة واحدة فوق تركستان وبلاد فارس حيث يمكن استخلاص معلومات بسيطة من الوثائق الصينية لكن الوثائق الرومانية تغطى هذه الفجوة. وعلى الرغم من أن الأرساسيد فى بارثيا يتحكمون فى التجارة بين الشرق والغرب، فقد توغل التجار السوريون واليونانيون من الشرق الرومانى إلى أقصى الشرق حتى حدود الإمبراطورية الصينية حيث تبادلوا السلع مع السيرز (شعوب الصين فى آسيا الوسطى وشمال غرب الصين[٥٣] وكان توغلهم أكثر أمانا وفعالا فى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثانى بعد الميلاد، أى عندما كانت سلطة الفرس تنهار نسبيا، وكان الهان اللاحقون ينشرون سيادتهم فى شرق تركستان، واتضح هذا من الرحلات الجريئة لوكلاء التاجر المقدونى مايس تتيانوس التى أرسلت لاستكشاف طرق الحرير والعودة بأخبار عن المسافات والوقت الذى أنفقوه[٥٤]. وقد حفظت وثائقهم فى كتابات بطليموس (١٢٠ - ١٥٠ بعد الميلاد) فيما يعد تقريبا طريق الحرير الرئيسى[٥٥].

وبحسب ما ذكره هذا الكاتب (قارن خريطتنا الأولى) فإنه يبدأ من مدن ميسوبوتاميا (بلاد الرافدين) (تطيسفون، سيلوسيا إلخ) أى أعلى السفوح المنحدرة لجبال ذاجورس والهضبة الإيرانية عبر طريق كرمنشاه إلى إكباتانا (همذان الحديثة

المقر الصيفى للفرس) وسهول ميديا راجيانا. ويعد ذلك يمر عبر بوابات قزوين، وبلاد هيرسانيا إلى مركز الفرس فى مكيتامبولس (دامجان الحديثة قرب جاوه جيرم) ويهبط إلى السهول المفتوحة فى انتيوشبيا مارجيانا (مارو أو ميرف الحديثة) ومن هنا حتى بكترا (البلق) وبعدها يتسلق الأرض الجبلية فى كوميدى أو كومديديو، والمنحدرات الجنوبية الغربية لهضبة البامير) والذى يعبر فى اتجاه ناحية الشمال إلى "البرج الحجرى" (ليثونوس، بيرجوس، وتاتكورجان الحديث فى سركيول على المجرى الأعلى لنهر فاكش، ويطل على كيزل سيرا الأعلى ليارقند) حيث تلتقى القوافل الرومانية مع مثيلاتها هذه من سيريس Seres. وعلى الرغم من أن التجار الرومان ربما قد وصلوا بالصدفة إلى أبعد من داكستا أو سيرا متروبولس) ربما شانجنجان القديمة، وكومودان عند العرب وسينافو الحديثة - رغم أنه وربما تكون لوه يانج، وهو نان فو الحديثة عاصمة هان اللاحقة) فيبدو أن وكلاء مايس تتيانس قد سمعوا عن رحلة الأشهر السبعة العاصفة هناك من تاشكور جان)[٥٦].

ومن المفيد أن نلاحظ أنه من بين الطرق المؤدية إلى الصين لم يذكروا سوى الطريق الذى يمر على ايسدون (كشغر) وكوتان ويستمر فى سيره إلى سيرا العاصمة. ويوضح هذا أنه رغم الجهد الصينى لتحقيق الأمان على طول الطرق الشمالية حيث كانت السلطة الإمبراطورية ضرورية لحماية التجارة ضد غارات البدو، فهناك قسم من القوافل التى لا تزال تفضل أن تتبع طريق الجنوب الأكثر صعوبة خصوصا أثناء الفترات التى تتوقف فيها السيطرة الصينية[٥٧].

وفى الحقيقة لم يهمل الذين افتتحوا الطرق فى عصر هان اللاحق الطريق الأخير[٥٨] والذى يبدو أنه احتفظ بأهميته، ونافس بقوة مع الطريق السريع (High Road) خلال العقود العديدة التى سبقت تغير الظروف فى الاستبس وصحراوات آسيا الوسطى فى ظل حكم سيو (٥٨١ - ٦١٨ بعد الميلاد) وأوائل أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٦) كما سنرى فى الفصل التالى.

اضطرابات على طول طرق آسيا الوسطى

كان الانهيار التدريجى لأسرة هان اللاحقة وانقسام القوى المحلية داخل الصين مما حال دون استمرار السيادة الإمبراطورية على آسيا الوسطى وطرق تجارتها. ولم تلق الحملات المتتالية التى تمت بقصد منع خطر الهيونج-نو الذين هددوا وأحيانا قطعوا وسائل الاتصال أى نجاح. ورغم تأرجح السيادة الاسمية للأباطرة على حدود الأقطار الغربية وواحات تين شان خلال الجزء الثانى من القرن الثانى بعد الميلاد، فإن بعض النقاط المهمة على طول الطريق وخصوصا أحواض أيو (I-wu) (هامى) وتشوشية (تورفان والتى كان الهان يتنازعون عليه بشكل مستمر مع الهيونج نو من أجل السيطرة على الأقطار الغربية(٥٩) وكانت هذه فى مناسبات عديدة تحت السلطة الفعالة للبدو.

وأثناء حقبة الممالك الثلاث المتنافسة (٢٢٠ – ٢٦٥ بعد الميلاد) وأيضا أسرة تشن التى جاءت بعد ذلك (٢٦٥ – ٤١٩) اهتزت سلطة الصين وهيبتها كثيرا فى تاريم(٦٠) وكانت الإشارة إلى الأقاليم الغربيـة نادرا جدا فى الحوليات. ورغم أن هناك سببا للاعتقاد أن طرق آسيا الوسطى كانت لا تزال مفتوحة أمام كم معقول من التبادل(٦١) – رغم أنها تحت الإشراف الدقيق للبدو – فقد أدت الاضطرابات على الحد الشمالى الغربى للصين إلى تحول جزء من التجارة إلى المنافذ فى جنوب غربى البلاد وخصوصا طريق بورما العليا وبيجو (Pegu).

وهذه الطريق الأخيرة ذكره وى ليو (62) Wei Lio الذى أثار فضول تاتسين، وقادهم إلى يونج شانج (فى ينان) ومن هناك يحملهم إلى شمالى الصين.

أنشطة التجارة البرية لتجار الشرق الرومانى

معلومات المؤلفين الغربيين عن الشعوب والتجارة الشرقية

عندما انتقل الصولجان السياسى للشرق الهلينى إلى يد الرومان فقد انتهزوا الفرصة لتطوير وتولى السلطة وتنمية الجزء الأكبر من التجارة الشرقية لصالحهم.

وفى ظل السنوات الأخيرة من الإمبراطورية لم يتم سوى القليل من أجل تحسين الظروف الموجودة، ووصلت كل التجارة إلى الأسواق الرومانية من خلال وسطاء متعددين، ولكن مع قيام الإمبراطورية فى عهد أغسطس صانع السلام أدرك ضرورة فتح طرق جديدة، وتبنى مشروعات أكثر تنظيما وحيوية، وكان أمام الرومان مجموعتان من الطرق قادرة على التطور برا وبحرا.

وفيما يختص بالطرق البرية توجد أربعة طرق تستطيع أن تؤدى إلى آسيا الوسطى أو الهند(٦٣) وبالتالى إلى الشرق الأقصى.

١- من البحر الأسود شمال قزوين إلى أرض القرغيز وسجديانا: وهو طريق لم يعرف أحد عنه شيئًا قبل منتصف القرن الرابع عندما حاول أباطرة الدولة البيزنطية تطويره من خلال معاهدات مع الرؤساء الأتراك الغربيين لكى يتجنبوا الأراضى الإيرانية (٦٤).

٢- من الركن الجنوب الشرقى للبحر الأسود (ميناء فاسس) ثم على حضيض التلال الجنوبية للقوقاز، وإلى نهر كيروس إلى بحر قزوين (الذى يتم عبوره بالسفن) وبعد ذلك يستمر الطريق فوق مستنقعات غرب تركستان إلى أنتيوشى مارجيانا (ميرف) أو مباشرة إلى سمرقند وكشغر، وهو طريق يعتمد إلى حد كبير على ولاء مديريات شمال أرمينيا، ولكن الرومان طوروه كبديل لطرق فارس خصوصا خلال فترات الحرب معها(٦٥).

٣- من أفسوس (على بحر أيجة) وعلى طول الطريق الملكى القديم إلى مراكز التسوق فى الشريط الشمالى للهلال الخصيب (خصوصا أديس - أورفا الحديثة - ونصيبين) وعندئذ إما مباشرة إلى أكباتانا أو إلى الفرات (الذى يعبره عند زيوجما) إلى سيليوسيا، حيث يستمر على طول الطريق الذى وصفه بطليموس وهو الطريق الذى كان تحت رحمة البارثيين تماما، وبعد ذلك الساسانيين، ولكن رغم ذلك ظل إلى حد كبير الأكثر أهمية للتجارة.

٤- وأخيرا الطريق من أرض الرافدين الدنيا (شاراكس سباسينو، المحمرة) صاعدا منحدرات سوسيانا إلى بيرسيبولس وعبر مستنقعات جنوب إيران، ولكنه

يتجنب صحارى الكفير Kevir إلى سهول بلوخستان والسند الأدنى، وهو طريق يمر عبر أراض غير مشجعة فضلا عن مراكز التسويق قليلة نسبيا، وهو الأقل أهمية منها جميعا، وعلى الرغم من أنه فى فترات معينة كان أكثر أمنا من الطرق الآخرى خاصة فى الفترات التى مد أمراء السند خلالها سلطانهم على بلوخستان المجاورة (٦٦) ويمكن أن نتتبع صراع الرومان من أجل السيطرة على بعض هذه الطرق خاصة الطريق الثانى إلى أوائل الجزء الأول من القرن الأول ق.م، عندما بدأوا سياستهم للدفاع عن تخومهم ضد البارثيين. ومع ذلك فضلا عن جزء من العمليات العسكرية المقصود منها تشجيع وحماية التجارة، فإن الحملات غير العسكرية لعبت أيضا دورا مهما فى فتح الطرق. وفى ظل حكم أغسطس ظهر رخاء روما، وأيضا حاجتها للرفاهية التى يستطيع الشرق أن يقدمها ازدادت كثيرا، فقد طلب من المستكشفين وصناع الخرائط أن يدرسوا الطرق السريعة الموصلة إلى الشرق وأن يعدوا الأدلة الإرشادية لها.

ويمكن أن نستخلص من تقاريرهم أنه على الرغم من حقيقة أن تجار الشرق الرومانى - الذين كانت فى أيديهم العمليات النهائية والصفقات التى تعرف فنيا بالتجارة الشرقية لروما ربما اخترقت فى أجزاء مختلفة من وسط آسيا، وكانت مراكز التسويق فى أنتويوشا مارجيانا (ميرف) والكسندروبولس (قندهار) من الناحية العملية كانت ضد نشاطهم التجارى ومعلوماتهم الجغرافية(٦٧).

لقد كانت قبضة البارثنين الذين منعوا لقرون الاتصال المباشر بين شرقى وغربى آسيا قوية جدا لدرجة أن روما لم تستطع الفكاك منها (إزالتها)(٦٨) وفى الحق أن هذه السيطرة البارثنية هى التى ربما تكون مسئولة عن فشل الرومان فى فتح والسيادة على الطرق البرية إلى حدود إمبراطورية الصين ولكن أيضا الجهل النسبى السائد فى غربى آسيا عن الدول والشعوب فى قلب آسيا وجانبها الشرقى. وحتى بعد انهيار سلطة الأرساسيدز فى فارس فى القرن الثانى بعد الميلاد والتى جعلت من الممكن بل والأكثر فعالية توغل تجار الإغريق والسوريين فى وسط آسيا، فقد ظلت معرفة الآخرين عن الشرق الأقصى بعيدة تماما عن الصحة، ولا يمكن أن يقارن هذا مع ما هو محفوظ فى اليوميات الصينية عن تاتسن. ومن النقاط الأكثر إثارة فى الوثائق الغربية والتى

ربما تلقى أضواء أكثر على العلاقات بين الإمبراطوريات الصينية والرومانية هو اسم "سيرز" الذى قدمه الكتاب الرومان والإغريق ليدلوا على بعض الشعوب الشرقية الذين تعاملوا معهم. وإذا نظرنا إلى هذا الاسم باعتباره من أصل شرقى فمن المحتمل أن له بعض العلاقات اللغوية مع كلمات مثل See يرى، Sir السيد، سيركيك أو سيرجى، وكلها تشير إلى الحرير فى اللغات الصينية والكورية والمغولية والمانشية على التوالى.

وهذا معناه أن لفظ سيرس أتى من بلاد تعمل بالحرير.

وهذا قد يصدق بصورة عامة على الصين الشمالية عندما نقترب منها برا، لتمييزها عن الصين الجنوبية ويطلق عليها سيناى(٦٩). ويصدق هذا بصفة عامة نظرا لأن بعض الكتابات الرومانية ترى من الضرورى أن تدخل تحت اسم سيرس بعض الشعوب المجاورة لشمال الصين .

وحسب بلينى (٧٩ م) الذى يشتق معلوماته من سفراء سيلان (فى البلاط الرومانى) والذين لهم علاقات تجارية مع السيرس (Seres) يصفونهم بأنهم يزيدون عن الرجال العاديين فى الطول ولهم شعر أحمر، وعيون زرقاء، وصوت أجش، ويتحدثون بلغة لا مفتاح لها(٧٠). وهذه العبارة تجعل من الأمان أن نفهم الاسم بالمفهوم الأوسع، ونجعله يستخدم أو يطبق على مختلف الشعوب فى شمال غرب الصين ووسط آسيا وتركستان الذين عملوا فى إنتاج أو تجارة الحرير .

مشروعات البحارة من الرومان الشرقيين

استخدام الرياح الموسمية الهندية

وأثرها على الرحلات فى المحيط الهندى

لقد أثبت توسع التجار من الشرق الرومانى بحرا نجاحا حقيقيا على عكس مشروعهم فى الطرق البرية، فالدور الذى لعبوه فى فتح اتصال مباشر بين غربى آسيا

والسواحل الجنوبية الشرقية من تلك القارة مهم جدا للفهم الصحيح للمراحل التالية فى الملاحة بين أقصى جانبى آسيا، وهذا يستحق الدراسة ببعض التفاصيل، فالتجار من أراضى شرق البحر المتوسط أمامهم ذراعان بحريان يوصلانهما إلى المحيط الهندى، وأحد هذين الذراعين البحر الأحمر وهو طريق بحرى صعب للبحارة الأوائل، لكنه يمتلك القليل من الموانى الطبيعية التى تخدم كمراكز لتوزيع السلع سواء فى طرفيه الشمالى أو الجنوبى، بينما من جهة أخرى فإن الخليج العربى أسهل للبحارة الأوائل للتفاوض لكن لا توجد عليه موانى طبيعية أو دائمة عند رأسه والتى تكون دائما مليئة بالطمى، وعلاوة على ذلك فإن الوضع الجغرافى الخاص بالذراعين البحريين وعلاقته بتطور الأحداث التاريخية فى الشرق الأدنى ككل خلال العصور الكلاسيكية والوسيطة حدد إلى حد كبير مصيرهما كممرين متنافسين.

وبينما كان الإغريق والرومان وبعدهما الحكام المسلمون فى مصر يستخدمون ويدافعون عن طريق البحر الأحمر، كانت الملاحة فى الخليج الفارسى (خلا الفترة التى ندرسها) تحت حماية الساسانيين فى فارس القديمة وبعدهم البحارة فى خليج عمان الذين يعملون بالتعاون مع التجار فى المراكز التجارية فى الهلال الخصيب، إن قصة الصراع بين الطريقين البحريين عميقة وسوف نناقشها حينما تحين الظروف وخاصة فى الفصل التالى.

وما إن حل الرومان محل البطالمة فى مصر أصبح من السهل عليهم وبدقة أكثر لوكلائهم من المصريين واليونانيين والسوريين أن يعملوا فى ظل حماية الإمبراطورية، وأن يطوروا طريقا بحريا خاصا بهم وأن يتجنبوا – بقدر الإمكان – منطقة البارثيين. إن استعادة قناة النيل والبحر الأحمر، وطرق الصحراء الشرقية التى استعادوها فى مرحلة ثانية أدت إلى الملاحة فى البحر الأحمر والتى كانت قد أهملت فى ظل البطالمة – وقد أدى الاحتياج المتزايد للإمبراطورية من العطور والبهار الذى يستخدم فى مختلف الأغراض (كالغذاء ويحرقها مع الموتى وبعد ذلك فى المناسبات والاحتفالات المسيحية) إلى رخاء جنوب غرب الجزيرة العربية والتى لم يكن سكانها ينتجون منها كميات معقولة فى مناطقهم على السواحل العربية والأفريقية فحسب، ولكنهم كانوا أيضا

يستوردون كمية من التوابل الاستوائية وشبه الاستوائية من الهند - كما أن زيادة الطلب الرومانى من اللؤلؤ والعاج والعبيد وغيرها من السلع الغالية كالسلع القطنية الهندية والحرير الصينى والغراء والحديد (الذى يصل إما عن طريق تاريم فى أقصى شرق حدود فارس وبعدها وادى السند إلى البحر أو عن طرق جنوب غرب الصين إلى بالببوثرا ومنها ينزل إلى نهر الجانج إلى خليج البنغال وبلاد التاميل التى زارها تجار غرب آسيا) وقد ولد هذا مشروعا جديدا.

وكان لسيطرة الحميريين العرب على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر أثره فى منع الهنود، والمصريين، والإغريق من المرور من خليج عدن فى اتجاه أو آخر، فالموانى العربية فى موزا (مخا) أوكيليس (بالقرب من سيلا ورأس أكيلا عند المضايق) وعدن العربية، (حصن الغراب الخ) كانت مستودعات للتجارة الشرقية(٧١). ورغم هذا وجد الرومان فى الحال أنه من الضرورى قطع مثل هذه الوساطة غير المقبولة، وتم بناء الأساطيل وأبحرت السفن تحرسها مجموعة قليلة من الجنود، وأبحرت حملة أوغسطية بقيادة ايليوس جالوس (٢٥ ق.م) من أرسينيو (كليوبترا) إلى ليوس كوم (الحورة ميناء بترا عاصمة (النبطية) وبعد أن يقدم لها النبطيون المساعدة، تتقدم إلى جنوب الجزيرة العربية بقصد إرضاخ الحميريين، وحماية الثروة المتجددة فى وطنهم، وهو هدف لم يتحقق قط(٧٢) أما المنطقة الوحيدة (خارج أرض الهلال الخصيب) حيث كانت السلطة الإمبراطورية قد قل الاعتراف بها فهى المركز التجارى فى بترا (البتراء) والتى كانت وسيطا من الدرجة الثانية بين الإمبراطورية وجنوب الجزيرة العربية .

يذكر سترابو أن القوافل كانت تأتى لويس (Leuce) إلى البتراء بأحجام كبيرة تقارن بأحجام الجيوش(٧٣) وكانت حركة الملاحة بين مراكز التجارة فى جنوب غرب الجزيرة العربية ومرافىء ساحل النبطية حيوية وتنافس بقوة نظيرتها من موانى مصر والموانى السابقة. ورغم هذه المنافسة فإن الموانى الأخيرة كانت قادرة على تطوير تجارة معقولة مع بحار الجنوب والشرق فى أوائل الحقبة المسيحية، ويذكر أن مائة وعشرين سفينة غادرت مويوس هرمز إلى الهند (أى سواحل الجزء الغربى من المحيط الهندى لأن هذا المصطلح ربما يشير إلى عصر الرومان الأوائل) فى عام واحد(٧٤)

وعلاوة على ذلك فقد جاءت مبادرة المشروع البحرى للبحارة المصريين واليونانيين من هذه الموانى لكى يصلوا إلى بحار الجنوب وأخيرا جنوب شرقى آسيا. ومرت ستة أو سبعة عقود بعد قدوم هؤلاء التجار (وكلاء رومان) إلى خليج عدن قبل حدوث تغير جديد وأكثر راديكالية فى التبادل البحرى بين غربى وجنوبى آسيا. فقد اكتشف أحد رعايا الرومان ويدعى هيبالوس استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية للرحلة المباشرة من خليج عدن إلى الهند، وإن كان تاريخه مازال محل نقاش فإن من الواضح أنه قد قام باكتشافه ما بين عامى أربعين وخمسين بعد الميلاد. وربما توجد بعض الأسباب فى الاعتقاد أنه قبل ذلك التاريخ كان استخدام هذه الرياح معروفا للبحارة فى البحر العربى والذين عبروا المحيط إلى نقاط مختلفة على ساحل الهند لكنهم لم يكشفوا السر إلى منافسيهم اليونانيين والمصريين[٧٥].

وهكذا يمكن اعتبار إنجاز هيبالوس اكتشافا فقط من وجهة نظر الرومان. وكانت نتائجه متعددة وبعيدة المدى ليس لأنها كسرت السيطرة المطلقة لسكان الجنوب الغربى خاصة بعد تدمير عدن[٧٦] بل إنها أعطت دافعا قويا لتجارة الإمبراطورية فى وقت كانت مواردها لا تزال فى الأوج[٧٧]. وتستطيع سفينة أن تغادر مصر مبكرة فى يولية إلى عدن، وبعد ذلك تساعدها الرياح الموسمية من الجنوب الغربى تصل إلى الهند فى سبتمبر حيث تقضى شهرين فى صفقات وأعمال تجارية قبل أن تبدأ رحلة العودة إلى وطنها فى شهر نوفمبر. وبمساعدة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تصل إلى عدن، ومن ثم إلى رأس البحر الأحمر والإسكندرية حيث تستطيع الوصول (ومعها بضائعها) فى فبراير. إن تأثير الكشف على الطريق الفعلى الذى اتبعته السفن الرومانية الإغريقية عبر المحيط الهندى ممتعا ويستحق التوسع فى الدراسة، والرأى العام السائد فى الوقت الحاضر هو أن العبور فى البداية وصل شمالا فى المحيط قدر الإمكان أى من ساحل جنوب الجزيرة العربية إلى مصب نهر السند، وفيما بعد أصبح البحارة اليونانيون أكثر ثقة، واستفادوا أكثر من الرياح من خلال العبور المباشر من عدن أو رأس جوردا فوى إلى جنوب الهند[٧٨].

ويذهب ى. هـ وارمنجتون إلى اقتراح المراحل الأربع التالية فى استخدام الرياح الموسمية[٧٩].

١- زمن رحلة الإسكندر ونيرشوس إلى عهد تايبيريس (١٤ - ٣٧م) وهى رحلة بمحاذاة الساحل إلى مصب نهر السند .

٢- حوالى ٤٠ - ٤١ ميلادية فى اتجاه مباشر من كين أورأس سيجوروس (رأس فارتاك على ساحل جنوب الجزيرة العربية) إلى باتالا على السند الأدنى .

٣- ما بين أعوام ٤١ و ٥٠ ميلادية مع اتجاه أكثر مباشرة من جنوب غرب الجزيرة إلى منطقة بارى جازا .

٤- حوالى خمسين بعد الميلاد عندما تم السير فى طريق مباشر من عدن أو جوردا فوى إلى ساحل مالابار .

ويعد مثل هذا التصنيف معقولا تماما للاكتشاف التدريجى، ولكن إذا قبلنا الرأى بأن الرياح الموسمية قد استخدمها البحارة من البحر العربى (بما فى ذلك ومن المحتمل جدا هنود ساحل ملابار) قبل التجار اليونانيين - كما نميل إلى ذلك - وليس هناك أى داع من اقتراح مثل هذه المراحل للملاحة المبكرة .

وعلاوة على ذلك فإن تتابع المراحل المقترح لا يتناسب مع الحقائق التى نعرفها عن التجارة التى نقلها الرعايا الرومان على سواحل الهند، وعلى أية حال فإنه من غير الآمن أن نستخلص من هذا أن هؤلاء الملاحين الغربيين أسسوا وأقاموا علاقاتهم التجارية مع موانى شمال الهند قبل أن يحولوا مركز صفقاتهم إلى موزيرس وغيرها من الموانى الأخرى لساحل مالابار .

وفى هذا المقام من المقترح أن نلحظ توزيع العملات الرومانية لمختلف الأباطرة والموجودة فى جنوب وشمال الهند والتى تعد دليلا على الأهمية النسبية لتجارة كل من المنطقتين فى فترات مختلفة. ففى دويلات جنوب الهند القديمة حيث تم الحصول على اللؤلؤ والبيريل (حجر كريم أخضر) والفلفل و ٦١٢ قطعة من الذهب و ١٨٧ر١ قطعة من الفضة تنتمى إلى أول أربعة أباطرة [٨٠].

وبعد فترة حكم نيرو (أى تقريبا بعد ٦٨م تقلص عدد العملات فى الجنوب وتم الحصول على كميات أكبر فى المناطق الشمالية حيث استمرت حتى القرن الثالث عندما قلت بدرجة كبيرة فى كمياتها، وهذا يدل على انهيار حقيقى للتجارة ليس فقط فى المنتجات الهندية، ولكن أيضا فى السلع الصينية التى تصل إلى هناك من الطرق البرية(٨١).

ويدل هذا على تحول تدريجى للمركز الرئيسى لصفقات الوكلاء الرومان فى الهند نحو الشمال، وربما تكون عوامل عديدة مسئولة عن ذلك، ففى المقام الأول، فإن الانهيار على طلب اللؤلؤ والبيريل من جنوب الهند كان نتيجة ضعف القوة الشرائية لروما، وزيادة الطلب على السلع الخام كالقطن من باريجازا (ربما ليحل محل - جزئيا فقط - السلع الحريرية الأغلى ثمنا) نتيجة سياسة الفاسبيين Vespasians (٧٠-٧٩م) الاقتصادية والتى أدت طبيعيا إلى هبوط تجارة الهند لصالح الولايات الشمالية.

ساعد تقدم التجار من الشرق الرومانى على طول الطرق البرية المؤدية إلى وسط آسيا والهند فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى بعد الميلاد على وفرة العملات فى الشمال، ولكن ربما أيضا كان الإحياء الجديد للملاحة على مياه الخليج الفارسى والتى حدثت فى ذلك الحين، ورغم أن الجهد الأساسى للإمبراطورية كان متجها دائما نحو التطوير والحفاظ على البحر الأحمر على أنه ممر رومانى خالص، فإنه يبدو وجود انهيار نسبى فى استخدامها نحو نهاية القرن الأول.

وقد استعاد تراجان فى أوائل القرن الثانى قناة النيل والبحر الأحمر، ولكنه وجد من الضرورى أيضا أن يحافظ على صداقة وولاء ملوك ماسينا وكاراسين على رأس الخليج العربى. وفى عام ١٠٦م دمرت القوات الرومانية بترا وعانت تجارة موانى تاتسن من هذا الانهيار، ومن جهة أخرى ازدادت أهمية شاراكس وموانى أبولوجوس، وكان على فارس وروما أن تتنافسا من أجل تحقيق سيادة اسمية على تجارتهما.

أدى قيام تجارة الخليج الفارسى على حساب تجارة البحر الأحمر إلى زيادة نسبية فى عبور الجزء الشمالى من المحيط الهندى إلى مصب نهر السند وباريجازا بدلا من العبور شمالا من خليج عدن إلى ساحل مالابار(٨٢).

ومن هذه الشواهد إذا أخذناها مكتملة نجد أن هناك من الأسباب ما يوحى أنه عند قدوم هيبالوس والبحارة اليونان والمصريين إلى البحر الأحمر واكتشاف سر الرياح الموسمية، فإنهم ربما وصلوا إلى الرحلة المباشرة إلى مالابار، وهى أرض كانت معروفة عند العرب، والتى كانت بضائعها وفيرة فى الأسواق الرومانية أكثر من تلك الواردة من شمال الهند، لكن بمرور الوقت كان هناك تراجع من الطريق الخارجى إلى الداخلى والذى صار أفضل ليس بسبب سهولته أو تراجع الملاحة، ولكن بسبب التغير فى المراكز التسويقية الرئيسية على الساحل الهندى. وفى الجانب الشرقى من المحيط الهندى يقترح وارمنجتون سلسلة مشابهة من مراحل فن الملاحة[٨٣] والتى من جهة أخرى (أى عكس المراحل التى يقترحها للجزء الغربى من المحيط الهندى) وتتفق تماما مع الحقائق التى نعرفها عن التجارة خلال الفترات الإغريقية الرومانية (أو الفارسية) والعربية الإيرانية.

وكان التوسع المبكر للبحارة الهنود نحو الهند الماليزية حركة محاذية للساحل بكل تأكيد – وحتى فى القرن الأول بعد الميلاد فإن التجارة التى يتحدث عنها الكتاب الرومان من الصين إلى باليبوثرا وإلى الجانج وخليج البنغال وبعدها إلى دولة ليموروكى (ديمرك وأرض التأميل حيث حصل التجار الغربيون على سلع صينية معينة) ومن الظاهر أنهم اتبعوا ساحل كوروماندل بالقوارب المحلية (الوطنية).[٨٤]

بعد انحلال أسرة الهان فى الصين (فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد) والانهيار النسبى لطرق تاريم فى ظل الأسر التى حلت محلها، فإن جزءا من تجارة شمال الصين قد تحول (كما اقترحنا بالفعل فى هذا الفصل) نحو يان نان وبورما وبيجو حيث عبرت خليج البنغال بطريق مباشر إلى جنوب الهند .

وأخيرا فقد جعلت عملية تطور الملاحة بين غربى وشرقى آسيا من خلال تقدم العرب الفرس من جهة والهنود الماليزيين والصينيين من جهة أخرى إمكانية اتخاذ التجارة طريقا أكثر مباشرة من سيلان إلى ملقا أو جاوا، وهكذا إلى موانى تونج كنج وجنوب الصين [٨٥].

توسع التجارة الشرقية لروما

الحد الأقصى للملاحة شرقا لبحارة الشرق الرومانى

وثائق غربية عن جنوب شرقى آسيا

إذا عدنا إلى اكتشاف هيبالوس نلاحظ أن الزيادة الضخمة فى التجارة المحمولة بحرا التى تلت ذلك قد استمرت جيدة فى العصور الهدريانية (١١٧ - ١٣٨ بعد الميلاد) وأدى ذلك إلى جشع عظيم من جانب الرعايا الرومان والتى أدت إلى توازن عكسى للتجارة[٨٦].

ويأسف بلينى (التاريخ الطبيعى مجلد ١٢ ص ٨٤) على الكم الضخم الذى أنفق على سلع الرفاهية والترف الآتية من الشرق، ويصرخ المهتمون بالأخلاق فى ذلك العصر من التكاليف العالية للفساتين الحريرية النسائية، ويعتبرون أن لبس الجلباب الحريرى للرجال على أنه زى المخنثين، إلا أنه رغم الشكوى والمراسيم التى تذاع وتنشر بقصد الحد من استخدام سلع الرفاهية[٨٧] واصلت التجارة عملها بنجاح وحسب رأى بلينى (المجلد الرابع ص ١٠١) كانت الهند وحدها تسحب من الإمبراطورية مبلغ خمسة وخمسين مليونا من السستريس Sesterces (حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ جنيه كل عام[٨٨]. وفى مكان آخر يؤكد أنه على أدنى تقدير كان مائة مليون سستريس (أكثر من مليون جنيه) سحبتها الهند والصين والجزيرة العربية سويا[٨٩]. وربما يكون هذا المبلغ ضخما فى حد ذاته، ولكن إذا أخذناه ليمثل كل قيمة التجارة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، فسيكون من جهة أخرى صغيراً جدا. ويصبح كل هذا صحيحا عندما تتذكر أن الجزء الأكبر من السعر المدفوع للسلع ذهب ليغطى المصاريف والفوائد التى دفعت فى النقل، والصفقة، أكثر من القيمة الفعلية لكمية التجارة، وقد أكدت المصادر الصينية التى تتحدث عن الفائدة التى يحصلها التجار والتى ربما ترتفع عشرة أضعاف أو حتى مائة ضعف السعر الأصلى[٩٠]. ومرة ثانية من الضرورى أن نلحظ أنه فى حالة الصين فإن كمية التجارة كانت صغيرة جدا لأن السلعة الأساسية

للتصدير وهى الحرير كانت أحيانا تقدر فى هذه العصور (رغم المغالاة) بقيمتها من الوزن ذهبا(٩١). وعلى هذا فهناك سبب معقول لقبول خلاصة هيرث عن تقدير بلينى عن الكمية التى تأخذها الدول الشرقية بأنه يمثل فقط الميزان الصافى للتجارة، والتى كان على روما أن تغطى قيمتها عينا أو نقدا أو من المعادن النفيسة[٩٢].

وفى الحق كان على الإمبراطورية الرومانية إلى جانب إرسال معادنها العادية مثل القصدير والرصاص من أقصى الغرب، وخمرها من البحر المتوسط وربما والأكثر أهمية منتجاتها الزجاجية والسلع الصغيرة من إنتاج المصانع، مع بعض المرجان من البحر الأحمر، كما كان عليها أن تحمل إلى داخل الكثير من دول الشرق كمية معقولة من الذهب والفضة وشرائح البرونز وأدوات الزينة فضلا عن كمية كبيرة من العملات[٩٣]. ولا يزال محل نقاش المدى الذى أبحر فيه البحارة المصريون والسوريون واليونانيون فى البحار الشرقية فيما وراء الهند .

وقد وجدت العملات الإمبراطورية فى مساحات متسعة خاصة الهند، بل فى بعض أجزاء من الصين، فقد وجدت ١٦ قطعة من العملات الرومانية فى مقاطعة صغيرة فى شانسى التى تقع على الضفة الغربية لنهر فن هو Fen Ho، وكلها من البرونز، وتغطى فترة زمنية طويلة، من أوائل القرن الأول الميلادى إلى ٢٧٥ ميلادية[٩٤] ولا يمكن الجزم بالطريق الذى سار فيه أصحاب هذه العملات، ولكنه شاهد على زيادة النشاط على الطرق السريعة فى وسط آسيا وخاصة فى عصر أسرة هان المتأخر .

ويبدو أن مؤلف بيربيلوس (٨٠ - ٨٩م) والذى قدم لنا أول وثيقة عن جنوب شرقى آسيا لم يكن قد اخترق فيما وراء جولدن شرسنيس (تناسيريم)، وهى أكثر الأراضى الشرقية والتى يتجه البحر بعدها شمالا ويلتقى بثيناى Thinue [٩٥]. وبعد حوالى نصف قرن يبين بطليموس بعض التقدم فى الملاحة كما يصف الرحلات إلى أبعد من كاتيجارا وميناء سيناروم والتى قد تشير إلى أماكن متعددة على سواحل خليج تونج كنج وجنوبى الصين ولكن تعد فى معظم الاحتمالات واحدة من الموانى القديمة على مصب النهر الأحمر (هانوى؛ كباوشى؛ كوش؛ لوكوين)[٩٦].

ومع ذلك فإن الملاحظات التى جمعها هذا المؤلف من البحارة عن بحار الصين قد شوهها نظام تصنيفه الفلكى والتى حدد فيها موقع كاتيجارا عند خط ٨٫٣٠، ومدينة سناى أو ثيناى[٩٧] عند خط ١° جنوب خط الاستواء[٩٨].

وقام أيضا بتحويل ساحل شمال الهند الصينية وجنوب الصين ناحية الجنوب وبعدها يتجه غربا ليلتقى بساحل شرق أفريقيا الذى يمتد شرقا ومن ثم يجعل المحيط الهندى بحرا مغلقا/[٩٩]، ورغم أن الاتصال البحرى المباشر بين الشرق الرومانى والصين ربما يكون قد افتتح مع وصول أول حملة تجارية وتسمى بعثة أو سفارة إلى الصين (عبر هانوى) فى ظل الإمبراطور أن تن (ماركوس أورليوس أنطونيوس) فى عام ١٦٦م[١٠٠]. ومثل هذا التبادل لم يستمر فترة طويلة لأنها جاءت فقط عندما كانت الإمبراطورية الرومانية فى طريقها للانحلال بينما كانت الطرق البرية فى الشمال الغربى لا تزال تجذب جهود واهتمام أسرة هان. وفى الحقيقة من الصعب الحديث عن أية خدمة مباشرة ومنتظمة بين غربى وشرقى آسيا قبل قدوم التجار العرب الفرس من الخليج العربى وجنوب غرب الجزيرة العربية. وكانت الهند أساسا الحد لمثل هذه الخدمة خلال الفترة الإغريقية الرومانية، وكان التجار الغربيون يذهبون فى رحلة إلى أقصى البحار الشرقية فقط بشكل متقطع (قارن أيضا خريطة رقم ٦) .

كان حجم التجارة حول شبه جزيرة الملايو صغيرا نسبيا، وكان معظمها فى أيدى الهنود والملاويون الذين عملوا كوسطاء بين الهند والشرق الأقصى، ومن خلال هؤلاء البحارة حصل وكلاء العالم الرومان ليس فقط على منتجات بل أيضا على معلومات عن دول وشعوب جنوب شرقى وشرقى آسيا، ومن أهم المشكلات المحيرة فى التقارير والوثائق الرومانية الإغريقية عن هذا الجزء من القارة هو اسم سيناى أو ثيناى وبعد ذلك (تسينوتسا أو تسينبوزا) التى وضعوها فى جنوب ووسط الصين. ويبدو أن كل هذه الكلمات لها بعض العلاقة مع اللغة السنسكريتية، والتى من المحتمل أن ساعدت على قيام سيناستان الفارسية والصين أو الصين (Al-Seen) العربية. والرأى السائد فى الوقت الحاضر هو أن الاسم مشتق من هذا الاسم المشهور تسين أو أسرة تسين التى وحدت الصين من حوالى ٢٢١ قبل الميلاد[١٠١] وإن كان هذا محتملا وإن كان

الكثير لا يميلون إلى قبولها. وكان هناك حتى القرن الرابع بعد الميلاد اعتقاد أن اسم تسين (Tsin) ينطق تان (T,an) (١٠٢) بينما لقب سينا (Cina) موجود فى الوثائق الهندية حوالى عام ٣٠٠ ق.م(١٠٣).

وفى هذا المقام من المفيد أن نلحظ أن شعب الصين لم يسموا أنفسهم باسم هذه الأسرة، ولكن يتفاخرون بكونهم " أبناء الهان "(١٠٤).

يقترح ب لوفر أن سينا (Cina) ربما يكون الاسم القديم (ربما مالاوى) لساحل مقاطعة كوانج تنج وما يليها جنوبا(١٠٥) بينما يرى ت لاكويرى أنه مشتق من اسم دولة تسن (Tsen) فى منطقة يون نان والتى لفترة (خصوصا خلال القرن الثانى ق.م) قامت بدور الوسيط بين الصين والهند سواء عن طريق بورما وأسام فى اتجاه تونج كنج والبحر.

وعلى أية حال فإن الاسم الصحيح الأصلى لاسم.. الصين " مثل كثير من المعلومات الأخرى التى جلبها البحارة والتجار من الشرق الرومانى إلى بلادهم عن شرقى آسيا يظل غامضا رغم أنه فى ضوء المناقشات المختلفة التى رأيناها، فإن اقتراح لاكوبرى يبدو أنه أكثرها قبولا على الإطلاق.

ملاحظات نهائية على النشاط البحرى المبكر

فى جنوب شرقى وشرقى آسيا

جهود البحارة الأوائل لإقامة تجارة بحرية واتصالات

الفاصل بين العهدين الإغريقى / الرومانى والإيرانى / العربى

توقف قصير للتبادل

قبل أن نصل إلى ختام هذا الفصل يجب أن نخصص فقرة أو فقرتين للملامح الرئيسية فى الجهد المبكر الذى قام به بحارة جنوبى شرق وشرقى آسيا عند افتتاح الطريق البحرى إلى الغرب.

تعد قصة النشاط البحرى على بحار الصين معقدة، ويمكن أن نتتبعها لعدة قرون قبل المسيح، ومع هذا فإن التجارة التى كانت أساسا صغيرة فى حجمها وكان معظمها إن لم يكن كلها فى أيدى تجار غير صينيين (معظمهم عناصر هنود أو تدخلهم عناصر هندية) والذى كان نشاطهم السلمى مهددا من القراصنة على ساحل فيوكين (Fu - Kien) الذين يخضعون للحكم الصينى حتى عام ١١١ ق. م. وفى أوائل القرن السابع ق.م توجد دلائل على بعض الأنشطة فى خليج كيوشو على الساحل الجنوبى لشانج تونج والتى خدمت فى ذلك الحين كمدخل بحرى مناسب للدول الأكثر تحضرا فى شمالى الصين[١٠٦]. وكانت مدينة تسى موه (أو ما يجاورها) مركزا تجاريا ضخما مع المدينة لانج نجا القديمة فى ظهيرها كمكان لالتقاء التجار الأجانب من البحر مع التجار الصينيين فى الداخل .

ففى هذه المنطقة التى اخترقتها التجارة الأجنبية فضلا عن الثقافة الأجنبية أسست دولة يوه yueh البحرية عاصمتها لبضع الوقت قبل أن يزيلها شو (ch,u) أو تسويو حوالى ٣٨٠ ق.م وبعد ذلك أقام الإمبراطور الأول شيه هوانج تى مقر دولته، وأعد بعض التجديدات المهمة والتى قام بتنفيذها بعد توحيد الدولة عام ٢٢١ ق.م، ومع ذلك فإن بسط سلطة دويلات يوه (Yeuh) وبعدها تشو (Chu) على الساحل الجنوبى لشانج تنج والحرب الأهلية التى شنوها ضد بعضهم البعض، يبدو أنها قد أثرت على الحرية التى كان يتمتع بها التجار الأجانب الذين أجبروا فى عام ٣٨٠ – ٣٧٥ ق.م على نقل مركزهم التجارى إلى الجنوب وأصبح المدخل البحرى الرئيسى لعالم الصين فى كوى كى بالقرب من نينج بو وميناء آخر ثانويا ذا صبغة محلية بالقرب من مدينة فوشو على مصب نهر مين فى فوكين[١٠٧]. وقد تم التخلى عن الميناء الأول عندما امتدت السيادة الملكية لهان (Han) على دلتا نهر يانج تسى ادنى فى عام ٢٠١ ق.م، بينما استمرت الثانية إلى عصر الإمبراطور العظيم ووتى (Wu - ti) الذى أخضع الساحل نهائيا (ساحل فوكين فى عام ١١٠ ق.م).

وقد حول التجار (الآن) أسواقهم إلى ساحل أنام لتنج كنج (هانوى) وربما أيضا إلى الساحل الجنوبى لهيانان حيث من المؤكد أنهم تمتعوا بحرية أكثر بسبب الطبيعة غير المستقرة لسيطرة الصين على أقصى المديريات الجنوبية للإمبراطورية(١٠٨). وظل السوق الجديد عدة قرون مكان ارتياد التجار من جنوبى شرق آسيا فضلا عن البحارة الغربيين (من السوريين واليونانيين) الذين سجلتهم الوثائق والحوليات الصينية الذين اتخذوا من تونج كنج نهاية لرحلتهم(١٠٩).

واستطاعت موانى مصب النهر الأحمر الحفاظ على أهميتها كمكان للقاء للتجار من الداخل ومن البحر حتى القرن الثالث بعد الميلاد عندما استمرت سفارات (حملات تجارية) فى الوصول من تاتسن. ومع ذلك يبدو أن التجارة البحرية فى هذه المنطقة من جنوبى شرق آسيا قد تأثرت بالاضطرابات الواسعة التى حدثت فى ماليزيا من حوالى القرن الثانى بعد الميلاد وبعدها(١١٠) والتى ربما تعزى إلى الضغط المتزايد من المهاجرين الصينيين على شمال سكان أنام والذين ضغطوا بدورهم على جيرانهم الجنوبيين، وكذلك بسبب إنشاء عدد متزايد من الممالك الصغيرة من الهنود الطموحين على سواحل الهند الصينية، والتى تدخلت فى حرية التجارة فى خليج تونج كنج .

وكانت خسارة الإمبراطورية المؤقتة لمقاطعات تونج كنج (مثلما حدث فى عام ١٨٦ بعد الميلاد) والاضطرابات التى تلت ذلك، ما جعل موقف التجارة على ساحل للأخيرة حرجا وخطيرا إلى حد ما، وبدأت كانتون فى الظهور كميناء ثانوى للتجارة مع الصين(١١١).

وفى العشرينيات من القرن الثالث بعد الميلاد هبطت رحلة تجارية من تاتسن عند تونج كنج حيث تقدمت برا إلى بلاط أسرة (وه w w) فى وسط الصين بينما فى الثمانينيات من نفس القرن يبدو أن حملة أخرى فضلت الرسو فى كانتون، ميناء جنوب الصين الأصلية (١١٢).

ومنذ ذلك الوقت وما بعده اشتدت المنافسة بين كانتون وهانوى خاصة بعد وصول التجار العرب / الفرس إلى البحار الصينية التى أعطت الأولى حافزا جديدا باعتبارها الميناء الرئيسى للمعاملات التجارية(١١٣).

ومع هذا احتفظت هانوى أحيانا بأهميتها المحلية وربما يقال إنها استمرت تلعب دورا مهما فى تجارة شرق آسيا خصوصا خلال فترات الاضطرابات فى جنوب الصين، أما بخصوص بداية الملاحة للصينيين أنفسهم، فمن الصعب أن نحدد التاريخ الدقيق الذى بدأوا فيه المشاركة فى حمل التجارة الخارجية لدولتهم، على الرغم من أننا قد نؤكد أن ظهور الأسطول الإمبراطورى حوالى ١١٠-١٤٠ قبل الميلاد إلى حيز الوجود عندما تعهد الإمبراطور ووتى (Wu - ti) من أسرة هان بإخضاع وتهدئة ساحل فوكين. ومع هذا فإن طبيعة هذا الأسطول عسكرية أساسا، وكان نشاطه التجارى قليلا جدا، وحتى فى فترة أسرة هان التالية (٢٥ - ٢٢٠ بعد الميلاد) فقد ذكرت الحوليات بشكل محدد أن المسافرين الصينيين عبر البحر لم يتجاوزا الملايو[١١٤] ومع ذلك فإنه بعد سقوط أسرة هان ساعد قيام أسرة جديدة فى وسط وجنوبى الصين (رغم أنها مؤقتة) على فرض السيادة الصينية على بحار الشرق الأقصى وتبنى علاقات تجارية طيبة ثبت فوائدها للصينيين أنفسهم. وفى عام ٢٢٦ بعد الميلاد نجحت أسرة ووى (W u) فى إعادة احتلال المنطقة المفقودة من تنج كنج، وفى حوالى عام ٢٣٠ تم إرسال حملة بحرية تجارية لزيارة وكتابة تقرير عن فونام (Funam) (كامبوديا) ودول أخرى فى الجنوب[١١٥]. ورغم هذا يجب أن نلاحظ أن الحروب الأهلية التى نشبت فى وسط وجنوبى الصين فى ذلك الوقت، والتغير السريع فى الأسر الحاكمة منعت استمرارية وفاعلية إجراءات التوسع البرى وتأخرت عملية (لمدة قرنين أو ثلاثة قرون) تطوير الملاحة الصينية.

وعندما كان فاهيان يبحر إلى وطنه من سيلان (حوالى ٤١٠ - ٤١٤ ميلادية) أخذ قاربا من هذه الجزيرة إلى جاوه، وقاربا آخر من جاوه إلى الصين لكن لم يكن أى من القاربين صينيا[١١٦].

وفى الحق يمكن أن نستدل بأمانة أن القرن الرابع وقدراً كبيراً من القرن الخامس يمثل فترة من استرخاء فى الملاحة والتجارة الصينية. وكان كل هذا ذا أهمية لأن نفس الفترة تمثل انهيارا نسبيا فى نشاط تجار غربى آسيا، كما انهارت بسرعة القوة

الشرائية فى الإمبراطورية الرومانية الغربية وكانت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى مرحلة التكوين. وكان البحارة فى البحر الأحمر والخليج العربى وكذلك حركة التجارة على الحدود السورية وطرق وسط آسيا قليلة، كما كانت أسواق الشرق الرومانى فى حالة من الضعف والكساد. ولهذا السبب نشعر بالاقتناع فى اختيار هذه الفترة كفاصل نسبى بين مرحلتين من التبادل التجارى بين شرقى وجنوب غربى آسيا أى ما نسميه الرومانى/الإغريقى والعربى/الإيرانى. ويمكن أن نحدد البدايات الحقيقية للنشاط الصينى البحرى من منتصف القرن الخامس (وبداية القرن السادس م) وما بعدها عندما وصل بحارة سنج Sung (سونج المبكرة فى وسط وجنوبى الصين ٤٢٠ - ٤٧٨م) و الأسر الأخرى الوطنية التى حلت محلها فى نانكنج ولم تصل إلى سيلان فحسب بل بلغت أيضا رأس الخليج العربى.

يسجل مشروعهم الأول فى سلسلة من التوسعات البحرية من الصين نحو غربى آسيا والتى أشرنا إليها فى نهاية الفصل الأخير، ولكن سنؤجل هذا لمزيد من التوسع فى الفصل التالى.

الهوامش

(١) هناك إشارة للتجارة القديمة فى خليج أيلاثا Ailatha فى Terrien De La Lacouperie's, Western Origin of Early Chinese Civilization, London 1894, P.243, For the Royal Road, see W. Ramsay, The Historical geography of Asia Minor, London 1890, pp.27-35

(٢) عن الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته انظر العمل الذى قدمه G. Glotz P, Roussel et R. Cohen, Alexandre et l,Hellenisation monde antique,1 re partie, Alexandre et le demembrement de son Empire, 1 th is arti, Paris, Les Presses Universitaires de France, 1938 .

(٣) عن سقوط هذه المملكة انظر

E.H. Parker A Thousand Years of the Tartars, 2 nd ed, London 1924 P.21. Also mention is made in J.T. Reinaud, Memoire sur le commencement et la firn de royaume de la Mesene et de la Kharacene, etc., Paris 1861, pp. 96 et seq. Also for historical accounts on the Greks in S. Turkistan and India see W.W. Tarn, The Greeks in Bacteria and India, Combridge University Press, 1938.

(٤) A.T. Wilson , The Persian Gulf, 1928, p.35.

حيث أشار سترابو إلى هذه المعوقات وكان الإسكندر ينوى إزالة السدود فى طريق عودته من الهند

(٥) إشارة إلى . De Lacy O,Leary, Arabia before Muhammed, London 1927, p. 29

(٦) قام بطليموس الثانى بهذا العمل، ومن المحتمل أن افتتحت القناة لأول مرة فى ظل الأسرة الثانية عشرة، وتم إحياؤها فى مناسبات عديدة بعد ذلك، إلا أنها لم تنافس الطرق البرية لقفط والتى كانت أسهل فى صياغتها وتجنب أخطار الملاحة فى الجزء الشمالى من البحر الأحمر. انظر O,Learly, ibid., p. 30 et seq فى هذا المقام يجب أن نتذكر أن القناة القديمة والتى تقارن غالبا بقناة السويس الحديثة، وتختلف أساسا عن الأخيرة بوجود تأثير مباشر على التوجه التجارى لمصر نفسها.

(٧) M.P. Charlesworth, "Trade Routes and Commerce of the Roman Empire," Cambridge 1924, p. 67. يأخذ المؤلفون العرب أصل سكان اليونان من الجزيرة حتى زمن الإسكندر والتى تعنى البطالمة الأوائل انظر

L, Abrege des Merveilles , Version of Kitab Mukhtasar al-Adja,ib wal Gharaib) byde Vau Carra , Paris 1898, pp. 64-65.

(٨) نقصد بكلمة الغرب هذه الدول التى تقع فيما وراء أقصى الحد الغربى للتوسع الصينى فى وسط آسيا (والتى تشمل الشرق الرومانى بصفة خاصة).

(٩) يجب أن يكون من الواضح رغم أن توحيد الإمبراطورية قد أثر على التوجه الخاص لمثل هذه المقاطعات فإنه لم يغيرها تماما.

(١٠) E.H. PARKER, A Thousand Years of the Tartars, Loc, cit. p. 18.

(١١) J.T. Reinaud, Mémoire geographique, historique et scienlifrque sur L'Inde ant érieurement au milieu du XI siécle de l é're Ché retienne ì, Paris, 1849, pp, 8133; also addition by II, Cordier in H. Yurles Cathay and the Way thither, new ed, (revised throughout in light of recent discoveries by H. Cordier), London 1913 - 1916, vol. I, p, 35.

(١٢) The story of Chang Ch'ien may be seen in A, Stein, Innermost Asia, its Geography as a Factor in History, in The Geographical Journal, vol, LXI, May 1925, pp, 397 et seq.; W. E. Southill, Chhina and the West, 1995, pp, 9 et seq.; T: DE Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilisation , Loc, cit., p, 50; and S. W. Bushell, Ancient Roman Coins from Shansi, in J, of the Peking Oriental Soc., vol, I, No. 2 (Peking 1886), p. 20. Also refernce in C. G. Seligman, The Roman Orient and the Far East, in Antiquity, vol, XI, 1937, pp. 10 et seq, The writer did not see F, Hirsh's article on The Story of Chang K'ien, in J. Am . Orient, Soc., vol, XXXVII.

(١٣) A. Stein, in The Geographical Journal, 1925, Loc, cit., p, 398.

(١٤) On this point see W. E. Southill, ibid., p. 13.

(١٥) T, DE Lacouperie, Western Originì, ete., loc. Cit., p. 50, and S. W. Bushell, in J. of Peking Oreint. Soc., 1886, Loc. Cit., p. 20.

(١٦) W. E. Southill, China and the West, Loc. Cit., p. 12.

(١٧) لقد ذكرنا فى الفصل السابق تجار شوه الأوائل والطرق التى اعتادوا ارتيادها وليس مستحيلا أن الأنشطة التجارية للشوه (ربما على طول الطرق الأخرى) قد وجدت حتى فى تاريخ مبكر انظر See supra, chap. H, pp. 64-65,earlier date. See T. De Lacouperie, Western Origin, ete., Loc. Cit., p. 46.

(١٨) T. De Lacouperie , Western Originì, etc., Loc, Cit., p. 38.

(١٩) Mention of a colony from the v th cent., B. C. is made in T. De Lacouperie, ibid., p, 56.

(٢٠) ففى كتاب يشير إلى وزير للك الصين الأخير ذكر كدولة حيث يتم فيها إنتاج خيوط الحرير، انظر إلى ب لوفير واسم الصين فى تونج باو، مسلسل رقم ٢٠ مجلد ١٣، ١٩١٢، ص ٧١٩ .

(٢١) For the report about Ta-hia see A. Stein in the Geogr. Journal, 1925, Loc, Cit., p, 398.

يبدو أنه لا يوجد مبرر كبير لرأى ستين (نفس المرجع) بأن تنفيذ أول مشروع صينى فى هذا الاتجاه بدلا من طرق تاريم، ويرجع هذا ببساطة إلى الجهل الذى كان سائدا فى الصين بشأن الوضع النسبى الحقيقى للهند، والذى من خلاله كان من المفروض أن تصل الدول الغربية، ومن الظاهر أن هذه السياسة قد أقرتها الصين سواء بسبب الأحوال السائدة للتجارة وسيطرة أسرة هيونج نو فى الشمال .

(٢٢) لمعرفة هذه الطرق انظر الخريطة رقم (٥) عن حوض تاريم.

(٢٣) وحتى القرون الأولى من العهد المسيحى كان الطريق الفعلى إلى الشمال قليلا فى الصحراء الرملية لتاكلاماكان، وحسب أ. ستين فإن انكماش إمدادات الموارد المائية لأنهار الجليد التى تغذى الروافد القادمة من نهر كوين لون قد أدت إلى تغير الاتجاه الجنوبى لمواقع نهايات الواحات فى هذه المجارى المائية، انظر سويرا الفصل الحادى عشر ص ٧٢ – وعلى أية حال فإن هذا الطريق الجنوبى كان دائما أكثر صعوبة من نظيره الذى يسير مع حضيض مرتفعات تين شان حيث يوجد حزام ممتد من المراعى أكثر من تلك الموجودة عند نهر كوين لون.

(٢٤) A. Srein, Serindia, Oxford 1921, vol, I, p. 336 et seq., 417 et seq., vol. II, pp. 555 et seq. 724 et seq., and Innerinost Asia, Oxford 1928, vol. I, pp. 308 et seq. See also his work On Central Asian Tracks, 1933. Also reference to discovery by A. Stein of beads of Coptic (Egyptian) type at Lou-lan (and also at Niya site on "Southern Route") in C. G. Seligman, The Roman Orient and the Far East, loc. Cit., p. 17.

لمعرفة تقارير عن افتتاح واستخدام هذا الطريق والتى روجعت فى ضوء الاكتشافات الحديثة انظر أعمال ستين سيرنديا، اكسفورد ١٩٢١ المجلد الأول، ص ٣٣٦ وما بعدها و ٤١٧ وما بعدها، المجلد الثانى ص ٥٥٥ وما بعدها وكتاب داخل آسيا، أكسفورد ١٩٢٨ المجلد الأول، ص ٣٠٩ وما بعدها.

انظر أيضا مؤلفه حول " على ممرات وسط آسيا ١٩٣٣ – وأيضا إشارة إلى اكتشاف أ. ستين للودع عند الأقباط (المصريين) فى لولان، وأيضا فى موقع نيا عن الطريق الجنوبى فى ص.ج سليجمان " الشرق الرومانى والشرق الأقصى، نفس المرجع ص ١٧.

(٢٥) See A. Stein, Serindia, loc. Cit., vol. II, pp, 705 et seq., and Innermost Asia, loc, cit., vol. I, pp. 310 - 311, and vol. II, p. 571.

(٢٦) See A. Stein, Serindina, loc. Cit., vol. III, pp, 1141 et seq., and innermost Asia, loc, cit., vol. I, pp.539 et seq.

(٢٧) A, Stein, in the Geographical Journal , 1925, loc., cit., p. 400.

لم تهزم الصين تورفان حتى عام ٦٠ ق.م انظر المرجع نفسه، ص ٤٠٣

(٢٨) A. Stein, Innermost Asia, loc. Cit., vol. I, p. 309 ; see also A. Wylie, Notes on the Western Regions translated from Tseen Shco (BK. 96, parts I and 2) in J. of the Anth. Inst. Of the Great Britain and Ireland, vol. X, 1880, pp. 27, et seq.

(٢٩) A. Stein, Innermost Asia, loc. Cit., vol. I, p. 230.

من بين الأسباب التي أدت إلى جفاف ودمار لولان القديم هو التحول المحتمل لنهر كورك داريا نحو الجنوب.

(٣٠) A Stein, Serindia, loc. Cit., vol, II, pp. 705 et seq.

(٣١) The Hau Han-shu (History of the Later Han), chap, 86, translation by E. Hirtr, China and the Roman Orient, Shanghai 1885, p. 36; see also pp. 179-180.

(٣٢) Periplus, 64; text and translation in C. Cozies, Textes d,auteurs grace et Latin's refuters a I, Extreme-Orient, depuis le Iv siecle acant J. C. jusqu'au xiv siecle (recueillis et traduits) , Paris 1910, p. 93; see also H, Yule H, Cordier, Cathayi (revised ed.), loc. Cit., vol. I, pp. 183 et seq., and J. W. Mc Caindle's, The Commerce and Nauigation of the Erythrean Sea , Bombay 1879, pp. 147-148 , and Ancient India , as described by Ptolemy , London 1885 , pp. 246-247 . By the " Ganges route" , the author of the Periplus almost certainly means the roule of S. W. China , as he also mentions the malabathron (leaves of Laurus cassia) produced by the Beastai , to the extrame south of the Chinese , and carried both into the country of the latter and into India , Mention in Condks , ibid., Introduction , pp. xvII-xvIII.

(٣٣) PLINY , Historia Naturalis , XXXIV , 145 , and Prolemy , Geographia , I , 17 , 4 , texts and translations in Condks , ibid., pp. 17 and 43 , respectively .

(٣٤) لمقارنة بين " طريق الوسط والطريق العالي انظر

see A. Stein , Innermost Asia , loc, cit., vol. I , p. 339. See also our Map. 5.

(٣٥) ومن جهة أخرى نجد أوصافا تفصيلية لمنطقة وشعب لولان انظر

see A. WYLIE in J . Anthrop , Inst ., Loc, cit., vol . X , pp . 93. t seq .

(٣٦) For this expedition see addition by H , Cordier in the revised ed , of Yule's , Cathay , loc , cit., vol. I , pp. 40-41 ; and G . G . Seligman , The Roman Orient and the For East in Antiquity , vol. XI , 1937 , pp. 12-13 .

(٣٧) من المفيد أن نلحظ أن الحملات التأديبية التي أرسلت للقضاء على الثورة الإسلامية في سين كيانج في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي قد سلكت هذا الطريق عموما.

(٣٨) إن بناة النقش النسطورى المجدد لسونافو (القرن الخامس) يعلنون أن تاتيان هو الوطن الأم والوطن الذى ولد فيه المسيح وهذا يجعل مع أدلة أخرى عديدة أن الجانب السورى من أراضى الهلال الخصيب هو الدولة محل النظر، انظر

See F. Hirtn, China and the Rom, Orient, loc. cit., pp. 5-6. H. Yule (in Cathay, loc. Cit ., p. 42)

ete., loc. Cit., p. 242), do not interpret the words Ta Ta'in as meaning' Great China'

ويعتقد هيرث أن الصينيين فى زمن بان شاو قد اعترفوا بالفعل بمصطلح تشين على أنه اسم كانوا يعرفون به عند الأجانب، ويقترح أن لديهم إدراكا بأن الدول الرومانية الإغريقية تحمل للغرب نفس العلاقة مثلما تحمل الصين حضارتها لآسيا الشرقية، وكانوا يسمون الدول السابقة تاتسين أو الصين العظيمة، ومن جهة أخرى فإن بعض علماء اللغة الصينية مثل لاكويرى (الأصل الغربى) وغيرهم انظر نفس المرجع ص ٢٤٢ لا يفسرون كلمات تاتسين على أنها تعنى الصين العظمى لأن اسم تسين لم يستخدمه الصينيون ليدل على وطنهم الخاص.

(٣٩) يرتبط البحر الغربى لكان ينج حسب معظم السلطات مع الخليج العربى

see F . Hirth , China and the Rom , Or., loc . cit., pp, 146-147) , though J . T .) Reinaud , in his Relations politiques et commerciales de L' Empire Romain auce L ' Asie Orientaleì, ete., Paris 1863 . pp. 223-224 ,

ويرى رينود فى كتابه العلاقات السياسية والتجارية فى الإمبراطورية الرومانية مع شرق آسيا أنه المحيط الهندى أو الجانب الغربى منه – وربما تكون الحقيقة بين الاثنين أى أنه فى العصور الأولى (أيام كان ينج) أشار المصطلح إلى الخليج العربى وحده، بينما بعد وصول البحارة الصينيين إلى مياه جنوبى غرب آسيا، لقد امتدت لتغطى الجانب الغربى للمحيط الهندى ككل.

(٤٠) يستخدم اسم أنهسى هنا ليشير إلى بارثيا ويجب أن لا تختلط مع مدينة آن بيس على نهر سوليوهو (ومنها يبدأ الطريق العالى إلى حامى Hami)

(٤١) Transl, in F . Hirth , China and the Rom . Or., loc. Cit., p. 39. See also reference in J. T. Reynaud , Relations politiques et commercialese ì, ate., loc. Cit., p. 222.

(٤٢) F . Hirth , ibid ., pp. 147-159.

توجد أدلة قليلة تؤيد رأى ى. برتشرندر بأنه يمكن البحث عن شيوشيه فى سوريا والتى تعنى أن البحر الغربى ربما يكون البحر المتوسط انظر معلوماته التى امتلكها الصينيون القدامى عن العرب والمستعمرات العربية وغيرها من الدول الغربية المذكورة فى الكتب الصينية، لندن ١٨٧١ ص ص ٣ –٥

وحول هذه النقطة انظر مقاله ديفيريا حول أصل الإسلام فى الصين فى مدرسة الدراسات الشرقية (١٧٩٥ – ١٨٩٥) ذكريات عن الجمهور من خلال أساتذة المدرسة باريس ١٨٩٥، ص ٣٠٥ هامش ١ .

من الشيق أن نلحظ أن اسم تياهوشيه شبيه لما أعطاه الصينيون بعد ذلك إلى تاتشى ليدل على العرب الذين التقوا معهم لأول مرة من خلال الفرس.

من الواضح أن تاشى تشويه لتاجر (تاجر) وهم اسم كان يستخدمه الفرس على العرب جيرانهم فى عصور ما قبل الإسلام.

وهذا يجعل من المحتمل أن الدولة وميناء تيا شيه الذى ذكره الصينيون كان فى جانب أرض الرافدين من الهلال أكثر من الجانب الهلستينى من سوريا.

(٤٣) انظر ملاحظته الإضافية فى النسخة المراجعة من Cathay نفس المرجع المجلد الأول، ص ٤٢ هامش ٢ حيث ذكر تشابه فسديلو ودنجيوجين لسياشيه مع مصر وفارس على التوالى، انظر أيضا جوردبل فى كتاب تاريخه العام عن الصين المجلد الأول، ص ٢٧٤ (١٩٢٠).

(٤٤) Vide supra , chap . 1, pp. 10-11.

ذكرنا من قبل فى دراستنا للعلاقات المكانية داخل شمال الجزيرة العربية أهمية الموقع شمال مستنقعات النجف وعلاقتها مع خط التماس (الالتقاء) من الصحراء فى بابولينيا المسئولة عن قيام مثل هذه المدن مثل بابلون والأنبار والحيرة والكوفة وكربلاء الحديثة.

(٤٥) Vide supra , chap . 1, pp. 3-4.

عن هجرة هذه القبيلة مع ما يسمى القضاء وللإشارة إلى نص الأصفهانى .

(٤٦) Transl , in F . Hiarth , China and the Rom . Or., loc. Cit., p. 39.

(٤٧) J . T . Reinaud , Menm , sur le commencement et la fin de royaume de la Mesene et de la Kharacene l, loc. Cit., p. 74.

(٤٨) E. H. Wanmingron , The Commerece between the Roman Empire and India , Cambridge 1928 , pp. 93-94.

(٤٩) بالنسبة لهذه الطرق انظر الخريطة رقم (١)

(٥٠) Transl , in F . Hirth , ibid ., p. 43; see also pp. 157 -158 and 184-185 .

(٥١) F . Hirth , China and the Rom . Or., loc, cit., pp. 157 - 160.

(٥٢) T , De Lacouperis , Western Origin l, loc. Cit., p. 243.

(٥٣) لقد عرف تجار السيزر تقليديا للغرب بأمانتهم فى المعاملة وحسب واحدة من الأساطير فقد اعتادوا وضع بضاعتهم (معظمها من الحرير والمنتجات الحريرية) على شواطئ نهر فى البرج الحجرى، وينسحبون من المنطقة حتى يحدد المشترون اختياراتهم، ولا يتم أى حديث أثناء عملية التبادل، وكانت التجارة الصامتة معروفة بين الشعوب البدائية لكن بيل يجد بعض الصعوبات فى قبول أن الصينيين مارسوها فى أوائل العصر المسيحى وسوف نرى أن السيزر لم يكونوا بالضرورة تجارا صينيين حقيقيين.

(٥٤) تعد هذه واحدة من الحالات العديدة عندما يهتم تاجر مقيم يونانى فى سوريا بهذه التجارة المتعددة فى تمويل مثل هذه الحملات من الحرير الصينى.

(٥٥) Ptolemy ; I ; 12 ; 5 - 7 ; text and transl ; in Coedes ; Textes ì;etc ., lec.cit. ; pp . 32-for commenalions on Ptolemy;s writing and general treatment of the silk roule (or routes) see Coedes ; idem ; Introduction ; pp . xviii et seq ., and map on p. xxi , f.f.von Richthofen , China , Ergebnisse eigener Reisen und darauf gegrundeter Studien , Berlin 1877 , Bd . 1, pp . 495 et seq ., E. H. Warmington , The Com. Between the Rom. Emp. And India , loc . cit ., pp. 22-23 , J . T.Reinaud , Relations politiques et comìetc., loc. Cit ., pp. 187-189 (he identifies the ' Stone Tower ' (where Eastern and Western Map 1) , it starts from the towns of Mesopotamia (Seleucia , Ctesiphone ì, etc .) up the steep slopes of the Zagros and over . the Iranian Plateau by the modern Kirmanshah route to Ecbatana (Assyrian Akhnatan , modern Hamadthan, summer residence of the Parians)

(٥٦) E. H. Warringon, ibid ., p. 133.

(٥٧) للشواهد على قيام تجارة على هذا الطريق انظر

A. Stein, Ruins of the Desert Cathay, 1912, vol. I, pp. 410-411, 457-458, 470-472, 486-487, and 492-493, Finds by Stein Include a bale of ancient silk, p. 381

(٥٨) As early as A . D. 73 , the chief of Khutan received a Chinese governor ; see A. Remusat, de la Uille de Khotam, Paris 1820 , p. 3.

(٥٩) As the Hou Han -shu puts it; see A. Stein, Innermost Asia, loc. Cit., vol, II, p. 574.

(٦٠) خلال فترة الممالك الثلاثة التى جاءت بعد سقوط أسرة الهانز استعادت كوتان قوتها وسيطرت على الواحات الغربية انظر

see A. Remusat , ibid ., p. 10.

(٦١) A. Stein , in the Geogr. Journal , 1925 , loc. Cit., pp. 484-485.

(٦٢) The Wei-lio, quoted at the end of chap. Xxx of the San -Kuo-Chih, based on various records referring to the period of the Three Kingdoms; see transl, in F. Hirth, China and the Roman Orient , loc. Cit., pp. 74075 ; see also p. 179 in idem .

(٦٣) للتعرف على هذه الطرق انظر الخريطتين رقم ١، ٢ .

(٦٤) W . Heyd , Histoire de commerce du Lecant au moyen-dge , Leipzig and Paris 1885 , vol, I , pp. 12 and 15-16.

(٦٥) M. P. Chanlzeswonts , Trade Routesì, ete ., loc. Cit., pp. 104 et seq,

يرى هذا المؤلف أن المشروع التجارى كان بين الأسباب القوية للعمليات العسكرية التى نفذها الرومان على حدودهم الشرقية.

(٦٦) إشارة إلى استخدام بسيط لهذا الطريق فى ى.هـ. وارمنجتون، التجارة إلخ حيث ورد ذكر لهذه الحقيقة وأنه قريب جدا للخليج العربى الذى كان مرتبطا بالهند من خلال طريق ساحلى آمن نسبيا .

(٦٧) وصف ايزدور الذى كتب عن الطريق من تسيفون إلى ميرف بطريقة مشابهة تماما كما وصفها بطليموس بعد مائة عام ولم يذكر استمراره نحو بكترا ووسط أسيا، لكنه جعله يتجه جنوبا فى اتجاه قندهار حيث التقى وكلاؤه بشكل واضح مع التجار الهنود وغيرهم من تجار وسط أسيا الذين جلبوا السلع الصينية – انظر M. P. (HARLEWORTH ibid, pp. 102-103.

(٦٨) إن احتكار البارثنين للتجارة بين الرومان والصينيين الذين كانوا قلقين لإقامة اتصالات مباشرة مع بعضهم البعض، وقد ورد هذا فى الوثائق الصينية – انظر

See transl , in F . Hirth , China and the Rom . Or., loc. Cit., pp. 42 and 70; also mention by J. T. Reinaud , Relations politiquesì, elc., loc. Cit., p. 237. and H. Yuls, Cathay ì,lc. Cit., (new ed.) vol. I, p. 23.

(٦٩) B. Laufer , The Name China in T'oung Pao , series II , vol. XIII (1912) , p. 725, and E. H. Warmington , The Commerce ì, ete., loc. Cit., p. 71 .

قام الكاتب السابق بعمل مقارنة شيقة بأن هذه ليست المرة الأولى التى نجد فيها الصينيين ودولتهم قد عرفت باسمين مختلفين – أما مؤلفو العصور الوسطى والرحالة العرب بعد ذلك فقد اعتادوا التميز بين كاثى والصين الأصلية.

(٧٠) Pliny , Historia Naturalis , VI, 88 , text and transl, in G. Coedes, Textesì, elc., loc. Cit., pp. 15-16 Also transl, by H. Yule in Cathay ì, loc, cit., vol. I, p. 200.See also J. T. Reinaud , Relations politiques , elc , loc, cit., p. 187 .

يشك وارنجتون فى صفحة ٤٤ عما إذا كان السيزر عند بلينى والذين تاجر معهم التجار من سيلاف هم الصينيين الحقيقيين وليسوا الشيراز من تاميل، وفى الحقيقة فإن بعض المؤلفين الرومان مثل بوثانيس فى القرن الثانى بعد الميلاد يخلطون بين اسمى السيزر والشيراز حيث يقول إن السيزر يعتبرون كالاتينوين الآخرين هود سيسان – ومع ذلك فإن وصف بلينى السابق ذكره يجعل من الصعب افتراض أن هذا يمكن أن يكون سكان جنوب الهند.

(٧١) مـن هـذه الميناء العربى أودامـون (عدن) كان الميناء الوحيد الخالى من الأماكن الضحلة على طريق البحر الأحمر.

(٧٢) The expedition was accompanied and deseribed by Strabo , Geographia , 16 , 4, 22, mentioned in Dz Lacy O'Lzary , Arabia before Muh., loc. Cit., pp. 75- 79 ; also E. H. Warmington , The Commerce between the Rom , Empì, etc., loc. Cit., p. 15.

(٧٣) Strabo , 16,4,33, mentioned in O'Leary, ibid., p. 185.

فى فجر العصر المسيحى كان ميناء لوسى كوم الميناء الرئيسى فى ماباتيا لكن مع نهاية القرن الأول وفجر القرن الثانى بعد الميلاد حل محله ميناء أبيلا.

(٧٤) According to Strabo as mentioned in M. P. Chablesworts , Trade Routes ì, etc., loc. Cit., p. 60.

لقد ذكرنا بالفعل فى الفيدسوبرا هامش ٤ فى صفحة ١٠١ والجزء الخامس بالنص ورأى هيرث بخصوص المنافسة بين الموانى المصرية والنباتا مع المخازن الصينية والهندية.

(٧٥) See F. Hirte's and W. W. Rockhill's , Chau Ju-kua transl from Chinese and annotated , St-Petersburg 1911 , p. 2, footnote 1, where the A. Known

حيث يلحظ المؤلفون أن الرياح الموسمية كانت معروفة للتيروكس فى نهاية القرن الرابع ق.م وأشار إلى آراء كرندل فى كتابه عن بيربلوس ١٣٥ ن وأن العرب استخدموا ممرا مباشرا من وإلى الهند قبل أن يسلكه البحارة الإغريق.

ويعتقد آخرون مثل م. ب شارلورث نفسه ص ٦٠ وربما بمنطق أقل أن البحارة كانوا راضين على القيام بالرحلة الطويلة إلى الهند بالسير فى الطريق بموازاة الساحل بعد المرور من عدن، ومن الصعب الاعتقاد أنهم هربوا ولم يستخدموا الرياح الموسمية من قبل البحارة من الهند والجزيرة العربية والتى ارتبطت بالبحارة الجنوبية بفترة طويلة قبل وصول وكلاء روما، ولا يوجد سبب للاعتقاد بوجود اكتشافين منفصلين لكل من العرب والرومان.

(٦٧) This happened about , or a little before , the time of the author of the Periplus (80-89 A. D.) ; see O'Leady , Arabia before Mah., loc, cit., p. 80.

(٧٧) فيما يختص بهذا الكشف وتوابعه انظر

see M. P. Charlesworts , Trade Routes ì, elc., loc. Cit., pp. 60-61, and E. H. Wabmington, The Commerce between .., elc., loc., cit., pp. 45 et seq.

(٧٨) O'Leary, Arabia before Muh., loc. Cit., pp. 79-80.

(٧٩) E. H. Warmingzon , idem, pp. 45-47 and map attached at end of book.

(٨٠) De Lacy O'Leary, Arabia before Muh., loc. Cit., p. 75.

(٨١) For these see M. P. Charlesworth, Trade Routesì, elc., loc. Cit., pp. 61. and 70-71; also E. H. Warmingtion, The Commercs between ì, elc., loc. Cit., pp.278. et seq.,

حيث يقدم المؤلف تفاصيل عن توزيع العملات والنتائج التى يمكن استخلاصها، ومهما كانت هذه النتائج تظل الحقيقة أن تجارة الوكلاء الرومان فى شمال الهند كانت فى كل الاحتمالات تطورا تاليا وليس نشاطا فى الجنوب ويجب أن يلحظ أنه فى شمال وجنوب الهند كان الرومان يحصلون على السلع الهندية وأيضا السلع الصينية.

(٨٢) ومع ذلك فإن الاتصالات بين الآخرين لم تتوقف لأنها لقيت حافزا بظهور سيلان وبعد ذلك بالتطور فى العلاقات البحرية بين غرب وجنوب شرق آسيا أولا عن طريق خليج البنغال (وطرق يونان) وبعد ذلك حول شبه جزيرة الملايو والتى جعلت موانى جنوب الهند مناسبة كمحطات نصف الطريق.

(٨٣) انظر الخريطة فى نهاية الكتاب.

(٨٤) يذكر مؤلف البيربليوس والذى يتحدث عن هذاالطريق بأن الملاحة فى هذه الموانى المحلية كما يسمى
ساحل الكومورو vide) suprs, foolnote 3 on p. 95 and relating text ; translation of)
Periplus in G . Coedks , Textes d'auteursi, etc., loc. Cit., pp. 21-23).

(٨٥) فى أوائل القرنن الخامس الميلادى يبدو أن الحاج الصينى فاهيان قد سلك طريقا مباشرا من سيلان إلى
جـاوا. انظر See A. Remusar's, Foe Koue Kicu on Relations des Voyages boud-'
dhiques , par Chy Fa Hian (complete par Klaproth et Landresse) , Paris 1835 ,
pp. 359 et seq., and attached map of the route

(٨٦) فى حالة الإمبراطورية الرومانية كان الميزان التجارى فى غير صالحها لأنه لا توجد أية صادرات ظاهرة
عدا الدور الذى لعبه تجار الشرق الرومانى فى نقل التجارة الشرقية.

For such an edict (even as early as the time of Tiberius) against the wearing of (٨٧)
silk by men, see M. P. Cmanleswoath, The Trade Routes l, etc., loc, cit., p. 109.

F . Hiarth , China and the Roman Orient , loc, cit., p. 165 foodnote 3 (٨٨)

Pliny, Hisoria Naturalis, XII, 84: Minima computations milients centena milia ses- (٨٩)
tertium annis omnibus India et Seres et paeninsula illa (speakin of Arabia) impe-
rio nastro adimunt; see G . Cozdks , ibid ., p. 17 and F. Hirth , ibid ., pp. 226-227.
Also mention in E. H. Warmington, ibid., p. 274; though this latter author doubts,
with little or no reason , that the Seres of Pliny were really the Chinese .

Tenfold according to the Hou Han-shu (A . D . 250220) and one-hundredfold (٩٠)
according to the Chin-shu (A. D. 265-419) ; see transl. in F. Hirth, China and
the Roman Orient , loc. Cit ., pp . 42 and 45 respectively ; also mention in E. H.
Warmington, The Commerce between the Roman Empire and India, loc, cit., pp.
274-275.

See F , Hirth , ibid ., pp. 225-226. (٩١)

F . Hirth , ibid., pp. 227-228. (٩٢)

In the Periplus (24) , mention is made of such things being annually sent to Sa- (٩٣)
baea (S. w. Arabia) ; see Dz Lacy O'Lzary , Arabia before Muh., loc, cit., p. 81.

S. W. Bushell., Ancient Roman , Coins from Shansi, in the Journal of the Peking, (٩٤)
Orient , Soc., vol. I , No. 2 , Peking 1886 , pp. 17 et seq .

Periplus 63,64, text and version in , Cozdks, Yextes d'auteurs l, etc., loc, cit., 22- (٩٥)
24, He also says that the countries beyond Thinae are not wxplored because of
the violence of winds. Periplus 66, in G. Cozdks, ibid., p.26.

(٩٦) Ptolemy , I, 17, 4 in G. Cozdks, ibid., pp. 43-44 ; for identifications of Cattigars see F . von Ricuthofen , China : Ergebuisse eigener Reisenì, ete., loc, cit., vol. I, pp. 508-5120 and map facing p. 578 ; T. Dz Lacouperie , Western Originì, ete ., loc, cit., pp. 64,67 (note 329) , 68 (not 331) and 240-241 (note 1036) , G. Cozdks , ibid., introduction pp. xxlll-xxlv , and E. H. Warmingtion , The Commerceì, ete., loc, cit., pp. 125-126.

(٩٧) سينا سيناروم عاصمة سيناى تشبه كانتون ولوه يانج (هونان فو) (حسب رأى كلايروت) حول أسماء الصين فى المجلة الآسيوية العدد الأول وأن الطريق من كاتجرا إلى عاصمة سيناى يتجه نحو الشمال الشرقى بينما يسمى المؤلفون العرب منطقة كانتون على أنها سين كالان أو سين السين (صين الصين) والتى تتوافق مع سينا سيناروم، وهناك دليل بسيط للتعرف على نان كنج كما أشار إليها ى.هـ وارنجتون نفسه ص ٦٤ .

(٩٨) See Ptolemy's accounts of this part of the world in J . W. McCaindls , Ancient India as described by Ptolemy , loc. Cit., pp. 244-247 . See also Ptolemy' s map and general comparison between Graeco-Roman and Arab knowledge of S. E., Asia as a whol in S. A. Hozayen (Huzayyin) . Some Contributions of the Arabs to Geography , in Geography , vol. XVII , June 1932 , pp . 119-120 and 125 .

(٩٩) F. von Richthofen (China: Ergebnisse eigener.., etc., p. 510) makes the interesting remark that the fact that north of Cattigars , the cosst of the Lui-chow Peninsula is continued southwards by that of W. Hai-nan might have given the Western mariners the illusion that the sea was closed there .

(١٠٠) فيما يختص بهذه البعثة انظر

For this espedition see F. Hirth, China and the Rom, Or., loc. Cit., p. 173 et seq.

(١٠١) This was suggested by Martini in the xvll th Century and is elaborated by P. Pelliot in an article in the Bull, de L' francaise de l' Extreme-Orient , LIV , 1904.pp. 143-149 , and in another article on L' Origine de nom de China in T' oung Pas , serie II , L XIII , 1912 , pp. 727-747 . See also addition by H. Cordier in his revised ed. Of Yuls' s , Cathay , loc. Cit., vol, I , pp. 5-7 .

(١٠٢) According to T. De Lacouperis . Western Originì, etc., loc. Cit., p. 68,note 330 .

(١٠٣) إذا كانت الإشارة فى كتاب السانسكريت عن كوتيليا إلى أحد الوزراء للملك شاندراجوبتا (٣٢٠ - ٣١٥ق.م) صحيحة فإن هذا يعنى أن اسم سينا قد استخدم فى الهند مع بدايات هذا التاريخ (أى عندما كانت تش لا تزال قاصرة على شمال غرب الصين) التى أشار إليها فى ب لوفر اسم الصين فى تونج باو، العدد الثانى المجلد الثالث عشر ١٩١٢، وحتى ٧١٩. فإنه من الصعب أن نحدد أصل كلمة سينم من النبى اسحق، انظر هـ يول فى كاثى طبعة جديدة نفس المرجع، المجلد الأول ص ٣ .

B. Laufer, ibid., pp. 723-724. (١٠٤)

(١٠٥) اسم الصين، نفس المرجع ص ص ٧٢٥ – ٧٢٦ وهناك اقتراح مشابه وإن كان أقل احتمالا قدمه ف فون ريشفون و (المجلد الأول ص ص ٥٠٤ – ٥١٠ والذى يشتق الاسم من جهنان الجزء الجنوبى من مناطق الصين القديمة فى تونج كنج، وقد تم رفض هذا الاقتراح على أسس فلسفية SeeT. De La-couperie, Western Originì, etc, loc,Cit., p.68, note 330, also reference by H. Cordier in his new ed of Yules's, Catrhay, loc. Cot., pp. 5-6. T, De Lacouperiz, Western Originì, etc., loc.,Cit., pp.63-64

T . De Lacouprin , Western Origin of Early Chinese Civilisation , loc. Cit., pp. (١٠٦) 36-37 and 155 et seq . Ware indebted to this author for most of the information upon the early trade of the Chinese coasts.

T. De Lacoupein , ibid., p. 240. (١٠٧)

(١٠٨) إن أسباب تقلص البرابرة (أى البحارة الأجانب) فى الجنوب يمكن البحث عنه فى حقيقة أنهم حاولوا الهروب من الإشراف الدقيق الرسميين فى الحكومة الصينية الذين كانو ينظرون إليهم ببعض الشك خصوصا فى الوقت الذين تحول كل جهد الإمبراطورية نحو فتح طرق المواصلات البرية مع الدول المتحضرة فى غرب آسيا، ومن جهة أخرى يمكن أن نناقش أن امتداد سلطة الصين على وسط وجنوب الصين قد ساعد فى حد ذاتها على تحول الإمبراطورية ناحية الجنوب، ولم يعد من الضرورى على البحارة الأجانب أن يذهبوا أبعد من شمال شن تونج أو يانج تسى لكى يقابلوا التجار الصينيين، وسوف نحاول أن نبين – باختصار أوفى الفصل القادم –أن هذا التحول المبكر ناحية الجنوب من الدخول البحرى فى الصين كما أشار إليه لاكوبرى – وقد وجد حركة فى الاتجاه المضاد خلال فترات التجارة المتأخرة للرومان الإغريق والعرب.

See A . Hernmann , Die Verkehrswegeì, etc., loc. Cit., pp. 607. (١٠٩)

(١١٠) من المهم أن نلاحظ أن هذه الفترة من القرن الثانى حتى القرن الرابع بعد الميلاد قد شهدت أول هجرة للعناصر الهندية الماليزية (أساسا من سومطرة والملايو) إلى جزيرة مدغشقر – انظر مقال فيرود حول مدغشقر فى دائرة المعارف الإسلامية، العدد ٣٨ ص ٧٤، ومن الغريب حقا أن الإشارة الوحيدة للكتابات القديمة والوسيطة عن سلسلة هجرات الكمير والشعوب الأخرى من ماليزيا نحو أفريقيا والتى أعطت دافعا قويا للملاحة والتجارة بين مختلف أجزاء المحيط الهندى وقد تم العثور عليها والوثائق التى تركها ابن سعيد الكاتب العربى فى القرن الثالث عشر والتى لم يعرف مصدر معلوماته الأصلى عن هذه المعلومة، انظر ترجمة النص والتعليق عليه فى

G. Ferrand's , Relations des voyages et textes geog arabes, persans et turcs relatifs a L'Extreme-Orient, Paris 1913-1914, vol. 11,pp,316 et seq.

(١١١) فيما يختص بفقدان مقاطعات تونج كنج مؤقتا انظر see addition by H. Cordier in his فيما revised ed. Of Cathay , loc. Cit., vol. I,p.51. Reference to the beginning of rise of Canton about 160 a. d. IS MADE IN t. De Lacouperie , Western Origin of Early Civilization , loc. Cit.; p. 241

(١١٢) للترجمة الخاصة للسجلات الصينية لها تبين البعثتين انظر F. Hirth, China and the Rom. Or., loc. Cit., pp. 47-48 and 45 respectively; see also pp. 271, footnote 2, and 272-275; reference also in T. De Lacouperie , ibid., p. 244 and E. H. Warmingtion, The Commerce between the Roman Empire and India , loc. Cit., p. 131 .

(١١٣) فى وقت رحلة ناهيان (٤١٤م) كانت كانتون تمثل أكبر سوق صيني see A. Ramusat (and others) , Foe koue ki, loc. Cit., p. 365

(١١٤) According to the Hou Han-shu , Bk. 115 , mentioned in T. De Lacouperie Western Origin of Early Chinese Civilisation , loc. Cit., p. 37 , and note 189 on p. 38

(١١٥) حسب رأى ليانج شو أنهم زاروا أو سمعوا عن مائة أو أكثر من الدول التى كتبوا تقارير عنها انظر. T. De Lacouperie , Western Origin of Early Chinese Civilization , loc. Cit., p. 261 and note 1145 on p. 263.

(١١٦) فيما يختص برحلته انظر A. Bemusat (and others), Foe koue, loc. Cit., pp. 350, et seq.

الفصل الرابع

العلاقات التجارية الإيرانية (الفارسية) العربية
فى الفترة من
أوئل القرن الخامس حتى أوائل القرن السادس عشر بعد الميلاد
دراسة للتجارة البرية والبحرية

عودة إلى تقسيم مراحل التجارة الإغريقية / الرومانية والعربية/ الإيرانية

لقد أشرنا بالفعل فى نهاية الفصل السابق إلى أن القرن الرابع وجزءاً من القرن الخامس بعد الميلاد سجلا مرحلة من الاسترخاء النسبى فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، ففى تلك الفترة كانت القوة الشرائية للشعوب الغربية تتدهور بسرعة، ذلك أن روما التى كانت تعد العميل الرئيسى للمنتجات الشرقية قد أصبحت فى حالة من الإفلاس السياسى والمالى، وورث الفرس وملاحو جنوب الجزيرة والأثيوبيون النشاط البحرى للإغريق والمصريين والسوريين بدرجة كبيرة، هذا فى الوقت الذى أصبح توغل تجار الشرق الرومانى إلى آسيا الوسطى صعبا جدا بسبب الاضطرابات التى صحبت انتشار شعب الهون Huns (هيونج نوا) .

وكان العالم الهندى على أعتاب فترة من عدم الاستقرار الذى تبعه تحول نهائى للميول الروحية من البوذية والعودة إلى الهندوسية(*) لكن كان أهم تغير هو الذى

(*) الهندوسية أو الهندوكية، أو التارنجيا من أقدم المعتقدات، وظهرت دون نبى أو كتاب مقدس، ظهرت فى وادى السند من المرجح منذ أربعة آلاف عام، وأساس هذه العقيدة هى "الكارما" التى تتضمن انتقال الروح فى اعتقادهم!، فكل كائن له روح، وهذه الأرواح مرتبة تصاعديا، والروح المثالية هى التى تصعد إلى أعلى السلم بالاتحاد مع البراهما، وتصعد الروح أو تهبط إلى الدرجات السفلى تبعا لسلوك الكائن فى هذه الحياة، فالأعمال الطيبة والتفانى فى العقيدة تؤدى إلى الارتفاع إلى مستوى عالٍ فى الحياة الآخرة، وعلى العكس فالسلوك السيئ يؤدى إلى الحضيض. وتشترك جميع الأرواح سواء للإنسان أو الحيوان فى هذه العملية ومبدأ التناسخ reincarnation هو حجر الزاوية فى هذه العقيدة، فالإساءة إلى الحيوان فى هذه الحياة ستؤدى إلى أن يتحول الإنسان إلى هذا الحيوان فى الآخرة وترتبط تعاليم الهندوسية بنظام الطبقات، والطبقات نفسها هى درجات فى سلم الكون وهذا النظام يغلق الطبقة ويجعل حراكها إلى طبقة أخرى متعذرا، وخاصة الطبقة الدنيا والتى لا تمس أو حتى تلمس، وحتى عقود مضت لم يكن لهذه الطبقة الدنيا حق دخول المعابد، وبعض المدارس، ويقتصر عملها على أقذر أنواع الأعمال فى المجتمع، وإن كان ظهور الأديان الأخرى فى الهند والتطورات التى شهدها العالم، وظهور المعتدلين كالمهاتما غاندى قلل من حدة هذا الفصل.

ويعتقد الهندوس أن بناء معبد يستحق بانيه جائزة وثوابا من السماء، وتتعدد أضرحة الهندوس سواء فى الريف أو الحضر من أضرحة بسيطة إلى معابد ضخمة فى المدن، ويجب أن يكون مكان إقامة المعبد مكانا مريحا، وليكن مثلا تحت شجرة ضخمة تظلله، وبالقرب من مورد ماء قدر الإمكان، وذلك لأن الآلهة لا يبعدون كثيرا عن موارد الماء، وكان الماء له وظيفة مقدسة لدى الهندوس، كما يجب أن يواجه المعبد القرية فى مكان واضح لاستقبال الهدايا والعطايا، ولديهم النار المقدسة وفى البيت تظل النار مشتعلة ولا تخمد، وعلى الهندوسى عبادة البراهما أى روح العالم، وتلاوة الفيدا (تعاليم) عبادة الأسلاف وتقديم الطعام والماء لهم، وعبادة الآلهة بحرق القرابين، وعبادة الموجودات الحية ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور.

هذا وقد انبثقت عدة طوائف من الهندوسية، من أشهرها ذلك الجناح المتطرف الذى يقوم على فكرة الهندوتفا Hindatva وهو مذهب يجعل التفوق للهوية الهندوسية، وينكر أية حقوق لغير الهندوس حتى للطبقات الدنيا من الهندوس، ونادوا بفكرة أن يطلق على الهند اسم " هندوستان " أى الأرض التى تزدهر عليها أمة الهندوس وحدها، وأنه على الأجناس الأجنبية الموجودة فيها أن تعتنق الهندوسية ثقافة ولغة، ولا تشتغل بشىء سوى تمجيد الجنس والثقافة الهندوسيتين، وتتخلى عن هويتها الخاصة وتذوب فى الجنس الهندوسى، وأبناء هذه الطائفة هم الذين أسهموا فى تدمير مسجد أبوديا فى ديسمبر ١٩٩٢، وأدى هذا إلى نتائج مفجعة ومآزق، هذا وقد تقدمت تعاليم الهندوسية فى جنوب شرقى آسيا ولكن الهند هى مجالها الأكبر. (المترجم).

حدث فى الإمبراطورية الصينية والتى عانت لمدة أربعة قرون من انقسام سياسى (من سقوط أسرة هان فى عام ٢٢٠ بعد الميلاد حتى قيام أسرة تانج فى عام ٦١٨)، ولم تستطع عمليا الأسر المتنافسة فى الشمال والشمال الغربى مواصلة سياسة التوسع فى آسيا الوسطى والتى استهلها ووتى إمبراطور الهان (١٤٠ – ٨٧ ق.م) بينما انشغل حكام الجنوب فى صراعات محلية لدرجة أنهم لم يتخذوا أى دور نشط فى العلاقات البحرية حتى عصر الإمبراطور سونج (Sung) (٤٢٠ – ٤٧٨ بعد الميلاد). وهكذا لمدة قرن ونصف (مع التركيز على عام ٣٧٥ بعد الميلاد) كانت الأحوال الاقتصادية والسياسية فى الجانب الشرقى والغربى من العالم المتحضر غير مشجعة وغير ملائمة لنشاط العلاقات التجارية بين الجانبين. غير أن بعض التغيرات التى حدثت فى غربى آسيا تستحق إشارة خاصة، ففى خلال الأيام الأولى من الإمبراطورية الرومانية كان الجهد الأكبر مركزا على فتح طريق البحر الأحمر والسيطرة على المراكز التجارية فى مملكة الأنباط فى جنوب فلسطين وشمال الحجاز[1].

وعندما تطورت التجارة الهندية فى الخليج العربى فى فجر القرن الثانى بعد الميلاد، كان الطريق من بدايته إلى شرق البحر المتوسط يمر عبر حدود صحراء النفود بين شاراكس سباسينو والبتراء (بترا)، ويستمر هكذا حتى ميناء (جازا) غزة، وفى عام ١٠٦ ميلادية غزت قوات تراجان البصرة، وبعد ذلك حاولت تأسيس سيادة رومانية فى شاراكس، وبعد قرن أو قرنين كانت المراكز التجارية على الجانب السورى وبلاد الرافدين من صحراء شمال الجزيرة تتحول تدريجيا نحو الشمال وحلت البصرة وتدمر ودمشق محل البتراء (ثياما Thaema) بينما ورثت الحيرة والباتنيا وأماكن أخرى جزءا من شاراكس وأبو لوجوس كمكان التقاء لتجار السفن والقوافل. وكانت الدولتان العربيتان الحاجزتان الممثلتان فى الغساسنة واللخميين واللتان كانتا (من حوالى القرن الثالث وبعده) قد تأسستا على حدود الإمبراطوريات الرومانية والساسانية لكى تحلا محل الملك القديمة: الأنباط وميسين وكاراسين قد

نقلت مقرهما إلى الشمال أبعد من الأخيرتين[٢] ومن بين الأسباب التى أدت إلى هذا التحول شمالا تطور موانى ساحل فينيقيا (بدلا من غزة) قيام الإمبراطورية البيزنطية، وازدهار مدن شمال سوريا وبلاد الرافدين كمراكز لمشروعات دينية وتجارية، وهذه هى أهم الأسباب، ومع ذلك فإنه من المحتمل أن هذا الجفاف المقترح لشمال الجزيرة العربية والذى أشرنا إليه فى الفصل الأول[٣] كان مسئولا جزئيا عن الانحلال التدريجى، وتوسع عمليات العبور الجنوبية للصحراء السورية من رأس الخليج العربى حتى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط، وعلى أية حال من الصعب افتراض أن التحول شمالا لمثل هذه العمليات من العبور كان بسبب إحياء الطرق البرية عبر آسيا الوسطى وشمال إيران على حساب الطريق البحرى من الخليج العربى (الفارسى) لأن الحقيقة أن الاتصالات البرية فى ذلك الوقت كانت فى حالة أكثر تخلفا .

وفى نفس الوقت مثلما حدث التغير فى الشمال، حدثت اضطرابات فى جنوبى وجنوب غرب الجزيرة العربية، فلقد هاجرت قبائل من الإقليم الأخير سواء برا نحو ساحل البحرين وحدود الهلال الخصيب وبحرا إلى سواحل أثيوبيا والصومال، وأدت الحركة الجديدة من سكان جنوب الجزيرة إلى هجرة جموع من السكان وليس فقط توسع تجار البحر[٤] ومع ذلك كان لها تأثير على تطور العلاقات التجارية على مياه بحار الجزيرة العربية والبحر الأحمر، وقد دعم هذا الدافع الجديد للتجارة بنشاط مشابه رغم أنه منافس على الخليج الفارسى فى ظل حكم الساسانيين الأوائل (٢٢٥-٦٣٨ ميلادى)[٥] وقد أدى هذا إلى تجديد المنافسة بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر كممرات تجارية إلى المحيط الهندى، وفى هذا المقام من المفيد أن نلاحظ فى أنه بينما كان الذراعان البحريان السابقان تحت حماية الأسرة الساسانية فى مرحلة مبكرة، ظلت تجارة الأخيرة مقسمة بين عناصر عديدة متنافسة (وكلاء رومان، وعرب، وهنود ... إلخ) وكانت النتيجة أن جذب الخليج الفارسى معظم التجارة الشرقية التى كانت تنقل إلى أنهار الرافدين وبعدها عن طريق القوافل إلى السوق

الكبير في تدمر (بالميرا) على الجانب السورى، ومع ذلك فإن العداء السياسى بين الرومان والإيرانيين (الفرس) سرعان ما أدى إلى اضطراب التجارة، ودمرت بالميرا في الجزء الأخير من القرن الثالث الميلادى التى قامت بدور الوسيط بين الجانبين في الجزء الأخير من القرن الثالث بعد الميلاد[٦] وأدت هذه النكسة التى منيت بها تجارة الخليج العربى إلى زيادة نسبية فى تجارة البحر الأحمر، ومن المهم أن ملوك حمير فى سبأ وذا الريضان (فى هضبة اليمن) فى حوالى ٣٠٠ ميلادية قد ضخموا ألقابهم إلى ملوك سبأ، وذا الريضان، والحضرميين، واليمنيين، والعرب فى جبال وسواحل تهامة[٧].

ومن المحتمل أن يدل ذلك على أن ملوك جنوب الجزيرة العربية والذين توسعوا في سواحلها وموانيها، كانت لديهم الرغبة فى المشاركة فى هذه التجارة الجديدة المفعمة بالحيوية، وكان توسع مناطق نفوذهم قد ربطهم وأدى إلى اتصالهم مع الممالك القائمة فى أكسوم على الساحل المقابل لقارة أفريقيا، وكانت الأخيرة مركزا مهما للتجارة، وانتهت بأن صارت شبه تابعة للإمبراطورية الرومانية، ثم حمل المسيحيون المبشرون المسيحية إلى إثيوبيا خلال القرن الرابع الميلادى[٨].

وبدأ الجهد كمشروع خاص لكنه سرعان ما أثار اهتمام الإمبراطور قسطنطين الإيريانى والذى أرسل فى عام ٣٥٦ ميلادية بعثة (حملة) إمبراطورية إلى أمراء أكسوم يحثهم على طرد القساوسة المصريين (السكندريين)، والتحالف معه لصالح الإيريانيين[٩] ورغم فشل هذه الحملة فى هدفها المباشر فقد تبع هذا مشروع آخر لتطوير البحر الأحمر كطريق رومانى مباشر للهند[١٠] .

وصارت مملكة أكسوم نفسها أكثر قوة، وسيطرت أسواقها مع القرن الخامس م. على معظم تجارة البحر الأحمر، وفي عام ٥٢٢ ميلادية، وبعد اضطهاد الملك اليهودى ذو نواس المستوطنات المسيحية فى نجران فى شمال اليمن استطاع ملوك أكسوم هزيمة اليمن وفرض سلطتهم على الجزء الأكبر من جنوب غرب الجزيرة العربية[١١].

وهذا يعنى أن كل التجارة صارت مركزة فى أيديهم وطبقا لبروكوريوس أرسل الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) بعثة تجارية إلى أكسوم فى عام ٥٣٠ - ٥٣١، ورأى أنهم بشرائهم للحرير من الهنود (أى تجار موانى الهند وسيلان) وإعادة بيعه إلى الرومان، يستطيعون أن يكسبوا من هذه العملية الكثير من المال، ويحققوا فوائد للرومان وحدهم فى هذا المجال، وبالتالى لن يجبر الرومان على دفع أموالهم للأعداء (أعنى الفرس القدماء)[١٢] ويواصل نفس المؤلف القول بأنه من المستحيل (يعنى من الصعب) على الأثيوبيين شراء الحرير من الهنود لأن التجار الفرس يركزون وجودهم فى الموانى التى ترسو فيها السفن الهندية، وذلك لأنهم يقيمون فى الدولة المجاورة ويشترون كل الحمولة. وفى الحقيقة كانت الإمبراطورية الساسانية[١٣] التى مدت نفوذها وسيطرتها على جانبى الخليج العربى، واستفادت بالفعل من السيطرة على التجارة الأخيرة التى سمحت بتطوير طريق جديد مثل طريق البحر الأحمر، وفى نهاية القرن الرابع تم إرسال حملة ساسانية ضد الأثيوبيين فى اليمن وطردوهم من هذه البلاد[١٤] ومن الأمور الشيقة أن نلحظ أنه طبقا لحمزة الأصفهانى أنه فى عهد نفس إمبراطور (كسرى أنوشروان) تم إرسال حملة، وأرسل أيضا أسطوله لكى يخضع جزيرة سرنديب (سيلان)[١٥] وربما نستطيع أن نستخلص أنه خلال القرن الرابع كانت جزيرة سرنديب(سيلان) تنعم بعلاقات وثيقة وحميمة مع أثيوبيا، وصارت محطة فى منتصف الطريق بين الجنوب الشرقى وجنوب غربى آسيا. ولقد كان العبور الخارجى للمحيط الهندى بين سيلان وخليج عدن أكثر مباشرة من نفس الجزيرة إلى خليج عمان، ومن ثم فإنه لولا تدخل الساسانيين لنافس البحر الأحمر بجدارة الخليج العربى، ومهما كان حكمنا على هذه المسألة، فمن المؤكد أنه خلال العقود التالية لما سمى بعهد الجاهلية (مباشرة قبل ظهور الإسلام) شهد الخليج الفارسى تجارة مفعمة بالحيوية، ولكن قبل أن نبدأ بدراسة هذا النشاط البحرى للتجار الإيرانيين (الفرس) العرب فمن المفيد أن نلقى نظرة على المشروع المبكر للصينيين فى البحار .

الأحداث المتغيرة فى جنوب شرقى آسيا

المشروع البحرى المبكر للصينيين

أول وصول لسفنهم إلى البحار الغربية - النشاط البحرى والاتصال التجارى فى الخليج الفارسى

كما أشرنا بالفعل فى نهاية الفصل السابق فإن التطور الحقيقى للتجارة البحرية فى جنوب شرقى آسيا فى ظل حماية الإمبراطورية الصينية لم يحدث حتى عصر الأسر الوطنية التى حكمت فى جنوبى الصين خلال قرنين أو نحو ذلك فى الفترة السابقة مباشرة لقيام أسرة تانج (٦١٨ ميلادية). تركزت هذه الأسر فى معظمها حول نان كنج عاصمة يانجتسى الأدنى، والتى من خلالها استطاعوا التحكم فى السواحل الشرقية والجنوبية، وصارت بحار الصين مليئة بالقراصنة خاصة من خليج تونج كنج (كاتيجارا القديمة التى تنازلت عن مكانتها كنهاية للبحارة الغربيين إلى الميناء الأكثر ملاءمة فى كانتون أو كونج شو) وصارت غاراتهم فى عام ٤٤٧ ميلادية على السواحل الجنوبية لجنوب الصين أكثر تأكيدا لدرجة أن الإمبراطور ونتى(Won-ti) فى سونج اضطر إلى إرسال حملة تأديبية إلى شمال الهند الصينية والتى دمرت المنطقة واكتسحت العاصمة(١). وكان لهذه الإجراءات التى نفذتها الأسر الجنوبية آثار بعيدة المدى على تشجيع التجار الأجانب الذين يزورون الموانى الصينية، كما شجعت الممالك فى جنوبى وجنوب شرقى آسيا على إقامة علاقات مع الأسر الوطنية فى الصين، وحسب الحوليات الصينية كانت سيلان أول من أقامت اتصالا مع هذه الأقطار فى عصر تسين الشرقى (٣١٧-٤١٩ ميلادية)(١٧) وكانت هذه خطوة محمودة للتبادل التجارى بين الدولتين، ولقد شاهد فاهيان Fa Hian الحاج الصينى الذى زار سيلان فى أوائل القرن الخامس ضريحا بوذيا على تلال فيرلس، وأن أحد الوطنيين كان يقدم له مروحة من الحرير الصينى الأبيض كهدية.(١٨) وبعد عودته إلى الصين مباشرة (٤١٤ ميلادية) تم افتتاح اتصال مباشر بين دول الجزر الهندية فى البحار

الجنوبية ودولة سانج المؤسسة حديثا (٤٢٠ - ٤٧٨م) وذلك من خلال سلسلة من الحملات (نعنى حملات تجارية) .

وتحكى موسوعة اليوهاى التى جمعها وانج ينج لن من القرن الثالث عشر أن البعثات التى وصلت فى سنوات ٤٣٢ و ٤٣٥ من دولة هولنج والتى سميت شيوا She-wa أى جاوة[١٩]، كما تم تسجيل بعثات مشابهة (أى تجارية) فى الحوليات الصينية وأنها قد وصلت من سيلان فى سلسلة طويلة خلال القرنين الخامس والسادس ميلادى[٢٠] ويبدو أن ملوك الجزيرة الأخيرة قد صاروا مهتمين بالحفاظ على العلاقات الحميمة فى عام ٥١٥ مع الصين لدرجة أنهم أعلنوا أنهم تابعون لهذه الدولة[٢١] وهناك شك بسيط فى أن سيلان قد جذبت قدرا كبيرا من التجارة فى ذلك الوقت ومن ثم انتقلت إلى موانى مالابار(*)[٢٢] واستفادت كثيرا كوسيط بين الشرق والغرب، وقد برهن على ذلك الكتاب الغربيون فى ذلك الوقت ومن بينهم كوسماس اندوكومبلستس (٥٣٣ ميلادى) الذى قدم هذا التقرير الشيق عن سيلان وطريقها التجارى والذى قال فيه :

" إن الجزيرة كما هى فى موقع مركزى، وغالبا ما تصل إليها السفن من كل أجزاء الهند ومن فارس وأثيوبيا، وبالمثل فإنها تبعث الكثير من سفنها إلى أبعد مدى أعنى تزنيستا (أى الصين) وأماكن تجارية أخرى (الملايو الهندية) وتستقبل الحرير، ونبات الصبر، والقرنفل، وخشب الصندل، وغيرها من المنتجات، وتمر هذه السلع بدورها أيضا إلى الأسواق مثل مالى ملابار حيث ينمو الفلفل وتعد كالينا (جنوب منطقة جوجرات) والتى تصدر الفلفل، والسمسم، والأقمشة لصناعة الملابس، وموقعا عظيما بالنسبة للتجارة - وقريبة من سندو (ديول سندا) عند مصب نهر السند حيث يتم إنتاج المسك ونبات الخروع ... وأيضا كل فارس ودولة حمير (اليمن) وعدل (زيلع جنوب مصوع الحديثة) على البحر الأحمر، فكانت الجزيرة تستقبل واردات كل هذه

(*) مالابار: الساحل الغربى للهند (المترجم)

الأسـواق التى ذكـرناها، وتمررها إلى أجزاء بعيـدة، بينما تصـدر فى نفس الوقت منتجاتها الخاصة لكلا الاتجاهين .

ومن الصعب أن نحدد المدى الذى شارك فيه البحارة الصينيون فى تفعيل هذا النشاط التجارى فى بحار الشرق الأقصى، وحسب التقاليد الصينية فإن القرنين الخامس والسادس يسجلان فترة من مغامرات صينية عظيمة للبوذيين الصينيين والذين حاولوا نشر عقيدتهم فى الدول الهامشية الشرقية المعروفة بأسماء فوسانج فو ومملكة النساء، وأرض الأجسام العارية وغيرها، وأحيانا تعرف هذه الدول بعلامات تشير ببساطة إلى بعض الدول الصغيرة فى أرخبيل اليابان.(٢٤) ومع ذلك فإن وصول مثل هؤلاء القساوسة إلى اليابان لا يشير بالضرورة إلى نشاط بحرى متقدم حيث معظمهم يبدو أنهم شقوا طريقهم إلى هناك من خلال الجسر الأرضى فى كوريا،(٢٥) ورغم هذا فإن هناك سببا معقولا للاعتقاد بأن الصينيين قد شاركوا فى هذا الوقت فى تطوير الملاحة البحرية حول الركن الجنوبى الشرقى لآسيا، وأيضا على سواحل المحيط الهندى. وصارت سواحل جنوب وجنوب شرقى الصين والتى كانت معروفة ببناء السفن واتصالها مع العالم الخارجى مكان ميلاد حركة متطورة ومتقدمة للملاحة(٢٦).

وتم القيام برحلات جريئة فى ظل الأسر الوطنية فى الجنوب (والتى سبقت التانج) إلى بحار جنوب غربى آسيا، وهناك نقطة تثير الجدل كثيرا حول الحد الغربى لمثل هذه الرحلات. ومن سوء الحظ أن الوثائق الصينية غالبا ما تفتقر فى هذا المجال، كما أن الملاحظات الوحيدة التى نجدها فى الحوليات فى هذه الفترة غير كاملة وغير دقيقة، وعلى أية حال لا توجد إشارة للصينيين الذين شاركوا فى النشاط البحرى فى البحار الغربية.(٢٧) ومن جهة أخرى هناك إشارة فى الوثائق العربية عن سفن صينية وصلت إلى الميناء القديم فى الحيرة (بالقرب من كربلاء الحديثة) على نهر الفرات فى وقت يصعب تحديده، والتى لا يمكن أن تكون قبل بداية القرن السادس الميلادى. ويتحدث المسعودى الجغرافى العربى فى القرن العاشر عن تغيرات فى مجرى نهر

الفرات فى بابليون حيث يقول اعتادت معظم مياه الفرات أن تنساب فى المناطق المجاورة للحيرة التى ظل فرعها القديم (الجاف) فى الوقت الحاضر ويسمى العتيق (القديم)، وعلى هذا النهر حاربنا معركة القادسية (٦٣٢م) بين العرب ورستم (القائد الساسانى)، وقد اعتاد هذا الفرع على الانسياب فى البحر الأبيسنى (أى مستنقعات بابليون الدنيا، ويصل إلى الخليج الفارسى ثم البحر العربى الذى كان قد وصل إلى ما يعرف الآن بالنجف. وقد صعدت السفن الصينية والهندية (أى السفن الهندية والصينية) النهر إلى ملوك الحيرة[٢٨]، وربما يدعم هذه العبارة إلى حد ما تصريح آخر متشابه، على الرغم من أنه أقل تحديدا قدمه حمزة الأصفهانى الذى لم يذكر السفن الصينية والهندية، ولكنه يقول إنه فى فترة ازدهار ورخاء أسرة اللخميين فى الحيرة كان النهر يمر قريبا من مدينتهم[٢٩].

وقد أدى تصريح المسعودى (يؤيده حديث الأصفهانى إلى اختلاف فى الرأى بين دارسى العلاقات العربية الصينية بخصوص التاريخ الدقيق لوصول السفن الشراعية إلى الحيرة، ويرى رنيو وبعده رشتوفن وغيرهم أن يرجع إلى الربع الأول من القرن الخامس الميلادى.[٣٠] بينما يذهب بيزلى إلى أبعد من ذلك بأن الصينيين قد زاروا الخليج الفارسى فى أوائل القرن الثالث،[٣١] ومن جهة أخرى يعتقد مارتن هارتمان أنه لا يوجد أى شىء فى وثائق المسعودى عن فترة خلاف فترة معركة القادسية[٣٢].

إن الدراسة المتأنية لما يسمى بالنص العربى غير المحدد قد أقنع كاتب هذه السطور بأنه فى جميع الاحتمالات تشير كتابات المسعودى إلى فترة حوالى الجزء الأول من القرن السادس، ونظرا لغياب السجلات والوثائق الصينية التى تدعم الآراء العربية يصبح من غير المؤكد، والأكثر أمانا نسبيا أن نحمل هذا التاريخ قرنا قبل ذلك، كما رجح رينوود، وفى نفس الوقت من الضرورى أن نتذكر حقيقة أن سفن الصين والهند التى كانت تتجه إلى ملوك الحيرة تجعل من المستحيل قبول رأى هارتمان لأن أسرة اللخميين قد انتهت حوالى ٦٠٥ ميلادية أى ربع قرن قبل زمن

معركة القادسية.[٢٣] وربما وصلت تجارة الحيرة النهرية أثناء الجاهلية (قبل الإسلام) إلى أبعاد أكبر بسبب الاضطرابات على الطرق البرية من جهة، وإحياء الطريق البحرى من جهة أخرى، وتشجيع الأسرة الساسانية للنشاط البحرى على الخليج الفارسى والأنهار الدنيا من بلاد الرافدين .

وقد ذكر هيرث وروشيل فى مقدمتهم لترجمة أعمال شو جو كوتو اللذين درسا الموضع من وجهة نظر الوثائق الصينية، أن الصينيين ربما سافروا فى القرن السادس إلى أبعد من عدن، أو إلى رأس الخليج العربى إلى هرمز، وسيراف، والبصرة أو بغداد، وكانت هذه حالات منفردة من المغامرات التجارية.[٢٤] ربما تؤدى هذه العبارة العامة إلى التقليل من شأن وثائق لا تقل أهمية عن وثائق مؤرخ عربى مثل المسعودى، كما أنها تغفل حقيقة أنه فيما يختص بتجارة الشرق الأقصى، كان ميناء الحيرة فى ذلك الوقت ربما أكثر أهمية من أى موانى أخرى (البصرة لم تكن قد تأسست بعد).[٣٥] وحسب التقاليد ما قبل الإسلام كانت الحيرة مركزا تجاريا عظيما وتضم سوقا سنويا يحضره التجار والمشترون من كل أنحاء الجزيرة العربية[٣٥] ومن المفترض أن تكون قد حلت محل باتنا القديمة Batnae (فى سهل الرافدين وليس بعيدا عن الشاطىء الشرقى لنهر الفرات) الذى تحدث عنه إميان مارسيلين فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى باعتبارها مكانين لسوق عظيم للسلع الشرقية الواصلة هناك برا وبحرا، وتباع فى السوق الكبير الذى يعقد فى بداية شهر سبتمبر كل عام.[٣٦] ومن الواضح أن هذه التجارة كانت مصدر ربح كبير للخميين وللإمبراطورية الساسانية التى تمسكت بسيادة اسمية على الحيرة وأسواقها .

وبدأت هذه التجارة فى الانحلال وبانتهاء العصر الجاهلى، وكانت هناك عوامل مسئولة عن هذا الانهيار، منها الصراع السياسى بين البيزنطيين والفرس، والاضطرابات المتجددة بين القبائل البدوية على حدود الهلال الخصيب والتى كانت مؤثرة بشكل قاتل على الأمن والسلام، ويمكن أن نضيف لهذه العوامل تأثير

التغيرات الشائعة على المجارى الدنيا لأنهار الرافدين، والتى جعلت الملاحة خطيرة، بل إنها تؤدى إلى تغيير مواقع الموانى. ولا توجد دلائل تاريخية عن مثل هذه التغيرات خلال العقود التى سبقت ظهور الإسلام مباشرة، ولكن يذكر المسعودى غرق تشالديا الأدنى بمياه نهر دجلة والتى حدثت نحو عام ٦٢٧ ميلادية.[٣٧] وقد وجدت السفن الشراعية الصينية صعوبة فى الملاحة عند رأس الخليج العربى، والتى وصفها المؤرخون العرب والصينيون بأنها كانت أكبر حجما من سفن البحارة الفرس والعرب[٣٨].

وهناك من الأسباب ما يجعلنا نقول إن السفن التجارية فى الخليج العربى وجدت من الضرورى التراجع ناحية الجنوب، واتخاذ الموانى الخارجية فى سيراف ومسقط قواعد للعمليات فى البحار الغربية، ومن هذه الموانى الأخيرة وخاصة سيراف (بالقرب من قرية تاهيرى الحديثة) شمال رأس نابند على دائرة عرض ٤٠ر٢٧° شمالا وخط طول ٢٠ر٥٢° شرقا.[٣٩] وتنقل قوارب صغيرة السلع الصينية وغيرها من المنتجات الشرقية إلى مصبات أنهار الرافدين، وموانى الحيره (القطيف) والتى كانت فى بداية القرن السابع قد اكتسبت أهمية باعتبارها المنفذ الشرقى إلى وسط الجزيرة العربية ومكة[٤٠].

وصار الطريق من جرها (Gerrha) خلال وسط نجد ومكة وشمال الحجاز إلى سوريا طريقا بديلا عن الطريق من موانى بابليون عبر الصحراء السورية إلى حدود بيزنطة، ونحن نميل إلى الرأى الذى يقول إن الطرق المتوسطة الحيادية بين ممالك روما وإيران قد فضلت الطريق السابق باعتباره طريقا مستقلا عن كليهما. واستمر نشاط التجار الصينيين فى البحار الغربية لمدة أكثر من قرنين بعد ظهور الإسلام وتتحدث حوليات التانج فى القرنين السابع والثامن عن رحلاتهم إلى الخليج العربى كبداية من كون شو (كوانج شو، وكانتون) إلى سيلان عبر مضيق مالقا، وبعد ذلك على طول الساحل الغربى للهند إلى مصب نهر السند وهكذا حتى سيراف[٤١].

وكان سليمان التاجر أول رحالة عربى فى عام ٨٥١ أعطانا تقريرا عن السفن الصينية والتجارة مع سيراف، وهو أول من قدم سجلا عن البحار والأرض فى جنوبى وجنوب شرقى آسيا.[٤٢] ويقول فى بداية سرد قصته من الغرب بأنه فى سيراف تحمل السفن الصينية السلع التى جاءت من البصرة وعمان (جزء منها) ومن أماكن أخرى فى قوارب صغيرة، ثم تبحر إلى مسقط على الساحل المقابل والذى يتركونه فى طريق مباشر إلى كولام مالى (كويلون) على ساحل المالابار.[٤٣] وتستغرق عملية العبور حوالى شهر مع هبوب الرياح الملائمة، وبعد ذلك يدورون حول رأس كومورين وعبر ممر بالك Palk[٤٤] إلى جزر لانجى بالوس (نيكوبار) وأخيرا إلى ميناء كالاه أو كلابار والذى وصلوا إليه فى حوالى شهر من جنوب الهند.[٤٥] أما الجزء الباقى من الرحلة فكان أكثرها صعوبة وكان على السفن أن تقضى حوالى سبعين يوما فى اجتيازه، وتستغرق عشرة أيام عبر مضيق مالقا حتى جزيرة تايمومة (تيومان) وحوالى عشرين يوما أخرى للوصول إلى مملكة سناف (شامبا القديمة فى جنوب أنام)[٤٦] وبعد ذلك تسلك السفن طريقا ساحليا إلى ميناء كانفو (كانتون) عاصمة الإمبراطورية الصينية وهكذا تلقى قصة سليمان أضواء مفيدة على كل الطريق البحرى بين غربى وشرقى آسيا، وتملأ فراغا تحتاج إليه الوثائق الصينية، وعلاوة على ذلك فإنها تعطى تقريرا يعتمد عليه عن أعمال التجارة فى مختلف الموانى والظروف التى تتم فيها الصفقات، ولكن قبل أن نتقدم لدراسة التجارة البحرية بين المشرق الغربى والشرق الأقصى خلال القرون الأولى من العصر الإسلامى يجب إلقاء نظرة على أحوال الطرق البرية فى الوقت الذى أدى فيه التوجيه البحرى لجزء كبير من الصين إلى التبادل البحرى السابق ذكره أى خلال القرون الأولى التى تلت سقوط مملكة الهان (فى ٢٢٠ ميلادية) .

العودة إلى قضية الطرق البرية (القرن الثالث حتى التاسع الميلادى)

جهود الصين والدول الغربية (غربى آسيا)

الاضطرابات فى التبت وانهيار العلاقات البرية مقارنة بالطرق البحرية

كما ذكرنا فى بداية الفصل الحالى فإن الاضطرابات السياسية التى وقعت خلال الفترة ما بين عهد الهان والناتج (٢٢٠-٦١٨م) قد عطلت عمليا السياسة السابقة للتوسع فى وسط آسيا، كما أدت إلى انهيار نسبى للطرق البرية. ورغم أن الكيان السياسى وإن لم يكن أقل أهمية فإن النفوذ الثقافى للصين فى حوض تاريم قد انتعش إلى حد ما بعد التخلى عن مثل هذه السياسة، غير أن الحوليات فى القرنين الثالث والرابع تعطى إشارات بسيطة إلى الأقطار الغربية(٤٧). ورغم ذلك كان قيام أسر ملكية أجنبية طموحة فى شمال الصين والتى كان هدفها الحفاظ على العلاقات مع جيرانهم من البدو أو حتى مع دول الغرب، ما أدى إلى الحفاظ على جزء من العلاقات التجارية مع طرق وسط آسيا. ويصدق هذا بشكل خاص على أسر وى (wei) (٣٨٦-٥٥٠ م) والتى يقال إن بعض أباطرتها قد تبادلوا سفارات مع الساسانيين فى فارس(٤٨). وعندما تقلدت أسرة سوى (Sui) السلطة فى (٥٨١-٦١٨م) قامت بجهد جديد وأكثر فعالية لاستعادة السيادة الصينية على الطرق البرية، ومن الواضح أنهم استفادوا من الصراع السائد عندئذ بين اليوغور (Uigurs) والأتراك الغربيين على تيان شان وقام رئيس القبائل السابقة بعد انتصاره على منافسيه الغربيين بإخضاع إمبراطور سوى (Sui) عام ٦٠٨م(٤٩).

ومع هذا فإن قوة الأتراك الغربيين كانت ولا تزال قوية جدا لدرجة أنه لا يمكن للصينيين و حلفائهم كسرها. ولم يتحقق ذلك إلا بعد عقد أو أكثر من قدوم التانج (٦١٨م) عندما بدأت السيادة الإمبراطورية على الطرق البرية يعترف بها بشكل دائم إلى حد ما. وتم إرسال حملات إلى المراكز البدوية المتعددة، واستطاعت القوات الصينية السيطرة على الواحات المهمة مثل هامى والتورفان.(٥٠) ومن الطبيعى أن

يصحب التوسع الإقليمى للإمبراطورية زيادة فى العلاقات التجارية مع الغرب حتى أنه فى ظل حكم الإمبراطور الأخير للسوى، حاول الصينيون رغم فشلهم فتح علاقات مع بلاد الفولن (الإمبراطورية البيزنطية) فى الشرق الأدنى.[٥١] وفى هذا المقام من المفيد أنه من بين الهدايا التى أرسلها رئيس منطقة تورفان إلى بلاط تانج فى عام ٦٢٤ و ٦٢٧ ميلادى كلبان جاءا من بلاد الفولن.[٥٢] ويدل هذا على الاتصالات التجارية التى قامت فى تلك الفترة بين الإمبراطورية البيزنطية ووسط وشرقى آسيا. وقد لاحظ الحاج الصينى هويون ثانج (حوالى ٦٣٠م) والذى مر عبر الحافة الجنوبية الغربية لمرتفعات تيان شان فى طريقة أن المركز التجارى فى تالاس أو تاراس (بالقرب من قلعة أولى أتا عند منابع نهر سيحون (سيرداريا) والمدن الأخرى سوجديانا، وفرغانة أنها ضمت بين سكانها عددا معقولا من التجار الأجانب من جميع الدول،[٥٣] وبطبيعة الحال توسعت العلاقات التجارية بعد قيام الحكم النهائى للتانج فبلغت ما يسمى الآن التركستان الشرقية فى منتصف القرن السابع، ويتضح هذا بشكل أفضل من خلال الآثار الأركيولوجية التى اكتشفها السير أ.ستين فى أحواض تورفان (خصوصا فى أستانا) التى تلقت من ذلك الوقت سلعا ونفوذا ثقافيا سواء من الصين أو العالم الغربى.[٥٤] وهناك جهد مشابه للصين - على الرغم من أنه أقل فى المدى والفاعلية قام به الإمبراطور البيزنطى لكى يفتح الاتصالات البرية، كما تم استخدام الطريق من البحر الأسود شمال الكاسبيان بحر قزوين إلى وسط آسيا.[٥٥] وفى أوائل عصر جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) وتم تبادل السفارات بين الأتراك الغربيين والبيزنطيين منذ عام ٥٦٨ وما بعدها[٥٦]. وكان التحالف بين الآخرين قد انتهى بسبب سياسة عداء الساسانيين للأتراك الغربيين والذين منعوا رعاياهم من التجارة، ومن الواضح أن الطريق الجديد قد صمم للتخفيف عن الرومان من تدخل الإيرانيين واستغلال التجار العرب الذين كانوا يعملون كوسطاء ثانويين على حدود الإمبراطوريتين (الساسانية والرومانية)[٥٧].

ومع هذا لم يكن مقررا أن تظل الطرق مفتوحة لفترة طويلة، فقد أدت الاضطرابات بين القبائل التركية إلى صعوبة أحوال التجارة، وبدأ الاتحاد الفيدرالى فى التحلل تدريجيا وخلال النصف الأول من القرن السابع قبل أن يسقط نهائيا فى عامى ٦٥٨ و ٦٥٩م. وقد أحيت الجهود المتتابعة أباطرة التانج هذه الاتصالات ولكن عبر الطرق الإيرانية، فقد استطاع الحرير الصينى أن يصل إلى الغرب، وعلاوة على ذلك يجب أن نلاحظ أنه فى نهاية القرن السابع تقطعت كثيرا العلاقات البرية بين شرقى وغربى آسيا ككل، ولم يكن هذا بسبب التوسع العربى، كما ساد الاعتقاد أولا، ولكن بسبب الاضطرابات التى استمرت حوالى مائة وأربعين عاما انتهت مع فجر القرن التاسع (٥٨).

وقد اعتدت الشعوب الأخيرة على الممر المهم فى سوليوهو، وقامت بغزو حدود المقاطعات الغربية والشمالية الغربية للصين الأصلية، ومدوا نفوذهم على واحات جنوب وغرب تاريم بل وحتى إلى كاشجاريا.(٥٩) وبذلك استطاعوا إغلاق نفس منفذ الصين على حدها الشمالى الغربى، والسيطرة على الطريق الجنوبى المهم والذى كانت التجارة قد تخلت عنه عمليا، وفى بعض الحالات يبدو أن القواد العرب الطموحين فى تركستان كان لديهم من الأسباب للقيام بغزو وسط آسيا على حساب السلطة المنحلة للتانج، ورغم هذا فقد أدرك العرب وخصوصا سلطات بغداد (أى العباسيين) حقيقة أن سكان التبت كانوا خطرا حقيقيا سواء بالنسبة للاستقرار السياسى والتبادل الثقافى فى وسط آسيا. وكان التعاون بين الإمبراطوريات الإسلامية والصينية ضروريا للحفاظ على السلام والأمان على طول الطرق الأرضية. وتتحدث الوثائق الصينية عن العلاقات المتجددة وتذكر ثلاثة سفراء عرب جاءوا إلى البلاط الإمبراطورى عام ٧٩٨ ميلادية(٦٠).

لقد تبع العمل المزدوج لسادة آسيا الشرقية والغربية نشاطا متزايدا فى التجارة بين الإقليمين، يذكر ابن خرداذبه الذى كتب عن (النصف الثانى من القرن التاسع) الطريق من البلق (Balkh) إلى ترانسوكسيانا وهى وطن التغازا والصين

(انظر خريطة ٧، ٨)[٦١] ويذكر المسعودى الذى كتب عن وسط القرن العاشر قصة رجل عجوز (مسن) من بلق ذهب إلى الصين عدة مرات دون أن يسلك طريق البحر (خريطة ٨) وعرف أيضا عدة أشخاص سافروا من سجد (سوجديانا) عبر كاشجاريا إلى حدود التبت والصين.[٦٢] ويمكن أن نستنتج من هذا أنه كان هناك طريقان رئيسيان من خورسان إلى الصين أحدهما عبر المنطقة التى تقطنها القبائل التركية (أى يغور مرتفعات شان حيث يأمن المسافرون على أنفسهم، والآخر هو الذى اتبع الحافة الجنوبية لحوض تاريم، وأدى إلى الممر الحالى لكانشو[٦٣].

ومع ذلك يجب أن نلحظ أن إشارات الكتاب العرب إلى الطرق البرية الشائعة فى ذلك الوقت ضئيلة، ولا يمكن أن تقارن مع السجلات التفصيلية الموجودة لدينا عن العلاقات البحرية. ويصدق نفس القول على حالة الحوليات الصينية، وفى الحقيقة لم تكن أى من الأسر التى حكمت فى شمال الصين بين التانج (٦١٨-٩٠٧م) ويوان (المغول ١٢٢٩-١٢٦٠ و ١٢٦٠ - ١٣٦٨م) قوية بالدرجة التى تجعل الطرق البرية تحت السيطرة الكاملة، وفى هذا المقام لابد أن نتذكر أنه طوال هذه الفترة كانت نظرة الصين التجارية متجهة إلى حد كبير نحو البحر، ولقد استمر النشاط البحرى الذى بدأ فى ظل السونج الأوائل (٤٢٠ - ٤٧٨م) بشكل أو آخر مع بعض التوقف خلال عدة قرون بعد سقوطها حتى تم تحديثها وتوسعها بفضل السونج الذين جاءوا بعد ذلك (٩٦٠-١٢٦٠ أو ١٢٧٩) قارن خرائط ٧، ٨، ٩) وكذلك اتجهت المشروعات التجارية للخلافة فى بغداد وأقاليمها الشرقية بشكل كبير نحو الخليج العربى والمحيط الهندى.

ويحكى أبو زيد حسن حاكم سيراف (٩١٢م) والمسعودى قصة تاجر من سمرقند، غادر وطنه (سوجديانا) ومعه كمية ضخمة من السلع، وجاء إلى العراق حيث أخذ سلعا أكثر، وهبط إلى البصرة، وهناك أبحر على سفينة إلى عمان، ومنها إلى كيلاه (Killah)، أو كالاه - فى الملايو) ومنها واصل رحلته إلى كانفو (كانتون)[٦٤] وبالطبع ربما نضيف بأن هذا دليلا بأن الطريق الأول من البحر كان فى الحقيقة عمليا أكثر من الطريق البرى الأقصر.

وتبين الملاحظات السابقة أن الاضطراب السياسى الذى حدث فى كثير من أجزاء الأراضى المنخفضة شمالا من حوالى القرن الثالث أو الرابع م. وما بعده خلال فترات طويلة كانت غير مناسبة للتبادل المنتظم للتجارة، وعلاوة على ذلك كانت الواحات فى الجزء الغربى من الاستبس والتى كانت فى العصر الرومانى الإغريقى معتادة على استيراد الحرير من الصين لكى تعيد تصديره إلى إيران وعالم البحر المتوسط، ثم صارت بالتدريج منتجة لهذه السلع. إن إدخال دودة الحرير (من الصين) إلى كوتان (من المحتمل حوالى الجزء الأول من القرن الخامس)[٦٥] وانتشاره من هناك إلى الواحات الأخرى فى غرب تركستان وإقليم تابارستان (وأيضا الشرق الأدنى نفسه) قد ساهم إلى حد ما فى استغناء نسبى لهذه الأقاليم عن الصين فيما يختص بإمدادها بالحرير. ورغم أن الإنتاج الكلى لوسط وغربى آسيا لم يكن كافيا ليغطى سوى جزء قليل من المطالب فى أسواق الشرق الأدنى، فنعتقد أنه من الآمن أن نستخلص بأن إدخال إنتاج الحرير الخام كان أقل العوامل المسئولة عن الاستخدام البسيط لطريق الحرير القديم خلال العصور الإسلامية الأولى (المبكرة). وسوف نعالج ونناقش مثل هذه العوامل عندما نصل لدراسة فتح الطرق البرية فى ظل المغول، ويكفى الآن أن نشير أنه طوال فترة السيطرة العربية للعلاقات الدولية، كان الاتصال والتبادل بين الشرق والغرب يعتمد أساسا على التجارة البحرية (انظر وقارن الخرائط ٦، ٧، ٨، ٩). وسوف نركز فى الفقرات القليلة التالية على المراحل الأولى من هذا النشاط البحرى، ونصيب البحارة العرب والإيرانيين (الفرس) فيه.

التبادل البحرى خلال العهود الإيرانية (الفارسية) والعربية المبكرة البحارة والتجار العرب والفرس فى غربى إيران وجنوب الجزيرة العربية

لقد شاهدنا بالفعل عند دراستنا للعلاقات التجارية فى العصور الرومانية الإغريقية أن النشاط التجارى لشعوب المشرق العربى ككل يتجه بدرجة كبيرة نحو البحر، وجاء معظم البحارة العرب من جنوبى وجنوبى غرب الجزيرة العربية أو من الخليج الفارسى (العربى) وعلى الرغم من أن التوسع من السواحل السابقة كان على شكل حركة حرة قام بها التجار العرب على عاتقهم الخاص فإن النشاط البحرى فى الخليج العربى خلال عدة قرون مباشرة قبل ظهور الإسلام – كان إلى حد كبير تدعمه وتسانده الإمبراطورية الساسانية، ومع هذا فإن المسافرين بحرا من الفرس والعرب سرعان ما ارتبطوا ببعضهم البعض فى مشروعاتهم الكبرى المشتركة لدرجة أنه أصبح من المستحيل أن نميز بين الاثنين .

وقد استمرت العناصر الفارسية (خصوصا من جنوب غرب إيران) فى التعاون مع سكان جنوب الجزيرة بعد ظهور الإسلام كتجار فى الخلافة الإسلامية، وفى الحق فإنه من خلال شعب فارس عرف الصينيون أولا التازى (Ta-zi) التاشى أو العرب[٦٦].

وجاء فى الحوليات الصينية التى تغطى الفترة من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن السابع ميلادية أن كل المنتجات الهندية الماليزية، ومن سيلان، والهند، والجزيرة العربية، وشرق أفريقيا، ترمز إليها على أنها منتجات فارسية (Po - sse) وهى الدولة التى جلب تجارها هذه السلع إلى الصين[٦٧] ويحكى الحاج الصينى اتسنج فى عام ٦٧١م أنه فى طريقه إلى الهند تحرك من كانتون على ظهر سفينة فارسية متجهة إلى فوشى (Fo-che) ساديرا أو ساريبازا فى الجزيرة العربية، وبالمبانج فى جنوب شرقى سومطرة[٦٨].

كما رأى السيد البوذى فاجرا بودهى بعد أربعين عاما أى فى عام ٧١٧م فى سيلان خمسة وثلاثين سفينة صاحبته حتى فوشى وواصلت رحلتها إلى كانتون رغم أنهم واجهوا كارث قبل أن يبلغوا الميناء الأخير(٦٩).

كما ذهبت بعض المصادر إلى أبعد من ذلك حيث أشارت أنه قبل القرن التاسع كان الفرس (من جنوب غربى إيران وغرب الخليج العربى البحارة الوحيدين من غربى آسيا الذين وصلوا إلى البحار الصينية)(٧٠)، ومع هذا فإنه من الصعب قبول هذا الرأى لأنه يتجاهل الدور الذى لعبه العنصر العربى فى التجارة المبكرة مع الشرق الأقصى، إذ تذكر الوثائق الصينية أنه فى أوائل عام ٣٠٠م أن دخول الحناء (نبات الياسمين فى كونج تونج) كان عن طريق بعض الهوجن أو الهوجون (شعب الأجنبى) والذين اعتبرهم هيرث فرسا وعربا.(٧١) كما لاحظ الحاج فاهيبان بعد قرن ظواهر وعلامات الثروة عند تجار السويو فى سيلان والذين أتوا من سبأ (Sabaea)الدولة القديمة فى جنوب غرب الجزيرة العربية.(٧٢) وعلاوة على ذلك يجب أن نضع فى الاعتبار حقيقة أن الإمبراطورية الساسانية قد وضعت أيديها على الساحل المقابل للخليج الفارسى بل إنها مدت نفوذها إلى اليمن، وربما تكون قد أوحت لشعوب شرقى آسيا انطباعا بأن كل البحارة من الغرب كانوا فرسا، ومن المحتمل أيضا أن العرب فى عصور ما قبل الإسلام قد وجدوا أنه من المفيد أكثر أن يطلقوا على أنفسهم رعايا الشاهنشاه الفرس أو ملك الملوك. ومهما كان الأمر فهناك أرضية جيدة للتأكيد على أنه رغم أن العنصر الفارسى منذ عصر الساسانيين وما بعدهم قد لعب دورا مهما فى تنظيم التوسع البحرى من شرق الجزيرة كان البحارة العرب أساسا مهندسى الملاحة المحلية.(٧٣) وأنهم أسسوا نظاما موسعا للتبادل البحرى مع شرقى أفريقيا والهند قبل النهوض السياسى لجيرانهم الشرقيين. كما اكتسب العرب بعد ظهور الإسلام أيضا مكانة ثقافية أضافت كثيرا لدورهم التجارى، ومما لا شك فيه أن تطور موانى الخليج العربى مثل كياس (كيشى) وهرمز اللتين أصبحتا خلال العصور الوسطى قواعد للتجارة مع الشرق وقد تحقق هذا بشكل كبير من خلال الأسر

المهاجرة من السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة.[٧٤] وعلاوة على ذلك فإن الغالبية العظمى من التجار المسلمين والمستقرين فى عالم الجزر لجنوب شرق آسيا قد جاءوا أساسا من نفس المنطقة، وعلى هذا يمكن أن نستخلص بكل أمانة أنه رغم أن الفرس (جنوب غرب إيران) كانوا دائما قادرين على الحفاظ على نصيبهم المهم فى أعمال التجارة فى موانى جنوب وجنوب شرقى آسيا، فإن جزءا كبيرا من هذه التجارة كان فى أيدى العرب وغيرهم من الرعايا المستعربين من الدول الإسلامية[٧٥].

قضية أثر ظهور الإسلام على العلاقات الدولية

إن الجزء الذى لعبه شرق الجزيرة العربية كهمزة وصل بين جانبى الشرق الأقصى الشرقى والغربى من العالم المتحضر خلال القرون الأولى للإسلام أمر يستحق النقاش، فقد لاحظنا بالفعل فى الفصل السابق أنه خلال الفترة الإغريقية الرومانية، أن تجار الشرق الرومانى قد أقاموا نظاما للتبادل التجارى بين مختلف الأقطار وامتد من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى، ففى ذلك الوقت كانت الحضارة الإغريقية الرومانية قد توغلت فى الشرق العربى الذى كان نقطة الاتصال بين الغرب والشرق. ومن جهة أخرى فإن ظهور الإسلام قد أحدث تغيرات معينة تهمنا فقط فى الوقت الحاضر مع تلك التى أثرت فى العلاقات التجارية على نطاق عالمى واسع [٧٦] والسؤال الأكثر صعوبة هو متى وكيف وإلى أى حد انعزلت الدول غير الإسلامية لشعوب البحر المتوسط عن التبادل التجارى مع شرق الجزيرة والأقطار فيما وراء ذلك، ونعنى الهند وآسيا الوسطى والصين والملايو الهندية .

لقد قدم بيرانى (Pirenne) رأيا يفيد أنه رغم عدم توقف العلاقات التجارية فجأة بعد ظهور الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، فإن هذا التقدم كان يقل تدريجيا حتى نهاية القرن الثامن أو بداية القرن التاسع حيث توقفت العمليات تماما.[٧٧] غير أنه فى ضوء الوثائق العربية يحتاج هذا الرأى إلى بعض التعديلات،

ويقدم ابن خرداذبة الذى ألف كتابا حول الطرق والممالك (المسالك والممالك) فى حوالى منتصف القرن التاسع لكنه لم ينته منه حتى حوالى ٨٨٠ - ٨٨٤ ميلادية التقرير التالى عن التجار اليهود وتجارتهم بين الأجزاء المختلفة من العالم فى عصره. أما بالنسبة للطريق الذى سلكه التجار اليهود الذين يتحدثون الفارسية والرومانية (الإغريقية واللاتينية) والعربية والفرنسية والأسبانية والسلافية، فإنهم يسافرون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب سواء بالبر أو البحر، وهم يحملون من الغرب الخصيان والبنات والعبيد من الأولاد والقماش المطرز، والفرو، والسيوف، ويبحرون من بلاد الفرنجة (فرنسا) على البحر الغربى (البحر المتوسط ككل) إلى الفرما بالقرب من آثار وبقايا الفرع البليوزى على الساحل الشمالى لبرزخ السويس) وهناك يحملون بضاعتهم على حيوانات التحميل ويعبرون إلى القلزم (رأس خليج السويس) وهى رحلة مسيرة خمسة أيام أو عشرين فرسخا (الفرسخ وحدة قياس فارسية قدره أربعة أميال)، (حوالى خمسة وسبعين ميلا إنجليزيا). ويرسون على البحر الشرقى (البحر الأحمر) إلى الدجار (al Djar) على ساحل الحجاز على بعد ثلاث مسارات من المدينة وجدة، من هناك حتى السند والهند والصين ومن البلد الأخير (أى ربما الصين والملايو الهندية) يحملون نبات المسك، والصبار، والكافور، والقرفة، وأشياء أخرى، وبعدها يعودون مرة ثانية إلى القلزم والفرما والبحار الغربية، ويبحرون إما إلى القسطنطينية ويبيعون سلعهم هناك، أو يواصلون الرحلة إلى بلاد الفرنجة، وأحيانا يجلبون سلعا من الدولة الأخيرة ويرسون فى أنطاكية والتى منها يسافرون لمسيرة ثلاثة أيام ويتوقفون ثانية على نهر الفرات، ومن ثم إلى بغداد حيث يستخدمون القوارب على نهر دجلة إلى العبد الله (أبو لوجوس القديم) وعمان والسند والهند والصين، وهو طريق بحرى متصل غير متقطع(٧٨).

ويتحدث نفس الكاتب أيضا عن التجار الروس (الروس من مناطق البلطيق) الذين جاءوا من طريق جنوب روسيا إلى بحر قزوين وبغداد، أو سلكوا الطريق البرى عبر أسبانيا، أو بلاد الفرنجة (الغال)، ويعبرون البحر إلى المغرب الأقصى وطنجة،

ومن ثم إلى أفريقيا (تونس وطرابلس) ومصر، ورام الله، ودمشق، والكوفة، وبغداد، والبصرة، والأهواز، وفارس، وكيرمان، والسند، والهند، والصين(٧٩).

وربما كان هذان المران كافيين لإلقاء بعض الشك على النتائج التى توصل إليها بيرين حيث أوضحت بأنه فى الجزء الأخير من القرن التاسع لم يشكل الشرق الإسلامى أى حواجز للتبادل المباشر بين أقصى جانبى العالم، ولهذا السبب نميل إلى الرأى الذى يقول يجب أن تأتى أدلة أكبر لإلقاء الضوء على هذه الأمور، فإن تاريخ قطع هذه العلاقات يجب أن يتأخر على الأقل إلى القرن العاشر .

أنشطة التجار الغربيين (*)فى موانى شرقى آسيا

تغيرات فى الدخول البحرى إلى الصين

سياسة الصينيين نحو التجار الأجانب، المستوطنات الإسلامية على سواحل جنوب الصين

نعود الآن إلى نشاط التجار الفرس والعرب فى موانى شرقى آسيا، ونلاحظ أنه على عكس الإغريق والرومان فقد وصلوا إلى الشرق الأقصى فى وقت كانت توجيهات الصين التجارية متجهة نحو البحر، وعلى هذا كانت العلاقة التى حققوها مع الدولة الأخيرة أكثر فعالية وديمومة، ورغم أنه بعد قدوم التانج الذين كانت عاصمتهم فى تشانجاجان (سيانفو) ولويانج (هونافو) كان الجهد الإمبراطورى موجها إلى حد ما نحو الطرق البرية، وأدت المشكلات التى صحبتها فى التبادل إلى استمرار الطريق البحرى، وكان هذا صحيحا بشكل خاص فى الفترة التى شهدت الاضطرابات فى التبت على الحدود الشمالية الغربية .

(*) يقصد غربى آسيا خاصة العرب والفرس (المترجم).

وازداد عدد التجار الغربيين الذين استقروا فى موانى الصين بشكل تدريجى، وبرهن على ذلك فى الحقيقة أنه فى التمرد الذى وقع فى عام ٨٧٨ ميلادية فى ظل قيادة يانشو (هوانج تشاو فى الصين) أن حوالى ١٢٠٫٠٠٠ (أو أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠) المسلمين واليهود والمسيحيين والبارسينين قد ذبحوا فى كانفو (افتراضا كانتون) الميناء الرئيسى حينئذ للصين[٨٠] .

ورغم أن عددا من التجار الفرس والعرب على ساحل الصين قد تأثر بهذا التمرد والمشكلات التى تلت ذلك، فإن مستعمراتهم فى موانى أخرى فى جنوب شرقى آسيا استمرت فى الزيادة، ومع القرن العاشر يبدو أنهم قد فرضوا سيطرتهم على الجزء الأعظم من التجارة الشرقية، حيث أسسوا وأقاموا خدمة منتظمة بين مقارهم الرئيسية فى الخليج العربى ومناطق استقرارهم فى الشرق الأقصى، وكانت التجارة مركزة بشكل كبير فى أيدى منظمات عائلية كبيرة (شبيه بالشركات"الحديثة الكبرى) والتى نمت بكثافة كوسطاء أغنياء، وخلال النصف الثانى من القرن العاشر (حوالى ٩٦٦) قابل ابن حوقل تاجرا ثريا فى البصرة واسمه أبو بكر أحمد السيرافى (من سيراف) وهو صاحب كل السفن التى أبحرت إلى الهند وشرق أفريقيا أو الصين، وكانت مستودعاته مليئة بكل الأحجار الكريمة والعطور، وبلغت ثروته الكلية أكثر من اثنين وثلاثة ملايين دينار والتى يبدو أنها كانت مبلغا ضخما جدا فى ذلك الحين [٨١]. وكان هؤلاء الأشخاص الأثرياء هم الذين يمولون المشاريع الضخمة فى التوسع التجارى فى الأسواق البعيدة فى شرقى آسيا. ويصعب تحديد الحد الشرقى للملاحة للبحارة الغربيين، ولكن يمكن أن نستخلص من الوثائق المتاحة أنهم من المحتمل أن يكونوا قد وصلوا إلى أبعد من كوريا، فالمسلم الذى يدخل وطنا فى أقصى أطراف الصين والمعروفة باسم سكاليا (أو سيالا، كوريا) والمليئة بالذهب كما يقول ابن خرداذبه تكون جذابة بجمالها وثراء أرضها لدرجة أنه لا يخرج منها مرة أخرى[٨٢].

أما بخصوص ميناء الدخول إلى الصين فقد تحدث المؤلفون العرب عنه تحت اسم كانفو (Khanfu) وأن معرفة هذا الميناء وتحديد موقعه له أهميته لأنه يلقى الضوء على نقاط معينة فى الجغرافيا التاريخية لعلاقات الصين الخارجية، كما يساعد أيضا على تحديد موقع وأماكن استقرار المسلمين الأوائل على سواحل هذه الدولة، وتحدد بعض المصادر هذا الموقع مع كونشو (كوانج شو، كانتون) بينما يرى آخرون أنه كانبو أو كان باهو وهو الميناء الأمامى القديم لمدينة هانج شو.[٨٣] ورغم التشابه الظاهرى فى النطق بين أسماء كانفو وكانبو فتوجد عدة أسباب لصالح التحديد السابق

١- فإن كانفو سليمان التاجر وأبو زيد التى تقع فى وادى ضخم - (وليست سهلا ساحليا) فقد بنيت أساسا من الخشب والخيزران، وكانت عرضة للحرائق من حين إلى آخر وتدمر المدينـــة وتعطل التجـارة الأجنبية[٨٤].

وبالطبع ينطبق هذا على العديد من مدن سواحل جنوب الصين، وكان ينطبق هذا بشكل خاص مع ما نقرأه فى يوميات تانج عن حريق مدمر وقع فى كانتون فى عام ٧٥٦ ميلادية وأحدثه الأجانب المقيمـــون[٨٥].

٢- بحسب رواية ابن خرداذبة كانت كانفو تبعد مسيرة أربعة أيام عن لوكوين (كاتيجوا القديمة بالقرب من هانوى) عن طريق البحر ورحلة عشرين يوما عن طريق البر[٨٦].

وليس مقبولا ومنطقيا مثل هذا التقدير للمسافة بين هانوى وخليج هانج شو .

٣- وأخيرا يمكن أن نلحظ أن كانبو التى ذكرت فى الوثائق الصينية كميناء ساحلى فى عام ٣٠٦ م وكمركز خدمة رئيسى فى عام ٧٠٦ ميلادية لم تكن مقرا للبلاط البحرى حتى عصر أسرة يوان المغول (Yuan)[٨٧] وبنفس الطريقة لم نسمع عن تعيين مفتشين للتجارة (شيخ بوشيه) فى هانج شو ومنجشاو (تنج بو الحديث) قبل

عام ٩٩٩ ميلادية، بينما تم ذكر مثل هذا المسئول فى كايوان فى أوائل عصر كيايون (٧١٣ - ٧٤٢م)[٨٨].

وعلى هذا يمكن القول إنه رغم أن اسم كانفو (أو أشكال مختلفة منها) قد استخدمها المؤلفون العرب فيما بعد لتدل على بعض المدن الأخرى فى وسط الصين، فمن المؤكد أن المدخل البحرى للإمبراطورية فى القرن التاسع كان فى كانتون، وحقا فلم تزد التجارة الخارجية فى موانى خليج هانج شو ومصبات أنهار يانجتسى بدرجة كبيرة إلا بعد مرور قرن أو أكثر(قارن الخرائط ٧، ٨، ٩)[٨٩].

كانت السياسة التى انتهجتها الحكومات الصينية تجاه تجار البحر الأجانب خلال فترات أسرة التانج والأسر التالية ممتعة، وتستحق أيضا مجالا أوسع، وكان هذا يعتمد على رأى البلاط الملكى الذى كان مسئولا عن جزء كبير ومهم من هذه التجارة، كما كان هذا أكثر أهمية لفئات معينة من السلع القيمة التى كان لديها عدد محدود من الزبائن، ولاحظ التاجر سليمان فى القرن التاسع أن وكلاء البلاط يأخذون الكافور الذين يدفعون ثمنه بالكامل، وعندما يرفضون أخذ هذه السلعة، فإن سعرها ينخفض إلى النصف [٩٠].

يعتبر البلاط الملكى فى الصين أيضا أكثر من أى بلاط آخر فى الشرق مسئولا عن إشراف الحكومة على العلاقات التجارية الأجنبية فى الدولة خلال العصور الرومانية الإغريقية والإيرانية العربية ما يؤكد على ضرورة موضوع هذه الدراسة وكان الوكلاء الإمبراطوريون ربما يرفضون إقامة علاقات تجارية مع الأجانب إلا إذا تمت هذه العلاقات طبقا لشروطهم الخاصة، وقد اتخذ جزء من التجارة شكل هدايا كعلامة للتبعية والإعجاب من جانب ملك يبعد كثيرا والذى يدفع إليه كامل الثمن فى شكل هدايا متبادلة تقدم إلى السفير المفترض، وفى الحق فإن الغالبية العظمى مما يسمى سفارات الجزية والتى أشارت إليها الحوليات الصينية فى كل الفترات كانت لا تزيد عن بعثات تجارية خاصة[٩١].

ومن الحقائق الملحوظة أن تجار العصور الوسطى فى المشرق العربى لم يظهروا احتجاجا جديا على نظام الصفقات الإمبراطورية التى صارت فى بعض الأوقات صارمة لدرجة أنها طورت احتكار الدولة لكل أصناف التجارة المهمة، وبالتالى فإنها اختلفت من هذه الناحية تماما عن الأوربيين الغربيين فى الوقت الحاضر (منذ حوالى القرن الثامن وما بعده) والذين حاولوا فرض طرقهم على الصينيين. ومهما كانت نواقص وعيوب النظام القديم، فمما لا شك فيه أن تجار المشرق العربى استطاعوا تكييف أنفسهم مع استخدامات وتقاليد إمبراطورية الصين القديمة بشكل أكثر انسجاما عن الأوربيين الجدد الذين حاولوا فتح أبواب هذه الدولة بالقوة. وكما ذكرنا من قبل فقد استمر النشاط البحرى الذى بدأ فى حوالى القرنين الخامس والسادس (على الرغم من أنه بالضرورة ليس من الصينيين أنفسهم) خلال عصر تانج (٦١٨ – ٩٠٧م) وجدت الأسرة الأخيرة أنه من المفيد الحفاظ على علاقات ودية فى مجال التجارة الخارجية، وقد علمنا من التاجر سليمان أن الرسميين اعتادوا على أخذ ثلاثة من كل عشرة (أى ٣٠٪ من أى نوع عينا) كرسوم جمركية على الواردات(٩٢) .

كان البلاط الملكى مهتما أيضا بتشجيع التجار الأجانب الذين جلبوا إلى الصين أهم السلع المطلوبة من الغرب، وتطور نظام موسع للتجارة الأجنبية، وكان على التجار القادمين من أقطار أخرى أن يسجلوا أسماءهم، ويتمتعوا بالحماية القانونية(٩٣). كما تمتع المسلمون الذين مثلوا الغالبية من هؤلاء التجار بكامل حريتهم الدينية، فضلا عن بعض الامتيازات شبه السياسية القليلة والتى تشبه إلى حد ما المبادئ الحديثة لاتفاقيات الموانى والأقاليم الخارجية(٩٤)، وأدت هذه التسهيلات المتزايدة التى تقدم للأجانب إلى تركيز قطاع كبير من التجارة البحرية فى أيدى التجار العرب والفرس.

وكان التانج الذين تمركزوا فى شمال غربى الصين، والذين عرقلت جهودهم تلك الاضطرابات على حدود أرض السهول، ولم تعد لديهم إلا فرص قليلة لتبنى مشروعات الصين الرسمية فى البحار، بل إنهم فشلوا فى الحفاظ على النصيب الذى أخذه البحارة الصينيون فى التجارة الأجنبية لوطنهم. ومنذ التانج كوشيبو (تغطى

الفترة ٧١٣ - ٨٢٠م) عرفنا أن السفن التى تجوب عباب البحر من كانتون كانت سفنا أجنبية وأن كل سفينة كانت تحت إشراف قبطان أجنبى يرسل اسمه إلى مفتش الجمارك الذى يجمع الضرائب على السلع وحمولة السفينة أيضا(٩٥). وإذا أخذنا الوضع على ما هو عليه رغم هذا، فإن هذا التسجيل يناقض ما كتبه الرحالة العرب الأوائل والمؤلفون عن وصول السفن الصينية والبحارة إلى سيراف ،ومسقط فى أواخر منتصف القرن التاسع ميلادى.(٩٦) وهناك من الأسباب ما يجعلنا نفسر تعبير القوارب الأجنبية على أنها السفن التى تعمل فى التجارة الخارجية، رغم أنها قد تكون بنيت فى الصين أو حتى يقودها قبطان وبحارة صينيون. وقد تقبل مثل هذا التفسير عالم حجة مثل ف. هيرث بأن تعبير التجار الأجانب المقصود به الذين يتاجرون مع الدول الأجنبية(٩٦).

وربما يؤدى هذا فى رأينا إلى أنه فى القرنين الثامن والتاسع يبدو أن البحارة الصينيين قد فقدو جزئيا إمكانية التجارة فى هذه المنطقة من جنوب غرب الصين، ولم يحدث التدهور الحقيقى لرحلاتهم الجزئية إلى البحار الغربية حتى النصف الثانى من القرن التاسع .

اضطرابات فى سواحل جنوب الصين
(أواخر القرن التاسع، أوائل القرن العاشر بعد الميلاد)
وتحول طرق التجارة إلى غرب الملايو

أدى نشاط التجار الغربيين المتزايد إلى شكوك أسرة تانج إلى حد ما فى وضعهم وعملهم فى الموانى الصينية، وبحسب الوثائق الصينية السابق ذكرها من قبل فقد تم منع تصدير السلع النفيسة والنادرة وإلا أصبح التاجر الصينى متهما بتهريب هذه السلع ويزج به فى السجن(٩٨).

وعلاوة على ذلك فقد أدت الاضطرابات التى شهدتها الفترة الأخيرة من عهد نفس الأسرة (النصف الثانى من القرن التاسع وبداية القرن العاشرم) إلى صعوبة استمرار التجار الأجانب فى مشروعاتهم التجارية، فقد وقعت المقاطعات الجنوبية تحت سيطرة الحكم العملى للحكام المحليين الذين استغلوا التجار، وصارت البحار الصينية مليئة بالقراصنة الذين عرضوا التجارة للخطر، وقد أخبرنا المسعودى أن تمرد عام ٨٧٨م لم يؤد إلى القضاء على عدة آلاف من المقيمين فى الصين، وتوقف تجارة الحرير الصينى إلى الغرب بسبب قطع أشجار التوت فحسب، ولكن أيضا بسبب تحول المركز التجارى مع الإمبراطورية الصينية من موانى كانفو إلى ميناء كالاه (Kalah) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو.(٩٩) (قارن الخريطة رقم ٧ مع رقم ٨) .

وسرعان ما صعدت الأخيرة فى مرتبتها إلى محطة فى منتصف الطريق بين غربى وشرقى آسيا، ويحدثنا أبو دولاف الذى أبحر من الصين إلى الهند فى عام ٩٤٠م عن كالاه (Kalah) كبداية للهند وآخر نقطة وصلتها السفن (أى السفن الفارسية العربية)(١٠٠).

ومن الطبيعى أن تستفيد الممالك القديمة التى تأثرت بالثقافة الهندية فى الملايو وشرقى الهند من العمليات التجارية التى تتم فى موانيهم، وبالفعل فى فترة رحلة أبو دولاف صار رؤساء كالاه مهتمين بتوسيع وزيادة العلاقات الحميمة مع الصين لدرجة أنهم اعتبروا أنفسهم كأقاليم تابعة للأباطرة الصينيين، كما فعل ملوك سيلان منذ أربعة قرون سابقة (١٠١). وقد تمركزت ما يسمى بمملكة أو إمبراطورية الماهراجا (الراجا العظيم) حول مضيق سند وبلغت درجة عظيمة من الأهمية.(١٠٢) كما صارت ساريباز أو سيراره (بالمبانـــج فى جنوب شرقى سومطره) مركزا تجاريا جديدا حيث يحصل التجار الغربيون على منتجات الأرخبيل، فضلا عن منتجات الصين، وتطورت حركة تجارية ودية بين موانى الصين وموانى الهند الماليزية .

وفى الحقيقة فإن واحدة من أهم الآثار المهمة لانسحاب العرب والفرس من بحار الصين هو قيام البحارة الصينيين بسد هذه الفجوة (بملء هذا الفراغ) ويحدثنا المسعودى عن تاجر أبحر (أوائل القرن العاشر) من الخليج العربى إلى ميناء كالاه، ومن هناك تقدم ناحية الصين على ظهر سفن تابعة للصينيين(١٠٣) وقد كان هذا الإحياء للملاحة الصينية هو الذى انتهى إلى رحلات واسعة النطاق لبحارة أسرة سونج التى كان مسرح نشاطها (من المفترض فى القرن الثانى عشر) قد امتد إلى ساحل ملبار (خريطة شكل رقم ٩) .

إحياء العلاقات البحرية الصينية فى ظل أسرة سونج

(٩٦٠ - ١١٢٧م) و (١١٢٧ - ١٢٧٩)

قيام موانى خليج فوكين والهانج شو

السلع الصينية المتجهة إلى أسواق الغرب

أساسا عبر البحر الأحمر

من الطبيعى أن يزداد الاضطراب السياسى كثيرا بعد سقوط أسرة تانج فى عام ٩٠٧م، واستغرق ذلك نصف قرن (فترة ما يعرف بالأسر الخمس ٩٠٧ - ٩٦٠) قبل أن يصل السونج إلى السلطة، وحتى ذلك فإن الآخرين لم يستطيعوا توحيد كل الدولة تحت سيطرتهم، بل تدخلت الدويلات الصغيرة كثيرا فى حرية التجارة وقبل عام ٩٦٠ وفى عام ٩٢٥ أخبرونا أن التجار الأجانب قليلو العدد، والذين يمارسون العمل فى الموانى الصينية قد تم منعهم من ممارسة أعمالهم(١٠٤).

عندما ظهر السونج على مسرح الأحداث (٩٦٠ - ١١٢٦ و ١١٢٧ - ١٢٧٩م) كانت عاصمتهم فى البداية فى أماكن مختلفة فى هونان قبل أن تنتقل فى عام ١١٢٧م إلى يانجتسى الآمن (ناناكنج وهابخكشوا) ومع ذلك، فقد كان لعدم استطاعتهم

السيطرة على المستنقعات فى الشمال الغربى أو طرق وسط آسيا، ما أجبرهم منذ البداية على أن يوجهوا مشروعاتهم التجارية نحو البحر، وفى هذا المقام كانت سياستهم وضع إشراف إمبراطورى على التجارة، وهو إشراف انتهى كلية إلى احتكار كامل للصفقات الأجنبية، وأعيد تنظيم هيئة تفتيش تجارة الملاحة البحرية فى كانتون عام ٩٧١ لكى يواكب متطلبات التجارة المتزايدة بشكل سريع ولكى يضمن مكاسب أكبر للحكومة(١٠٥) .

وتم إعلان هذه التجارة احتكارا حكوميا بعد عدة سنوات (ما بين ٩٧٦ و ٩٨٣)، وصارت عملية التجارة مع الأجانب أمرا يعاقب عليه فاعله ويعد وصمة عار، وينفى إلى جزيرة فى البحر(١٠٦) .

ورغبة فى زيادة وتقوية العلاقات التجارية مع الصين تم إرسال بعثة مجهزة بسفراء معتمدين تحت الإشراف الإمبراطورى ومعها إمدادات من الذهب والسلع الصغيرة (فى حوالى عام ٩٨٤ – ٩٨٨) لكى تغرى التجار الأجانب فى البحر الجنوبى والذين يذهبون إلى الأراضى الأجنبية فيما وراء البحار لأجل التجارة، على أمل الحضور إلى الصين حيث يتم إعطاؤهم تراخيص خاصة لاستيراد سلعهم(١٠٧) وتم السماح للرعايا الصينيين بالمشاركة فى الحركة والتجارة، ولكن بعد الحصول على تراخيص حكومية، وأدى الأمان الذى منح للأجانب فى البداية إلى زيادة ملحوظة فى التجارة، وكان المظهر الواضح للتغيرات الجديدة هو ارتفاع شأن موانى فوكيان وخليج هانج شو على حساب كانتون(١٠٨) .

وقد عرفنا فيما سبق أنه فى عام ٩٩٩م قامت هيئة تفتيش التجارة البحرية فى هانج شو ومنج شو (تنج بو الحديث) وتم هذا من أجل راحة الموظفين الرسميين الأجانب(١٠٩) وبنفس الطريقة تم تنظيم مكتب للجمارك عام ١٠٨٧ – ١٠٨٨ لساحل فوكين (ومقره الرئيسى) فى تسون شو مع فروع أخرى فى شانج شو وأماكن أخرى حيث طلب شعبها والتجار إنشاء هذا التفتيش لكى يتجنبوا استدعاءهم إلى كانتون لدفع الرسوم الجمركية(١١٠) ومع هذا فمن الملاحظ أن صرامة نظام الاحتكار أدى إلى

حالة من الكساد وركود التجارة، وفي الحقيقة أدرك البلاط الإمبراطورى أن المشروعات الخاصة ضرورية للتبادل الطويل والمثمر مع العالم الخارجى لذلك تم انتهاج قدر أكثر حرية في العقوبات ضد هذه التجارة الخاصة أوائل عام ٩٩٤م.

وازداد نصيب التجار الصينيين (خارج وكالات الحكومة) عام ١٠٧٢ فى تجارة الإمبراطورية الخارجية.[١١١] وأبحر عدد متزايد من السفن التى يدعمها قباطنة صينيون وبحارة بشكل منتظم إلى البحار الجنوبية، فضلا عن موانى ساحل ملبار فى بعض الأحيان [١١٢]. وعادة ما تغادر مثل هذه السفن الصين فى أوائل الجزء المبكر من الشتاء عندما تكون الرياح الموسمية الشمالية ملائمة لرحلة الجنوب. وقد عرفنا من الوثائق الصينية أنهم يقضون بقية الشتاء فى موانى جنوب شرق آسيا خاصة فى لمبرى فى شمال غرب سومطرة قبل أن يبدأوا رحلة العودة للوطن، أو كما فى بعض الحالات يتجهون إلى سيلان والملبار[١١٣].

لقد دعم نشاط التجار الصينيين نشاط البحارة الغربيين والهنود والملايون، وساعد على تطور العلاقات التجارية حول الركن الجنوبى الشرقى من آسيا. وظهر إحياء العلاقات الأجنبية الصينية من خلال حقيقة أن بعثتين (أى بعثات تجارية) قد وصلتا إلى بلاط السونج فى عام ٩٩٢ و ١١١٠ من دولة كواوا أو جاوه[١١٤] واستفادت سان فوتشى (بالمبانج فى جنوب شرق سو مطرة) والموانى الأخرى فى الملايو الهندية من إحياء التبادل التجارى، بينما استفاد أيضا هؤلاء من جنوب غرب الهند، وكسبوا أهمية كمراكز للتجارة بين شرقى وغربى آسيا. واستطاع التجار الغربيون فى الموانى الأخيرة (مثلما فى سيلان) الحصول على المنتجات المحلية والسلع التى جاءت من الشرق الأقصى. أما الطريق الذى وصلت منه أخيرا السلع الشرقية إلى أسواق الشرق الأدنى ومثلها فى البحر الأحمر أكثر من الخليج العربى، فيقول الإدريسى الذى كتب فى منتصف القرن الثانى عشر أن عدن كان الميناء الذى تبدأ منه السفن إلى السند والهند والسين (الصين)، ويؤكد أيضا أن هناك عدة سلع تلقتها

عدن من الدولة الأخيرة (تعنى آسيا الشرقية ككل) وكان من هذه السلع الحديد، والمسك، والأسلحة، والصبار، والبرسلين، والفلفل، والكافور، القصدير والسلع الصغيرة ... الخ[١١٥] .

وكانت السلع الشرقية التى تصل هناك يعاد نقلها بالسفن، وترسل إلى عيذاب على الساحل الغربى للبحر الأحمر. (رأس إلبا) ومرسى حلايب إلخ بالقرب من دائرة عرض ٢٢ درجة شمالا، ومن هناك تنقل على طول الطريق البرى إلى أسوان أو قوص [١١٥] وبعدها تنقل على النيل إلى الإسكدرية حيث تصبح متاحة أمام البحار ومن جنوة وفينسيا فى عالم البحر المتوسط[١١٧].

العلاقات الدولية خلال القرن ١٢٤٥ - ١٣٤٥م

الإسلام والاتصالات الشرقية الغربية فى العصور الوسطى

المغول وفتح الطرق البرية والحفاظ على الملاحة البحرية

إعادة تطوير طريق الخليج العربى وانهيار التبادل التجارى

عبر مصر - موانى الصين التجارية

يسجل القرن الذى يبدأ من حوالى ١٢٤٥ إلى ١٣٤٥م. عصرا جديدا فى قصة العلاقات الدولية، فمن ملاحظاتنا فى الفقرة السابقة نلاحظ أنه فى ظل أسرة سونج كانت التجارة بين الشرق والغرب بحرية أساسا، وكانت مناطق السهول فى وسط آسيا فى حالة تفكك سياسى مطلق، وأدى هذا إلى اضطرابات، وعدم أمان على طول الطرق البرية، كما ساهمت عوامل أخرى فى إهمال طرق المواصلات البرية وافترضنا من هذه العوامل انتشار إنتاج الحرير الخام فى اتجاه التركستان الغربية ومنطقة طبرستان(١١٨) .

وعلاوة على ذلك فالأدلة قليلة حول أن الكيتان (٩١٢ - ١١١٧م) أو النوشين (١١١٧ - ١٢٣٢م) فى شمالى الصين قد أخذوا أى إجراءات فعالة نحو فتح طرق آسيا الوسطى والتحكم فيها. ولم تتخذ أية من الخلافة المنهارة فى بغداد أو أى من الدول الصغرى الأخرى فى الشرق الأدنى الإسلامى أية جهود للحفاظ على العلاقات البرية مع شرقى آسيا. وهناك نقطة أثارت نقاشا طويلا فى الجغرافيا التاريخية لهذه الفترة، هى المدى الذى جعل العداء السائد بين المسيحية والإسلام يؤثر على طرق التجارة البرية، ويجعل من الصعب على التجار من العالم المسيحى القيام بأى عمل، ويرى الكثير من الدارسين لهذا الموضوع أنه رغم الخلافات الدينية بين المسيحيين والمسلمين فلم تمنع وصول السلع الشرقية إلى أسواق أوربا - وإن كانوا مسئولين عن قطع الاتصال والتبادل المباشر بين الدول الأوربية ودول الشرق الأوسط والأقصى.(١١٩) ولتأييد هذا الرأى فإن المصاعب التى واجهها التجار المسيحيون فى

أراضى المسلمين منذ عصر الحروب الصليبية وما بعدها - وبدرجة أقل - فإن التحريم البابوى ضد الاتجار مع المسلمين الكفرة غالبا ما تثار، ومع هذا فإن هذا الرأى يقلل من أثر بعض العوامل الأخرى التى كانت أكثر فعالية من الدين فى قطع التبادل المباشر. وفى الحق أنه رغم أن الدين قد يكون دخل ضمنا وربما استغل فى ذلك، فالخلافات السياسية والتجارية لم تكن عاملا أساسيا ومحوريا فى أمور تهم الأعمال التجارية والعلاقات فى الشرق الأدنى .

لقد استخلصنا بالفعل من اقتباس ابن خرداذبة أنه على الأقل حتى نهاية القرن التاسع (أى خلال الثلث الأول من خلافة إسلامية قوية) كان التجار اليهود وما يسمون الروس (البلطيق) من العالم المسيحى كانوا قادرين على السفر مباشرة عبر الأراضى الإسلامية ذهابا وإيابا من الهند والشرق الأقصى[١٢٠].

وعندما سعى التجار المسلمون فيما بعد إلى تقليل اختراق أهل جنوة والبندقية لدول المشرق، فإنهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا قلقين على فقدان السيطرة على التجارة لصالح التجار الجدد والنشطين فى عالم البحر المتوسط، وعلاوة على ذلك يجب أن نتذكر أنه فى ذلك الوقت، أن سهول الاستبس فى جنوب شرقى روسيا وآسيا الوسطى والتى كانت ممراتها مغلقة على المسيحيين، كانت بعيدة عن تأسلمها بالكامل. ولم ينتشر الإسلام فى وسط وشرق تيان شان فى طريقه نحو شمال وغرب الصين إلا بعد غزوات المغول وفتح الطرق إلى شمالى غربى الصين[١٢١] لقد كانت الطرق المغلقة فى أيدى الرئاسات الصغيرة التابعة للقرغيز والأتراك والقبائل الأخرى، ولم تستطع أى منها إخضاع الآخرين تحت سيطرتها أو عمل نظام موحد للتجارة والنقل. وأخيرا يمكن القول بأن عدم الاتصال المباشر برا كان نتيجة للعوامل الخارجة عن سلطة أى من التجار المسلمين (والمسيحيين) فى الشرق الأدنى أو حتى فى إمبراطورية سونج فى وسط وجنوب الصين .

وأصبح فتح طرق التجارة ممكنا، فقط مع قيام قوة مسيطرة قوية من جحافل المغول، فلقد كان الشعب الأخير يمتلك مراكز تربية الخيول في سهول الجنوب والشرق أو ما يسمى الآن منغوليا الخارجية، فلقد تلقت هذه السهول قدرا كافيا من الأمطار تساعد على تنظيم قوى ومزدهر للفرسان، ولعدة أسباب أو غيرها في (الفصل الثاني)، تطورت السلطة المركزية لذلك المجتمع البدوي في واحدة من أوسع الهجمات التي عرفها التاريخ في بداية القرن الثامن. فقد هاجموا أولا زملاءهم من التتار الذين عاشوا في جنوبي منغوليا وشمال الصين، وفي عام ١٢١٤ استولت جيوشهم على بكين، و بسطوا نفوذهم على السهول الشمالية من الصين في عام ١٢٢٩، وبعد عدة عقود (حوالي ١٢٦٠ - ١٢٧٩) دمروا إمبراطورية السنج، وصاروا أسياداً لآسيا الشرقية، ولكن الأهم من وجهة نظرنا كان تحركهم نحو الغرب، حيث بدأ ذلك في عام ١٢١٨م في سلسلة من الغزوات التي اجتاحت كل وسط آسيا، وسهول جنوب روسيا، وبولندا حتى وصلت أخيرا إلى سهل المجر، واتخذ فرع من الغزاة طريقه في اتجاه الجنوب الغربي إلى تركستان، وإيران، وأجزاء من آسيا الصغرى، والحدود الشمالية للهلال الخصيب، وفي الجزء الأخير من القرن الثامن ظهرت سلسلة من الإمبراطوريات الأقل أو الأكثر تجانسا، ونعني إمبراطورية خان العظيم في الصين (العاصمة في كانباليك أو بكين) وإمبراطورية شهاجاتاي في آسيا الوسطى (عاصمتها في أماليك بالقرب من كولجا الحديثة) وكيبوهاك أو الهورد الذهبي في سهول جنوب روسيا وجزء من سيبيريا (وعاصمته في ساراي على نهر الفولجا، والإمبراطورية الإيرانية أو الفارسية في إيران، وهضبة أرمينيا، وأجزاء من آسيا الصغرى (والعاصمة في تبريز) وهكذا امتدت من سواحل المحيط الهادي إلى شواطيء نهر الدانوب ومن الخليج العربي إلى سيبيريا.(١٢٢) ورغم هذا فإن التقسيمات الإدارية والسياسية لم تحدث أية صعوبة للتجارة، بل على العكس سهلت في الحفاظ على الأمان والسلم على كل هذه المنطقة المتسعة(١٢٣).

وعلى العموم أدت غزوات المغول إلى فتح طريقين أساسيين للتجارة ونعني بهما :

١- كل الطريق البرى من البحر الأسود عبر شمال تركستان إلى آسيا الوسطى والصين (عن طريق أو آخر)

(أ) سهول دزونجاريا .

(ب) الطريق إلى الشمال من حوض تاريم وجنوب جبال تيان شان أو .

(ج) طريق كوتان الجنوبي ولبنور .

٢- الطريق البرى البحرى من طرابيزون أو خليج الإسكندرونة (لاذقية) إلى طورويس أو (تبريز)، سلطانية، يزد، وهرمز، والمحيط الهندى، الموصل إلى الهند والشرق الأقصى(١٢٤).

ويستحق كل من هذين الطريقين ملاحظة خاصة (انظر خريطة رقم ١٠) .

فقد أثارت بشكل طبيعى شعورا من الرعب بين شعوب أوربا المسيحية، السرعة التى دفع بها زعماء المغول جحافلهم فوق المنطقة السابق ذكرها، والكوارث التى خلفوها فى الدول التى غزوها، ومن الحقائق المعروفة أن غزو التتار لأوربا قد ضعف، وانتهى على الحواف الغربية للاستبس، وكانت الضربة التى وجهوها إلى النصف الغربى من العالم المتحضر قد واجهتها جبهة إسلامية تحطمت فيها الخلافة، وبلغت حد الخضوع والاستسلام كما ساهمت فى تعديل وتغيير رأى المسيحيين نحو عدوهم المزعوم، ونظر إلى الفرسان من البدو على أنهم يعتنقون المسيحية وأنهم حلفاء ضد المنافس الوراثى للمسيحية (١٢٥).

وكان تسامح رؤساء الاستبس نحو مختلف الديانات والمحاباة الظاهرية التى أظهروها فى بعض الحالات للبعثات التبشيرية المسيحية، ما شجع زعماء الدين والقساوسة على السفر عبر هذه المناطق البرية من آسيا الوسطى، وتم إرسال بعثات سياسية إلى بلاط الخان، وشقت الحملات التجارية طريقها عبر الطرق المفتوحة حديثا . ويجب أن يلاحظ مع هذا أنه من بين الأهداف الثلاثة التى وضعها الأوربيون أمام أعينهم أثناء مغامراتهم على طول الممرات البرية فى الاستبس - الدينية

والسياسية والتجارية – فقد تحققت الأخيرة فقط بشكل فعال.[١٢٦] ورغم أن بعض الوثائق التى نمتلكها عن وسط وشرقى آسيا قد كتبها الرحالة من رجال الدين فى ذلك العصر، فإن الدافع الحقيقى للسفر والاستكشاف كان موجها نحو التجارة، وقد مولت البيوت التجارية معظم هذه الحملات التى جلبت إلى أرض الوطن الأخبار بأن الطرق فى أرض الاستبس آمنة تماما للسفر والترحال، غير أن الدور الذى لعبه تجار جنوة والبندقية كوسطاء بين التتار الذين كانوا يسعون لتوسيع التجارة، والأوربيين الذين إستغلهم الوسطاء المسلمون أمر لا يمكن المبالغة فيه، فقد كانت هناك الاضطرابات السياسية فى مراكز التسويق على الحدود السورية للهلال الخصيب والتى نتجت عن الصراع بين الغزاة المغول والمماليك المسلمين، وانتهت بالنجاح النسبى للمماليك مما أدى إلى تحويل جزء من الجهد المسيحى فى التجارة نحو طريق جنوب روسيا. وقد سمح خانات الكبشاك للإيطاليين منذ ١٢٦٦ وما بعدها بإنشاء مستعمرات فى الكافا والسولديا وبعد ذلك فى تانا أيضا.[١٢٧] وكان الخان مهتمين بإحياء التجارة لدرجة أنهم بذلوا ما فى وسعهم لجذب التجار الأجانب، وأمنوا لهم مرورهم الآمن إلى الشرق وفى الحق فإن من أهم إنجازات المغول فى وسط آسيا دعم السلام والأمن على طول كل الطريق بين الجانبين المتباعدين فى سهول الاستبس التى تم ضمها إليهم – ووضح هذا بشكل جلى فى تقرير بيجولوتى الذى كتب فى عام ١٣٤٠ على النحو التالى:

" إن الطريق الذى تسافرون عليه من تانا إلى كاثاى، آمن تماما سواء بالليل أو بالنهار طبقا لما رواه التجار الذين كانوا يستخدمونه، وأما من تانا إلى سارا (على نهر الفولتا) فإن الطريق أقل أمانا من أى جزء آخر من الرحلة – ومع ذلك فإنه عندما يكون هذا الطريق فى أسوأ حالاته، فإنكم إذا كنتم ستين رجلا معا فإنكم ستكونون فى أمان كما لو كنتم فى منزلكم الخاص.[١٢٨] ومع هذا فإن الفترة التى يتحدث عنها الكاتب يبدو أنها بالفعل قد انتهت وكان الكبشاك ينهارون بسرعة، وبدأت الاضطرابات، بينهم وبين الإيطاليين، وكان الخانات الآخرون فى الاستبس على حافة

الانهيار والانقسام. وأدى تيمورلنك ضربة نهائية للتجارة (تامرلين فى أواخر القرون الرابع عشر والخامس عشر) والذى كان فى نيته جعل عاصمته الجديدة سمرقند أعظم إن لم تكن السوق الوحيدة فى القسم الشرقى من وسط آسيا ، قام بتدمير تانا وساراپا وواسترا خان، وأرجنجى، وأماليك، وهى محطات تجارية مهمة على طول طريق سهول الاستبس.(١٢٩) ولا يقل طريق تبريز، وهرمز، والمحيط الهندى أهمية عن طريق سهول الاستبس (انظر الخريطة ١٠) – وفى عام ١٢٥٨م هاجم هولاكو بغداد ودمرها وأقام الخانات فى إيران، وكان هو وخلفاؤه المباشرون معروفين بميولهم نحو المسيحيين الذين اتخذوهم حلفاء لهم ضد المسلمين المقاومين لهم بقيادة المماليك فى مصر(١٣٠).

وسحبت العاصمة الجديدة تبريز بسرعة الأضواء من بغداد وغيرها من مدن الشرق الأدنى(١٣١)، وجذبت التجار المسيحيين الذين وصلوا هناك إما عبر اللاذقية وحلب وشمال بلاد الرافدين، أو عن طريق البحر الأسود، وطرابيزون، وأرمينيا التى كانت فى أيدى المسيحيين، وتم ربط تبريز بميناء هرمز بطريق برى فضلا عن طريق دجلة والخليج العربى .

وظهرت أهمية هرمز واستولت على معظم الطرق التجارية فى الجزء الغربى للمحيط الهندى – وفى أوائل القرن الرابع عشر (أى سنوات قليلة بعد أن زارها ماركوبولو فى طريق العودة إلى وطنه حوالى ١٢٩٤ تحولت من الأرض الرئيسية إلى جزيرة دجارون (Djaroun) المقابلة والتى أطلق عليها اسم هرمز الجديدة.(١٣٢) واستطاعت من موقعها الجديد السيطرة على التجارة والملاحة فى الخليج الفارسى، ويسجل القرن الرابع عشر فترة الرخاء الكبير للتجارة فى هذا الميناء، وطريقه البرى على حساب الحركة التجارية فى البحر الأحمر (انظر خريطة رقم ١٠) .

وكان تجار البحر المتوسط (جنوبى أوربا) والذين اضطروا إلى دفع الضعف أو أكثر للسلع الشرقية فى أسواق مصر وسوريا، قد وجدوا إغراء لعمل اتصال مباشر مع الهند عبر الطريق الجديد(١٣٣).

وصار ساحل جوجيرات ومليبار مكان الالتقاء حيث استطاع الأوربيون تبادل السلع مع تجار كل أنحاء الشرق الأسيوى وعلاوة على ذلك كان طريق هرمز مفضلا عند تجار الشرق الذين ظلموا كثيرا بسبب الضرائب المتزايدة من قبل المماليك فضلا عن ضرائب إضافية يجمعــها وكلاؤهم(١٣٤).

وبذل أمير سيلان والسلطان قلاون فى مصر جهدا مضاعفا فى أوائل ثمانينيات القرن الثالث عشر وذلك لإحياء تجارة البحر الأحمر، ولكن هذا لم يؤثر على التجارة المتزايدة فى هرمز.(١٣٥) بل أمر السلطان قلاون فى عام ١٢٨٨م بإصدار جوازات سفر، وتوزع من خلال التجار المصريين فى اليمن والهند والملايو الهندية والصين، وتقديم تسهيلات لتجار هذه الدول الذين يرغبون فى زيارة مصر وسوريا.(١٣٦) ورغم أنه من الصعب الحكم على مدى نجاح هذا الإجراء فهناك شك بسيط فى أن الجزء الأكبر من التجارة الشرقية – وربما تلك الآتية من إمبراطورية يون منغول الصين بوجه خاص – كانت تمر عبر الخليج العربى وأراضى الخان (Khans) ومن المهم أن التغيرات التى حدثت فى التجارة البحرية للصين فى ظل أسرة المغول السابق ذكرها (١٢٢٩ – ١٢٦٠ و ١٢٦٠ – ١٣٦٨م) لا تحتاج إلى معالجتها بتفصيل أكبر، ذلك أنها لم تحدث سوى تغيير بسيط فى النظام الذى أقامته أسرة السونج السابقة(١٣٧).

وقد نجح المغول فى الحفاظ على نشاط بحرى حيوى رغم فشل سياستهم النسبية بحرا خاصة فى حالة اليابان وجاوة، وأدت عوامل عديدة إلى استمرار التجارة البحرية للسونج والتى رسمناها فى الصفحات السابقة، ومن هذه العوامل يكفى أن نحدد ما يلى :-

١- إن اليوان المغول الذين كانوا أساسا شعب الاستبس لم يجدوا صعوبة لإقامة نظام جمارك وتجارة بحرى لأن هذا قد ظهر إلى حيز الوجود بالفعل(١٣٨).

٢- أغرت مصادر الدخل الكبيرة من الجمارك المغول للحفاظ وتشجيع التجارة البحرية،[١٣٩] ويهدف تطوير التجارة وجعل العاصمة بكين على اتصال مع عالم التجار فى الوسط والجنوب، وأكمل الإمبراطور كوبيلاى - أو على الأقل وسع القناة الكبرى وبنى طريقا على طول جوانبها (انظر خريطة رقم ١٠)[١٤٠].

وقد أعطى مطالب البلاط الإمبراطورى الجديدة دافعا وحافزا جديدا للتجارة، وامتد البحارة والسفن الصينية برحلاتهم غربا حتى مالابار[١٤١] .

٣- تضمنت كميات كبيرة من الصادرات التجارية للصين فى ذلك الوقت البورسلين الذى يصنع فى المقاطعات الساحلية لفوكين، وساعدت مثل هذه الصناعة على الحفاظ على النشاط التجارى فى تلك المنطقة التى كانت تتجه ناحية البحر .

٤- وأخيرا نلاحظ أن المغول فى الصين كانوا يميلون نحو الحفاظ على العلاقات مع الخانات فى إيران، وقدم البحر طريقا مريحا للعمل رغم أنه ليس قصيرا .[١٤٢] وهكذا تم الحفاظ على النشاط التجارى فى بحار الصين فى ظل أسرة اليوان (Yuan) وأدت الاضطرابات التى وقعت على السواحل فى نهاية حكم السونج إلى تجهيز عدة موان بهيئات جمارك منظمة وبشكل حديث، وتم تعيين مديرين للتجارة والشحن عام ١٢٩٣م. فى هانج شو وشنغهاى، وكانبو، ونشو، وكنج يوان (نتنج بو الحديثة) وكوانج تنج (كانتون) وتسوان شو[١٤٣].

ومن السجلات التى تركها الرحالة الأوربيون والعرب الذين زاروا الصين فى ظل حكم المغول، عرفنا أن الموانى الثلاثة السابق ذكرها - ونعنى تسوان شو وكانتون وهانج شو - كانت كبيرة وربما أعظم من الأسواق الكبرى فى العالم الغربى، ويضاهى تسوان شو مع الميناء المعروف للمؤلفين الغربيين مثل زايتون الذى زاره ووصفه ماركو بولو وابن بطوطة[١٤٤].

وقد عرفنا من التقارير السابقة أنه كان أعظم ميناء على السواحل الصينية، بل وواحد من أكبر موانى العالم (إن لم يكن أكبرها)[١٤٥].

ويقول ابن بطوطة الذى زار الإسكندرية والقسطنطينية والموانى العظمى فى جنوب الهند (عن زيتون) " إنه من أعظم موانى العالم أو ربما أعظمها جميعا، وجدت هناك مائة سفينة شراعية كبيرة وعدد محدود من القوارب الأصغر[١٤٦] ولم يكن ميناء كانتون مهما مثل تسون شو، ولكن أخبرنا أوديرك (١٣١٦ - ٣٠) أنها كانت أكبر من فينسيا بنحو ثلاث مرات وفى الحقيقة لم تكن كل إيطاليا تضم سلعا أكثر مما فى هذه المدينة[١٤٧]. وأخيرا فإن موانى هانج شو (كنسا عند العرب وكوين ساى عند ماركوبولو)[١٤٨] لم تكن أكثر حجما من المدينتين الأخريين) لكنها حققت أهمية كبرى كمركز تجارى، بل خدمت كمدخل حقيقى ليانجتسى الأدنى وأيضا كنباليك (بكين)[١٤٩] .

ويقول ماركوبولو إنها كانت أنبل مدينة رآها على وجه الأرض "(١٥٠) ومثلها مثل سين كالان (كانتون) وزيتون (تسون شو) تضم مستوطنة قوية للمسلمين الذين كانوا يعملون فى التجارة، وكانت لهم مدينة خاصة (بعيدا عن المدن الست) التى كونت الهيكل الرئيسى لمدينة هانج شو، وكانت أسواقها منظمة بنفس الطريقة مثل المدن المماثلة فى الأراضى الإسلامية.[١٥١] ويتحدث الرحالة العربى أيضا عن المنتجات الصناعية فى المدينة مثل المنسوجات الحريرية وأعمال البامبو التى كانت تصدر إلى الهند والدول الإسلامية الأخرى فى الغرب.[١٥٢].

وفى الحقيقة فهمنا من كل تقرير ابن بطوطة عن موانى الصين أن الأنشطة الصناعية والتجارية كانت تنتقل من يد إلى أخرى، وأن التجار المسلمين قد احتفظوا بالحقوق السياسية والدينية التى تمتعوا بها مع الأسر السابقة[١٥٣].

أسرة منج وتوسع المشروع البحرى من الصين
(أوائل القرن الخامس عشر)
وصول سفن الصين حتى البحر الأحمر، وجهود فعالة لكنها قصيرة الأجل قبل الانهيار النهائى للتجارة
الأيام الأخيرة من النشاط فى البحر الأحمر

ظهرت الأسرة الوطنية لمنج (١٣٦٨ - ١٦٤٣م) التى خلفت مغول اليوان من بين الشعب اليقظ فى وسط وجنوبى الصين، وكانت عاصمتهم فى نانكنج حتى عام ١٤٠٦م فى موقع مناسب للإشراف على الطرق البحرية، وخلال العقود الأولى من حكمهم، كانت الطرق البرية فى آسيا الوسطى فى تهديد مستمر من سكان الاستبس، ولم يمنع إلا الموت فى عام ١٤٠٥ تيمورلنك من قيادة قبيلته من البدو ضد أباطرة الصين الجدد، ومن الطبيعى أن يتحول المشروع التجارى لأسرة مينج ناحية البحر، وقد اتخذ الإمبراطور الثالث خطوة جريئة أعطت دافعا للتجارة قبل أن ينتقل إلى العاصمة فى بكين بعام واحد، وتقول الوثائق التاريخية عند المنج " إن سيادته فى ظل الشك بأن الإمبراطور السابق كين وين - ربما يكون قد هرب (أى عند اختفائه عندما استولى الإمبراطور الثالث على نانكنج، وتم غزو القصر عام ١٤٠٢م) إلى دول فيما وراء البحار، وكلف شنجهو، ووانج كنج هو وغيرهم لمتابعة خطاه. وحملوا معهم كميات ضخمة من الذهب وغيرها من السلع القيمة، ومعهم قوة تربو على ٣٧٫٠٠٠ جندى تحت قيادتهم، وأنشأوا سفنا ضخمة وعددها ٦٢ سفينة، وتحركوا من ليوكيا كيانج فى مقاطعة سوشو، حيث تقدموا عن طريق فوكين إلى شن شنج، وقاموا من هناك فى رحلات عبر البحار الغربية، وهناك روجوا لابن السماء(Son of Heaven) ونشروا فى الخارج المعرفة عن عظمته وطيبته، وقدموا الهدايا إلى الملوك والحكام، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فأرهبوهم بالقوة، وصار كل قطر مطيعا للأوامر الإمبراطورية، وعندما عاد شنجهو إلى وطنه، بعثوا حملات فى موكبه لتقديم الجزية،

وكان الإمبراطور مسرورا جدا، وبعد فترة قصيرة أمر القائد (هو) للذهاب مرة ثانية ليوزع الهبات على الأقطيار المختيلفة، ومن ثم صار عدد الخاضعين أمام العرش كبيرا جدا .

وتم تفويض شنجهو بالاشراف على ما لا يقل عن سبع بعثات (سفارات) وقبض وأرسل سجناء من الرؤساء الأجانب ثلاث مرات، وكانت هذه الأعمال جريئة لدرجة أنه لم يعد هناك أى خصى من الأزمنة القديمة، وفى نفس الوقت فإن الشعوب المختلفة التى جذبتها أرباح السلع الصينية قامت بزيادة التبادل الودى لأغراض التجارة، وبالتالى كانت العمليات متصلة هنا وهناك.(١٥٤) وربما لا تكون بعض العبارات الواردة فى المقطع السابق خالية من المبالغة، ولكنها صادقة فى معظمها، فهى لا تصور التحرك الواسع للبحرية الصينية فى ظل حكم منج فحسب بل أيضا الإحياء التجارى الذى تمخض عن مغامراته، ودعم هذا وأكده تقرير المقريزى الذى يشير إلى وصول السفن الصينية فى عام ٨٣٥ هجرية (أى فى عام ١٤٣١ - ١٤٣٢م) إلى أقصى نقطة وصلوا إليها غربا ونعنى بها ميناء جدة (انظر خريطة رقم ١١)(١٥٥).

لابد أن تستفيد العلاقات التجارية بشكل كبير من الحركة الجديدة، وتم قيام رحلات مباشرة بين شرقى آسيا وغربها من جانب البحارة العرب والصينيين، ويشير تاريخ منج إلى سفارة (بعثة تجارية) عام ١٤٢٢م من بلاد تسوفارا، ربما تكون من المحتمل ساحل ظفار فى جنوب الجزيرة العربية(١٥٦).

وفى ظل حكم سونتى (١٤٢٦ - ١٤٣٦م) تم رصد العديد من هذه السفارات مرة ثانية التى بلغت من تين فانج (العربية) والمدينة وعدن ومقديشو العربية (مقديشو الحديثة على ساحل الصومال)(١٥٧).

وتصور التفاصيل التى قدمها منج شبه الجزيرة العربية، وشعوبها، وتجارتها، والعلاقات الوطيدة التى نمت فى ذلك الوقت بين الصين وجنوب غربى آسيا، ويجب أن

نلاحظ مع هذا أن هذه الفترة قد اتسمت بتحول جديد في مجراها، تبعته التجارة عبر شرقي الجزيرة من الخليج العربي إلى طريق غربي إيران إلى خليج عدن والبحر الأحمر (قارن خريطة رقم ١١) وعلى الرغم من أن مؤرخي منج قد أشاروا إلى هرمز على أنها مملكة غنية، وأنها أرسلت سفارات إلى الصين، فهناك بعض الأسباب تجعلنا نفكر بأن الجزء الأعظم من التجارة الشرقية قد اتجه تدريجيا نحو البحر الأحمر ومصر وجنوب سوريا.[١٥٨] أما الأقطار الأخيرة وخاصة مصر فقد نهضت من حالة الركود التي مرت بها خلال حقبة المغول، ومع هذا فقد أدى إحياء طريق البحر الأحمر إلى منافسة عنيفة وشراسة بين أمير اليمن ومينائه في عدن والمماليك في مصر مع الميناء الذي تطور حديثا في دجورة (والذي حل محل عيذاب على الساحل المقابل من البحر الأحمر كمركز للتجارة) .

ويقول المقريزي الذي يعطي تقريرا كاملا عن المنافسة "إنه في عام ٨٣٨ هجرية (١٤٣٤ – ١٤٣٥م) ميلادية أصدر سلطان مصر والحجاز أوامر بأن التجار الهنود (تجار من الهند وجنوب شرقي أسيا) والذين قدموا إلى مكة يجب أن يدفعوا فقط (١٠٪ ضريبة)[١٥٩] بينما يجب أن يدفع المصريون والسوريون الذين جلبوا السلع الشرقية إلى دجورة عبر اليمن (عدن) ضعف المبلغ، وإذا جاء أي يمني للتجارة في جدة تصادر كل تجارته.[١٦٠] ورغم المكانة الاستراتيجية لميناء عدن، لتنتهت المنافسة بين اليمنيين والمماليك بتدهور الميناء السابق، ونهوض ميناء دجورة كميناء في أقصى الغرب، والذي وصله التجار من جنوب وشرقي آسيا، وصارت مكة الظهير الداخلي أيضا مكان التقاء التجار خصوصا خلال موسم الحج، واستخدمت طرق القوافل طريق الحجاز المؤدي إلى الشمال بشكل متزايد، لكن الجزء الأكبر من التجارة كان ينقل من دجورة إلى الطور (في جنوب سيناء) ومن هناك يرسل (ربما برا) إلى مصر (أو إلى سوريا) انظر خريطة رقم ١١[١٦١] .

وعاد التحكم فى التجارة بين الشرق والغرب مرة ثانية إلى أيدى حكام مصر والركن الجنوبى الغربى من الهلال الخصيب (وإن كان ذلك لفترة قصيرة)

نهاية المرحلة العربية للتجارة

الأثر المزدوج للاستكشافات العظمى والغزو التركى

تحول المركز الرئيسى للطرق العالمية بعيدا عن الشرق الأدنى

الإغلاق التدريجى للأبواب الصينية

لم يقدر للمرحلة الجديدة فى علاقات الشرق والغرب أن تستمر طويلا كما سبق أن ذكرنا – ففى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر حدثت تغيرات واسعة وبعيدة المدى فى مراكز الحضارة الثلاثة فى العالم القديم (أقصى الغرب والشرق الأدنى وشرقى آسيا)

١- بدأت شعوب أوربا الأطلنطية رحلاتها الكبرى فيما وراء البحار، ونجحت أخيرا فى شق طريقها نحو الشرق، وفتحت مغامراتها فصلا جديدا فى قصة العلاقات الدولية، ولم يتم فقط اكتشاف طرق جديدة، بل ظهر وسطاء جدد على المسرح، فقد حدث تغير حقيقى عجل بنهاية ما يسمى بالعصور الوسطى فى عالم التجارة ورغم هذا لم يكن الانتقال من مرحلة العصور الوسطى إلى الحديثة فى التجارة العالمية ثوريا، فقد استمر البرتغاليون والأسبان والهولنديون فى كل الظروف فى نقل نفس السلع، واتبعوا نفس التقاليد التى أسسها التجار العرب فى الشرق، وحتى ظهور تجار جدد من شمال غرب أوربا خصوصا من القرن الثامن عشر وما بعده لم يحدث أى تغير حقيقى فعال فى النشاط التجارى، أو فى نظام المعاملات فى شرقى آسيا .

٢- عانى قلب العالم القديم من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية فى نفس الوقت مثل أوربا الأطلنطية، وإن كان بنتائج مختلفة تماما، حيث ظهر الأتراك

العثمانيون فى هضبة الأناضول، وهبطوا على المراكز الغنية فى الهلال الخصيب، وسيطروا على مصر فى عام ١٥١٧م، المركز الرئيسى ومفتاح النظام التجارى فى العالم فى مطلع القرن السادس عشر، وكان غزاة الشرق العربى فرسانا ممتازين لكنهم ليسوا تجارا ، واختلفوا عن الأبالة فى الجزيرة العربية الذين كانوا من عصور قديمة فى التاريخ المدون قد جمعوا قدرا كبيرا من التجارة المربحة مع البداوة.(١٦٢) وعلى هذا استطاع العثمانيون أن يحلوا محل العرب كأسياد سياسيين (ودينيين) للشرق الأدنى، ولكن ليسوا كتجار يربطون معا جانبى العالم المتحضر، ومن الحقائق المهمة أنه رغم أن المشرق العربى بطبيعته كمركز مرور بين الشرق والغرب أساسا، قد فشل فى المنافسة مع الطريق الأطول والأكثر خطورة حول رأس الرجاء الصالح، رغم أن بعض الخلفاء العثمانيين قد بذلوا جهودا طيبة لإحياء التجارة وتشجيع تجار البحر المتوسط) (الإيطاليين) على الاستقرار فى مناطقهم الجديدة، وهكذا انهارت أسواق المشرق العربى بسرعة، وفقدت أهميتها كلية فى التجارة العالمية.

٣- وأخيرا لم يكن التغير الذى حدث فى الشرق الأقصى سريعا كغيره من التغيرات الأخرى - لكن التغيرات لم تكن بعيدة المدى فى نتائجها النهائية - ورغم أنه منذ ١٤٠٦م كانت عاصمة المنج فى الشمال (بكين) فإن جهودهم لم تستنفد كلية فى مشكلة الحدود (فى الشمال) حتى فترة تالية بعد ذلك .

واستمرت التجارة البحرية للوسط والجنوب تحت إشرافهم وتشجيعهم فى الازدهار خلال كل القرن الخامس عشر وجزء من القرن السادس عشر، وعندما وصل البرتغاليون والأسبان إلى البحار الصينية حوالى ١٥١٧ - ١٥٢١م استطاعوا القيام بتجارة مزدهرة مع موانى فوكين(١٦٣).

وانخفضت التجارة الخارجية للصين تدريجيا خلال النصف الثانى ومع نهاية القرن السادس عشر حيث خفضت الغارات المتزايدة لقراصنة اليابانيين كثيرا من حجم التجارة التى تتعامل مع موانى الصين(١٦٤).

وانشغلت الحكومة الإمبراطورية فى الشمال فى عمليات عسكرية على جبهة منشوريا، ولم تفعل إلا القليل للحفاظ على الأمن والسلام فى المقاطعات الساحلية. وساءت الأحوال فى موانى الصين فى القرن السابع عشر، وأخذت الحكومة المركزية فى أواخر عصر المنج والذين خلفوهم من المانشو تنظر بعين الريبة إلى التجار الأجانب الذين حققوا مكاسب للحكام المحليين. وفى الحق يبدو أن هناك أسبابا وجيهة للعبارة المشهورة أنه فى ظل الأسرة الأخيرة انخفضت التجارة البحرية فى الجنوب والجنوب الشرقى وظل هذا حتى ظهور التأثير الأوربى الغربى الحديث الذى أجبر أبواب الصين على الانفتاح على التجارة .

ملاحظات نهائية على العلاقات الدولية خلال العهود الرومانية /الإغريقية والعربية /الإيرانية

سلسلة من التوافق البشرى للأحوال الجغرافية على طول طرق التجارة المتغيرة

تقدم الملاحظات السابقة التى ذكرناها فى الفصلين الثالث والرابع محاولة لإعطاء أهم الملامح فى العلاقات التجارية بين شرقى وغربى آسيا - خلال الفترتين التى أطلق عليها - الإغريقية الرومانية والعربية / الإيرانية فى إطارها الجغرافى، فالحقائق التى ذكرناها بالفعل والنقاط التى استخلصناها منها تقدم نقاطا مهمة معينة، والتى يمكن أن تكون خلاصة أو خاتمة لدراستنا .

لقد اخترنا منذ بداية مسحنا فترة الحملات الكبرى للإسكندر، والتى أدت إلى ثورة فى العلاقات الدولية، وبزغ عنها اتصال وثيق بين الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، والتى انتهت بقيام تبادل بين المناطق السابقة وشرقى أسيا، واستمرت

التقاليد التجارية التى أسسها التجار الهيلنيون(*) فى مراكز التسويق لغربى آسيا حتى الفترة الرومانية إلى أن ورثها الوسطاء من الفرس العرب، وهناك حقيقة أساسية وهى وحدة الفترتين المتعاقبتين والتى كانت عناوين للفصلين عن العلاقات التجارية .

وقد شهد المشرق العربى خلال الفترتين درجة عالية من الرخاء التجارى كحلقة وصل بين عالم البحر المتوسط وأوربا من جهة، والشرق الأوسط والأقصى من جهة أخرى. أما التبادل مع الشرق الاقصى والذى يشكل موضوع عملنا الحالى فكان يسير إما برا أو بحرا، وفى كلتا الحالتين تعدل كثيرا الجهد البشرى لفتح علاقات تجارية – وفى بعض الحالات تحددها وتسيطر عليها الظروف الجغرافية على هذه الساحة. ومع ذلك يجب ألا نقلل من أثر العوامل التاريخية أو السياسية لأنها فى حالات متعددة تحدد عما إذا كانت الطرق البرية أو البحرية هى الأفضل، هى حالة

(*) ترجع كلمة الهيلينية إلى هيلاس، ولفظ هيلاس كان فى الأصل الاسم الذى أطلق على المنطقة الواقعة حول رأس خليج مالياك على الحدود التى تفصل بين وسط اليونان وشمالها، ومن المرجح أن لفظة الهيلينية بمعنى سكان " هيلاس" ثم اكتسبت مفهومها الواسع الدال على مفهوم أعضاء المجتمع الهلينى .

خرجت الحضارة الهلينية إلى الوجود فى أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع الميلادى، وكان أول ظهور لها على جانبى بحر إيجه، ومن هناك انتشرت على جانبى البحر الأسود، والبحر المتوسط، ثم اتسع نطاقها برا، فتوغلت نحو الشرق إلى آسيا الوسطى والهند، كما امتدت غربا إلى شواطئ شمال إفريقية وأوربا المطلة على المحيط الأطلنطى، بما فى ذلك الجزر البريطانية .

ويرى توينبى فيلسوف التاريخ أنه من الخطأ تسميتها بالحضارة اليونانية لأكثر من سبب، منها أن بلاد اليونان كانت قائمة بالفعل قبل أجيال من ظهور الحضارة الهيلينية، وظلت كذلك حتى بعد أفول تلك الحضارة، كما شهدت اليونان حضارات أخرى قبلها كالحضارة المينوية، تلتها الحضارة البيزنطية، وضمت اليونان إلى العالم المسيحى الغربى فى العصور الوسطى، إلى العالم الإسلامى على يد الأتراك العثمانيين، من ثم كانت الحضارة الهيلينية تشمل أجزاء دون أجزاء من اليونان، فكانت تضم الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى، كما لم ينضم القسم الشمالى من اليونان إلى العالم الهيلينى انضماما تاما حتى القرن ٤ ق.م (المترجم)

نمطية تؤثر فيها العوامل التاريخية على التكيف البشرى مع مرحلة النشاط، ومن ثم تثير نقاطا شيقة للاستفسار من جانب طالب الجغرافيا التاريخية، وحتى فى المنطقة الصغيرة من المشرق العربى فإن عرض مثل هذا التفاعل بين الظروف الجغرافية والتكيف أو المواءمة البشرية التى تأثرت بالأحداث التاريخية تظل واضحة.

ولكى نقدم مثالا واحداً من المجال التجارى؛ المنافسة بين المركزين فى الخليج العربى والبحر الأحمر - والتى ركزنا عليهما تركيزا خاصا كلما سنحت الظروف، فقد استغل التجار الذين احتكروا وسيطروا على التجارة الظروف الجغرافية المناسبة للمشرق العربى، فشعوب هذه المنطقة وخصوصا شعوب جنوب الجزيرة العربية أثبتوا أنهم رجال بحر مغامرون، ولأنهم كانوا خبراء فى ركوب الإبل فقد استطاعوا أن يلعبوا دور الوسيط برا وبحرا. ولم يفقدوا احتكارهم الطويل إلا بعد أن تمت الكشوف الجغرافية البرتغالية وكذلك بصفة خاصة بعد قدوم الأتراك العثمانيين، أما بالنسبة لاستمرارية العلاقات التجارية خلال العصور القديمة والوسطى فإن ما خلصنا إليه بخصوص الصين فإنها لم تختلف كثيرا عما بلغه الحال فى المشرق العربى، وحسب المرحلة محل دراستنا كانت الصين بلدا منغلقا، وكان الرأى السائد عن العديد من الطلاب الذين يبحثون فى الصين الحديثة كانت هذه الدولة أساسا على الأقل عالما قائما بنفسه، ويبدو أن الذى ألهمهم هذا حقيقة، أنه خلال الفترة القصيرة نسبيا، والتى سبقت مباشرة الأثر الحديث للأوربيين الغربيين أن أبواب الإمبراطورية كانت مغلقة أمام التجارة الأجنبية .

ومع هذا أبرزنا فى الصفحات السابقة بوضوح عدم كفاية مثل هذا الرأى الخاص بتجارة الفترة الرومانية /الإغريقية والإيرانية /العربية، فلم يسمح للتجار الأجانب بالاستقرار فى ظلّ ظروف مناسبة فى الموانى الصينية فحسب، بل أيضا كانت الحكومة الصينية تبذل جهودا فعالة لفتح علاقات إما على طول الطرق البرية أو البحرية، وفى هذا المقام لعبت العوامل الجغرافية والبشرية دورا فى تحديد التوجيه التجارى للدولة فى مختلف الفترات، كما بينا بالفعل العلاقة بين وضع

العاصمة (مركز السلطة) فى الإمبراطورية وبين هذا التوجه، وكانت ناكج وهنجشو أكثر ملائمة وتكيفا للإشراف على التجارة البحرية. واحتلت بكين مركزا وسطا بين المجموعتين، ولكنها لم تكن فى الحقيقة كافية للتحكم المستمر والصحيح على أى من طرق التجارة، إلا إذا كانت تحت حكومة قوية، ونأمل فى مجال دراستنا وحسب المادة المتاحة فى الوثائق العربية والصينية والبراهين الكافية التى تم جمعها أن نثبت فرضنا كنظرية فعالة .

الهوامش

(١) on this point see De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, London 1927, pp. 74-83.

(٢) For these buffer-kingdoms see O' Leary, ibid.,pp.154 et seq.

(٣) Vide supra, the first few pages in chap.1.

(٤) For discussion of possible reasons accounting for this see supra the last few pages of our Chap.1.

(٥) نلاحظ أيضا أن المشكلات المتزايدة على الطرق البرية فى تركستان قد أدت إلى تطور العلاقات البحرية .

(٦) E.H. Warmington, The Commerce the Rom. Empire and India, Cambridge 1928, p.138.

(٧) Encyclopaedia of Islam, vol. I (Leiden 1913), p.377 (article on Arabia).

(٨) For the work of Frumentius about 330 A.D., see C.R. Beazley, The Dawn of Modern Geogr., vol, I, London 1897, p.206.

(٩) C. R. Bzazley, ibid., pp. 206 et seq.

(١٠) فى القرنين الرابع والخامس ظهرت العملات الرومانية من جديد بوفرة فى شرق الهند وأيضا فى الشمال، ومن المحتمل أن تكون هذه العملة قد انتقلت إلى هناك عن طريق العرب والأكسوميين انظر وارنجتون: التجارة بين الإمبراطورية الرومانية نفس المرجع، ص ١٣٩.

(١١) من المفترض أن البيزنطيين شجعوا الأكسوميين على اتخاذ هذه الخطوة أنظر دى لاس أورلى: الجزيرة العربية قبل الرسالة المحمدية، نفس المرجع، ص ١١٩ .

(١٢) De Bello Persico, i, 20,9-10,quoted in O'Leary, Arabia before Muh., loc, cit., p.114,

(١٣) ربما توجد مبالغة بسيطة فى هذه العبارة لأنه من المؤكد أن الأثيوبيين شاركوا فى التجارة الهندية فى ذلك الوقت وسوف نرى إمكانية علاقاتهم مع سيلان .

(١٤) Referance in O'Leary, ibid., p. 159, and Encyclopaedia of Islam, vol. 1(1913). (article on Arabia), p. 378.

(١٥) See Arabic text Kitab Sana (or Sini?) Muluk al-Ard wa-l-Anbiyaa', ed. I. M. E. Gottwaldt (Lipsiae 1884-8), vol. I,p. 58 for text and vol, II, p. 43, for Latin translation. Also reference in J. T. Reinaud, Relation des voyages faits par des Arabes et des Persans dans L'Inde et a la Chine ... ete., Paris 1845, Discours preliminaire, t, I, p. Xxxvl.

(١٦) Reference by F. Hirth and W. W. Rockhill in Chau Ju-kua, translated from Chinese and annotated, St. Petersburg 1911, introduction, p. 7.

(١٧) Reference in F. Von Richthofen, China, Ergebnisse eigener Reisen und darauf gegrundetert Studien, Bertin 1877-1912, vol, I, pp. 520 et seq ., W. Hewd, Histoire du commerce du Levant au moyen age, Leipzig et Paris 1885-1886, vol, I, p.9. footnote I ; also H. Yule, Cathay and the Way Thither, revised ed, by H. Cordier, London 1913-16, vol. 1, p. 67., and Cordier's additional footnote 1 (p. 67).

(١٨) C. R. Beazley, The Dawn of Modern Geogr., Loc. Cit., vol, 1, p. 484.

(١٩) باسم هولنج أو كولنج أعطيت هناك إلى جاوة وكالنجا من ساحل كورومانديل (يبدو أن بعض المستقرين الأوائل تم الاعتراف بهم هنا) وحول هذه النقطة ومن اقتباس من الوثائق الصينية انظر و.ف مايرز المترجمة من ذكريات جغرافية من أسرة مانج فى (China Review) المجلد الرابع (١٨٧٥ – ٧٦) العدد ٣ ص ١٨٤ إشارة ١)

هناك أيضا إشارة إلى بعثة من جاوة ٤٣٦م وثم فى Foe Koue Ki, ou relations des Doyages bouddhiques, par Chy Fa Hian, par A, Remusat et complete par Klaproth et Landresse, Paris 1835, p, 364.

(٢٠) For reference to such embassies see S. Levi, Les missions de Wang Hiuen-te's dans l'Inde, in Journal Asiatiqus, serie IX, t. XV (1900), pp. 412-13; and H, Yule, Cathay, H, Cordier's ed., loc, cit., vol, I,p. 67.

(٢١) C. R. Beazley, The Dawn of Modern Geography, loc., vol, 1,p.475.

(٢٢) E. H. Warmington, The Commerce between the Rom. Emp. And India, loc. Cit., p. 123.

(٢٣) Cosmas, Chrirstian Topography, 365, quoted by F. Hirth and W. Rockhill, in Chau Ju-kua, loc, cil., introd., p. 3, (Explanations between brackets not Cosmas).

(٢٤) Reference to these countries and their identifications in C. R. Beazley, ibid., vol, 1, pp. 492-503.

(٢٥) See mention of the mission of Shiba Tatsu under the Liang (A. D. 502-57) in A. Lloyd, The Creed of Half Japan; Historical Sketches of Jap, Buddhism, London 1911, p, 171.

(٢٦) من أهم النقاط التى تمت مناقشتها فى المشروع البحرى المبكر للصين والتى تستحق إشارة خاصة هى اختراع البوصلة واستخدامها فى الملاحة فى البحر المكشوف وحسب أحد الأساطير تعرف الصينيون على خصائص الإبرة المغناطيسية، وما يسمى شيناكو (أو الإشارة إلى الجنوب) فى أوائل الألفية الثالثة قبل الميلاد، ومع هذا فهناك أسطورة أخرى يرجع نفس الفكرة إلى عصر الإمبراطور شونج وانج (١١١٥ – ١٠٧٩ ق.م) وحول هذه القصة انظر F. Hirth, The Ancient History of China, New York 1908, pp. 125-136, reference on pp. 135and 125-6 respectively; see also T, De Lacoupedie, Western Origin of Early Chinese Civilisation, London 1894, p. 45, note 209, and pp. 983-6; J. T. Reinaud, Relations polit. Et commerciales de l'Emp, romain avec l'Asie orientale Paris 1663, pp. 286 et seq.; and F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-kua, loc. Cit., introd., pp. 27-34.) بعد ذلك فقد الاختراع وظهر من جديد فى تواريخ مختلفة ورغم هذا ففى كل الحالات التى ارتبطت مع أدوات للاستخدام بدأ أكثر من أغراض الملاحة ورغم أن هناك إشارات لاستخدام مثل هذا الجهاز للسفن واتجاه الجنوب (شينان شو) فى أغراض إمبراطورية (حوالى القرن الرابع بعد الميلاد) كان ينظر إلى هذه السفن على أنها مجرد لعب، وعلى أية حال لم يتم ملاءمتها للملاحة العملية (See T. De Lacouperie, ibid., pp. 261 and 284- 285; and W. F. Mayers' note on The Mariner's Compass in Notes and Queries on China and Japan, Hong-kong, vol,IV, 1870, pp. 9-10). When Fa-Hian made his journey home by sea (at the beginning of the vth cent,) لم تكن هناك معرفة بالشرق أو الغرب فقط بملاحظة الشمس والقمر والنجوم وهذا يجعل من الممكن الاتجاه إلى الأمام (See Foe Koue Ki, par A. Remusat et complete par Klaprote et Landresse, loc, cit., p. 360; also quoted in Chau Ju-kau , ibid., introd., p, 27.) وفى الحقيقة فإن الدليل المبكر المعترف به لاستخدام البوصلة البحرية فى البحار الصينية لم تصل إلى بداية القرن الثانى عشر (أو ربما نهاية القرن

الحادى عشر بعد الميلاد، وهو نفس الوقت لاستخدامها عند الملاحين الغربيين فى البحر المتوسط. J. T. Reinaud's Introduction to his Geographique d'Aboulfeda, Paris 1848-83) Vol. 1. pp 2211-2217) وهكذا يبدو أن الصين فى أوائل العصور الوسطى كانوا على دراية بالإبرة المغناطيسية واستخدامها للدلالة على الاتجاه إلا أنهم لم يذهبوا أبعد من ذلك، ومن خلال دراساته التعددية يميل ف هيرث إلى الاعتقاد بأن الملاحين العرب والفرس قد أخذوا وطوروا هذا الاختراع واستخدموه فى الملاحة قبل الصين أنفسهم، وربما شاهد البحارة الغربيون بعض الآلات أو غيرها فى أيدى رجال الهندسة فى موانى الصين، واكتشفوا بأنفسهم استخداماتها فى الملاحة. ف هيرث: التاريخ القديم للصين نفس المرجع ص ص ١٣٢ - ١٣٤ .

(٢٧) Reference to lack of Chinese records in made in Hirth's and Rockhill's introd, to Chau Ju-kua, loc, cit., pp. 7-8.

(٢٨) بالنسبة للنفى العربى والترجمة الفرنسية انظر Mas'udi, Murudj al-Dthahab... etc., or Les Prairies d'or et les mines de pierres precieuses, ed, and transl. By C. B. De Meynard and P. De Courteille, 9 tomes, Paris 1861-77,ref, in t. I, pp. 215-16. (Explanations between brakets not Mas'udi's.)

(٢٩) Ed, by I, M, E. Gorrwaldt, op. Cit., t. I, p. 103, for Arabic text, and t. II, p. 80 for Latin version.

(٣٠) J. T. Reinaud, Relation des Voyages... etc., loc, cit., t. I, p.xxxv; F. Von Rich-Thofen, China, Ergebnisse eigener, Reisen... etc., loc. Cit., vol. I, p. 520; W. Heyd, Histoire du commerce ...etc., loc. Cit., vol. I, p. 7;also reference in H. Yule, Cathay, Loc. Cit., (revised edition By Cordier), vol. I, pp. 4-83. (Though in some of his Later statements this writer seems to have doubted Reinaud's conclusions; see H. Cordier's addition to footnot 2 on p.84); See also W. E. Soothill', China and the West , 1925, p. 23.

(٣١) ث. ر بيزلى. فجر الجغرافيا الحديثة انظر المجلد الأول ص ٤٩٠، ويبدو أن هذا المؤلف لم يفهم حقيقة أن المسعودى وارتباطه مع هيرث أشار إلى تقرير أسطورى إلى حد ما والذى إذا أخذناه كما هو ربما يشير إلى العقود الأخيرة من القرن الثالث الميلادى .

(٣٢) See his article on China in the Encyclopaedia of Islam, loc, cit., vol, 1 p.841.

(٣٣) بعد سقوط اللخميين عين الساسنيون قبيلة من Tayy محلهم وفى عام ٦١٤ أنشىء اسطر لاب إيرانى فى الحيرة انظر دى لاكى أورلى، الجزيرة العربية قبل الإسلام Arabia before Muh. ص ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣٤) Chau- Ju-kua, loc. Cit., introd., p. 4.

(٣٥) A. P. Caussin De Perceval, Essai sur L'histoirs des Arabes auant L'Islamisme... etc., Paris 1847-8, t. 11, p. 616.

(٣٦) Ammien Marcellin, XIV, 3, 3 ; for Latin text and Freach transl., see G. Coedks, Textes d'auteurs grecs et latins relatifs a l'Extreme-Orient... etc, (Paris 1910), pp. 91-2; also reference in J. T. Reinaud, romain... etc., loc, cit., p. 267. إن اختيار شهر سبتمبر لعقد مثل هذه المعارض مهم جدا، إنه شهر استقرار نسبى فى شمال الجزيرة العربية. فالبدو الذين يتحركون من الصحراء إلى الهلال الخصيب فى أوائل الصيف لا يبدأون رحلتهم للعودة حتى بداية الشتاء، وفى سبتمبر يتم حصاد المحاصيل الصيفية المزروعة على شواطئ الأنهار وفى الواحات ويكون محصول البلح المبكر جاهزا للأسواق.

(٣٧) Murudj al-Dthahab... etc, or Les prairies d'or... etc., loc, cit., vol, I, pp. 224-6.

(٣٨) إنه أمر طبيعى أن السفن التى بنيت للملاحة فى البحار الخطيرة فى جنوب شرق آسيا يجب أن تكون ذات حجم أكبر من أحجام السفن فى الغرب لأن عليها تحمل البحار الشديدة فى أمواجها نسبيا، وأيضا يجب أن تحمل عددا أكبر من الملاحين (البحارة) الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة الخطيرين وعلى ذلك، كما أن الإمدادات الجيدة من خشب الساج والأنواع الأخرى من الأخشاب من سواحل جنوب شرق آسيا، كل هذا شجع على صناعة بناء السفن ومن أوائل القرن الخامس الميلادى فإن سفن الهنود كانت السفن تحمل أكثر من ألفى شخص، وعن رحلته إلى الوطن انظر أ. ريموسات Foe Koue Ki نفس المرجع ص ص ٣٥٩ وما بعدها، وأيضا Chau Ju-kua نفس المرجع والمقدمة ص ص ٢٧-٢٨ وفى منتصف القرن التاسع سليمان التاجر الرحالة العربى يتحدث عن السفن الصينية التى تصل إلى كولام مالى (كيولن فى مالابار) فى طريقهم إلى خليج عمان والعودة حيث يقول إنه يجب عليهم دفع ضريبة من ألف درهم، بينما تدفع السفن الأخرى من دينار إلى عشرة فقط أو من عشرين إلى مائتى درهم وهذا يمكن بسبب الحمولة الكبرى للسابقة انظر ما بين القوس ص p.g - J.T. - p.g. ومن المستحيل أن نعطى أية فكرة محددة عن وزن أو قيمة الدرهم لأنها اختلفت من وقت لآخر، نفس مرجع رينورد المجلد الثانى ص ١٣ ملاحظة ٣٤) التى تعتبر الدرهم (فى عصر سليمان) مساويا إلى الفرنك الفرنسى فى حوالى منتصف القرن الأخير، أى حوالى ٧٧ حبة فضة وقد تم الحديث عن السفن الصينية الكبرى بتفاصيل أكثر فى حوليات الصين فى عصور متأخرة، ولأوصاف من القرن الثانى عشر أنظر مقدمة شوجون كو، نفس المرجع ص ص ٢٤ - ٣٣. وفى القرن الرابع عشر يذكر ابن بطوطة أن سين كالان (كانتون) وزيتون (تسون شو، كانتا مشهورتين بسفنهم التى حملت ألف رجل (أى ٦٠٠ بحارة و ٤٠٠ جندى) وثلاثة خزانات للوقود والماء (النص وترجمته فى دى فيرمى و ب. ر سانجونتى " رحلات ابن بطوطة، باريس ١٨٥٣ - ١٨٥٨ الطبعة الرابعة ص ٩١ - ٩٤) ولا تحتاج مثل هذه السفن أن تكون كبيرة الحجم لأنها كانت تحمل حرفيا الرجال .

(٣٩) For identification of Siraf see article on kais by M. Strzck in Encyc. Of Islam, vol. 11 (1927), pp. 649-50.

(٤٠) يمكن أن نستنتج هذا من حقيقة أنه بعد قضاء جيل من الاضطرابات على حدود صحراء الهلال الخصيب، هاجرت قبيلة بكر في أعوام ٦١٠ - ٦٢٠ ميلادية إلى ساحل الإحساء والبحرين، وعن هذه الهجرة انظر لاسى أورلى " الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية " نفس المرجع، ص ١٦٠. وربما نشك أن القبيلة قد شغلت نفسها في تجارة السلع الشرقية إلى مكة والتى كانت في ذلك الوقت أهم السلع لكل الجزيرة العربية .

(٤١) Refreed to in 11, Yule Cathay (Cordier's ed.), loc. Cit., vol.1, p.86. يعنى الوصف الذى قدمه يول أن الرحلة من سيلان إلى خليج عمان قد تمت بشكل كبير على طول الساحل، ولا يعنى هذا أن التجار الصينيين لم يكونوا على دراية بالعبور المباشر، بل كانوا مهتمين بالتجارة المحلية في بعض الموانى على طول الساحل وعلى أية حال وسوف نجد أن سليمان التاجر يرى بالتحديد أنهم اتبعوا طريق العبور الخارجى .

(٤٢) عن سرده للطريق والتجارة بين سيراف وكانتون انظر- J. T. Reinaud, Relation des Doyag-es... etc., loc, cit., pp. 24 et seq, of the Arabic text and t. 1, pp. 12 et seq. To the French Version, Also Renaddor, Ancent Accounts, etc., loc. Cit., pp. 8 et seq. وملخص عن الطريق مع تحديد الأماكن المختلفة نجده في ج فيراند " رحلة التاجر العربى سليمان " باريس ١٩٢٢ مقدمة ص ص ١٨ -١٩ .

(٤٣) لتحديد كولام مالى (تكتب بالاختصار العربى كولوم مالى أنظر ج.ت رينولد - علاقة الرحلات التى قام بها العرب نفس المرجع، المجلد الثانى هامش ٣٢، ص ١٣ أنها كولان الصين أنظر E. Brestchnei-der : On the Knowedge by the Ancient Chinese of the Arabs etc. London 1871. p. 11

(٤٤) هذا حسب ج فيراند - رحلات التاجر العربى سليمان نفس المرجع والمقدمة ص ١٨ ومن جهة أخرى ابن خرداذبة في نفس القرن مثل سليمان يقول إن السفن التى تبحر من الغرب ناحية الصين تغادر سيلان من ناحية الشمال، أى أنها لا تمر ب Palk Strait أنظر See C. B. De Meynard's edition of text and version , Le Liure des routes des prouinces, in Journal Asiatique, serie VI t. V, Paris 1865, p. 64 in the text and 288 in the version.

(٤٥) إن تحديد كالاه (كولو عند الصينيين) له بعض الأهمية لأنه بنهاية القرن التاسع صار هذا الميناء أهم مركز للتجارة بين الصين وغرب آسيا. ورغم الاختلاف العظيم في الآراء يمكن أن نحدده أفضل فيكود (Quedd) أنظر See W. Herd, Histoirs du commerce ... etc., loc. Cit., vol I, p. 31, footnote 5, also C. De Vaux's transl, of L'abrege des merueilles (variably attributed, to Masudi and Ibrahim Ibn Wasif Shah), Paris 1898, p.56, footnote where

he refers to the identifidation as made in the Merueilles de L'Inde, p. 255, Less plausible identifications are made with Kea (about 10 N.) and Kors (about 7 35 N.) (For these see G. Fennand, Relations des Doyages, et texles geographiques arabes, persans et turce relatifs a Perir, Orient...etc., Paris 1913- 14, t. I, Preface, p. IV, and Hirth's and Rockhill's introd, to Chau Ju-lcua, loc. Cit., p. 11, footnote 9, respectively,) There is no evidence in support of J. T. Reinaud's view that Kalahbar represents the southern part of the Coromandel coast (See his Relation des uoyages..., loc, cit., t.II, note 39, p. 14.)

(٤٦) - There is agreement on this identification, see, e. 8. W. Heyd, ibid., vol. II, p. 584.

(٤٧) Mention in A. Srein, Innermost Asia : its Geography as a Factor in History, in Geogr. Journal, vol. LXV, 1925, p.484.

(٤٨) This took place about the sixties of the v th century. See A. Remusat, Histoire de la uille de Khotan ... etc., Paris 1820, p. 28; also G. Deverin, Origine de L'Islamisme en Chine in the Centenaire de L'Ecole des Langues orientales uiuantes, Paris 1895, p. 306, footnote I.

(٤٩) A. Stein, Innermost Asia, Detailed Report on Explorations in C. Asia etc., Oxford 1928, vol. I, p. 544.

(٥٠) Idem (as previous footnote), p.544.

(٥١) F. Hirth, China and the Roman Orient, Shanghai 1885, pp. 55 and 285. the country of Fulin is first spoken of in Chinese records in A, D. 646. It is said to be the old country of Ta Ts in and is thus identified with the Byzantine Empire. See F. Hirth, ibid., pp. 286 et seq.; also notes on Fulin in E. Bretschneider, On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabe... etc., loc. Cit., pp. 23-27, and the revised ed. Of H. Yule's Cathay and the Way Thither, loc. Cit., vol. I, pp. 44, 46 et seq.

(٥٢) A. Stein, Innermost Asia, loc. Cit., Oxford 1928, vol. II, p. 577; also mention in E. H. Parker, China and Religion, London 1905, p. 110 (where he puts the date at 622 A. D.).

(٥٣) Hiouen-Thsang, Memoires sur les contrees occidentales ... etc., trad. Par S. Julien, Paris 1857-8, t. I, pp. 12, 14 and 18-19; see also, W. Heyd, Histoire du

commerce du Leuant, loc. Cit., vol. I, pp. 13-15.

(٥٤) For these finds, which roughly cover the period from the latter half of the vI th to the first half of the vIII th centuries, see A. Srein, Innermost Asia, loc. Cit., vol. II, chap. XIx, particularly pp. 667 et seq.

(٥٥) De Lacy O'Leary, Arabia before Muh., loc. Cit., p. 115.

(٥٦) W. Herd, Histoire du commerce du Leuant, loc. Cit., vol. I, pp. 12, 15-16.

٥٧ During periods of war, the Arab middlemen were granted a so-called Eelaf– (safe-conducts or charta of safety by officials) to act as intermediaries between the Iranians and the Romans. See Masudi, Les prairies d'or, loc. Cit., t. III, p. 121 ; also O'Leary, ibid, p. 114.

(٥٨) يجب أن يلحظ أنه رغم توسع العرب قد أدى فى البداية إلى فترة قصيرة من الاضطرابات فإن تأسيس إمبراطورية إسلامية واسعة قد سهل عملية التبادل بين مختلف أجزاء الشرق الأوسط والأدنى .

(٥٩) For these disturbances and exploits of the Tibetans, see H. Yule, Cathay (revised ed.) loc. Cit., vol. I, pp. 61-2 ; A. Stein, Innermost Asia, loc. Cit., vol. II, pp. 579-80 ; A Remusat, Hist. De la uille de Khotan, loc. Cit., p. 69 ; and G. Deverin, Origine de l'Islamisme en Chine in the Centenaire de l'Ecole des Langues orientales uidantes, loc. Cit., p. 309.

(٦٠) E. Brerschneider, On the Knowledge ... etc., loc. Cit., p. 10.

(٦١) Ed. And trausl. By M. J. De Goeie, Bibliotheca Geographorum Arabicorum, vol. VI, Leiden 1885, p. 155 in Arabic text and 116 in Arabic text and 116 in French version.

(٦٢) Les prairies d'or, loc. Cit., vol. I, p. 349.

(٦٣) For text and transl, on these routes see, Les prairies d'or ..., loc. Cit., vol, I, pp. 347-9 ; see also article by Ch, Schefer, Notices sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois ... etc., in the Centenaire de L'Ec. Des Langues orientales Diuantes, loc. Cit., p.7 ومن الواضح مع هذا فإن الطريق على طول الحد الشمالى لحوض تاريم كان أكثر أهمية من الطريق على طول الحد الجنوبى (انظر خريطة رقم ٧، ٨ .

J. T. Reinaud, Relation des Doyages ... etc., loc, cit., pp. 102-6 in Abu Zayd's (٦٤)
Arabic text, and t. I, pp. 106-110 for transl.; for Masudi see prairies d'or, loc. Cit., t. I, pp. 307-12.

Mention of the introduction of the silk-worm into Khutan by a Chinese princess, (٦٥)
in A. Remusat, Hist, de la uille de Khotan, loc. Cit., pp. 34-5, Reference to the probable date about 419 A. D. In J. T. Reinaud, Relations politiques et commerciales de L'Emp. Rom., loc. Cit., pp. 49-50. Further discussion of the westward spreading of sericulture will be made in the Appendix to our Chapters III and Iv , on "Some Commodities of Trade ".

G. Deveria, Origine de L'Islamisme en Chine in the Centenaire ..., loc. Cit., p. (٦٦)
305, footnote 1.

Mention in F. Hirth's and W. Rockhill's introd. To Chau Ju-Kua, loc. Cit., pp. 7-8. (٦٧)

G. Fereand, Relations des Voyages et textes geographiques arabes ... etc., (٦٨)
loc, cit., t. II, p. 633, also C. R. Beazley, The Dawn of Modern Geography, loc. Cit., vol. 1, pp. 386-7.

P. Pelliot, Deux itineraries de Chine en Indeì etc. in the Bulletin de L'Ec. Franc. (٦٩)
De l'Er. Orient, t. IV, Hanoi 1904, p. 336 ; also S. Levi, Les Missions ì etc. in the J. Asiat., serie IX, t. XV, loc. Cit., p. 421 ; and G. Ferrand, Relations des uoyages et texts ì, loc. Cit., t. 11, p. 637.

G. Ferrand, ibid., t. 1, p. 3. (٧٠)

F. Hirth, China by E. C. Taintor, in Notes and Queries on the Far East, vol. 11 (٧١)
(1868), p. 46.

Reference in F. Hirth and W. Rockhill, Chau Ju-Kus, loc. Cit., introd. P. 3 ; also (٧٢)
C. R. Beazley, The Dawn of Modern Geography, loc. Cit., vol. 1, p. 484 رغم أن
المؤلف الأخير والذى طوال كل مؤلفه يقلل من النشاط البحرى للعرب ويشكك فى أن تجارهم من
الجنوب كانوا موجودين فى سيلان فى هذا التاريخ المبكر (انظر هامشه فى نفس الصفحة) .

For mention of early navigation on Arabian Coasts, Vide supra, treatment in our (٧٣)
chap. 1, pp. 19-24 and 31-38.

Articles on Hurmuz (by R. Stube) and Kais (by M. Streck) in the Encyclopaedia (٧٤)
of Islam, vol. 11, pp. 325-6 and 649 respectively.

(٧٥) يذكر ابن بطوطة الذى زار الموانى الصينية فى حوالى ١٣٤٥ ميلادية يذكر رؤساء المناطق الإسلامية هناك ويعطى أسماء فارسية لهذه الموانى المشهورة فى زيتون (تسوين شو) وأسماء أخرى (سوجديان وأرض الرافدين وأسماء مصرية ومغربية لكل هذه الأماكن الأخرى) أنظر النص والترجمة على نفس الصفحة من رحلات ابن بطوطة (المحرر ج ديفريمرى و ب.ر. سانجيونتى) المجلد الرابع ص ص ٢٧٠ – ٢٧٢ و ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٢ بالتوالى.

– أيضا توجد إشارة فى ماكس فان بيرشين (ج أرنيز) Also reference in Mar van Berghrm (and G. Arnkez), Mem, sur les antiquites musulmenes de Ts' Unian tcheou, T'Oung Pao Series II vol. XII, 1911, P. 716.

(٧٦) يجب أن نوضح منذ البداية أن العلاقات التجارية بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى (والدول فيما وراء ذلك) لم تكن تحكمها اعتبارات دينية، فلقد كان انهيار المجتمعات الأوربية فى العصور الوسطى عاملا مهما فى حد ذاته فى تقليل التبادل التجارى بين العالم المسيحى والشرق .

(٧٧) H. Pinenne, Medioeval Cities : Their Origin and the Revival of Trade (transl. by F. D. Halsey) , Princeton 1925, pp. 28 et seq.

(٧٨) M, J. de Geog's ed. (in Dibl. Geog. Arab.) loc. Cit., pp. 153-4 in text and Khordadbeh, in Journal Asiat ., serie VI, t. V (Paris 1865) , pp. 115-16 in Passages of Early Commerce of the Arabs, in Journal of the Asiatic Soc. Of Bengal, Series, Vol. XIII, 1844, Part 11, No. 151, pp. 521-2 and 522-3 respectively من الغريب أن ابن خرداذبة وهو يشير إلى السلع المصنعة من الغرب إلى الشرق لم يذكر الحرير بين صادرات الصين، ومع هذا فإن قائمة الصادرات والواردات كما ذكرت فى هذه المقطوعة كاملة، إن كل مسألة السلع سوف نفرد لها معالجة خاصة فى ملحق الفصول الثالث والرابع .

(٧٩) ربما أيضا يأخذ هؤلاء الروس الطريق عبر جنوب روسيا إلى البحر الكاسى (خليج كازار وبحر جردان وبعده إلى البلق ترنسكسونيا وأرض طاجاز والصين – أنظر هامش فيدسويرا رقم ١ فى صفحة ١٤٩) وعن تجارة ما يسمى التجار الروس انظر See de Geoge's ed., op. cit., pp. 154-5 in text and 115-16 in transl. ; de Meynard's ed. Op. cit., pp. 116-119 (where he omits the passage on the C. Asiatic route) in text and 514-15 in transl.; and A. Sprenger's ed., op. cit., pp. 522 in text and 524 in transl.

(٨٠) 120,000 according to Abu Zayd (see j.t. Reinaud , Relation des voyagesìetc., toc. cit., pp. 62-3 , in Arabic text , and t. I , pp. 63-4 in transl.) , and 200,000 according to Mas udi (Les prairies d'or, loc. Cit., t. 1, pp. 302 et seq.) ; see also H. Yule, Cathay and the Way Thither (Cordier's edition) , loc. Cit., vol. 1, pp. 89-90, and Ch. Centenairs i, loc. Cit., pp. 5-6 إن الأرقام المشار إليها سالفا ربما تكون

مبالغة لكنها تساعد فى إعطاء فكرة ما عن العدد الضخم لمناطق الاستقرار الأجنبية فى موانى الصين فى ذلك الوقت .

(٨١) See M. J. de Geoge ed . of Arabic text only in Bibl. Geog. Arabic, loc. Cit., pars 11, Leiden 1873 , pp. 206-7 For French reference see review of that edition (with transl . of the passages in consideration) by B. de Meynard in the J. Asiat., serie V11, يجب أن نقرأ تاريخ ٣٥٥ هجرية لزيارة البصرة بدلا من ٣٠٥ كما هو فى المخطوط الأصلى، فالنص ليس واضحا عما إذا كان هذا التاجر قد امتلك كل هذه السفن التى أبحرت من الخليج العربى أو ببساطة تلك التى أبحرت من البصرة ومع هذا فإن الأخيرة هى الأصح وليس ممكنا أن نعطى تقديرا محددا عن كل الثروة للتاجر بسبب صعوبة تحديد الوزن الحقيقى لدينار الذهب (الذى كان يتغير من وقت لآخر ومع هذا فإن ب. ديمنارد (نفس المرجع ص ٥٧٥ هامش ١) يعتبر الأخير يساوى (وزنه ٢) ١٠ إلى ١٢ فرنكًا فرنسى عام ١٨٧٣. وربما نأخذ المبلغ الإجمالى على تقريب ٠٠٠ر٢٠٠ر١ إلى ٠٠٠ر٦٠٠ر١ دينار ذهبا.

(٨٢) M. J. de Geoje's ed. Of his text and translation in Bibliotheca Geographorum Arabicorum, vol. VI, loc. Cit., p. 70 in the text and 51 in transl . (where he identifies Si-Yala with Korea) . See also Mas'udi's Les praiaries d'or, loc. Cit., t. 1, p. 346. Kores was apparently in a high degree of material prosperity in the vIII and Ix centuries see M. Courant, La Coree jusqu'au 12' siecle in T'oung Pacserie 1, vol. IX , 1898, pp. 12 et seq.

(٨٣) For the first view see, e.g. M. J. de Geoje's ed. Of Ibn Khurdadthbah, in Bibl, Geogr. Arab., loc. Cit., p. 49, not 2 in French version ; D. de Thiersant, La Ma-China et dans le Turkestan oriental, Paris 1878, p. 81, footnote 1 ; F, Hirth's article on Choc-Ju-Kus, a new source of Mediaeval Geography, in 1, of the R. Asiat , Soc., 1896, pp. 68-9. For the other view , see Klaprots , Renseignement sur les ports de Gampou et de Zaithoum, decrits par M. Polo, in J. Asiat., serie 1, t. V, Paris 1824, pp. 36-8 ; J. T. Reinaud's, Introduction to the Geographic d' Abulfeda, Paris 1848 (-1883) , pp. cocxch-cocxch ; H. Yule, Cathay , rev . ed., loc. Cit., vol. 1, p. 89 (and footnote 3 on same page) ; and Ch. Schefer, Notices sur les relations des peoples musulmans avec les Chinois ì, etc. in the Centenaire de l'Ecole des Langues orientales more difficult by the fact that owing to variations in the orthography of the word "Khanfu" in different MSS., that first reading is liable to read as " Khanfu" , or "Ganfu" , " Ganqu" ..., etc. ; though the first reading is the most probable .

(٨٤) See J. T. Reindud, Relation des uoyages, loc. Cit., pp. 13 and 70-1, in text and t. I, pp. 12, 72-3 in transl. Also Renaudot's ed Ancient Accounts, loc. Cit., p. 7. For the position of Khanfu in the "big valley", see Reinaud, ibid., p. 63 in text and t. 1, pp. 63-4 in transl .

(٨٥) H. Yule, Cathay, ibid., vol. 1, p. 89 and addition by H. Cordier to footnote 2. The fire was probably set by the Abbassid troops sent to the aid of the T'an-gemperor about 751 A. D., and who refused to sail home. It is difficult to think that the merchant settlers had themselves put the town to fire.

(٨٦) M. J. de Goeje's ed., loc. Cit., p. 69 in text and 49 in transl. ; de Meynard's ed., loc. Cit., p. 66 text and 292 transl. (though de Meynard regards Khanfu as Hang - chow - fu). ربما كان السفر بالبر أكبر صعوبة من السفر بالبحر، ويرجع هذا إلى اختلاف الزمن بين الرحلتين .

(٨٧) H. Yule, Cathay (rev. ed.) , loc. Cit., vol. 1, p. 89, footnote 3.

(٨٨) F. Hirth's article on Chao Ju - Kua in the Journ . of the Royal Asiat . See., loc, cit., pp. 68 - 9 ; also F. Hirth and W. Rockhill, Chau Ju - Kua, loc. Cit., introduction, p. 20, footnote 3 .

(٨٩) أما بخصوص ساحل فوكيان سنشير بعد قليل إلى قيام مثل هذه الموانى مثل تسون شو وشانج شو - إن تطوير صناعة البورسلين من حوالى القرن السابع وما بعده والمعاملة الأفضل التى لقيها التجار الأجانب فى موانى فوكين أثناء العصر المضطرب للتانج الأواخر قد ساعدت على قيام مثل هذه الموانى، أنظر ف. هيرث وروكهيل شوجوكوه المقدمة ص ١٧ .

(٩٠) See Renaudot's ed. Ancient Accounts, loc. Cit., p. 21.

(٩١) F. Hirth , Choo Ju - Kua, in Journal of the Royal Asistic Society, 1896, loc. Cit., pp. 64-65.

(٩٢) Renaudot's ed. Ancient Accounts , loc. Cit., p. 21.

(٩٣) Reference (to the registration of foreigners) by Abu Zayd in J. T. Reinaud's ed. Relation des voyages , loc. Cit., p. 63 in text and t. 1, p. 64 in transl. Also Masudr, les prairies d'or, loc. Cit., vol. 1, pp. 303-4.

(٩٤) خصص المستقرون المسلمون فى العادة بعض الأحياء فى الموانى (أو على الأقل سمح لهم بالاستقرار فى أحياء خاصة أو منفصلة) وكان لهم قاض خاص يرعى أمورهم الدينية وكانت لدية سلطة حل

See reference by Sulayman the Mer- المشكلات المحلية نيابة عن الإمبراطور فى المجتمع
chant in J. T. Rkinaud, Relation des uoyages faits por des arabes et des per-
sons 1 etc., loc, cit., p. 14 in text and t. 1, p. 13 in transl., also Renaudot's ed .
loc, cit., p.7. حسب الوثائق الصينية يبدو أن السلطات الإمبراطورية قد احتفظت لنفسها بحق
التعامل مع القضايا المهمة مثل العزل أو الإعدام انظر هيرث وروكهل Chau Ju-Kua نفس المرجع،
المقدمة، ص ١٧ .

Quoted by F. Hirth in his on Chau Ju-Kua , in Jurnal be Royal Asiof, Soc., loc. Cit., p. 67 ; also reference in Htatn and Rocehill, Chau Ju-Kua , loc. Cit.,p. 9. (٩٥)
إننا ندين إلى هذين المصدرين من التراجم من الوثائق الصينية عن التجارة خصوصا فى التانج (٦١٨ – ٩٠٧ ميلادية) والسونج الأواخر (خصوصا فترات ١١٢٧ – ١٢٧٩)

For references to the route of the Chinese mariners to S. W. Asia, uide supra, pp. 143-144 and corresponding footnotes . See also our Map 7. (٩٦)

His article in J. R. Asiat . Soc., ibid., p. 67. (٩٧)

T'ang-Kwo shihOpu ; see our footnote 2 (above). (٩٨)

Les prairies d'or , loc . cit., t. 1, pp. 302 et seq., particularly pp. 304 and 308 (text and version on same page) ; also reference by Abu Zayd to the rebellion and its consequences, uide supra, footnote 1 on p. 157. (٩٩)

Arabic text and Latin version (on same page) , Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal 1 etc., Kurd von Schloezen, Berolini, 1845, p. 18 ; for French reference see G. Fearand, Relations des uoyages , loc. Cit., t. 1, p. 221. (١٠٠)

The king of Kalah was dependant upon the Sovereign of China ; he made the Khutbah (prayer) in his name ", K. v. Schloezer, ibid., (preceding footnote) . p. 19, and for French reference , G. Ferrand , ibid., p. 222. (١٠١)

For that kingdom, see J. T. Reinaud's "Introduction " to Geogr . d'Aboulfeda, loc. Cit., pp. ccclxxxix - cccxc. (١٠٢)

Les prairies d'or , loc. Cit., t. 1, p. 308. (١٠٣)

E. H. Parker, China, her History , Diplomacy and Commerce , London 1901 , p. 53. Lan lip o I, was probably one of the Nicobars , and not an island between Ceylon and Cape (Point) Calimere as that author thinks, There is more (١٠٤)

reason to identify Lan lip o l with Lambri in N. W. Sumatra (and not with Langibalous) ; see also F. Hirth , Ancient Porcelain ìetc., loc. Cit., p. 58.

(١٠٥) W. F. Mayer's translations from the Geogr. Memoirs of the Ming Dyn., in the China Review, vol. IV (1875 - 1876) , no. 3, p. 185. Political relations between China and Java were apparently suspended during the whole period from the (Early) Soung (A. D. 420 - 478) to the (Later) Sung (960 - 1279) , i. e. roughly between 435 and 992 A. D.

(١٠٦) See Geographie d'Edrisi , transl. by p. A. Jaubert, Paris 1836 - 40 , t. I. p. 51.
من جهة أخرى يذكر فى هذا المقام مع جزيرة كيش (أو كايس فى الخليج الفارسى أن أميرها كان مشغولا فى أعمال عسكرية للقبض على الرقيق) فى شرق أفريقيا، أنظر نفسه مجلد ١ ص ٥٩ .

(١٠٧) For identifications , see especially A. Kammerra , La Mer Rouge, L' Abyssinic , l' Arabie, etc., t. 1, Le Caire 1929, p. 73 - 77.

(١٠٨) For the trade activity of Aidthab and its routes , roughly from 450 to 770 A. H. (or 1058 - 1368 A. D.) , see E. Quatremere, Memoires geographiques et historiques sur l' Egypte ì, Paris 1811 , t. 11, pp. 162-72 (where translations from Maqcizi are given) ; also W. Herd Hist. du commerce du Leuant , loc. Cit., t. 1, pp. 380 - 3 and t. 11, pp. 58 - 60 and 444 ; article on " Aidhab" in Encyclopaedia of Islam (by C. H. Becker) , vol. 1, p. 210 ; P. A. Jaubert , Geogr . d'Edrisi , loc. Cit., t. 1, p. 132 ; and A. Kammerer, La Mer Rouge ì etc., t. 1, loc. Cit., pp. 72 -80.

(١٠٩) For the relative rise of the port of Alexandria (especially in the xll th cent.), as compared with Dimiat (Damietta) , which had much suffered during the Crusades, see W. Herd , ibid., t. 1, pp. 383 - 384 and 424 - 426.

(١١٠) Vide supra, in present chapter , footnote 2 on p. 150 and corresponding text .

(١١١) انظر أيضا ج. ف هدسوف كتاب أوربا والصين، لندن ١٩٣١ ص ص ١٣٦ وما بعدها حيث إنه لم يعتبر الاسلام مجرد حاجز بين أوربا والصين بل أيضا يعبر عن الرأى بأنه حتى عصر المغول كانت الصين فى عزلة تامة بسبب انعزالها عن الاتصال مع الغرب الحقيقى وأيضا كانت أسرة سونج الأخيرة صينية تماما ولم تصل النتائج التى توصلنا إليها فى دراستنا مع هذا الرأى. إن القيمة

الحقيقية للتناقض الديني في قطع التبادل التجاري المباشر بين أقصى الشرق والغرب قد تمت مناقشته في أماكن متفرقة من العمل الحالي. وفي حالة الصين كان التطور الذي قدمته حكومة سونج ذات طبيعة صينية في البحر، ولم تؤد التجارة الخارجية للإمبراطورية إلى عزلة ولقد اخترقت السلع الأجنبية قلب الصين، بينما جاءت السلع الصينية إلى الساحل (وتصدر) من أقصى حدود التبت، وقد تم إغراء التجار الأجانب لنقل أعمالهم التجارية إلى موانى الصين (أنظر أيضا خريطة رقم ٩) .

(١١٢) Vide supra, in present chapter , footnote 1 on p. 155 and 1 on p. 156, and corresponding text .

(١١٣) سوف نعالج هذا بالتفصيل في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

(١١٤) For the spreading of the Mongols see short account by E. Power in Travel and Travellers ì etc., koc. Cit., p. 126.

(١١٥) لقد ذكرنا بالفعل (في سوبرا الصغيرة) أنه قبل قدوم المغول كانت منطقة الاستبس الأسيوية في حالة من التفكك والتجزئة، وكانت تضم عددا كبيرا من الرئاسات الصغيرة، ومن جهة أخرى فقد ظل تمثل سلسلة من وحدات سياسية كبرى (أو إمبراطوريات شبه متجانسة وتستطيع كل واحدة منها تحقيق الأمان على طول الطرق داخل مناطقها .

(١١٦) هناك طريق ثالث من إيران إلى تركستان ووسط آسيا والصين لكنه لم يكن مألوفا، ولكن إذا ما قورن بالطريقين الآخرين، كان قليل الأهمية .

(١١٧) W. Herd , Histoire du commerce du Lecant ì , loc. Cit., t. 11, pp. 65 et seq.

(١١٨) وإلى حد ما أيضا تحقق الهدف السياسي في الشرق الأدنى، ونجح المسيحيون في الحفاظ على الخانيين في إيران ضد المماليك في مصر وسوريا .

(١١٩) انظر تقريرا ممتعا عن المستعمرات الإيطالية على الساحل الشمالي للبحر الأسود في Heyd وتاريخ تجارة الليفانت نفسه المجلد الثاني ص ص ١٥٦ – ٢١٥ وهناك إشارة في ى. Power كتاب افتتاح الطرق البرية ... الخ في كتاب السفن والمسافرون ص ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(١٢٠) Transl. in H. Yule, Cathay (rev. ed. By H. Cordier) , loc. Cit., vol. III. Pp> 152 and 155.

(١٢١) E. Power, ibid., p. 153.

(١٢٢) التحالف بين المغول والمسيحيين ضد المسلمين انظر: المقريزي: تاريخ سلاطين المماليك في مصر، ترجمة ى. م كوترمير عام ١٨٣٧ ت ١ ص ص ٩٨ و ١٠٦.

استمر التحالف حتى بعد اعتناق بعض الأخيين الإسلام، انظر و. هييد تاريخ التجارة نفسه المجلد الثانى ص ٦٨ وما بعدها، ومما لا شك فيه أن العامل الاقتصادى أى المنافسة بين أسواق الإيرانيين والفرس والمصريين للتجارة تعتمد على خلفية مثل هذا التحالف .

(١٢٣) لأوصاف بولو عن المدينة وأيضا ملاحظات عن تصبه، انظر- See H. Yule the Book of Mor- co Polo, rev. 3 rd ed . by H. Condier, 1903, vol, 1, pp. 71 - 6

(١٢٤) See Geographic d' Aboulfeda (J. T. Reinaud and S.Londom Guyard) , loc. Cit., t. 11, 2, 104 ; W. Herd , Histoire du

commerce ا etc., loc. Cit., t. 11, pp. 136 et seq. ; also ount of Ibn Batoutah in his Vayages , loc. Cit., t. 11, pp. 230 et seq.

(١٢٥) E. Power, The Opening of the Land Routes ا etc., in

Travel and Travellers ietc., loc. Cit., pp. 139 - 140.

(١٢٦) Reference to details of such taxes and sur-taxes (though of a period a little later than the one, at present, under consideration) , in W. Herd , Histoire des commerce ا etc., loc. Cit., t. 11, pp. 448 - 51.

(١٢٧) For an embassy sent from Ceylon to Egypt in 1283 A. D. see (Maqrial) , Hist. des sultans mameloicks, trad. Par E. M. Quatremers, loc. Cit., t. 11, 1, pp. 59-60 ; also Quatremekes , Momoires ا sur L' Egypte, loc. Cit., t. 11, pp. 284-6. The development of trade between the W. cost of India and the Persian Gulf, seems to have affected Ceylon which is better situated for a direct crossing to the Gulf of Adan and the Red See يبدو أن تطور التجارة بين الساحل الغربى للهند والخليج الفارسى قد أثر على سيلان ذات الموقع الأفضل للعبور إلى خليج عدن والبحر الأحمر .

(١٢٨) Hist . des sultans memalouks , op. cit., t. 11, 1, p.97.

(١٢٩) W. W. Rockhill, Notes on Relations and Trade of China ,

loc. Cit., in T'oung Poa, series 11, vol. XV, 1914, pp.

425-6.

(١٣٠) لقد احتفظوا حتى بطريقة السونج فى تصنيف السلع تحت عنوان الناعمة والخشنة انظر روشهل نفس الصفحة ص ٤٢٣ .

(١٣٢) إذا تحدثنا عن الرسوم التى يدفعها التجار فى زيتون حيث يقول بولو إنه بين النقل ورسوم الخان (Khan) كان على التاجر أن يدفع نصف قيمة استثماره، على الرغم من أنه فى النصف الآخر يحصل على مكسب لدرجة أنه سعيد للعودة بسلع جديدة H. Yule - The Book of Ser Marco Polo 3 rd . ed. By H. Cordier, loc. Cit., vol. II, p. 235.

(١٣٢) See Rachid , Description de la Chine sous la dynastie mongole , traduite du persan et accompagnee de notes , par Klaproth , J. Asiat., serie II, vol. XI, 1833, pp. 341 et seq. Also Le livre de M. Polo , ed. By J. Pauthier, Paris 1865 , pp. 342 and 381.

(١٣٣) See Ian Batoutah , Voyages (text and transl. on same page) , loc. Cit., t. IV , pp. 88-89 and 100.

(١٣٤) لقد سلك البولوز طريق البحر فى (١٢٩٢ - ١٢٩٤) فى رحلتهم للعودة عندما اصطحبوا أميرة من اليون إلى الخان فى إيران .

(١٣٥) مقالة و. ف مايرز فى المحلة الصينية (China Review) المجلد الرابع، العدد الثالث ١٨٣٥ - ١٨٧٦، ص ١٨٦ - من الشيق أن نشير إلى قيام شنغهاى التى كانت فى الوقت الحاضر أكبر مراكز الصين لم يكن هذا الميناء مدينة رسمية حتى عام ١٢٩١ ميلادية انظر E. H. Parker , China, her History etc. loc. Cit., p. 71.

(١٣٦) لقد قبلت الغالبية العظمى من الدارسين هذا التحديد لكن يرى فيليس أن شانج شو كان عنده رأى أفضل بأن تكون زيتون العصور الوسطى ورغم التوثيق العظيم الذى وضعه المؤلف الأخير لتأكيد رأيه، ويبدو أن قمة الدليل كان على الجانب الآخر لمعرفة رأية انظر مقاله فى :

(١٣٧) See Yule-Condier, The Book of Ser M. Polo, loc. Cit., vol. 11, pp. 234-245, Particularly text on on p. 235 and note 2 on p. 237.

(١٣٨) Voyages d'Lbn Batoutah, loc. Cit., t. IV, p. 269.

(١٣٩) For transl. see Yule-Condier, Cathay , ibid., vol. 11, pp. 179-80.

(١٤٠) Under the Later Sung, it served as capital under the name of King-sse capi tal city) , from which khinsa and Quinsay were evidently derived. See Klaprote, Rachid Eddin ì etc., loc. Cit., (J. Asiat., serie 11, t. XI) , pp. 45607 ; also La livre de M. Polo, ed. Pauthier, loc. Cit., pp. 49-2.

(١٤١) Pauthier, ibid., p. 492. Yule-Cordier, The Book ì etc., ibid. vol. 11, p. 185.

(١٤٢) Voyages, ibid., t. IV, p. 284. Oderic gives a similar statement, see transl. in Yule-Cordier, Cathay, ibid ., vol. 11, pp. 192-3.

(١٤٣) Ibn Batoutah, Voyages ì etc., loc. Cit., t. IV, p. 285.

(١٤٤) Ibn Batoutah, Voyages ì etc., loc. Cit., t. IV, pp. 292-3.

(١٤٥) لحديث ابن بطوطة عن زيارته إلى الصين انظر النسخة الفرنسية فى رحلاته، نفسه، المجلد الرابع ص ص ٢٥٤ - ٣٠٣ وأيضا الترجمة الانجليزية فى يول Yule Cathay نفسه المجلد الرابع ص ص ١٠٨ - ١٤٥ .

(١٤٦) عن قصة شنج هو (مع إشارة إلى سيلان التى وصلت منها الجزية إلى الصين خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر وحتى عام ١٤٥٩ ميلادية انظر أيضا ه. بيل هو كوردير Cathay نفسه. المجلد الأول ص ص ٧٦ - ٧٨ .

(١٤٧) لقد جلبوا البرسلين والحرير والعاج والسلع الغالية انظر المقريزى وترجمته فى ى كوتريمر Quatremre " Memoires ì Sur l' Egypte, loc. Cit., t. II. Pp. 290 -1.

(١٤٨) E. Bretschneider, On the Knowledge ì, loc. Cit., pp. 19-20.

(١٤٩) E. Bretschneider, ibid., pp. 17-22, where he gives further details on the peoples and trade of S. W. Asia.

(١٥٠) E. Bretschneider, ibid., p. 17 ; also the same author's article on Notices of the Mediaeval Geography and History of C. and W. Asia in the J. of the N. China Branch of the R. Asiat. Soc., New Series No. 10, 1875, pp. 293-4.

(١٥١) هناك شك بسيط أن هذا الرقم لا يشتمل على العديد من الضرائب العليا التى أشرنا إليها بالفعل انظر فيدسويرا فى فصل جديد هامش رقم ٢ فى ص ١٨٦ والنص المقابل .

(١٥٢) Translated in E. Quatramene , Memoires ì etc., loc. Cit., t. 11, pp. 291-2. Also for struggle between Adan and Djuddah (Djedda) see A. Kammerer, la Mer Rouge ì etc., loc. Cit., t. 1, pp. 65-66.

(١٥٣) See W. Herd , Hist du commerce du Leuant , loc. Cit., t. 11, pp. 446-7.

(١٥٤) هذه حالة نمطية عن الفرق بين شعوب أرض حشائش الاستبس الحقيقية وشعوب الصحراء والاستبس الفقيرة. فبينما يمكن للأولين الاعتماد كلية على البداوة يجد الآخرون من الضرورى أن يرتبطوا بشئ آخر كالتجارة، وفى هذا المقام من المفيد أن نتذكر أنه عندما فتح فرسان المغول الطريق البرى شمال شرق الاستبس (أرض السهول) لم ينقلوا التجارة بأنفسهم ولكن تركوها للأوربيين

والتجار الآخرين من الشرق الأدنى. وكانت كمية التجارة التى قامت بها شعوب صحراء والاستبس فى الجزيرة العربية تعتمد على ظروف أراضى المراعى والتى من المفترض أنها قد تأثرت بالتغيرات المناخية الممكنة .

(١٥٥) See G. Phillips, Two Mediaeval Fuh-kien Ports, loc. Cit., in T'oung Pao, series 1, vol. VI, 1895, pp. 456-8.

(١٥٦) انظر ج فيليبس نفسه ص ٤٥٢ وأيضا ى. هـ باركر: الصين وتاريخها ... إلخ نفسه ص ٣٥ - يحتفظ اليابانيون منذ القرون الاولى للعصر المسيحى بقدر معين من التجارة الشرعية مع سواحل شمال الصين وفوكين، ويبدو أنهم كانوا مشغولين فى القرصنة خصوصا خلال فترات الضعف النسبى للصين .

(١٥٧) F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-Kua, loc. Cit., introd. P. 19.

(١٥٨) Chau Ju-Kua, ibid., introd. P. 20, also F. Hirth's article on Chao Ju-Kua, in J. R.Asiat. Soc., loc. Cit., pp. 70-1. In an article in T'oung Pao (serie 11, vol. XV,no. 3, July 1914) , W. Rockhill points out that the monopoly in its strict form was applied only to the so-called 'fine' class of goods (such as precious stones, rhinoceros horn l, etc.) rather than to the 'course' goods. Reference on pp. 419-20. We shall presently see that the monopoly system was a little modified about 994 A. D. and afterwards.

(١٥٩) Idem, Chau Ju-Kua, p. 19 and article on Chao Ju-Kua in Journal of the Royal Asiat. Soc., p. 70.

(١٦٠) يتناسب التطور فى الموانى الشمالية مع الفكرة التى اقترحناها بالفعل للتحول الشمالى لمدخل البحر فى الصين خلال فترات الكلاسيكية والعصور الوسطى المتأخرة من خليج تونج كنج نحو كانتون فوكين وخليج هانج شو وأخيرا مصبات أنهار يانج تس. انظر فيدسوبرا الفصل الثالث هامش ٣ ص ١٢٣ .

يجب أن يكون واضحا مع هذا أن مثل هذا التغير لم يكن عاما وأن كانتون لم تفقد أهميتها وفى زمن ابن بطوطة (١٣٤٥ ميلادية) أعيد تجديده كمركز عظيم للتجارة (رحلات ابن بطوطة المجلد الرابع، ص ص ٩٢، ٢٧٢، ٢٧٣ ومرة ثانية أثناء الحقبة الحديثة من التجارة الأوربية مع الصين، قامت بأهم النقاط الأولى فى هذا الاتصال .

(١٦١) E. H. Parker, China ; her Hist., Diplomacy and Commerce, loc. Cit., p. 53 ; also F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-Kua, loc. Cit., introd. P. 20.

(١٦٢) G. Phillips, Two Mediaeval Fuh-Kien Ports in T'oung Pao, Vol. VI, 1895, p. 450 ; also F. Hirth's article on Chao Ju-Kua in J. R. Aiat. Sopc., loc. Cit., p. 69.

(١٦٣) F. Hirth, in J. R. Asiat. Soc. Ibid., p. 71.

(١٦٤) F. Hirth, Ancient Porcelain : A Study in Chinese Mediaeval Industry and Trade, reprinted from the J. of the China Branch of the R. Asiat. Soc., 1888, pp. 58-9.

ملحق للفصلين الثالث والرابع

بعض سلع التجارة[١]

تصنيف مفردات السلع

مقدمة

وسيلة مقترحة لمعالجة قوائم السلع فى العصور القديمة والوسطى

تمت الإشارة بصورة عارضة فى الفصلين السابقين إلى السلع التى يتم تبادلها فى التجارة خلال ما يسمى بالفترات الرومانية/ الإغريقية، والعربية / الإيرانية، وربما يكون من المفيد الحديث عن تفاصيل بعض أصناف السلع كإضافة لعرضنا (لدراستنا)، ومع ذلك فإن إعطاء القصة الكاملة للعمليات التجارية الخاصة بمختلف السلع يحتاج إلى دراسة متخصصة، وهذا يخرج عن مجال الدراسة الجغرافية الأصلية. وتزداد المشكلات نتيجة النقص الكامل للمعلومات الإحصائية عن تجارة العصور الوسطى والقديمة، وفى هذا المقام فكل ما نعرفه اشتق بشكل غير مباشر مما عرفناه عن أشياء مثل ميزان التجارة فى الإمبراطورية الرومانية [٢] وحجم قوافل التجارة والسفن والأساطيل التجارية التى تعمل فى هذه العملية[٣] وأيضا القوة المالية وثروات بعض الشركات العربية فى العصور الوسطى[٤] فضلا عن إشارات أخرى يمكن أن نجدها مبعثرة فى الوثائق الصينية عن التجارة فى بعض السلع القديمة[٥].

وفى غياب أى من المعلومات المحددة، سنظل راضين بالدلالات السابق ذكرها بخصوص الكمية الضخمة نسبيا من التجارة التى كانت تتم بين الشرق وغربى آسيا خلال الفترات محل الدراسة .

وتقتصر فى الفقرات التالية دراستنا على مظهرين للتجارة يمكن الحصول على بيانات ممكنة فيها، وسوف نرسم فى المقام الأول إطارا عاما للتوزيع الجغرافى للسلع، ويعنى هذا الدراسة الموسعة لمناطق الإنتاج والاستهلاك لأهم السلع المختلفة فى التجارة، وفى المقام الثانى المظهر المتطور فى التجارة لبعض أصناف السلع، أو بمعنى آخر القيمة النسبية لبعض السلع ونسبتها إلى التجارة الكلية خلال الفترات المتتالية للعلاقات التجارية، والتى سوف نعالجها بالتفصيل. وسوف يتم تركيز خاص على التغيرات التى تمت بين الأقاليم الرومانية / الإغريقية والإيرانية/ العربية بسبب التغيرات التى كانت تحدث حينئذ، إما فى مناطق الإنتاج أو فى أذواق ومتطلبات المستهلكين. وسوف نربط سويا هذين المظهرين، بغرض وضع تصنيف أكثر انسجاما . وتقسم السلع التى تعالجها إلى خمسة فئات رئيسية:

١- الحرير والمنسوجات .

٢- المعادن ومصنوعات أخرى .

٣- التوابل والسلع العطرية والعقاقير .

٤- اللآلىء وسلع الزينة .

٥- تجارة الرقيق (على قدر اهتمام الشرق الأقصى) .

ومن المأمول أن هذه الطريقة فى التفسير ستعالج مجموعات السلع وتوزيعها الإقليمى أكثر من قوائم الصادرات والواردات فى دول منفصلة وستكون أكثر ملاءمة للمعالجة الجغرافية الأولية من هذا النوع، وعلى أية حال ستساعد على فهم الأدوار المعنية للعوامل البشرية والجغرافية فى إنتاج وتبادل مختلف السلع خلال مناطق التجارة القديمة والوسيطة(٦).

أولا : الحرير والمنسوجات

بداية تجارة الحرير – إنتاج الحرير الخام، تغير فى مناطق الإمداد فى العصور المبكرة – انتشار تربية دود القز من شرق إلى وسط وغربى آسيا – تجارة الحرير والاتصال بين شرقى وغربى آسيا – المنسوجات الأخرى بخلاف السلع الحريرية .

تعد صناعة الحرير ومنسوجاته أهم السلع النسيجية، وليس هناك جدال حول قدم تربية دود القز فى الصين، وهناك اتفاق عام بأن تربية دود الحرير، قد نشأت هناك، وثبت ذلك من تقارير الأساطير الصينية التى ربما تعود إلى مرحلة الأساطير فى تاريخ المملكة الوسطى. وطبقا لأحد الأساطير أجبر الإله تسيشن (TSCHIN) الدودة لإنتاج خيوطها الذهبية لكى تدخل البهجة على قلوب الجنس البشرى، وبينما تقول أسطورة أخرى بأن الدودة صنعت أول شرنقة فى حواجب عين عذراء جميلة(٧) ويعزى مصدر آخر أكثر ثقة اختراع، واستغلال، ومعالجة الشرانق، والخيوط إلى لى تسوا(lei - tsu) زوجة الإمبراطور الأسطورى هوانج تى فى الألف الثالثة قبل الميلاد، والذى جاء أساسا من الغرب(٨) وقد أوصلت صناعة الحرير إلى مرحلة عالية من الكمال، ولم تدرس فقط تربية ديدان الحرير ولكنها شاركت أيضا بنفسها فى تطوير منسوجات الحرير بتطعيم النسيج بأشكال الزهور والطيور، وهنا تقول نفس الأسطورة كان الناس يرتدون الجلود ولم يكن النسيج فنا معروفا(٩) ومهما كانت القيمة الدقيقة لهذه القصة (الرواية) فمن المعقول أن نستخلص منها أنه رغم أن فن نسيج خيوط الحرير هو صناعة صينية، وإن كانت إلى حد ما تأثرت بفنون أخرى مشابهة فى المراكز الغربية للحضارة القديمة .

وعلى أية حال لم تحل المنسوجات الحريرية محل الأقمشة القديمة (الجلود) التى استخدمها الصينيون القدامى للملبس فحسب، بل أصبحت أهم وسيلة للتبادل مع العالم الخارجى، ولقد رأينا بالفعل أنه من مصطلح (الحرير) See فى الصينية وSir فى الكورية أن شعب الشرق الرومانى أطلق تعريف سيرز Seres على شعوب

وتجار شمال الصين وأجزاء من آسيا الوسطى[١٠] وهناك من الأسباب ما يجعلنا نفترض أن الحرير الصينى كان معروفا فى العالم الهلينستى فى أوائل عصر هيرودوت، وما يسمى (المنسوجات المتوسطة (Medic Textile) فى كل الاحتمالات هى من أصل صينى[١١] وأن السلع المنسوجة فى جزيرة كوس (Cos) قبل القرن الرابع ق.م. كانت أيضا مصنوعة من حرير خام، ولم تكن من إنتاج الشرق الأدنى حتى ذلك التاريخ المبكر[١٢] .

ومن هذا فإن أول إشارة محددة لاستخدام المصنوعات الحريرية فى غربى آسيا لم تبعد كثيرا عن زمن الإسكندر الأكبر، ويقال إن نيروكس القائد (أدميرال) قد ارتدى ملابس منسوجة من الحرير فى إيران (فارس)، بينما أستاذه أرسطو يعطى أول تقرير دقيق عن الحرير فى الأدب الكلاسيكى[١٣] وصارت الإشارة إلى الحرير المستورد من الشرق الأقصى أكثر شيوعا لدى كل الأباطرة الأوائل (أغسطس وخلفائه) رغم أن المنسوجات التى استخدمت هذه المادة ظلت غالية جدا لفترة معقولة من الزمان، وكان يرتديها الرعايا الأثرياء وأعضاء الأسرة المالكة، وكما رأينا بالفعل كانت التجارة فى ذلك الوقت فى أيدى الوسطاء الذين كانوا يتقاضون عشرة أضعاف السعر الأصلى للسلع[١٤] ويشير جهل المؤلفين الرومان والإغريق بطرق إنتاج الحرير إلى حقيقة أن العلاقات بين الشرق الرومانى والدول التى تنتج هذه المادة كانت تسير بشكل غير مباشر، ويتعجب فيرجيل (٧٠ ق.م - ١٩م) من الطريقة الغامضة التى يبنى بها السرر (الصينيون) الخيوط الدقيقة من أوراق الأشجار، بينما لا يعرف بلينى الأكبر Pliny كثيرا عن الدودة أكثر من أرسطو الذى كتب عن هذا قبله بأربعة قرون[١٥] ومع هذا يجب أن نذكر أنه رغم وصول الحرير من الشرق بطريقة غير مباشرة، فإن استخدام شعوب الشرق الأدنى له كانت تزداد بسرعة .

وقد تأسست مراكز لتسويق وتصنيع هذه الخامات وخاصة على الساحل السورى من الإمبراطورية الرومانية (تاتسين) - وبسبب التطور البسيط فى الطرق البحرية بين غربى وشرقى آسيا خلال القرون الوسيطة من فجر العصر المسيحى،

فإن الجزء الأكبر من المادة الخام كان ينقل على طول طريق الحرير المشهور فى العصور الكلاسيكية، ونفهم من بلينى وبعض الوثائق الصينية الحقيقة المتعة بأن المنسوجات الصينية المستوردة من الشرق الرومانى كانت تنسل ويعاد نسيجها فى أشكال مختلفة لتناسب ذوق المستهلكين المحليين[١٦] وقد بلغت فنون النسيج والتصميم والصباغة فى مدن صناعات النسيج فى العالم الهلينستى درجة عالية نسبيا من الإتقان، ومع هذا فإنه منذ حوالى القرن الرابع الميلادى وما بعده يبدو أن مركز صناعة النسيج قد تحول تدريجيا ناحية الشرق إلى المدن الإيرانية فى سوس وتوشتر ...إلخ حيث اضطرت أسر كثيرة من الصناع اليونانيين إلى الاستقرار بعد القبض عليهم فى الحرب بين الرومان البيزنطيين والساسانيين[١٧] وبدأت المدن الصناعية فى الهلال الخصيب تسترد جزءا من عظمتها السابقة بعد تطورها فى ظل الخلافة الإسلامية، وعلى أية حال يبدو أنه فى ظل الإمبراطورية العربية وطوال العصور الوسطى توزعت وانتشرت مصانع النسيج والحرير فوق السهول الشمالية لشرق الجزيرة العربية، وغرب وشمال غرب الهضبة الإيرانية، وكان الإنتاج الكلى لهذه المصانع يفوق الاحتياجات المحلية، ويسمح بالتصدير إلى أسواق أوربا وبعض الدول الأخرى فى الشرق. وقد حدثت عدة تغيرات ممتازة فى توزيع المناطق التى تمد العالم بالحرير الخام طوال الفترات محل الدراسة، وحسب أحد المؤلفين الصينيين (ماتولين) كان توزيع المنتجات الرئيسية داخل إمبراطورية الهان خلال القرن الأول قبل الميلاد يسير على النحو التالى " مناطق اللانج والشو أى المناطق الحالية فى كانو وتسن سى وسيزشوان وهى مناطق معروفة بالملابس الصوفية، وكبريت الزئبق، أما فى شينج ويانج فى هوبية الحالية، وكيان سو على التوالى فقد عرفت بالجلود الطبيعية والجلود المصنوعة بالإضافة إلى كوهسيانج فى صناعة العاج والعظام. وكانت كيانج نان تقدم بعض أنواع الأخشاب وسهام البامبو، وقدمت ين وتشين تشهلو وشانتونج الأسماك والفراء والسجاد، أما أحياء ين يو، وهو أى شانتونج، وكانسو فكانت تقوم بتلميع وصقل الملابس المصنوعة من الحرير والقنب والأعشاب[١٨].

وتقدم هذه القائمة المقاطعات التى تخرج منها مختلف صادرات الصين، وخاصة أنها تكشف حقيقة مهمة وهى أنه خلال المراحل الأولى للتجارة الصينية مع العالم الغربى كان الحرير الصينى يصدر بشكل كبير من منطقة الشمال والشمال الغربى[١٩] ومن جهة أخرى عرفنا من أبى زيد Zayd، والمسعودى أنه خلال الثورة التى قامت فى عام ٨٧٨ ميلادية فى المقاطعات الساحلية من شيكيانج، وفوكين، وكونج تونج أنه قد تم قطع أشجار التوت، وتوقفت إمدادات الحرير الصينى فى الأسواق الغربية (لبعض الوقت)[٢٠] .

ويمكن أن نفسر بسهولة تحول المنطقة التى يصدر منها الحرير الصينى من مناطق الشمال والشمال الغربى إلى الشرق والجنوب الشرقى على أساس أنه خلال الفترة الرومانية / الإغريقية كانت أهم المراكز الرئيسية للتجارة فى آسيا الوسطى وجنوب شرقى التبت، بينما فى الحقبة الإيرانية /العربية كان اقتراب التجار الأجانب من الصين عبر البحار الجنوبية والجنوبية الشرقية. ولكن يجب أن نتذكر أيضا أن التغير الذى حدث خلال الفترة العربية / الإيرانية كان مقصورا على الصين نفسها، وكانت الحكومات الإمبراطورية فى الصين مهتمة بتجارة الحرير حتى القرن الخامس م.لدرجة أنهم حاولوا منع سر إنتاجه من الوصول إلى المستهلكين الغربيين[٢١] كما تمت حراسة الحدود الشمالية بكل حرص وتم بشدة منع تصدير ديدان الحرير أو بيض الدودة، وحتى الفترة التى نعتبرها الجزء الأول من القرن الخامس (حوالى ٤١٩ ميلادية) دخلت ديدان القز الحريرى سرا فى إقليم أوثيان (كوتان)[٢٢] وحسب المصادر الصينية طلب ملك هذه الواحة يد أميرة صينية للزواج، وسمعت الأميرة أن بلد زوج المستقبل لا يمتلك الحرير، فأخفى بعض الديدان فى قبضتها، ومر عبر الحدود دون أن يشك فيه أحد من موظفى الجمارك[٢٣].

وفى الحال أصدر الملك أوامر بالتربية الحريصة للديدان، وحفر على الحجر أنه يمنع قتلها(٢٤) وكانت كوتان معروفة عند العرب باسم سيريندیا (الفصل الثانى) وصارت بسرعة مركزا لإنتاج الحرير وصناعته، ومنذ ذلك الوقت انتشرت صناعة

الحرير تدريجيا فى واحات غرب تركستان ومختلف أجزاء الشرق الأدنى، وعلمنا من بروكيبوس أنه فى عام ٥٥٢-٥٥٤م أحضر اثنان من القساوسة النسطوريين المقيمين فى سيريندا إلى بلاط الإمبراطور جوستنيان بيض الديدان التى حملوها داخل بضاعتهم[٢٥] وزع الإمبراطور أشجار التوت، وتبنى ودافع عن الصناعة الجديدة، وفى ظل كل من الأباطرة البيزنطيين فى إمبراطورية الشرق الرومانى، والساسانيين المتأخرين فى فارس، تشجعت تربية دودة القز بالتدريج، وانتشرت الصناعات الحريرية، واستمرت عملية الانتشار لصناعة الحرير غربا حتى أنها فى خلال الجزء الأول من الألف الثانية بعد الميلاد بصفة خاصة بلغت صقلية والحوض الغربى للبحر المتوسط[٢٦] ازدادت كثيرا منتجات غربى آسيا خلال الجزء الأول من العصر الغربى بسبب التطور الكبير فى تربية دودة الحرير وكذلك فى واحات غرب تركستان (جنوب بحر قزوين)، ويتحدث ابن حوقل فى القرن العاشر عن المناطق الأخيرة (مرو أو ميرفى) وطبرستان) باعتبارها مناطق معروفة لإنتاج الحرير وصناعته،[٢٧] وعلى الرغم من هذا فإن الإنتاج المتزايد لدول البحر المتوسط والشرق الأوسط والأدنى كان كافيا لتغطية المطالب المتزايدة لهذه السلعة، ورغم أن البعض كان يحرم سواء فى الجزء الأخير من الفترة الرومانية وأوائل الجزء الأول من الحقبة الإسلامية صناعة ولبس الملابس الحريرية (باعتبارها غير محببة للرجال وتفضيلهم لها للبس النساء فإنه لم يتوقف استعمال هذه الأقمشة الجذابة ، وقد أعطت السياسة الرسمية فى بلاط الساسانيين والبيزنطيين وبعد ذلك فى العصر الأموى والعباسى دافعا قويا لصناعة الحرير وتجارته، كما أن قيام الدول الناشئة الجديدة فى أوربا فيما وراء البحر المتوسط والمكانة القوية التى تمتعت بها الكنيسة خلال الجزء الأول من العصور الوسطى، كل هذا زاد من الطلب على الحرير كملبس للنبلاء ولتزيين أماكن العبادة. وحقا يمكن أن نقول بكل أمانة إنه رغم تصدير الحرير من شمالى وغربى الصين قد تناقص تدريجيا خلال فترة التجارة العربية الإيرانية والفارسية فلم تتوقف إطلاقا تجارة الحرير فى المقاطعات الساحلية من الإمبراطورية الصينية التى تورد إلى الدول الغربية - إن العبارات التى وردت فى أبو زيد والمسعودى تعطى دليلا قاطعا على

اعتماد غربى آسيا على الصين كجزء أكثر أهمية لإمداده الحرير خلال الجزء الأخير من القرن التاسع .

ويذكر المؤلفون العرب مرة ثانية أن تصدير السلع الحريرية المصنوعة كان من الصين إلى الشرق الأدنى وأجزاء أخرى من العالم، كما يتحدث ابن بطوطة الذى كتب فى القرن الرابع عشر عن الساتان (الزيتونية) المشهور والقانساوية والكانيلكية من السلع الحريرية المصنعة فى زيتون (تسوان شو، شون شو) وكانسا (كينج تسى وهى وهانج شو الحديثة) وكانباليك (بكين) على الترتيب (٢٨) وربما نستخلص من ملاحظاته أنه فى زمانه شكلت صناعات الحرير دورا مهما فى صادرات الإمبراطورية .

وفى الحق فإن الذى حدث خلال عصر التجارة العربية هو أنه بدلا من أن يظل الحرير السلعة المهمة الوحيدة فى صادرات الصين إلى الغرب، كما كان الأمر خلال كل العصر الرومانى الإغريقى فقد الحرير تدريجيا مكانته المسيطرة، وصار فقط واحدا من صادرات مهمة عديدة فى المملكة الوسطى.

وكما سنرى بعد فترة قليلة فقدت تجارة الحرير مكانتها بالنسبة للسلع الأخرى مثل البورسلين من ساحل فوكين.

ومع ذلك إذا استثنينا الحرير فإن المنسوجات الأخرى من القماش الذى كان يتم تبادله بين الصين وغربى آسيا لا يذكر، ومع ذلك نلحظ من بين هذه السلع المصنوعة من الصوف المصدرة من منطقة الشمال والحد الغربى للصين .

وكان يتم نقل كميات بسيطة من هذه السلع على طول آسيا الوسطى، ومعظمها يشتريه شعوب غرب تركستان، ولكن الأكثر أهمية من هذه السلع الفراء من غرب الصين والتبت والتى تأتى عبر الهند إلى أسواق الشرق الأدنى(٢٩)، ومن جهة أخرى كان يتم نقل السجاد من إيران إلى واحات تاريم وربما أيضا إلى الصين نفسها، أما بالنسبة للسلع القطنية فلا يذكر إلا القليل بخصوص تجارتها مع الصين.

وخلال فترات الكساد التجارى والمالى كانت السلع القطنية المنتجة والمصنعة فى منطقة جوجارت تنافس بجدارة مع الصناعات الحريرية غالية الثمن من الصين .

وكمثال نمطى لهذا يمكن أن نلاحظ أنه نتيجة لانهيار القوة الشرائية فى روما خلال الجزء الأخير من العصر الرومانى فإن تجارتها مع شمال الهند زادت كثيرا على حساب علاقاتها التجارية مع الشرق الأقصى .

ومع هذا فهناك شك بسيط فى أن التجارة بين الشرق العربى والشرق الأقصى خلال الفترات محل الدراسة الحالية، ظلت تجارة الحرير وصناعته كأهم سلعة فى قائمة النسيجيات .

ثانيا : المعادن والمصنوعات الأخرى

الحديد، القصدير، الزجاج، البروسلين

حديد الصين فى العصور القديمة والوسطى

حديد الملايو والإمداد العالمى والصناعات الزجاجية فى الشرق الأدنى وصناعة البروسلين فى الصين

سوف نقصر ملاحظاتنا بالنسبة للمعادن حول معدنين، ونعنى بهما الحديد والصفيح ومن المحتمل أن يكون الأول واحدا من أقدم السلع المصدرة من الصين إلى الغرب .

وبدون أن نلمس السؤال الصعب عما إذا كانت صناعة خام الحديد فى الصين اختراعا محليا أو دخل من الغرب عبر الهند، كما كان مقترحا(٣٠) فإننا نعتبر هذا الفن على اعتبار أنه استقر تماما فى شمالى وغربى الصين بعد انتشاره بفترة قصيرة فى مختلف دول الشرق الأدنى .

وكان هذا الجزء من الصين ولا يزال غنيا بعامة بالحديد الخام، وكانت الدولة تحتكر الصناعة القائمة فى مرحلة مبكرة جدا فى القرن السابع ق.م إذ إنها من بين

أسباب أخرى مصدر قيم للدخل[٣١] ومن بين المصادر الأولى التى تشير إلى تصدير الحديد من الصين إلى الشرق الرومانى، ما قدمه بلينى (توفى ٧٩ م) فقد ذكر أن الحديد الصينى كان معروفا بشكل أفضل فى الأسواق الرومانية، وجاء بعده فى الترتيب الحديد المستورد من بارثيا[٣٢] ومنهم من يرى (هـ. وارمنجتون) أن ما يسمى حديد الصين الذى تحدث عنه بلينى لم يتم الحصول عليه من الصين، ولكن من مملكة شيرا (Chera) فى الهند والتى كان التجار اليونانيون من الإمبراطورية الرومانية قد اعتادوا زيارتها[٣٣] ولكن ليس لدينا أساس لقبول هذا الرأى، ونحن نميل إلى إهماله كلية، ولقد علمنا من أبو الفدا أنه حسب التقاليد فإن المرآة التى شيدها البطالمة فى قمة منارة الإسكندرية كانت مصنوعة من حديد الصين[٣٤].

وهذا يؤرخ لبداية تصدير الحديد من الصين لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة قبل عهد بلينى، واستمرت الشهرة العظيمة التى حظى بها الحديد الصينى فى الأسواق الرومانية خلال فترة السيادة العربية، ويتحدث ابن خرداذبة عن تصدير الحديد النقى من الصين من ميناء لوكاين (كاتجرا القديمة) فى خليج تونج كنج[٣٥].

ويذكر الإدريسى فى القرون الثلاثة التالية أن الحديد من بين صادرات الصين وهناك بعض الأسباب التى تدعو للاعتقاد بأن مصانع الحديد فى دمشق والمدن الأخرى فى سوريا المعروفة فى كل أنحاء العالم خلال العصور الوسطى، قد استفادت من استيراد حديد الصين النقى، والذى زاد من نوعية وكمية منتجات الحديد المحلى المستخرج من مناجم الشرق الأدنى .

وكان القصدير هو المعدن الآخر فى التجارة والذى كان أكثر قيمة من الحديد ومع هذا فإن قصة تجارته فى العصور القديمة والوسيطة أكثر بساطة. ونعرف أنه فى ظل الرومان شكل هذا المعدن أحد المواد التى حملها التجار الغربيون إلى الشرق (خاصة الهند) وتبادلوه مع المنتجات الشرقية التى جلبوها إلى بلادهم[٣٧] ومع هذا فإن الانهيار التدريجى فى نشاط التنقيب وبالتالى الكميات المتوقعة فى الإمبراطورية الرومانية أدى إلى انخفاض الكمية المصدرة إلى الشرق. بينما أدت زيادة التنقيب

وتصدير هذا المعدن من الهند والملايو إلى تعويض هذا الانخفاض وتتفق كل الوثائق على أنه خلال فترة السيادة العربية جاءت كل إمدادات العالم جميعها من المنطقة الأخيرة. وصارت كالاه Kalah كيداه على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو أعظم مركز لتسويقه حيث يوزع منه إلى مختلف أجزاء العالم(٣٨) ومن المفيد أن نذكر أن التغير الذى حدث فى نهاية الحقبة الرومانية الإغريقية فى مناطق إنتاج القصدير لا تزال سائدة .

ونعود الآن إلى السلع المصنعة وسوف نخصص فقرة أو فقرتين إلى السلع الصناعية الزجاجية والتى يتم تبادلها فى التجارة، ولا يهمنا قدم الصناعات الزجاجية فى الشرق الأدنى أثناء دراسة هذا العمل، ويكفى الآن أن نلاحظ أنه خلال الفترة الرومانية / الإغريقية / بلغت هذه السلع درجة ملحوظة نسبيا من الكمال، وشكلت صناعة الزجاج سلعة مهمة فى تجارة التصدير من الشرق الرومانى إلى مختلف دول الشرق وخاصة إلى الصين .

وقد عرفنا من أحد وثائق الصين (الويلو) أنه تم إنتاج عشرة أصناف من الزجاج فى تانس (الحد السورى للإمبراطورية الرومانية)(٣٩).

وقد حققت القوارب الصغيرة والسلع الزجاجية الملونة مثل الزجاجات، والألوان، والودع والفازات (Vases) أرباحا طائلة حققها التجار الغربيون الذين استوردوا مثل هذه السلع من المملكة الوسطى. وظلت الأسعار العالية لهذه السلع قائمة حتى نهاية الربع الأول من القرن الخامس عندما دخلت صناعة الزجاج إلى الصين .

ويقال إن إدخال الصناعة الجديدة كان من جانب أباطرة وى (Wei) فى الشمال والسونج من الجنوب، وعلى هذا فإنه من الصعب الحكم عما إذا كان الفن قد أدخل عن طريق البر (من السوريين أو البكتريين) أو على طول الطريق البحرى (عبر الصناع الهنود)(٤٠) ومهما كان الأمر يبدو أن انخفاض القيمة الشرائية لمثل هذه السلع القيمة سابقا قد زاد من استخدامها وشعبيتها – وحتى بعد تطور الصناعة

الأخيرة (من حوالى عام ٦٠٠ ميلادية وبعدها[٤١] فإن المصنوعات الزجاجية لم تتوقف صناعتها محليا أو تستورد من الخارج .

ويشير شهاب الدين فى الجزء الأول من القرن الرابع عشر إلى تصدير الزجاج المصنوع فى حلب إلى بلاط المغول فى آسيا الوسطى فى الشرق الأقصى[٤٢]. ومن المؤكد أنه خلال العصور الوسطى كان يتم تصدير كمية لا بأس بها من سلع معينة سواء من المصانع السورية أو البندقية إلى أسواق الشرق الأقصى حيث كانت تعتبر نادرة ومثيرة. غير أنه من الصعب أن نحدد بداية صناعة البورسلين، رغم أنه كما ذكرنا من قبل لم يحدث تطورها الحقيقى لم يتم حتى القرن السابع م، وجذبت بالتدريج انتباه الصينيين وأصبحت سلعة مهمة فى صادراتهم وكانت المراكز الرئيسية لصناعته فى مقاطعات شيكيانج وفوكين وكوى تونج وخاصة الركن الجنوبى الغربى للأولى وكانت لونج شوان (حوالى درجة عرض ٨ر٣٨ وخط الطول ٩ر ٤٧ر١١٩، وبعدها (فى ظل أسرة مينج) وشوشو فو (حوالى ٢٦ و٢٨ × ٤٧ْ ١١٩) وكلاهما فى جنوب غرب شيكيانج والتى تضم البضائع الرئيسية، وينقل إنتاجه برا وبالنهر إلى الموانى المهمة للساحل ومن ثم حيث يشحن إلى مختلف دول الغرب[٤٣].

يشير سليمان التاجر إلى النوع الممتاز لصلصال البورسلين الذى يصنع منه الفناجين والذى يشبه الزجاج فى دقته، ومن خلاله يمكن رؤية ظل المياه، وذلك عندما يتحدث عما رآه فى الصين فى حوالى منتصف القرن التاسع[٤٤].

وقد تم تصدير كميات كبيرة من موانى التسونج شو، وكانتون، وهانج شو ومنذ عصر تانج وما بعده وخاصة السونج المتأخرة و اليوان والمينج، هذا كما تم تصنيع البورسلين التقليدى فى بعض الاقطار الأخرى مثل الملابار وإيران ولكن السلع الصينية كانت مفضلة على الجميع - وأكد هذا أبو دولاف الذى قام برحلته إلى الصين فى حوالى عام ٩٤٠ بعد الميلاد[٤٥] وكانت سوق هذه السلع الصينية واسعة النطاق، وامتدت من الجزر الشرقية للهند فى جنوب شرقى آسيا إلى المقرب فى

المغرب الأقصى[٤٦] كما كانت هناك زلع كبيرة من البورسلين الصينى فى وقت من الأوقات، فى يورنيو وكانت تستخدم لدفن بقايا الأموات المتميزين[٤٧].

وقد استخدمت هذه السلع الصينية لمختلف الأغراض بما فيها أدوات الموائد لدى الأغنياء، فى الهند وشرق أفريقيا والدول الغربية، وتعد الاكتشافات الكبيرة من بروسلين العصور الوسطى والتى سلطت عليها الأضواء فى مختلف أجزاء الشرق الإسلامى دليلا قاطعا على السوق الواسعة لهذا المنتج عالى القيمة من إنتاج المصانع الصينية[٤٨] .

ثالثا: التوابل والعطور والعقاقير

التغيرات التاريخية فى التوزيع الجغرافى للمراكز الرئيسية للإنتاج وتسويق التوابل المسئولة عن عوامل التغير من الجنوب الغربى

نحو جنوب وجنوب شرقى آسيا، مختلف السلع العطرية والعقاقير من الملايو الهندية

والحدود الصينية - العنبر من بحار جنوب غربى آسيا

ربما تكون هذه الفئة من السلع هى أحسن ما درسه الطلاب المحدثون للجغرافيا التاريخية فى عالم الأزمنة القديمة والوسيطة، وعلى هذا فسوف نقصر ملاحظاتنا على نقطة واحدة مهمة، وربما لا تكون واضحة تماما، أى التوزيع الجغرافى لأهم المنتجات بالنسبة للدور الذى لعبته فى التجارة بين شعوب المنطقتين محل الدراسة .

يعد المركز المبكر لإنتاجها فى العالم القديم هو بلاد بونت حول خليج عدن، فمن هناك حصل المصريون القدماء على المادة الضرورية لجنازاتهم واحتياجات أخرى، وفى ظل الرومان الأوائل كان جنوب الجزيرة وسواحل أثيوبيا لا يزالان مشهورين بكثرة التوابل ومنتجات العطور(٤٩)، ومع هذا فشلت هذه المنطقة فى إشباع

احتياجات العالم الرومانى خلال الجزء الأخير من العصر الرومانى الإغريقى، وربما يعزى هذا الفشل إلى حد ما للارتفاع النسبى فى مطالب العالم المتحضر وقتئذ، ولكن المؤلف قدم بالفعل رأيا خلاصته بأن تغيرا طفيفا محتملا فى الظروف المناخية فى جنوب الجزيرة هى التى أدت إلى تدمير منتجات تلك المنطقة (الفصل الأول) .

ومع هذا فمما لا شك فيه أن المركز الرئيسى للإنتاج انتقل تدريجيا نحو الهند وجنوب شرقى آسيا. ولم يتم الحصول على نسبة معقولة من طلبات التوابل التى كانت تأتى من الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، يتم الحصول عليها من الهند والملايو فحسب، وإن ظهرت أيضا أنواع جديدة فى السوق[٥١].

وكان إنتاج جنوب الجزيرة مقصورا على أنواع التوابل والبخور التى تتحمل الجفاف النسبى، ومن هذه لا تزال كميات صغيرة تصدر فى ذلك الوقت إلى الدول المختلفة فى الشرق، ومن جهة أخرى حقق ساحل مالابار أهمية كبرى كمركز لإنتاج وتسويق التوابل، وعلى وجه الخصوص الفلفل، وكانت هذه السلعة تصدر إلى كل من دول الشرق الأدنى (وأخيرا إلى أوربا) وإلى الصين. ومع هذا فإنه فى أسواق الصين، فقد كان المنتج الهندى يلقى منافسة كبرى من مثيله فى جزر الهند الشرقية، ويبدو أن استهلاك الصين للتوابل من الملايو والهند (خصوصا الفلفل) كان أكبر كثيرا خلال العصور الوسطى مما هو عليه فى الوقت الحاضر[٥١].

ويقول ماركوبولو عندما يتحدث عن ميناء زيتون أتسون شو أو شوان شو أستطيع أن أؤكد أنه فى مقابل سفينة واحدة محملة بالفلفل تذهب إلى الإسكندرية أو أى مكان آخر من العالم المسيحى تأتى مائة سفينة أو أكثر أيضا إلى مرفا الزيتون[٥٢] ويقدر ماركوبولو حمولة المراكب الصينية بعدد سلال الفلفل التى تحملها[٥٣] وكان الجزء الأكبر منه فضلا عن التوابل الأخرى كانت تأتى من الملايو وجزر الهند الشرقية[٥٤].

وكتب جيوفانى دميولى فى عام ١٥١٥ عن الصين من كوشن يقول، تحمل السفن التوابل من هناك إلى الصين من هذه الأقطار، وفى كل عام يذهب إلى هناك من سو مطرة ٦٠٫٠٠٠ قنطار من الفلفل و ١٥٫٠٠٠ أو ٢٠٫٠٠٠ ألفا من كوشين ومالابار ... بالإضافة إلى الزنجبيل، وجوزة الطيب والبخور، ونبات الصبر، وقماش القطيفة، ورقائق الذهب، والمرجان، والمنسوجات الصوفية، وغيرها[٥٦].

ولقد استمرت تجارة التوابل التى قام بها الصينيون وتجار الهند والملايو والعرب من جنوب شرق آسيا إلى البرتغاليين وغيرهم من الأوربيين الأوائل، ويمكن أن نتتبع الانهيار الحالى فى الواردات الإجمالية لمثل هذه السلع فى الصين إلى فترة انهيار العلاقات الدولية التى نجمت عن سياسة الباب المغلق التى مارسها حكام المنج الأواخر وأوائل المانشو[٥٦].

ويمكن أن نلحظ أيضا باختصار ارتباطا مع البخور العديد من السلع العطرية والعقاقير ومن هذه السلع خشب الصندل ونبات الصبر التى يتم الحصول عليها من الملايو، وكوشين الصين، وتصدر إلى كل من الصين وغربى آسيا[٥٧].

لقد ميز العرب بين نبات الصبار من خيمار (Qimar) وهى إقليم الخمير فى كوشين الصين، وهذا الذى يأتى من سانف (Sanf)أو ساناف، تشامبا أو شامبا فى كامبوديا وجنوب أنام (Annam) وكانت الأخيرة أعلى قيمة من السابقة[٥٨] ويتحدث ابن سعيد عن تصدير السانافى (Sanafi) (سانفى) لنبات المر الصينى والذى لم يتركه الأباطرة (هذه السلع القيمة) للآخرين الذين يطلبونها.[٥٩] ورغم أنه نقلت كميات كبيرة إلى أسواق غربى آسيا[٦٠].

وقد عرفنا من التاجر سليمان أن البلاط الملكى فى الصين كان واحدا من الزبائن الرئيسية لهذه السلعة[٦١]، ومن جهة أخرى فإن المسك (إنتاج حيوانى) (*) يتم

(*) مادة رائحتها عطرة ونفاذة تؤخذ من غدة تحت جلد البطن لبعض الغزلان، يطلق عليها إيل المسك (المترجم).

الحصول عليه من داخل القارة (التبت)، سوجديانا، والصين) ويصدر إلى دول البحار الغربية والجنوبية. ويحسب المؤلفين العرب مثل (القرن التاسع) فإن أجود إنتاج جاء من التبت ويليها سوجدياني والصين(٦٢)، ولا تزال التبت دائما المصدر الرئيسي لهذه المادة العطرية(٦٣) كما كانت نفس المنطقة من حدود التبت (شرق وشمال التبت) وأيضا المديريات شمال وغرب الإمبراطورية الصينية أهم مصادر ما يسمى روناد (Rawnad) العرب أو رباب الذى يستخدم للأغراض الطبية(٦٤) وهناك منتج آخر من داخل الصين ولكن لم يتم إدخاله فى تجارة العصور الوسطى بقدر ما له من قيمة ألا وهو الشاى، وكانت أول إشارة ممكنة له فى الوثائق العربية التى ذكرها سليمان التاجر (٨٥١ بعد الميلاد) والذى يعطينا التقرير التالى :-

" يحتفظ الإمبراطور لنفسه بالدخل الذى يخرج من مناجم الملح، ومن عشب معين يشربه الصينيون مع الماء الساخن ويباع منه كميات ضخمة فى كل المدن الصينية وهم يسمونه ساكه، أو ساه Sah(٦٥).

وعلى الرغم من أنه من المحتمل أن الشاى كان يصدر من داخل الصين إلى وسط آسيا والولايات التركية فى بداية النصف الأول من القرن الثامن الميلادى(٦٦) ومن المفيد أن نذكر أن تقرير سليمان التاجر لا يشير إطلاقًا إلى تصديره بحرا إلى دول الغرب، وفى الحق نستطيع أن نستنتج بكل أمانة أن الشاى هو تلك السلعة التى لعبت فى العصور الحديثة دورا مهما فى تجارة الصين، ولم تكن عنصرا مهما فى التجارة خلال فترة دراستنا الحالية (٦٧) وذلك من الصمت الكامل من مؤلفى العصور الوسطى، أما عن الصادرات الأخرى من دول غربى آسيا، وفضلا عن البخور من جنوب الجزيرة وشرق أفريقيا والذى حمله التجار إلى الهند وشرق آسيا حيث كان يستخدم فى المعابد فكان العنبر(*) أهم هذه السلع - يتحدث ابن خرداذبة والمسعودى

(*) مادة ذات رائحة عطرة ولكنها تستخرج من غدد بعض الأسماك (المترجم).

عن المصائد الغنية بالأسماك التى تستخرج منها هذه المادة طيبة الرائحة فى المحيط الهندى[٦٨] ومن الوصف الأخير عرفنا أن إنتاج هذه المصائد كان أكبر من ذلك المستخرج من بحر الروم (البحر المتوسط وصقلية) أو السواحل الأسبانية[٦٩].

ويجب أن نلحظ مع هذا أن مصايد البلطيق كانت معروفة للتجار فى وقت مبكر أكثر من نظرائهم فى المحيط الهندى، ولقد ضمن الصينيون فى بداية العصر المسيحى هذه السلعة بين تلك القادمة من تاتسين، ويعتقد أنه فى ذلك الوقت فإن العنبر الذى كان يشتريه التجار الشرقيون فى أسواق الشرق الرومانى قد جاء أساسا إما من صقلية أو من سواحل البلطيق[٧٠] .

ولم يكن من الواضح حتى الجزء المتأخر من مرحلة التجارة فى الحقبة الرومانية / الإغريقية أن المحيط الهندى أصبح المركز الرئيسى لصيد أسماك العنبر وتجارته. وطبقا لآراء الكتاب العرب، فإن أهم مصايد الأسماك هى التى فى ساحل ظفار وبحر الغرقند Harqand الذى يمتد من جزر لاكاديف وجزر والمالديف إلى أندامان ونيكوبار[٧١] .

ويقوم التجار العرب والفرس والهنود بتوزيع إنتاج هذه المصايد سواء ناحية أسواق الشرق الأقصى أو فى غربى آسيا .

رابعا : اللآلىء وسلع الزينة

الدور المزدوج للأحجار الكريمة واللآلىء

(سلع التجارة والسلع الوسيطة للتبادل)

اليشم(حجر كريم) من وسط آسيا، الزمرد...إلخ من الصحراوات المصرية

مصايد المرجان واللؤلؤ فى بحار جنوب غربى آسيا

استيراد الصين اللؤلؤ وسلع الزينة الأخرى

تمثل الفئة الرابعة من قائمة السلع الأولى التى لعبت دورا مهما فى العلاقات التجارية بين المراكز القديمة فى العالم المتحضر، ولقد ازدادت أهميتها لأنها لم تعمل فقط كمادة للتجارة، ولكن أيضا كوسيط لتسهيل وتبادل الصفقات(٧٢).

ومن المعروف أن الأحجار الكريمة كالمرجان واللؤلؤ كانت تقدم كوسيلة للتبادل فى أسواق الشرق الأدنى من زمن سحيق، واستمرت الأهمية الخاصة لهذه السلع فى تجارة الشرق من الأزمنة القديمة إلى العصور الوسطى، بل وحتى الوقت الحاضر يمثل اللؤلؤ، والأصداف، والأحجار الكريمة فى دولة مثل الهند وسيلة للتبادل فى الأسواق، وكان هذا النتيجة النهائية لتقاليد طويلة الأمد للحصول على هذه الأشياء النادرة والغالية والتى لا تزال حتى الآن فى كثير من دول المشرق – ويعتبر الصينيون الأحجار الكريمة لليشم (Jade) فى وسط آسيا فى كل العصور كعلامة للقوة والعزة(٧٣).

وكانت أحجار الزمرد فى صحراء مصر الشرقية (ساقية زهورا فى تلال البحر الأحمر) معروفة منذ القدم، وفى عصر المسعودى القرن العاشر، كانت هذه الأحجار الكريمة مطلوبة فى دول تمتد من الصين إلى شمال غرب أفريقيا(٧٤).

كما لعبت مصايد المرجان واللؤلؤ فى البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربى دوراً مهما فى الحالة الاقتصادية والتجارية لشعوب غربى آسيا، وجاءت أفضل أنواع المرجان فى العصور الوسطى، فقد صار بدوره أهم مصادر لهذه المادة الجذابة، وحسب رأى هيرث فإن بحر المرجان فى حفريات نستوريا فى سى نجان فو (القرن السابع ميلادى) والبحر الملئ بالمرجان واللؤلؤ الحقيقى كما وصفها وى ليو Wis Lio يشبه تماما البحر الأحمر(٧٥).

وكانت مصايد اللؤلؤ فى الخليج العربى أقدمها بواسطة شعوب الشرق الأدنى بشكل واضح، ومنذ بداية العصر المسيحى مع هذا بدأوا يواجهون منافسة قوية من مصايد الأسماك فى سيلان وجنوبى الهند، ورغم الإنتاج الجيد لهذين المركزين فقد عانا الكثير من الذبذبات بين الحين والحين(٧٦)، ولكن ليس من شك فى أنهما زودا الجزء الأكبر من المطالب العالمية خلال الفترات محل الدراسة .

وكان صيد اللؤلؤ من المياه العذبة والأقل بريقا كان يأتى من نهر هيوى(Hwei) وربما أيضا من مصب نهر يانجتسى(٧٧) لكن ما يعرف باللؤلؤ الحقيقى (شون شو) كان يستورد إلى داخل الصين من بعض جزر تاشى (Ta-Chi) تشير عربيا إلى جزر البحرين وسنان (كانتونيس لسيلان) وأيضا كين بى (على ساحل سومطرة)(٧٨) وفى الحقيقة فإن اللؤلؤ الأجنبى شكل شريحة مهمة فى واردات الصين، ففى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد يقال إن الصينيين كانوا على دراية باللؤلؤ الذى كانوا يجلبونه فى كل الاحتمالات من غربى آسيا(٧٩).

ومنذ ذلك التاريخ خلال الفترة الإيرانية/ العربية جلب التجار الغربيون كميات متزايدة إلى بلاطِ الصين، وكان هذا هو الحال وعلى وجه الخصوص فى ظل الأسر التى كانت تفضل التبادل التجارى البحرى، وعلى سبيل المثال نعرف أنه نهاية القرن العاشر كانت المخازن الإمبراطورية عند السونج مليئة باللؤلؤ، والسلع الثمينة، وأدوات الزينة، لدرجة أنه لإيجاد سوق لهذه السلع صدرت الأوامر للموظفين الرسميين

المحليين فى الإمبراطورية لإغراء الناس بشراء هذه السلع مقابل الذهب والسلع الصغيرة والأرز وأنواع من القش[٨٠].

وعلى الرغم من هذا فإنه فى ظل الأسر المتتابعة (ليون والمنج) كان تدخل الحكومة الإمبراطورية لإغراء الشعب الصينى لشراء مثل هذه السلع قد انخفض، وكان وصول اللؤلؤ من تجار جنوب الهند وغربى آسيا استمر بشكل متقطع[٨١]، وكانت الصين التى ترسل حريرها ومنتجاتها والبورسلين ومصنوعاتها إلى دول البحار الجنوبية والغربية تأخذ مقابله اللؤلؤ والمرجان بين الواردات الأخرى التى تستوردها من الدول الأخيرة .

لقد شقت سلع عديدة وأدوات زينة إلى جانب الأحجار الكريمة واللؤلؤ طريقها إلى سوق الصين، كما كان قرن وحيد القرن الذى يأتيها من كوشين الصين ذا قيمة عالية فى المملكة الوسطى حيث كان يستخدم فى الأحزمة التى يرتديها الأثرياء[٨٢].

وكانت النساء الصينيات يستخدمن بكثافة العاج (من الفيل) كزينة للرأس. ويخبرنا سليمان التاجر(٨٥١م) بأن سيدة صينية ربما ترتدى أكثر من عشرين مشطا من العاج على رأسها[٨٣] وحسب رأى المسعودى كانت نفس الكمية تحرق فى أضرحة الأجداد فى الصين[٨٤]، وقد أضاف المسعودى بأن تصدير عاج أفريقية الشرقية إلى الصين جعله نادراً وعزيزا فى الأقطار الإسلامية[٨٥]، وفى هذا المقام من الممتع أن نلحظ أن سن الفيل الهندى أقل فى نوعيته عن سن الفيل الأفريقى، وأنه فى الحقيقة لم يكن كافيا لتغطية المطالب المحلية[٨٦] وعلى هذا حمل التجار كميات ضخمة من العاج من دولة الزنج (أوزانج فى شرق أفريقيا) إلى الهند والصين، وتم تصدير تشكيلة كبيرة من أدوات الزينة الأخرى من الشرق، ويمكن أن نختم أنه خلال مراحل التجارة الرومانية/الإغريقية والعربية/ الإيرانية، كانت الصين من أفضل أسواق هذه الفئة من السلع التجارية .

خامسا : تجارة الرقيق مع الصين

كان للصين نظامها الخاص فى الرق - تجارة الصين بسيطة فى الرقيق الأجنبى - الاختلاف بين مختلف أجزاء الدولة الداخلية والساحلية.

قبل أن نصل إلى نهاية هذه الملاحظات، يجب أن نخصص فقرة لتجارة الرقيق مع الصين، ويجب أن يكون واضحا مع هذا أنه بالمقارنة مع الدول الأخرى فى الغرب، تورطت المملكة الوسطى فى هذه التجارة بدرجة محدودة، ورغم وجود إشارات عن شراء العائلات الصينية الغنية للرقيق من الزنوج السود(٨٧) على الأقل فى عصر أسرة تانج(٨٨) وهناك أسباب كافية لافتراض أن استيراد مثل هؤلاء العبيد كان محدوداً ويقتصر بشكل كبير على المقاطعات الساحلية.

وكان للصينيين وخاصة فى الداخل (حيث المجاعات المألوفة) - كانت لها فى كل العصور نظامها الخاص فى الرق نعنى شراء الأطفال أثناء فترات الكوارث وتبنيهم إما كأفراد ينتمون للعائلة أو كخدام، وعلى هذا كانت هذه التجارة تمارس بالمعنى العام فى الموانى أساسا حيث كان الصينيون على اتصال أولا مع تجار الملايو والهند وجنوب غربى آسيا وشرقى أفريقيا وبعد ذلك مع البرتغاليين والأسبان .

ومن الطبيعى أن تتطور هذه التجارة بصورة أكبر فى ظل الأسر التى فضلت التبادل البحرى مثل أواخر أسرة السونج وأوائل أسرة المنج. فبعد ستة عشر عاما من تولى أسرة السونج السلطة (أى ٩٧٦) ورد ذكر اسم عربى فى الحوليات الصينية بأنه قد جلب إلى البلاط فى الصين عبد (كون لون) وعيونه عميقة وجسده أسود(٨٩)، ويشير مصدر صينى آخر (بينج شوكو تان) إلى نفس الفترة من عصر السونج، ويقدم تقريرا واضحا عن تجارة الرقيق فى كونج تونج فيقول: " ففى كونج (كانتون) يحتفظ الرجال الأغنياء بكثير من العبيد الشياطين الأقوياء والقادرين على حمل عدة مئات من الكاتى (وحدة وزن صينية تساوى رطلاً وثلثًا إنجليزيًا) وهم غرباء فى لغتهم وذوقهم، ومزاجهم لطيف ولا يهربون ويسمون أيضا بالشعوب المتوحشة، وهم سود

اللون مثل سواد الحبر، وشفاههم حمراء وشعرهم مجعد (أى صوفى ثقيل) ويوجد بينهم الجنسان، وهم سكان جزر البحر (أى من الواضح بحار شرق آسيا[٩٠]، وقد استمر الاحتفاظ بالعبيد السود فى الصين فى ظل حكم أثر اليوان، واستمر أيضا فى عصر أسرة منج، وفى عامى ١٣٧٠ و١٣٧١م أحضر رجال البعثات هدايا قليلة من العبيد السود من ملقا وبورنيو[٩١] ويقول كاتب أوربى يدعى دواريت باربروسا من رجال القسم الأول من القرن الرابع عشر أنه تم شحن العديد من العبيد من جزر سواند **Sunda** إلى الصين[٩٢].

هنا وقد واصل الأوربيون الأوائل نشاط التجار العرب الهنود فى تجارة الرقيق فى الشرق الأقصى، ورغم أن هناك أسبابا لاستخلاص أنه خلال عصور التجارة العربية والبرتغالية كان عالم جزر جنوب شرق آسيا أهم المصدرين للعبيد إلى الصين، وكان ساحل وجزر شرقى أفريقيا يزود هذه الدولة أيضا بجزء من احتياجاتها، وكان ما يسمى عبيد (كون لون) أوكون لون تسن كى الذين أشار إليهم المؤلفون الصينيون مثل شون جوكو فى أسرة سونج (المتأخرة) ينتمون فى كل مظهرهم وشكلهم إلى المنطقة التى أطلق عليها العرب كامرون – الزنج زنج فى شرقى أفريقيا[٩٣]، وعلى أية حال مع هذا كانت تجارة الرقيق مع الصين قليلة نسبيا، وكما ذكرنا من قبل ولا يمكن أن تقارن مع التجارة الموازية فى أقطار الشرق الأدنى .

ملاحظات ختامية

خلصت الدراسة السابقة للسلع الأساسية فى التجارة بين شرقى وغربى آسيا إلى بعض النقاط المهمة فى قصة العلاقات التجارية العالمية خلال الفترات محل النقاش، وتهتم بعض هذه النقاط بسلعة أو أخرى، وتم معالجة بعضها بالتفصيل فى مجال دراستنا، أما البعض الآخر فكان عاما، ويمكن أن يلخص هذا على النحو التالى :

أولا: لقد توصلنا من التوزيع العام للسلع أن كل من شرقى أفريقيا وجنوب غربى آسيا ووسطها وكل آسيا الموسمية وجزءًا كبيرًا من دول البحر المتوسط وأوربا قد شاركت على نطاق واسع الانتشار فى التجارة، وفى الحق فإنه من الصعب التفكير فى أى من الدول الأكثر أو الأقل أهمية من العالم المتحضر فى ذلك الوقت لم تشارك فى الإنتاج، وتبادل أو استهلاك واحدة أو أكثر من هذه السلع .

ثانيا : رغم صعوبات النقل والقيود الفنية الأخرى فى النشاط التجارى مثل عدم كفاءة نظام المعاملات، وقلة عدد المستهلكين بالنسبة لأصناف السلع الرئيسية، فإن الكمية الكلية للتجارة بين شرقى وغربى آسيا كانت ضخمة نسبيا، ومع ازدياد احتياجات الأفراد والمجتمعات فى المراكز المتحضرة فى العالم القديم، ثم إدخال سلع جديدة وبشكل متزايد فى التجارة .

ثالثا : يقدم تتبع التغيرات التى حدثت فى التوزيع الجغرافى لمختلف السلع فى فترات مختلفة مفتاحا مفيدا لفهم أفضل لكثير من الملامح والمظاهر المعقدة، فى قصة التبادل التجارى ككل، وربما يكون هذا كل الحقيقة عن الأقاليم والفترات محل دراستنا الحالية .

رابعا : وحسب ما يهمنا عن الصين كان ميزان التجارة معقولا ككل، وفى فترات معينة كان تجميع اللؤلؤ والسلع الأخرى ذات القيمة فى المخازن الإمبراطورية

والتى جلبها التجار الغربيون مقابل الحرير الصينى والبورسلين و غيرها من السلع، كل هذا يؤدى إلى ركود تجارى واقتصادى فى أسواق الشرق الأقصى .

خامسا: أما بالنسبة لحالة دول المشرق العربى (ككل) من جهة أخرى، فإن الميزان الواضح يميل كثيرا إلى الجانب العكسى، ويرجع هذا إلى حقيقة أن جزءا من السلع الشرقية التى تصل إلى غربى آسيا كان يعاد تصديرها إلى الغرب من جهة، ومن جهة أخرى كانت الأرباح الضخمة التى حققها التجار من الشرق الأدنى كوسطاء وحمالين مسئولا بدرجة كبيرة عن الزيادة فى تجارة الواردات.

الهوامش

(١) لا ندعى أن يكون هذا الملحق دراسة موسعة لكل السلع الداخلة فى التجارة فى الأساس المقصود منه إعطاء فى السياق الجغرافى أهم الملامح فى إنتاج وتبادل بعض السلع المهمة .

(٢) فى الميزان التجارى العكسى للإمبراطورية الرومانية مع الشرق والتى تزيد عن ما يساوى مليون جنيه (ذهبا) انظر. Vide Supra, Chap . 111, I on p. 118 and corresponding text.

(٣) إشارة إلى حجم قوافل التجارة فى دى لاسى اوليرى الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية، لندن ١٩٢٧، ص ١٨٥، وأما عن حجم السفن فى العصور القديمة والوسيطة انظر -Vide Supra, Chap. IV foot note 3 on Page 141.

(٤) طبقا لابن حوقل (القرن العاشر وصلت ثروة تاجر ثرى من البصرة إلى ما يعادل ٢٠٠٫٠٠٠ر١ جنيه أى ما يعادل ٦٠٠٫٠٠٠ر١ (ذهبا)

Vide Supra, Chap. 17, footnote 2, on p. 157 and corresponding text

(٥) حسب سونج شيه كان الاستيراد السنوى لسن الفيل وقرن الرنة وعيدان اللؤلؤ والبخور والعطور والأدوية الأخرى فى عام ١١٧٥ ميلادية وصلت إلى أكثر من ٥٠٠٫٠٠٠ وحدة انظر see F./ Hirth and W./ W. Rockhill, Chou Ju-Kua Petersburg 1911, p. 19, footnote4.

من الصعب أن نحدد القيمة الحقيقية للوحدة فى العد، ومما لا شك فيه أن التجارة فى هذه السلعة وغيرها أثناء فترات ازدهار الصفقات التجارية حققت أبعادا عظيمة (٦) وعلاوة على ذلك نلحظ أن الدراسة حسب قوائم الصادرات والواردات لا يسهل تطبيقها على التجارة القديمة والوسيطة، مثل حالات كثيرة كانت التجارة تمر من دولة لأخرى فى نظام معقد من النقل، وهذا يجعل من الصعب تحديد كمية الصادرات والواردات من دولة لأخرى خاصة .

(٧) J. Scroban, Silk and the Industry, transl. by R. Cuthill, 1930, pp. 1-2.

(٨) F. Hirth, The Ancient History of China, New York 1908, pp. 22-3.

(٩) Idem, p. 23.

(١٠) Vide supra, chap. 111, pp. 109-110.

G. Cordes, Textes d'auteurs grecs et latins relatifs a l'Extreme-Orient ì (١١) etc.,recueillis et trad., Paris 1910 (Introduction , p. x).

O. M. Dalton, Byzantine Art and Archaeology (1911), p. 583. (١٢)

O. M. Dalton, ibid., pp. 583-4. (١٣)

Vide supra, chap. 111, p. 118 ; also F. Hirth, China and the Reman Orient (١٤) Shanghai 1885, pp. 42,45 and 225.

For the texts and translations of the two authors see G. Coedes, Textes ì etc.,(١٥) loc. Cit., pp. 3 and 13 respectively .

For translations from Chinese records, and text of Pliny (Historia Naturalis, VI, (١٦) 17 (20), 45 and CI, 22 (26),'76), together with an interesting discussion of this somewhat disputed question, see F. Hirth and the Roman Orient, loc. Cit., pp. 72, 80 and 257-60. Also refernce in Dalton, Byzatine Art and Archaeology , loc. Cit., p. 584.

See Mas'udi, Murudi al - Dthahab ì etc., or Les praities d'or et les mines de (١٧) pierres precieuses, ed. And transl. by B. de Meynard and p. de Courteille, Paris 1861-77, t. 11, p. 185-6 ; also A. Stein, Innermost Asia, Oxford 1928, vol. 1, p. 244.

Quoted in F. Hirth, China and the Roman Orient, loc. Cit., footnote 2 on pp. (١٨) 225-6 ; and passage above from p. 256.

T. de Lacouperie inclines to think that the silk of those times belonged to the (١٩) oak-feeding worm (still abundantly found in See-tchwan) and not to the mulberry feeding one. See his Western Origin of Early Chinese Civilisation , London 1894, note 841 on p. 200.

For Abu Zayd see J. T. Reinaud, Relations des voyages faits par des Arabes et (٢٠) des Persons dans l'Inde et en Chine ì etc., Paris 1845, pp. 63-4 in Arabic text and t. II, pp. 64-5 in translation. Also Masudt, Les prairies d'or, loc. Cit., t. I, p. 304.

(٢١) يعزى ذلك جزئيا إلى جهل المؤلفين الإغريق والرومان بأصل الحرير .

For the date of this introduction (thought by Klaproth in his Memoires relatifs a (٢٢) l'Asia, t. II, p. 215, to be 419 A. D.) see reference by J. T. Reinaud, Relations

politiques et commerciales de l' Empire Romain avec l'Asie Orientale, Paris 1863 (reprinted from the J. Asiatique for the same year), pp. 49-50.

A. Remusat, Histoire de la ville de Khotan, Paris 1820, pp. 34-5, and S. Jullien, (٢٣) Memoires sur les contrees occidentals, traduit du Sanskrit en Chinois en l'an 648par Hiouen-Thsang, et du Chinois en Francais, par S. J. Paris 1857-8, t. II, pp. 238 et seqq.

A. Bemusat, idem, p. 35. (٢٤)

For account of Procopius and comments see F. von Richtrofen, China ; Ergeb- (٢٥) nisse eigener Reisen und darauf gegrundeter Studien, Berlin 1877-1912, vol. I,pp. 528-9 ; H. Yule, Cathay and the Way thither, new edition, revised by H.Cordier, London 1913-16, vol. I, pp. 23-4 and 203 et seq. ; and W. Heyd, Histoire du commerce du Levant ì, Leipzig 1885-6, vol. I, p. 12.

SeeO, M. Dalton, Byzantine Art ì etc., loc. Cit., pp. 586 et seq. (٢٦)

See English transl. by W. Ousely, The oriental Geography of Ibn Haukal, London 1800, pp. 179 and 216-17. (٢٧)

Of these, he says , the first were the best . See text and transl. in Voyages (٢٨) d'Ibn Batoutah, ed. C. Defremery et B. R. Sanguinetti, Paris 1853-8, t. IV, p. 259. Evidently the modern name " Satin " is derived from the mediacval name of Ts'uan-chow (Zaytoun).`

See refernce to this skin and fur trade in Roman times in E. H. Warmington, (٢٩) The Commerce between the Roman Emp. And India, Cambridge 1928, pp. 157-8.

O,Jance, Quelques antiquites chinoises d'un caracters hallstattien in The Mu- (٣٠) seum of For Eastern Antiquities, Stokholm, Bulletin No. 2, 1930, pp. 177-83.
وجد هـ – يول سبيلا للاعتقاد أنه من منطقة شمال غرب الصين تم إدخال فن طرق معدات الحديد الدقيقة في واحات تاريم حوالي القرن الأول قبل الميلاد.
See his Cathay and the Way thither, new edition revised by H. Cordier, loc. Cit., vol. I, footnote 3 on p. 17.

O. Jance, idem, pp. 182-3. (٣١)

" Ex Omnibus autem generibus, palma Serico ferro est " Pliny, Historia Natural- (٣٢) is, XXXIV , 14 (41), 145, quoted in F. Hirth, China and the Roman Orient, loc.

Cit., p. 225, footnote 2 (continuing on p. 226). See also J. Edkins, Allusions to China in Pliny's Natural History, in Journal of the Peking Oriental Society, vol. I, 1885, p.2.

E. H. Warmington, The Commerce between the Roman Empire and India, "loc.cit., pp. 157-8. (٢٣)

J. T. Reinaud (et S. Guyard) , Geographie d'Abulfeda, Paris 1848-83, t. 11,1 " partie, p. 144. See also Abu-al Fida, Descreptio Peninsulae Arabum, Arabic text ed. With Latin version by J. Gagnier, Oxford 1740, p. 69. (٢٤)

La Livre des routes et des provinces par Ibn Khordadhbeh, ed. C. B. de Meynard in Journal Asiat., serie VI, t. V, Paris 1865, p. 66 in text and 292 9n translation.Apparently the iron procured at the port of Luqeen (Luqin) had originally come from the interior of China. (٢٥)

P. A. Jaubert , Geographie d'Edrisi, Paris 1836040, t. 1, p. 51. (٢٦)

See reference to tin and lead carried by the Roman traders to India, in Charlegworts, Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. Cambridge 1924, p, 68. (٢٧)

See reference to the tin of Kahah by Ibn Said (x111 cent.) in G. Ferhand, Rwlations des voyages et texts geographiques arabes, persans et turcs relatifs a l'Extreme-Orient ì etc., Paris 1913-14, t. 11, p. 344 ; also by Abu Dulaf (xth cent.)in Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal ì etc., ed. Kurd von Sehloezer, Berolini 1845 (Arabic text and Latin version on same page) , p. 19. French version from Abu Dulaf's text in Ferriand, idem, t. 1, p. 221. (٢٨)

See transl from the Wei-lio in F. Hirth, China and the Roman Orient, loc. cit., p. 73. (٢٩)

See the two-fold tradition of this introduction about 424 A. D. see F. Hirth, China and the Roman Orient, loc. Cit., pp. 228-34. Also reference to one of the traditions regarding its introduction from Ta yueh-chi (to the N. W. of India) by way of C. Asia is made in J. T. Reinaud, Relations politiques ì etc., loc. Cit., p. 295. (٤٠)

On the early development of the porcelain industry in China, see F. Hirth, Ancient Porcelain , a Study in Chinese Mediaeval Industry and Trade, reprinted from the Journal of the China Branch of the Royal Asiatic Society, for 1888, pp. 1-6. (٤١)

(٤٢) See Arabic text and French version of a passage from his Masalik-ul-Absar ì etc. in the article by Ch. Sehefer in the Centenaire de l' Ecole des Langues Orientales Vidantes, Paris 1895, footnote 2 on pp. 16-17.

(٤٣) F. Hirth, Ancient Porcelain, loc. Cit., p. 29.

(٤٤) See J. T. Reinaud, Relations drs voyages ì, loc. Cit., pp. 35-6 in Arabic text and t. 1, p. 34 in transl. ; also Renaudot, Ancient Accounts of India and China by two Mahomedan Mediaeval Travellers (1733), p. 21.

(٤٥) Arabic text and Latin version in K. von Schloezer , Abu Dolef ì etc., loc. Cit., pp. 2304 ; for French transl. see G. Ferrand, Relations des voyages et texts ì, loc. Cit., t. 1, p. 226.

(٤٦) For this Chinese industry, and the wide market for its products , see Ibn Batou-tah, Voyages, loc. Cit., t. IV, p.256.

(٤٧) F. Hirth, Ancient Porcelain, loc. Cit., p. 53.

(٤٨) Hirth, idem., pp. 21-32. Reference to Chinese porcelain found in such a comparatively remote region as S. Rhodesia is made by G. Caton-Thompson, Zimbabwe, in Antiquity, Dec. 1929, p. 432-3.

(٤٩) See reference to Strabo (16,4,19) in De Lacy O'Leary, Arabia before Muh.,loc. Cit., p. 90.

(٥٠) يجب أن نوضح مع هذا أن بعض العينات الجديدة (مثل الفلفل كانت معروفة عند الشرق الروماني في القرن الأول بعد الميلاد نتيجة لإحياء التجارة البحرية انظر أورلي، الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية، نفسه ص ٧٥.

(٥١) H. Yule, The Book of Ser Marco Polo, rev. ed. By H. Cordier, London 1903, vol. 1, p. 210, note 7, and p. 242, note 2.

(٥٢) Yule-Cordier, The Book of Ser Marco Polo, vol. 1, p. 235 also M. Polo ed. Pauthier, Paris 1865, 2, partie, p. 527.

(٥٣) Yule-Cordier , The Book of Ser Marco Polo, vol. 11, p. 250.

(٥٤) W. Herd, Hist. du commerce du Levant, loc. Cit., t. 11, p. 659.

(٥٥) Quoted in H. Yule, The Book of Ser Marco Polo (ed. Cordier), loc. Cit.,vol. 11.

p. 289, note, (note 2 continuing from p. 238). The inclusion of ginger may not be accurate, as that commodity was produced in abundance in S. China ; see W. Herd, Histoire du commerce du levant, loc. Cit., vol. 11, p. 619.

Reference to this policy and its effects on world-relations had already been (٥٦)
made at the end of chapter IV.

For trade in these woods see W. Herd, Hist ì etc., loc. Cit., vol. 11, pp. 581-90. (٥٧)

See Ibn Khurdadthbah (or Khordadthbah) , ed. B. de Meynard in J. Asiatique, (٥٨)
serie VI, t. V, Paris 1865, p. 66 in Arabic text and pp. 291-2 in French version ; also Arabic text of Idrisi, ed. At Romae in Topographia Medica, MDXCII, p. 41, and French version of P. A. Jaubert, Geographie d'Edrisi, loc. Cit., t. I, p. 83.

See trans. Of quotations in G. Ferrand, Relations des voyages et texts ì, loc. (٥٩)
Cit., t. II, p. 345.

See reference to various commodities from E. Asia including spices, aloes, (٦٠)
musk and camphor, found by the Arabs at the Iwan (residence palace at Mada in or Ctesiphon) of the Sasanid emperors, in W. Heyd, Histoire de commerce du Levant, loc. Cit., vol. I, p. 17. This indicates the early trade between E. and W. Asia.

J. T. Reinaud, Relations des voyages faits par des Arabes et des Persans ì (٦١)
etc., loc. Cit., p. 36 in text and t. I, p. 35 in transl. ; also Renaudor, Ancient Accounts ì etc., loc. Cit., p. 21.

See part of his Arabic text pub. In M. J. De Goele, Bibiliotheca Geographorum (٦٢)
Arabicorum, vol. VII, Leiden 1892, p. 360 ; also French version of quotations in G. Ferrand , Relations des voyages et texts ì, loc. Cit., t. I, p. 50. For Tibetan and Chinese musk,. See also Mas udi, Les prairies d'or (text and version) , loc. Cit., t. I, pp. 353-6.

Reference to musk-deers near Batang , and to the exportation of misk from Ti- (٦٣)
bet, in H. R. Davies, Yun-nan, the Link between India and the Yang-tze, Cambridge 1909, pp. 276 and 293 respectively.

P. A. Jaubert, Geographie d' Edrisi, loc. Cit., t. I, pp. 187 and 494 ; and Ibn (٦٤)
Said, in G. Ferrand, idem., t. II, p. 350 ; also M. Polo, ed. Pauthier , loc. Cit., 1, " partie, p. 165.

(٦٥) J. T. Reinaud, Relations des voyages foite par des Arabes et dce Porames ì etc., loc. Cit., p. 41 in text and t. I, p. 40 in version ; also Renaudor, Ancient Accounts ì etc., loc. Cit., p. 25.

(٦٦) When it is mentioned as one of the staples given in exchange for horses ; see E. H. Parker, A Thousand Years of the Tartars, London 1926, p. 165.

(٦٧) For the early trade in tea, and its beginning with Europe about the XVIII cent., see W. Herd, Histoire du commerce du Levant, loc. Cit., vol. II, pp. 252-3.

(٦٨) See B. de Meynard's ed. Of Ibn Khurdadthbah, in Journ. Asiat., 1865, loc. Cit., p. 60 in text and 282 in translation ; also Mas udi, Les prairies d'or, loc. Cit., vol. I, pp. 333 et seq. (text and transl.).

(٦٩) Mas udi, idem, vol. I, p. 336.

(٧٠) F. Hirth, China and the Rom. Orient, loc. Cit., pp. 244-5.

(٧١) See Mas udi, Les prairies d'or ì, loc. Cit., t. I, pp. 333 et seq, ; and p. A. Jadeert , Geographie d' Edrisi, t. I, p. 49.

(٧٢) هذه الوظيفة المشتركة للأحجار الكريمة واللؤلؤ تصدق فى العصور القديمة والوسطى .

(٧٣) T. De Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilisation, loc. Cit., pp. 31-32 and 46.

(٧٤) Mas udi, Les pairies d'or ì etc., loc. Cit., t. III, pp. 44 et seq. ; see also W. Herd, Histoire du commerce du Lovant ì etc., loc. Cit., t. II, pp. 651-2.

(٧٥) ف هيرث: الصين والشرق الرومانى نفسه ص ص ٦١ -٧١ و ٢٤٦ ومع هذا فإن حقيقة الويلو We-lio تضم اللؤلؤ بين منتجات هذا البحر، وهذا يعنى من الممكن أن بحار غرب آسيا ربما فى ذلك الخليج الفارسى) عموما أكثر من البحر الأحمر على وجه الخصوص .

(٧٦) For such oscillations see W. Herd , Histoire du commerce ì etc., loc. Cit., t. II, pp. 648-51.

(٧٧) T. De Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilisation, loc. Cit., p. 180 ; and F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-Kua, St, Petersburg 1911, p. 229.

(٧٨) Chau Fu-Kua, idem, p. 2290

(٧٩) T. De Lacouperie, ibid., pp. 180-1.

(٨٠) F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-Kua, loc. Cit., p. 19.

(٨١) إشارة إلى ماركو بولو عن استيراد اللؤلؤ إلى تسون شو (زيتون) ومنها يوزع فى كل أنحاء ما ترى (جنوب الصين، انظر هـ يول " كتاب ماركو بولو تحرير هـ. كوربير نفسه المجلد الثانى، ص ٢٣٤.

(٨٢) Ibu Khurdadthbah (or Khordadthbah) , ed. Metnaed, loc. Cit., Journ. Asiat. (1865) , p. 66 in text and 290 in transl.

(٨٣) T. Reinaud, Relations des voyages ì etc., loc. Cit., p. 25 in Arabic text and t. I, p. 25 in French transl. ; also English transl in Renaudor, Ancient Accounts ì etc., loc. Cit., p. 14.

(٨٤) Mas udi, Les prairies d'or, loc. Cit., t. III, pp. 8-9 (text and transl.)

(٨٥) Idem as note above.

(٨٦) W. Heyd, Histoire du commerce du Levant ì etc., loc. Cit., t. II, pp. 629-30.

(٨٧) رأينا فى مقطوعة سابقة من فيدسويرا مجلد ٢ ص ص ٦٢٩-٦٣٠ يذكر ابن خردادبة (القرن التاسع) الرقيق الذين حملهم التجار اليهود من الغرب إلى الشرق، والذين كانوا من الواضح أنهم غير العبيد السود المعروفين من شرق أفريقيا، ومع هذا فإنه من غير المعقول أن مثل هؤلاء الرقيق من أراضى البحر المتوسط وغرب آسيا قد وصلوا إلى أقصى شرق الصين.

(٨٨) See Note by W. F. Matere on VBlack-Slaves in China in Notes and Queries on China and Japan, vol. III, no, 7, Hong-kong, Aug. 1869, p. 105.

(٨٩) E. Bretschneider, On the Knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the Ardos ì etc, London 1871, p. B. For identification the termK'un-Lun with the Islands of Pulo-condore, See Idem, Footnote 6 on pp. 14-15.

(٩٠) F. Hirth and W. W. Rockhill, Chau Ju-Kua, loc. Cit., footnote 2 on pp. 31-32. F. W. Mayers, in his Note in Notes and Queries, vol. 111, 1869, loc. Cit., (p. 105) attributes the same account, or a very similar version of it, to the Ming period.

Chau Ju-Kua, idem , p. 32. (٩١)

Chau Ju-Kua, idem, as note above. (٩٢)

Reference in G. Ferrand, Relations des voyages et textes ì etc., loc. Cit., t. 11, (٩٣) footnote 1 on p. 320.

الفصل الخامس

العلاقات الثقافية فى إطارها الجغرافى
دراسة للمعتقدات الدينية بين غربى وشرقى آسيا

مقدمة : الربط بين العلاقات التجارية والثقافية

لقد تمت محاولة فى الفصلين السابقين لتتبع - فى السياق الجغرافى - الملامح الرئيسية للعلاقات التجارية بين غربى وشرقى آسيا خلال الفترات محل الدراسة، وأظهرت معالجتها أنه خلال العصور الرومانية/ الإغريقية، والإيرانية/ العربية أنه كان هناك تقريبا تبادل مستمر للسلع مع وجود فترات قصيرة من العلاقات الواهنة أو المتقطعة. ومن الطبيعى أن يتبع التبادل التجارى تزاوج الأفكار والعناصر الثقافية، وكثير من السلع التى تضمنتها التجارة مثل المنسوجات الحريرية، والصناعات المعدنية، والزجاج، ومنتجات البورسلين ... إلخ كانت أحسن وسيلة لانتقال العناصر الفنية من منطقة إلى أخرى. واستطاع التجار من مختلف البلدان الالتقاء وحمل تجارتهم سويا فى كثير من المراكز التجارية فى شرقى ووسط وغربى آسيا، وكان هذا عامل آخر مهم أدى إلى اتصال فعال بين مختلف الثقافات، والأهم من كل هذا جميعه حقيقة أن فتح الطرق البرية والبحرية لأغراض التجارة قد سهل انتقال ما يمكن أن يسمى بالتيارات الثقافية بين غربى وشرقى آسيا .

حقا يمكن القول دون مناقشة إن العلاقات الثقافية والتجارية مرتبطة معا، وتتأثر بالسياق الجغرافى للمسرح الذى تدور عليه الأحداث مثل الحالة التى تشكل موضوع دراستنا. ذلك أن العناصر المادية للحضارة، وكذلك التأثيرات اللغوية والدينية قد شقت طريقها مرة ثانية فى اتجاه أو آخر عبر الاستبس، وأشباه الصحارى فى وسط آسيا، وفوق المياه التى تحد القارة فى الشمال والجنوب الشرقى، وفى الفصلين الأول والثانى تم رسم الخط العريض لمثل هذا الانتشار الثقافى فى المنطقتين الثقافيتين فى المشرق العربى والشرق الأقصى والمناطق المجاورة التى تعنينا .

ولقد ألقينا الضوء على بعض العناصر الفنية والمادية التى تم تبادلها، ويعطى الفصل الحالى خاتمة لنتيجة كل ما ذكرناه، ومن أجل إعطاء قصة كاملة للتحولات الثقافية بين شرقى وغربى آسيا، فإن هذا يتطلب دراسة تفصيلية خاصة بذاتها، وستقتصر دراستنا على انتشار العناصر الدينية المختلفة وأساسا من الغرب إلى الشرق مع إشارة خاصة للإسلام .

وبحسب الجدول الزمنى يمثل الإسلام آخرها رغم أنه من أهم العناصر الثقافية التى استطاع الشرق الأدنى أن يقدمها إلى وسط وشرقى آسيا خلال العصور التاريخية .

وسوف تكون الدراسة أساسا جغرافية، رغم أنه لابد من إلقاء الضوء حتما على الظروف الدينية، والاجتماعية، وغيرها .

الاضطرابات القبلية والتوسع من الجزيرة العربية (خاصة الجنوب الغربى) المركبات الثقافية والاتصالات فى عصور ما قبل الإسلام ، نهضة ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية ، الإسلام والأفكار الموجودة قبل الإسلام

ما زالت الاضطرابات التى وقعت فى الجزيرة العربية خلال القرون الأولى من العصر المسيحى محل جدال بين دارسى الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، وبالفعل أشارت المصادر إلى العلاقات المكانية القوية بين شبه الصحراء والأرض المزروعة فى شمال شبه الجزيرة العربية(١).

وهناك رأى عام بين من يدرسون قصة البشرية فى هذه المنطقة، بأن الحواف الشمالية لصحراء النفود مع كل صحراء سوريا كانت تعمل كمركز تفريغ ممتاز تتدفق منه الجماعات البدوية من حين إلى آخر على السهول المستقرة فى الهلال الخصيب. ويصدق هذا إلى حد كبير على ما عرف بسلاسل الغزوات السامية التى حدثت فى الأزمنة التاريخية القديمة، ولكن من الصعب قبول هذا بالنسبة للتحركات التالية للعرب من أوائل القرن الثالث م وما بعده، وفى الحقيقة أنه من وجهة نظر ثقافية، فإن الحقبة العربية ما هى إلا استمرار للغزوات السامية المبكرة، ولكن فى نفس الوقت هناك من الأسباب ما يجعلنا نقترح بأن الجزء الأكبر من الغزاة العرب جاءوا أساسا من مناطق أخرى غير أشباه الصحارى فى الشمال.(٢) وكما لاحظنا بالفعل كان هناك تقليد قوى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وأوائل العصر الإسلامى، يشير إلى الأصل اليمنى لعدد كبير من القبائل القوية فى الشمال.(٣) ويقول المثل العربى إن اليمن مهد العرب والعراق لحدهم، وهذا لا يخلو من بعض الأهمية .

والشواهد التى تقدمها التقاليد والفلكلور الشعبى له ما يؤيده مؤرخ القرن الرابع الهجرى ويدعى حمزة الأصفهانى، ونعلم من كتاباته أنه فى بعض الوقت من القرن الثالث م هاجرت قبائل التنوخ (فرع من الأزد) وقضاعة من جوف اليمن (داخل) إلى

ساحل البحرين ومن ثم إلى تخوم العراق حيث استقر الأوائل بينما تقدم الآخرون إلى تخوم سوريا.(٤)

وتعزى هجرة القبيلتين وبعض القبائل الأخرى من الجوف الجنوبى لليمن طبقا للوثائق العربية إلى تحطم السد القديم الذى بنى عبر مجرى مائى فى المناطق المجاورة لمأرب القديمة. ولا تزال آثار هذا السد باقية حتى اليوم تحمل نقشا يحكى عن الإصلاحات التى قام بها ملوك حمير، وهناك شك بسيط فى أن تدمير السد له علاقة بانتشار القبائل فى المناطق المجاورة مباشرة للعاصمة القديمة(٥)، ومع هذا فإن مثل هذه الحادثة لا تعطى مفتاحا مفيدا وكافيا لكل الهجرة من جنوب غربى الجزيرة سواء بحرا إلى مختلف الأماكن حول المحيط الهندى أو برا إلى ساحل البحرين وحدود الهلال الخصيب، وإذا كان الاقتراح الذى قدمه المؤلف الحالى فى نهاية الفصل الأول صحيحا فإن تغيرا مناخيا مهما قد حدث وقت هذه الهجرات ربما يكون مسئولا عن مثل هذا الانتشار الواسع.

فلقد استقرت القبائل التى وصلت إلى الحدود الشمالية من الجزيرة العربية واستقرت على تخوم الإمبراطوريات الإيرانية والبيزنطية، وكانت قادرة على أن تلعب دورا مهما كوسطاء للتجارة بين القوتين المتعاديتين فى الشرق الأدنى .

كما أن المملكتين - اللخمية فى الحيرة (بالقرب من كربلاء الحالية) والأخرى الغسانية فى البوسترا ودمشق - قامتا أيضا بدور المناطق المناسبة للاتصال بين عالم البدو من الجزيرة العربية والمراكز المتحضرة فى الهضبة وشرقى البحر المتوسط. ولعبا دورا مهما فى إعادة إحياء ثقافة الجزيرة العربية خلال فترة الجاهلية السابقة مباشرة لظهور الإسلام .

ويبدو أن هذه القبائل قد تبنت الشكل العربى فى اللغة، وكذلك الخط العربى الذى تطور عن الكتابة النبطية حوالى ٣٠٠ بعد الميلاد(٦).

وأصبح بلاط الملوك، وخاصة بلاط ملوك الحيرة أقدم الدوائر الأدبية فى الجزيرة العربية حيث التقى الشعراء والمفكرون تحت رعاية الرؤساء الأثرياء وأصحاب

النفوذ.[٧]– وقد ساعد هذا على تطوير اللغة الأدبية العربية الجديدة والتى كانت حتى ذلك الوقت محدودة فى المجال والتعبير، وتم استعارة المفردات المرتبطة بالفكر الفلسفى ومظاهر الحياة الأكثر تعقيدا وتحضرا من اللغات السريانية واللغات الأخرى فى الشمال. ولا يمكن أن نبالغ فى قيمة هذا بالنسبة لعقيدة الإسلام الجديدة، والتى كان مقررا لها أن تقدم لكل الأقاليم المختلفة فى شبه الجزيرة العربية وسيلة موحدة للتعبير كما قدمت لكل العالم الإسلامى نصا دينيا مشتركا .

كما دخلت مؤثرات ثقافية أخرى فى الجزيرة العربية من خلال هذه الدول الحاجزة، ولقد أسست المسيحية (وخاصة الكنيسة السورية) مراكز تبشيرية كثيرة على حدود الصحراء، واستطاعت البعثات التبشيرية فى بعض المناسبات التوغل فى داخل شبه الجزيرة، وهناك اعتقاد بأن المستوطنات المسيحية فى نجران شمالى اليمن قد جاءت أو على الأقل استقبلت بعثتها من الكنيسة السورية فى الشمال وربما عن طريق الحيرة[٨] وكما شقت عبادة النار طريقها (من المحتمل من إيران) إلى كثير من المناطق القبلية فى الداخل، بينما دخلت الديانة اليهودية على أيدى المستوطنين اليهود على طول طريق الحجاز واليمن. ومع هذا فإن تأثير مثل هذه الاختراقات الثقافية لقلب الجزيرة العربية لاتحتاج إلى مثل هذا التركيز .

وفى الحقيقة لا يمكن أن يقال إن أيا من هذه الديانات التى دخلت حديثا قد لقيت قبولا عاما من القبائل أو حتى كان لها أى تأثير روحى خارج مستوطناتهم المبعثرة، ولم تمثل هذه المفاهيم فلسفة وفكرا دينيا بعيدا عن البدو فحسب، ولكن فى حالة الكنائس السورية والنسطورية، وإلى حد ما اليهودية فإنها تمثل نظما دينية ونظما اجتماعية وتنظيمات كنسية جافة جدا لدرجة أنها لا يمكن أن تتكيف مع الأحوال الجديدة فى المجتمع والبيئة البدوية، ومن بين المجتمعات المسيحية واليهودية فى ذلك الوقت، لعبت المسيحية دورا مهما جدا فى الحياة السياسية والاجتماعية لهذه المجتمعات[٩].

ومن جهة أخرى ففى الجزيرة العربية كانت الوظائف السياسية والاجتماعية فى أيدى زعماء القبائل الذين كان ينظر إليهم على أنهم أكفاء للتعامل مع مثل هذه الأمور غير الروحية، وعلى هذا لم تكن البيئة الصحراوية ومجتمعها البدوى مناسبة لزرع منظمات وأفكار دينية جاءتهم من الشمال المتحضر، وفى الأصل فإن النهضة الثقافية التى ظهرت فى الجزيرة العربية فى نهاية العصر الجاهلى يبدو أنها نبعت ولو جزئيا من دوافع داخلية، رغم أنها تأثرت بالعالم الخارجى. وفى تجمعات الأسواق السنوية الكبرى مثل سوق عكاظ، لا يتم فقط القيام بالأعمال التجارية، بل يتم أيضا مناقشة واستعراض الآراء والمفاهيم الدينية والفلسفية، ومع هذا لم يكن من الممكن أن نستخلص مقدما أن ظهور الإسلام فى فترة متأخرة كان النتاج المنطقى لميل عربى نحو التوحيد، أو أن تعاليم النبى كانت التعبير عن الفكر الدينى السائد بين القبائل، ورغم حقيقة أنه فى عصور ما قبل الإسلام، كانت مكة بفضل اعتبارها أكبر مركز تجارى على طول طريق القوافل الذى يعبر الجزيرة العربية بين اليمن الغنى وحدود الإمبراطورية الرومانية، صارت مركزا للحج حيث كانت هناك مجموعة من الأصنام لأكثر من قبيلة، وليس هناك ما يدعو إلى التفكير بأن النهضة فى ذلك الوقت كانت تهدف إلى أية وحدة ثقافية لكل الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى لم يوحد الإسلام فقط الهويات القبلية التى كانت النتاج الطبيعى للإقليمية داخل شبه الجزيرة العربية بل هاجم أيضا – بسبب الأخوة المفتوحة القائمة على المساواة المطلقة بين كل المعتنقين للإسلام بغض النظر عن الجنس أو القطر أو المعتقدات السابقة – النظرة الأحادية وموقف سكان الصحراء بالنسبة للعالم الخارجى. إن التفاصيل الأخرى للمقارنة بين المفاهيم الإسلامية وما قبل الإسلامية عن الحياة ليست من الأمور التى يتابعها الجغرافيون، وسنظل راضين عن اقتباس ت. و. أرنولد بأنه " يجب ألا ننسى كيف كان الإسلام بشكل متميز حركة جديدة فى شبه الجزيرة العربية الوثنى، وكيف أنه مضاد للمثل فى مجتمعين (نعنى ما قبل الإسلام وما بعده)، وأن دخول الإسلام فى المجتمع العربى لا يعنى فقط القضاء على الممارسات غير الإنسانية والبربرية البسيطة، ولكن أيضا القضاء التام على مثل الحياة التى كانت موجودة من قبل (١٠).

عودة إلى العوامل المؤثرة على توسع العرب
التغيرات المناخية، تربية العرب للحصان
الضعف السياسى للإمبراطوريات المجاورة
تدهور مكاسب نشاط النقل - النظرة الثقافية العامة
التى أتاحتها العقيدة الجديدة
التوسع العربى مثلا لحركة اجتماعية ودينية

إن الاضطرابات التى وقعت فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام لها أهمية خاصة من وجهة النظر الجغرافية لأنها لم تلق الضوء على الأحوال السائدة فى شبه الجزيرة والأقطار المجاورة لها فى ذلك الوقت فحسب، بل إنها ساعدت على فهم الحركة التالية لانتشار الإسلام نحو الشرق سواء برا أو بحرا .

وربما يربط بعض الناس بين حركة التوسع العربى (أو على الأقل من شمال الجزيرة، مع تغير فى المناخ نحو الجفاف، بينما يرى آخرون أنه لم يحدث مثل هذا التغير، وقد ناقشنا الجدل الذى قام مع أو ضد هذه القضية، وقدمنا الأسباب التى تؤيد رأينا فى التغير الطفيف الذى حدث، والذى أدى إلى هجرات داخلية فى الجزيرة العربية، كما كان له أيضا أهمية غير مباشرة - رغم أنه ملحوظ فى الحركة التالية فى القرن السابع م.[١١] وهناك عامل آخر أثر بشكل ظاهرى على اضطرابات العصر الجاهلى، والذى يبدو أنه لم يتحقق بشكل كامل، وهو احتمال سيطرة القبائل العربية على السلالة الجديدة التى عرفت بالحصان العربى .

وهذا قد ينطبق عمليا على الجزيرة العربية فى تلك الفترة - رغم أنه على نطاق ضيق - الاقتراح الذى قدمه مؤلفو " ممرات الزمن (Corridors of Time) والذى يربط جزئيا الانتشار من شمال إقليم الاستبس فى آسيا الوسطى فى الألف الثالثة قبل الميلاد مع السيطرة المتزايدة على الحصان المستأنس حديثا[١٢].

وعلى حسب علمنا لا توجد معلومات محددة عن التاريخ الصحيح لدخول هذا الحليف الجديد والقوى (الحصان) لرجال القبائل فى قلب الجزيرة العربية، ولكن من المؤكد أن مثل هذا الدخول لم يكن فى ذلك الوقت لأن الحيوان كان قد دخل إلى سهول الهلال الخصيب ومصر(١٣).

والحصان أساسا حيوان ينتمى إلى أراضى الرعى الغنية وقد استغرق زمنا طويلا نسبيا لتربية هذا النمط العربى الجديد الذى يستطيع أن يتحمل ظروفا أكثر قسوة من الجفاف – وإذا قبلنا الرأى الذى عرضه دارسو المناخ القديم بأن القرون القليلة المركزة حول أواسط الألف الأولى ق.م كانت فترة سقوط أمطار أفضل على جنوب غربى آسيا.(١٤) فإننا يمكن أن نخمن بأن الحصان قد دخل أولا (فرضا) فى قلب الصحراء – وعلى أية حال من المؤكد تماما أنه مع القرون الأولى من العصر المسيحى كانت تربية العرب لهذه السلالة قد تطورت تماما والحقيقة أن الحرب الأهلية المشهورة بين داحس والغبراء، بين قبيلتين من أقوى القبائل فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، والتى يقال إنها استمرت لمدة أربعين عاما قد سميت باسم حصانين، لهو دليل قوى على تأييد اقتراحنا فيما يتعلق بالدور الذى لعبه الحصان فى اضطرابات عصر الجاهلية(١٥).

لقد كان حليفا مساعدا لرجال القبائل ليس فقط فى صراعهم المستمر مع نظرائهم من البدو فى بيئة قاسية، ولكن أيضا فى صراعهم ضد الشعوب الأكثر استقرارا وتحضرا فى الشمال. وهناك عامل آخر لا يقل أهمية والذى أغرى القبائل بالتوسع على الحدود الشمالية من شبه الجزيرة، وهو الضعف السياسى النسبى للإمبراطوريتين فى شمال شبه الجزيرة – الساسانية والبيزنطية. فقد أعطى الصراع العنيف بين القوتين العظميين فى الشرق الأدنى فرصة لا مثيل لها للطموحات المتزايدة فى الجزيرة العربية والتى برزت بشكل واضح فى منتصف القرن السابع الميلادى .

وكان المدى الذى وصلت إليه الدوافع الدينية الخالصة فى الحركة الإسلامية وتوسعها ليس بالأمر السهل إيضاحه، ولكن نميل إلى الاعتقاد أنه فى ظل الظروف المناخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية السابق ذكرها فكان حتماً اندفاع بعض القبائل، وربما عجل هذا الانهيار النسبى لتجارة ضد الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، وما تلاه من عدم رضا القبائل التى تعتمد على النقل والأعمال التجارية كعامل مساعد للرعى، وقد ساعدت النظرة الثقافية العامة التى قدمتها اللغة والعقيدة الجديدة على توحيد الحركة العربية، ولكن يكمن خلف هذا الانتشار الكبير عوامل اقتصادية واجتماعية عديدة، وباب الشك مفتوح فيما إذا كانت الثقافة الإسلامية كانت قد رسخت أقدامها تماما عبر شبه الجزيرة العربية فى الوقت الذى بدأت فيه الاضطرابات. ففى السنوات الأولى لانتشار الإسلام كان اعتناق الناس فرديا، وكان المعتنقون للعقيدة مخلصين لها حقا، ومع هذا بعد عقد أو أكثر من الهجرة (٦٢٢م) قبلت قبائل كاملة البعثة المحمدية، ونعتقد بصدق أنه فى حالات كثيرة أن مثل هذا الاعتناق الجماعى لم يكن أساسه قويا نسبيا[١٦]. وثبت ذلك من انتشار الردة عن الإسلام، والتى تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا فليس من الحكمة أن نصر على قيمة الدوافع الدينية الصرفة للعدد الأكبر من القبائل العربية على الأقل خلال العقود الأولى للإسلام. فقد كانت المعتقدات، والتقاليد المحلية، والعادات الاجتماعية قوية جدا لدرجة أنه لا يمكن للفلسفة الجديدة أن تقضى عليها بسهولة خلال الفترة القصيرة التى انقضت مابين تعاليم الرسول الأولى وقيام الإمبراطورية العربية (حوالى ثلاثين أو أربعين عاما)، وحتى بعد قيام الإسلام كثقافة توحيد (ليس فقط داخل الجزيرة العربية نفسها و لكن داخل كل الخلافة الإسلامية.). استمرت الميول والأهواء الإقليمية المرتبطة بقضايا غير دينية، وتاريخية، تمارس دورها بكل قوة رغم أنها كانت دائما تختفى وراء مظاهر دينية. ويصبح كل هذا مهما إذا نظرنا إلى مثل هذه الميول فى سياقها الجغرافى. فالهضبة الإيرانية ذات المكانة الجغرافية المتميزة فى الشرق الأدنى والتى عرضنا لها بالفعل[١٧]. صارت

أرضا خصبة لنمو طائفة الشيعة والتى مثلت (على الأقل فى الماضى) للذين يؤمنون بها تميزا سياسيا وليس دينيا صرفا عن بقية السكان السنة فى العالم العربى(١٨).

وقد حدث تكيف محلى مع المبادئ الدينية بشأن الظروف الاجتماعية والجغرافية فى مناطق اعتناق الإسلام فى الدول الأخرى فى وسط وشرقى آسيا، ولكن الاختلافات الدينية القائمة بين البلاد الإسلامية المختلفة كان صغيرا جدا، وبنفس الطريقة داخل المنطقة الثقافية للمشرق العربى، حدثت اختلافات واضحة، وسطحية، بشكل كبير ما بين المسلمين فى الهلال الخصيب ومصر ونظرائهم المسلمين فى الصحراء، وحتى داخل الجزيرة العربية ذاتها كانت الاختلافات بين ركن المرتفعات فى اليمن وعمان ونجد داخل الصحراء، وفى كل هذه الحالات تقريبا كان ظهور المدارس الدينية أساسا استجابة للظروف الجغرافية المحلية وغيرها من الأمور، ولا يمكن إرجاعها إلى إختلافات دينية تذكر(١٩).

وسوف يكون هذا مهما إذا وضعناه فى اعتبارنا عندما ندرس قصة انتشار الإسلام فى شرقى آسيا .

الصين وغربى آسيا - الاتصالات المبكرة
وتشرب العناصر الغربية بوابات التوغل الثقافى داخل الصين .
الفلسفة والفكر الصينى - الطاوية (Taoism) ضد الكونفوشيوسية
تفسير جغرافى

لكن قبل أن نتطرق لدراسة قصة انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية نحو الشرق، يجب أن نلقى نظرة على الطرف الآخر من آسيا قبل اتصاله بالعالم الإسلامى فى المشرق العربى، ومنذ المراحل المبكرة جدا يبدو أن الحضارة الصينية قد احتفظت بعلاقات مستمرة مع غربى آسيا، ويذهب بعض المؤلفين إلى أبعد من ذلك، ويقدرون

أصلا غربيا لهذه الحضارة، بينما يرى آخرون أن الثقافة الصينية سواء فى قيامها أو فى تطورها المبكر خالية من أية تأثيرات أجنبية واضحة[٢٠].

وإذا تتبعنا المناقشات التفصيلية، فإن كلا الجانبين سوف يأخذنا بعيدا عن مجال هذه الدراسة، وربما يكفى أن نشير أنه بصرف النظر عن مكان ميلاد الثقافة الصينية، فإنها تكشف عن صلات كثيرة بالعالم الغربى، وإذا قبلنا الرأى المحتمل أن العديد من الأسر الصينية الأولى قد شقت طريقها هناك من أقاليم على اتصال بالهلال الخصيب (أو تحت تأثيره الثقافى) فإنه من الصعب مقاومة الرأى بأن العديد من المؤسسات الدينية والاجتماعية صاحبت المهاجرين إلى أماكن إقامتهم الجديدة . حقا هناك أرضية قوية إلى الاعتقاد بأن وادى ويهو (Wei Ho) والروافد العليا لنهر هوانج هو قد شهدت قدوم موجات أو تيارات ثقافية عديدة من الغرب، ساهمت هذه فى إثراء وتعقيد الثقافة الصينية الأولى.

وظهر التأثير أولا فى الوديان الشمالية الغربية، لكنها وصلت أخيرا إلى السهل العظيم نفسه، ومع هذا فإنه يؤكد حقيقة أنه فى كل الحالات، تشربت كل الدوافع الثقافية آجلا أو عاجلا فى الهيكل الأساسى للثقافة الصينية، وأن تشربها هذا للثقافات المختلفة قد حدث غالبا فى السهل الرئيسى فى الشمال حيث كانت حدود المجتمع الصينى التقليدى، وحدث غزو جديد فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد فى الشمال الغربى حيث فرضت أسرة تسن أو شن سيطرتها الكاملة على الرافد الرئيسى للتوغل الثقافى فى شمال الصين عن طريق تاريم وممر كانسوه وأجبرت أسرة شو (Chou) على نقل عاصمتها إلى لويوه (لوه يانج هو نان فو الحديثة) عام ٧٧٠ ق.م. وظلت لقرون قليلة المركز الرئيسى للسلطة والثقافة الصينية[٢١].

وسادت اضطرابات سياسية بين عامى ٧٧٠ - ٤٨١ ق.م فى منطقة شو والدويلات المحلية وشعوبها التى نالت قدرا كبيرا من الحرية السياسية والروحية، ونظرا لأن الرافد الشمالى الغربى كان فى أيدى التسن الأعداء، والذين لم يكونوا مستعدين بالسماح للأفكار الجديدة القادمة من الغرب لتصل إلى عالم الصين القديم،

وهو المركز الرئيسى للاتصال مع العالم الخارجي، والذى تحول نحو الطرق البرية فى الجنوب الغربى فى سزتشوان (إلى سهول الجانج الهندى)، والطريق البحرى الذى يبدأ من سواحل مقاطعة ستيت فى جنوب شانتونج، ومن هذين الاتجاهين دخلت العناصر الدينية والعناصر الثقافية الأخرى من الهند، وأيضا من أقطار بعيدة فى أقصى الغرب إلى شمال الصين، وكما هو متوقع كان هذا فى ظل الظروف السابق ذكرها من الفوضى الفكرية وأيضا السياسية، وكان رد الفعل لأثر الثقافة الأجنبية من كل جانب مختلفا عن الآخر، ونجد هذا واضحا تماما فى قيام تعاليم اثنين مختلفين هما لاوتز أو لاوتس (لاتينى من لوكيوس ٦٠٤ - ٥٢٠ ق.م) وكونج فوتزى (كونفوشيوس ٥٥١ - ٤٧٩ ق.م) والتى شهدت أعظم أوائل المفكرين الصينيين ذوى الأثر واللذين لم تعرف الصين مثلهم، من قبل[٢٢].

فقد درس كلاهما الأدب القديم فى أرشيفات الدولة والإمبراطورية وحاولا بناء نظام حكومى ونظم أخلاقية، لكن النتيجة النهائية لدراساتهم وأفكارهم كانت مختلفة ومتشعبة بشكل كبير.[٢٣] - كان لوتز (Lao Tze) فى البلاط الإمبراطورى لأسرة للوهيانج، وإن ظل على اتصال ظاهرى مع علماء الغرب. ورغم أن رحلته المزعومة إلى دول الغرب (نعنى هنا دول غرب الصين بما فيها الهند) أمر مشكوك فيه[٢٤] فهناك شك بسيط بأنه استقبل مؤثرات ثقافية من الجنوب الغربى، أما عن طريق إقليم شو فى وسط يانجتسى[٢٥] أو من خلال تجار إقليم شو (Shuh) (سز تشوان)[٢٦] ودرس الأدب الصينى، واستفاد من تعاليم الحكماء الصينيين القدماء، لكنه لم يسمح لمثل هؤلاء المفكرين السابقين بالتأثير على أفكاره، أو تمنعه من أن يتبنى مفهوما أوسع عن العالم، وعن حياته أكثر من الشائع بين العلماء الصينيين والمجتمع الصينى ككل .

لقد كان مولودا فيلسوفا مستعدا لقبول الآراء الفلسفية المجردة والصوفية والتى لها علاقة بسيطة أو دون علاقة مع العالم المادى فى مجتمع شمال الصين المحافظ، وأحيانا كانت أفكاره غير متوافقة مع التقاليد العريقة فى الصين، ومن المحتمل أن يكون الأول الذى وضع مطالب جموع الفقراء (الأميين) على قدم المساواة مع مطالب

الطبقات الأسمى من الحكام (طبقة الانتلجينسيا) وما يطلق عليه الطاوية(*) (من طاو (Tao) تعنى الطريق أو المجال فى الطبيعة) وهذا ما يعتبر نموذجا يتضمن التقدم والتغير النسبى (رغم اعترافه بشكل غامض وغير محدد) مقابل التزمت أو المحافظة .

ومن وجهة النظر الجغرافية كان لهذا أهمية خاصة لأنها تعكس التغير والرأى التقدمى "لتجار الشوه" " وشعوب شو" التى كانت منطقتهم المركز الرئيسى للتوغل الثقافى من أرض حكماء *البراهاما* وما وراءها.(٢٧) – بعد وفاة الفيلسوف العظيم للطاوية استمرت نفس القناة الموصلة من الجنوب الغربى فى إدخال مجموعات متغيرة من العناصر الفلكية، والصوفية، والكيميائية، والأساطير التجريدية، وأدى هذا إلى ثراء الطاوية رغم أن هذا ليس دائما فى صالحها كفلسفة محددة ومتميزة فى الحياة .

وكانت مرونة المبدأ قد جعلت من الممكن الاندماج التدريجى داخل مضمونها ما كان معروفا باسم **Wonderism** (العجائب) مجموعة من المفاهيم فوق المعدل والتى حولت قوى الطبيعة التى طورها رجال الفلك من الهنود والمستوطنون من التجار فى لانج نجا (Lang - nga) وتسى موه فى جنوب شانتونج(٢٨) أدى هذا الاندماج للمفاهيم إلى قيام ما يسمى الطاوية الجديدة حوالى القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده، ولم يتوقف المبدأ الجديد عن امتصاص معتقدات محلية فى المجتمع الصينى إلى جانب الجديد من العالم الخارجى، ولذلك فإنه من السهل فهم مهما كانت الأسس الفلسفية لمثل هذا الدمج من الخرافات والسحر والفلك فهى أبعد تماما عن أن تكون دينا، أو حتى مبدأ يمكن أن يجذب بسهولة العقل العملى التقليدى عند الصينيين. وحقا نجد

(*) الطاوية والكنفوشيوسية فى الصين، وقد سبق أن ذكرنا شيئا عن الكنفوشيوسية، وعلى عكس البوذية التى أتت الصين من الهند. وعلى عكس السائد بأن الكنفوشيوسية والطاوية ديانتان، إلا أنهما يمثلان تعاليم، وهذه التعاليم ليست دينية على سبيل الحصر، أو التخصيص، رغم أنها تتعلق بأمور كثيرة مما ننظر إليه نحن على أنه دين، ويدل على هذا أن "الطاو" من أهم مصطلحات الفلسفات الصينية، ومعناها الطريق أو النهج أو أسلوب الحياة (المترجم).

سببا وجيها للقــول بأن الطاوية الجديدة مثلت مجمــوعة من الدوافع المهملة والمنبوذة وأضيف إليها عناصر أجنبية عديدة والتى ثبت أنها غير مقبولة فى الهيكل الأساسى والمعقد للثقافة الصينية، وهذا يتناقض بشكل حاد مع تعاليم كونج فو تزى تسى (أو كونج فو تسى) حكيم دولة "لو" فى شانتونج.

على العموم كان العالم " كونفوشيوس" رجلا عمليا، فهم واهتم بالحياة الصينية ومتطلباتها العملية، فلقد درس التاريخ الصينى، وكان عقله قد استوعب التقاليد الصينية، وعندما بحث عن الإصلاح الاجتماعى لجيله، ونظر ببساطة إلى الماضى، وأدرك مفاهيم الأخلاق والتماسك الاجتماعى الذى ينشده، وما علمه لعالم الصين فى عصره لم يكن كثيرا منه نتيجة إبداعه العقلى الفلسفى بقدر ما كان نتيجة دراساته التاريخية، واعترف بنفسه أنه ناقل وليس صانعا أو مبدعا.[٢٩] وكما كتب فولتير عن أخلاقياته " إن ما نسميه كونفوشيوس لم يتخيل رأيا جديدا ولا طقوسا جديدة فلم يكن ملهما ولا نبيا[٣٠].

وفى الحق يمكن أن نعتبره المتحدث أو المعبر عن المجتمع الصينى التقليدى أكثر من اعتباره مبدعا لحركة جديدة من الإصلاح الاجتماعى – وتعد هذه الخلاصة مهمة عندما ندرس الإقليم الذى عاش فيه هذا العالم والعصر الذى كان يلقى فيه تعاليمه .

وبغض النظر عن بعض النقاط المفضلة للاتصالات البحرية (مثل تسى موه ولانج نجا) فإن شبه جزيرة شانتونج (خصوصا داخلها) والأجزاء المجاورة من السهل العظيم تمثل ركنا بعيدا انتقلت عبرها موجات متعددة الحضارة الصينية وسبل الحياة، من السهول الغربية – وفى مثل هذه الأقاليم البعيدة فإن العناصر المهجورة من الثقافة (والتى دخلت أثناء المراحل الأولى للحضارة الصينية)، كانت تحيا دون تغيير، وكان الميل العام للسكان يتجه إلى الإبقاء والمحافظة على الوضع القائم[٣١]، وعلى هذا كان الشىء الطبيعى والمهم جدا من وجهة النظر الجغرافية – بأن جاء رد الفعل للثقافة الصينية ضد التجديدات الأجنبية فى الفكر الفلسفى والاجتماعى من شان تونج والأجزاء المجاورة من السهل العظيم .

وعلاوة على ذلك كان الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة فى زمن كونفوشيوس والذى كان عمليا النقطة الوحيدة فى عالم الصين الأصلية (أى الساحل الشمالى وامتداداته المباشرة) الذى كان تحت الأثر الثقافى المباشر من العالم الخارجى.(٣٢) وكما رأينا بالفعل كان خليج كياوشو منذ أوائل القرن السابع ق.م هو المدخل لشمال الصين، حيث جلب التجار الهنود وغيرهم ليس سلعا فحسب، بل أيضا آراء وأفكارا من جنوب وجنوب غرب آسيا، ومن المفيد أن نلحظ مع هذا أنه رغم تبنى بعض التجديدات المادية (مثل النظام المالى) التى اتبعها الحكام الصينيون فى تلك المنطقة، فإن التغيرات المتعلقة بالمنظمات الدينية والاجتماعية لم تحقق سوى نجاح قليل. وفى هذا المقام يمكن أن نقول إن المعارضة القوية من جانب الصينيين لمثل هذه التغيرات وظهور الكونفوشيوسية نتيجة لها والتى أدت إلى فشل الفلسفة الهندية (فى جنوب شان تونج) فى تدعيم نفسها فى المجتمع الصينى وامتصاصها نهائيا داخل الهيكل الرئيسى للطاوية (التى نمت فى ظل تأثير أجنبى مشابه) من الجنوبى الغربى.(٣٣) وعلاوة على ذلك كانت الفترة التى ظهر فيها كونفوشيوس حدثا مهما فى تاريخ الحضارة الصينية، فقد ساعد الغزو الثقافى من الخارج بسبب الضعف السياسى الداخلى على تعرض النظام الاجتماعى الذى يحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات فى المجتمع للتأثيرات الأجنبية. ومع هذا فإن خلفية المجتمع الصينى كانت جذورها شديدة بحيث لا يمكن أن تهزها مثل هذه الدوافع، وأن تقوم حركة مضادة، ومن أجل تحقيق إعادة البناء المرغوب فإن روح رد الفعل فى المجتمع الصينى لم تكن قوية (مثل العوامل الخطيرة المجتمعة سويا) فحسب بل تمثل أيضا فى تطرف الشخصية الصينية .

وكان قيام كونفوشيوس بعملية حصر القوانين والنظم الاجتماعية الصينية فريدة فى طبيعتها، ومن المفيد أن نقول إنه رغم تلقى كونفوشيوس إلهامه من الماضى الذى كان ينظر إليه بكل إخلاص، واحترام، بل بعشق، غير أنه تجنب الإشارة إلى الأصل الغربى (أى غير الصينى) الذى يعزى إلى التقاليد القديمة والأساطير والتى تعود

إلى المؤسسين الأوائل للأسر التاريخيــة فى الإمبراطوريـــة.(٣٤) لقد كانت مـهمتـه الرئيسية هو أن يشكل من الوثائق الماضية والتقاليد نمطا اجتماعيا يمنح الأمان والرضا لكل الطبقات المختلفة فى المجتمع الصينى الذى يمثل عدم رضاه القاعدة الأساسية لكل حركة الإحياء، ونظرا لأن الكونفوشيوسية قدمت أمانا قانونيا مطلوبا للعلاقات الاجتماعية التى تتعرض للخطر كما أعطاها قوة ظلت تمارس تعاليمها فى الصين حتى يومنا. وكان هذا رغم الكثير من سلبياتها خاصة فيما يتعلق بالجوانب الدينية للحياة والبقاء ورغم أن كونفوشيوس كان يعتقد فى شينجتاى كإله أعلى، فكان فى الغالب بفضل الحديث عن السماء وكانت تعاليمه يعوزها الاعتقاد فى حياة مستقبلية. وعلاوة على ذلك فإن تعاليمه لم تشمل أى مثل (بالمفهوم الذى نعرفه فى فلسفة غربى آسيا) حتى تعمل من أجل تفعيلها، وهكذا سعت لتقوية الروح المحافظة، وبالطبع أعاق هذا عملية التقدم والتحول لعدة أجيال، ومن جهة أخرى يمكن أن نقول وإن هذه المحافظة نفسها هى التى أدت إلى استمرار ومثابرة الكونفوشيوسية فى الصين رغم استقبالها العديد من التيارات الثقافية بعد عصر هذا المعلم العظيم، ورغم أن البعثات الثلاثة الدينية الكبرى فى العالم ونعنى بها البوذية والمسيحية والإسلام(٣٥). قد شقت طريقها فى فترات عديدة داخل الصين حيث واجهت درجات متنوعة من النجاح، لكنها لم تستطع أن تحل محل الكونفوشيوسية باعتبارها المدونة الأساسية للتنظيم الحكومى والاجتماعى وكان هذا هو الحال مع البوذية التى انتشرت بين غالبية الصينيين ومارست نفوذا معينا على فكرهم الفلسفى وتعبيراتهم الفنية. ومما لا شك فيه أن طقوس الكونفوشوسية ونظمها الاجتماعية ومراسيمها الاحتفالية كان لها مجال كبير أكثر من أى تعاليم أخرى فى الصين، وكان تأثيرا مستمرا ومتجددا على الشعب والإمبراطورية الصينية، وليس صعبا أن نفهم هذا فى ضوء الظروف الجغرافية والاجتماعية والتاريخية السابق الإشارة إليها والتى بدأت على أساسها الكونفوشية، وإذا وضعنا هذه الاعتبارات فى ذهننا يمكن أن نواصل مسحنا الموجز للتيارات الدينية الرئيسية التى بلغت الصين من الهند وغربى آسيا خلال الفترة التى تغطيها هذه الدراسة .

التيارات الثقافية على طول الطرق البرية بين غربي وشرقي آسيا
السياق الجغرافي لهذه التيارات
البوذية: انتشارها في وسط آسيا على طول الطريق الجنوبي لتاريم
انتشارها في النطاق الثقافي الصيني وهوامشه

رأينا أن نخصص الجزء الأكبر من دراستنا للتيارات على طول الطرق البرية لوسط آسيا حيث كان للظروف الجغرافية تأثير ملحوظ، وتقدم الجغرافيا الروحية للإقليم الأخير بعض النقاط المعقدة، ومن أجل فهمها لابد وأن يتضمن تقارير تاريخية مفصلة، مما لا تسمح به طبيعة دراستنا والمساحة المتاحة لعرضها، ومع ذلك فإن الوضع الجغرافي للتيارات الدينية المتعددة تستحق منا الدراسة، وبغض النظر عن الزرادشتية واليهودية وهما الديانتان غير التبشيريتين واللتان كان انتشارهما في الصين مقصورا أساسا على التجار والمستوطنين من التجار الذين لم يكونوا يهتمون بإدخال الناس في الدين الجديد في الدول التي زاروها أو استقروا فيها،(٣٦) فقد شقت أربعة ديانات ومعتقدات رئيسية طريقها إلى آسيا الوسطى وهي البوذية (خصوصا عقيدة الماهايانا) والمنشوية، والنسطورية (المسيحية) والإسلام، وقد قام بنشرها والدعوة إليها رجال الإرساليات أو التجار أو كلاهما .

البوذية أول هذه الديانات التي بدأت في وسط وشمال الهند في حوالي القرنين الرابع والخامس ق.م كاحتجاج ضد الفلسفة القديمة والقوانين الاجتماعية للبراهامية، وانتشرت العقيدة الجديدة في الشمال والجنوب حيث دعمت نفسها، فضلا عن تخطيها خارج حدود الهند الثقافية الأصلية، وسعت إلى إيجاد معتنقين لها بين اليونانيين والبكتريين والبارثيين، وما يسمى بقبائل السيكيثيان (Scythian).

ويعني ضم عناصر حدة توسعا عظيما في أفق الفكر الفلسفي البوذي والفني خاصة خلال القرون الأول من العصر المسيحي .

وما إن مرت خمسة أو ستة قرون بعد وفاة بوذا (حوالى ٤٨٣ ق.م) حتى ظهر ما يسمى الماهايانا الجديدة أو الوسيلة Vehicle الكبرى وهى طائفة من الهنود عاشت على الحد الشمالى الغربى للهند وكشمير وهذه المنطقة حظيت بحماية الحكام غير الهندوس[٣٧].

وكانت الماهايانا شكلا أكثر نقاء من البوذية عن الهنيايانا (الوسيلة الصغيرة) التى كانت من جهة أخرى تضم فقط هذه المبادئ التى كانت هندية بدرجة كبيرة.[٣٨]

واستطاعت البوذية فى الشمال الغربى من الهند أن تمتص لا أفكارا دينية جديدة فحسب بل التعبير الفنى عن هذه الأفكار أيضا كما كانت معروفة فى غربى آسيا، وأدى هذا إلى تطوير ما يسمى الفن البوذى الإغريقى الذى نقلة القساوسة البوذيون و الفنانون إلى دولة سيريندیا (كوتان) وأخيرا إلى الصين نفسها.[٣٩] وكما كان متوقعا ويبدو أن انتشار الثقافة البوذية فى آسيا الوسطى قد ارتبط مع افتتاح الطرق البرية للتجارة بين غربى وشرقى آسيا .

وعلى الرغم من أن آثار البوذية قد شقت طريقها غربا فى الهضبة الإيرانية، فإن الاختراق الرئيسى لهذا الدين كان يتجه نحو الشرق. و كما ذكرنا من قبل بالفعل فيما يتعلق بالطرق العديدة فى تاريم فإن الطريق الوحيد الذى كان مهيأ للتوغل الثقافى من شمال غرب الهند هو الطريق الممتد بين بكترا (البلخ) عبر الممرات الجنوبية للبامير إلى كوتان والواحات الأخرى شمال جبال كوين لون والتين طاغ وهكذا إلى ممر كانسوه[٤٠] (انظر خريطة ٥، ١٢) (يقال إن كوتان قد تلقت هذه العقيدة حوالى ١٢٥ ق.م.، وبعد ثلاث سنوات تحول رؤساء ياركاند وكشغر إلى هذه الديانة[٤١].

ومن المحتمل أن يكون كل الركن الجنوبى والغربى لحوض تاريم قد تلقى العقيدة من بكتريا، و يعنى هذا أن قبائل يويه تشى هاجرت من حدود هان شو إلى غرب تركستان وحدود شمال غرب الهند فى النصف الأول من القرن الثانى ق.م.قد تحولت بالفعل إلى هذه العقيدة. وبالتالى فإن البوذية فى اتجاهها شرقا لم تتبع طريق سمرقند عبر شمال تركستان إلى مرتفعات تيان شان .

ويمكن أن نستخلص من تصريحات الحجاج مثل هيون شان (هيون ثانج) حوالى ٦٣٠ بعد الميلاد و الذى يذكر عدم وجود معابد بوذية فى الأراضى التى احتلها الأتراك شمال أكسوس ويقول (عندما وصل إلى النهر) (إن الملوك الأوائل لهذه الدولة لم يؤمنوا بالبوذية ولكن كانوا يقدمون الأضاحى إلى أرواح غير المؤمنين) .(٤٢) إن تتبع البوذية فى طريقها إلى الصين من الطريق الجنوبى لحوض تاريم بدلا من الطريق الذى يمر عند حضيض تين شان حيث كانت المنحدرات تكسوها أرض الحشائش وتناسب البدو، و هذا يفيد كثيرا دارسى الجغرافيا الروحية. و هذا يعنى أن على دعاة العقيدة أن يحملوها من واحة إلى واحة دون أى اعتناق واسع لها على طول الطريق بسبب عدم الاستقرار فى الممرات المسكونة التى كانت مقصورة إلى حد كبير على الواحات و مجارى الأنهار.(٤٣) أما واحات الطريق الجنوبى و خصوصا كوتان فقد صارت مراكز مهمة لتعاليم البوذية والتى منها شق القساوسة و الرهبان طريقهم إلى البلاط الصينى.

وزار المعتنقون للديانة مؤسسات هذه الواحات الدينية بحثا عن المعرفة والمعلومات الخاصة بالقوانين ومبادئ بوذا العظيم، وتحدث الحجاج الصينيون عن التطور الكبير و عظمة البوذية فى كوتان و منهم فاهيان (Fa Hian) (٣٩٧ – ٤٠١م)الذى يقول :–

(لقد تلقى كل السكان العقيدة وهناك عدد كبير من رجال الدين (القساوسة) ويمكن أن نحصى مئات الألوف منهم، كما أن هناك العديد من المؤسسات التى يعيشون فيها معا.)(٤٤)

ومع هذا فبعد عدة قرون من عصره يبدو أن البوذية تقلصت تدريجيا فى هذا الإقليم، وتشير سجلات أسرة تانج عن احترام ملوك ايو ثيان (كوتان) لمبادئ بوذا، لكنهم لم يشيروا إلى الاحتفالات الكبيرة التى كانت تقام فى الفترات السابقة.(٤٥)، وبعد عام ٦٣٠ بعد الميلاد لم يعد هناك أى ذكر لهذه العقيدة بين سكان كوتان(٤٦)

رغم أنه من المحتمل أنها بقيت فى الواحات تمارس بشكل طيب بعد قدوم العرب إلى حدود شرق تركستان فى القرن الثامن م.

وكانت أسباب انهيار البوذية عديدة، فمن جهة فإن قيام أهل التبت مابين القرنين السابع و التاسع سببا فى اضطراب التجارة على طول طريق كوتان[٤٧] وأدى إلى إفقار شعوبها، وتدمير مؤسساتها الدينية، بينما نجد من جهة أخرى كان الانهيار النهائى للبوذية فى الهند نفسها كرد الفعل من جانب الهندوكية منذ حوالى القرن السادس و السابع و ما بعدهما و هو ما عجل بانهيار تعاليم بوذا فى الغرب الأوسط لآسيا ككل. وبالطبع سهل هذا من انتشار أفكار دينية جديدة واردة من غربى آسيا[٤٨].

لقد اتفق المؤرخون على تاريخ وصول البوذية إلى الصين، ويرجحون السنوات ما بين ٢١٧ق.م، ٦٧ بعد الميلاد كتواريخ مقترحة، رغم أن التاريخ الأخير أكثر احتمالا على الأقل بالنسبة للدخول الرسمى لهذه الديانة[٤٩].

وصلت البوذية أولا إلى القسم الشمال الغربى، وشقت بالتدريج طريقها فى الصين الأصلية، واستطاعت أن تقدم النقص الموجود فى الكونفوشيوسية، ونعنى العناصر الروحية، والعاطفية الضرورية، تعاليم يمكن أن تعد ديانة بالمفهوم الغربى (غربى آسيا) و كانت هناك معارضة من حين لآخر باعتبارها تجديدا أجنبيا و لكن هذا لم يستطع طردها من البلاد، وبعد سقوط أسرة هان اعتنقت العديد من الأسر الشمالية العقيدة بشكل ظاهرى، بينما تسامحت بعض الأسر الوطنية فى الجنوب بدخولها عن طريق البحر. ولم تدعم البوذية نفسها فى الصين فقط، بل إنها أثرت على الكونفوشية خاصة فى جانبيها الفلسفى والدينى البحت وأيضا فى مسائل العروض الفنية للأغراض الدينية[٥٠]. ودخلت إلى كوريا معتقدات بوذا و فنونه ففى القرن الرابع بعد الميلاد حتى وصلت إلى اليابان فى القرن السادس وأوائل القرن السابع ميلادى.[٥١] ومع هذا فإنه حتى زمن أسرة التانج (أو حوالى أواخر القرن السابع و أوائل القرن الثامن ميلادى) لم تستطع البوذية أن ترسخ أقدامها كمؤسسة صينية

فى شرقى آسيا (منطقة الثقافة الصينية وهوامشها).(٥٢) وحيث إنها من نمط الماهايانا المرن استطاعت بالتدريج امتصاص الكثير من التعاليم الصينية إذا اضطرت إلى تكييف نفسها مع البيئة الجديدة،(٥٣) بل إنها استخدمت كأداة لنشر الثقافة الصينية وقيمها على حدود الإمبراطورية الصينيـــة، ودخلت إلى التبت منذ حوالى القرن السابع و ما بعده(٥٤) حيث اتبعت خطا متخصصا من التطور فى الأديرة فى الواحات المنعزلة نسبيا فى هضاب الاستبس، كانت تلقى قبولا من أباطرة اليوان وخلال عصر المغول ما يسمى اللامية فى التبت والموجودة فى التبت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، وانتشرت على الحدود الشمالية من الصين وفى منغوليا الخارجية: وفى التبت ساعدت على تطور الحياة المستقرة بفضل الأديرة (٥٦).

ومن الطبيعى أن يسهل هذا قيام كيان صينى إمبريالى. وتمت محاوله مشابهة على الرغم من إنها أقل تأثيرا فى انتشار عقيدة بوذا فى المنطقة البدوية من تيان شو بفترة طويلة فى ظل أسر شمال الصين من عصر الهان وما بعده. ويبدو أن بعض القبائل التركية، واليوغور (Uigur) خاصة الذين كانوا يعيشون فى شرق تين شان قبلت بعض أشكال أخرى من البوذية، لكن هذه الجماعات كانت قليلة نسبيا فى عددها، وظلت هذه العقيدة مقصورة على المستعمرات الصينية فى الواحات.(٥٧) وكما سنرى بأن حزام الاستبس إلى الشمال من حوض تاريم، قد وقـــع ضمن المعتقدات الأخرى القادمة من غربى أسيا.

المانوية أو المنشاوية
بدايتها فى شمال شرق الجزيرة العربية انتشارها شرقا فى آسيا الوسطى
على طول الطريق الشمالى لتاريم - التناقضات مع البوذية بسبب تأثيرات جغرافية مختلفة .

تعد المانوية الديانة الثانية التى نعالجها وهى ديانة بدأت فى المشرق العربى وشقت طريقها شرقا حتى وصلت إلى الصين، ومنذ بدايتها تصور بطريقة واضحة جدا الطبيعة المعقدة للجزء الشمالى من المشرق العربى، وهو إقليم استمد عناصره الثقافية من المتضادات، الصحراء وعالم البحار لشرق البحر المتوسط والمرتفعات الاستبسية للهضبة الإيرانية الطوروسية(٥٨).

ولد مانى (*)(مانيز أو مانيشوس) مؤسس الديانة فى بابليون عام ٢١٥ بعد الميلاد(٥٩) وقضى ايسه الأولى بين المودتيسالية، وهى جماعة أو فصيلة خرج منها فى أزمنة لاحقه مبدأ المانديان - وهى شكل معين من (**) الجنوتيزم (٦٠) وبعد ذلك انفصل عن هذه المدرسة وسافر إلى أجزاء مختلفة من شمال المشرق العربى، وهكذا اكتسب مجالا واسعا من المعرفة من مصادر عديدة لم تكن متجانسة مع بعضها البعض.(٦١) وعند تتويج الإمبراطور الساسانى الثانى و يدعى سابور الأول (Sapur١)

(*) معنى كلمة مانى بالفارسية " الفريد = النادر " وهو مانى بن فاتك (٢١٦-٢٧٤م) مؤسس الديانة المانوية التى كانت مزيجا من الزرادشتية واليهودية والمسيحية، وكان أبوه من رجال همدان، هاجر إلى بابل وولد هناك، ادعى النبوة بعد أن اطلع على الأديان الموجودة، وأعلن أنه هو الذى جاء ليتمم عمل زرادشت وبوذا والمسيح، فهؤلاء جميعا شفرات ناقصة من الحقيقة فهو رسول النور " (المترجم)

(**) الغنوصية Gnosticism حركة فلسفية دينية نشأت فى العصر الهيلينى، تذهب إلى أن الخلاص يتم عن طريق المعرفة أكثر مما يتم بالإيمان .

أعلن مانى ديانته الجديدة لشعب بابليون فى عام ٢٤٢ ميلادية (الذى كان عندئذ تحت السيادة الساسانية)(٦٢). ومع ذلك لم يكن التوقيت مناسبا لمثل هذا الإعلان، فلقد جاء تأسيس الإمبراطورية الساسانية فى عام ٢٢٨ ميلادية كنتيجة لحركه فارسية ضد الحضارة غير الفارسية فى شمال إيران - وكان طبيعيا أن يصحب ذلك بإحياء الزرادشتية كديانة فارسية يعارض قساوستها الماجيان Magian قيام أية مدارس دينية محلية فى الولايات التابعة للإمبراطورية .

كانت هذه فترة تسعى خلالها الهضبة (الإيرانية) إلى إعادة تأكيد السيطرة الثقافية على سهول بابليون، وليس العكس، وعلاوة على ذلك شكلت تعاليم المانوية قدرا معقولا من الفلسفة الهيلينية والتى اعتبرها الماجيان تهديدا خاصا للثقافة الفارسية فى نضالها ضد تلك الثقافة فى شرق البحر المتوسط، ولم تكن إيران (فارس) مستعدة لاختراق أو توغل ثقافى آخر من العالم الهيلينستى مثل ذلك الذى جاء فى أعقاب الإسكندر الذى أحرق الكتب المقدسة، وألغى الطقوس التاريخية للزرادشتية، وعلى هذا كان من الطبيعى أن تظهر معارضة قوية ضد النجاح الذى حققته العقيدة الجديدة فى المنطقة الساسانية، ومع هذا فإنه من المفيد أن المعارضة أدت إلى تحويل مجال نشاط مانى وتلاميذه من مجرد مجال محلى إلى إقليم أكثر اتساعا على الهضبة نفسها، وفيما وراء ذلك إلى الشرق، وفى هذا المقام ربما نفترض أن فشل الزرادشتية للقضاء على المانوية كان جزئيا، نتيجة وجود عناصر بين رعايا الإمبراطورية، والذين حصلوا على قدر معين من الثقافة الهيلينية .

وقد أعطى نفى مؤسس الديانة وما تلا ذلك من استشهاده دافعا جديدا لأتباعه والأكثر من ذلك توجها جديدا نحو الشرق.(٦٣) وهربوا إلى ما وراء الحدود الشرقية للإمبراطورية إلى تركستان.(٦٤) وهناك نشروا ديانتهم بين القبائل التركية التى كانت نفسها تعارض قيام سلطة الساسانيين، وهناك حقيقة مهمة من وجهة النظر الجغرافية وهى أن المانيين لم يتبعوا خطى البوذية أثناء توسعهم فى الشرق وذلك على طول الطريق الجنوبى من حوض تاريم إلى الصين، بل أيضا كانوا يسعون للانتشار

فوق سهول أرض الاستبس وحزام شمال تركستان وتيان شان (انظر خرائط ٥ ورقم ١٢)، ونتيجة لذلك استطاعوا ضمان معتنقين أكثر لعقيدتهم بين القبائل الرعوية على طول هذا الطريق الشمالي، وهذه ميزة أو ربما غير ميزة – لم يمتلكها البوذيون أثناء انتشارهم على طول الجوانب الجنوبية شبه الصحراوية فى حوض تاريم(٦٥).

يجب أن نلاحظ مع هذا أنه بسبب طبيعتها المركبة، امتصت العقيدة المانوية عناصر عديدة من معتقدات مختلف القبائل التى سيطرت عليها، وأيضا من البوذية التى اتصلت بها بطريق مباشر أو غير مباشر هنا وهناك(٦٦) .

كما يجب أن نتوقع ، كانت النتيجة أنه بعد قرون قليلة من انتشارها ناحية الشرق فقدت شخصيتها وصارت مجموعة من المعتقدات متغايرة الخواص أكثر من كونها تعاليم متميزة.(٦٧) رغم أن رجال الدين كانوا قادرين على الوصول إلى الصين على الأقل فى أواخر القرن السابع بعد الميلاد(٦٨) إلا أن ديانتهم كانت مشوهة لدرجة لا تستطيع الحفاظ على نفسها، وحتى بعد أن حققت قبضة قوية على قبائل اليوغور (Uigur)القوية فى وسط وشرق تين شان (من حوالى أواخر القرن الثامن وما بعده)(٦٩) فقد فشلت فى الاستفادة من المركز الجديد كقاعدة تمارس منها نفوذها على الحدود الشمالية الغربية للصين .

كما نلاحظ أن قواعد الواحات العديدة وحزام الحشائش المصاحب للطريق الشمالى كان أبعد ما يكون مناسبا لنشر دعوة مشوهة وضعيفة مثل تعاليم مانى وأتباعه. وفى هذا المجال اختلف الطريق الشمالى (أو الطرق) بشكل حاد عن الطريق الجنوبى التى ضمنت ظروفه الجغرافية تماسك تعاليم بوذا التى تمت دراستها وتفسيرها فى المؤسسات الديرية وغيرها فى واحات الصحراء(٧٠) كما فى كوتان، وكان مصير العقيدتين فى انتشارهما ناحية الشرق مختلفا رغم مرونة الاثنين.(٧١) ويبدو أن قساوسة المانوية الذين وصلوا إلى بلاط الصين كانوا يميلون تدريجيا إلى التماثل مع علماء البوذية، وفى الوقت نفسه امتصت الثقافة الصينية فى النهاية تعاليمهم فى هيكلها الرئيسى، إنها حالة نمطية، تبين أن عناصر الثقافة الضعيفة لا تستطيع

البقاء والحياة فى المحيط الثقافى والمتخصص بشكل مركب فى العالم الصينى .

النسطورية المسيحية والتعقيد الثقافى فى الشرق الأدنى

تطور ثقافات جديدة فى شمال شرق الجزيرة

التأثيرات الجغرافية (المناخية) والبشرية

الكنيسة النسطورية ونشاط إدخال الناس إلى دين جديد فى الصين

مشاكل وتقلبات الطرق عبر وسط آسيا المسيحية والبوذية

تعد الديانة الثالثة فى دراستنا المسيحية النسطورية والتى لا يعتبر انتشارها تيارا بالمفهوم الصحيح وإن كان التحول إلى العقيدة الجديدة على طول طرق آسيا الوسطى لم يحقق نفس المجال مثل ما حدث نحو البوذية أو المانشية، ولا يوجد أى حزام مستمر أو شبه مستمر لمناطق الاستقرار النسطورية فى الشرق الأقصى – ورغم هذا يعد الدور الذى قام به مبشرو النسطورية فى الجغرافيا الروحية فى الشرق الأدنى وآسيا الوسطى مهما ويستحق دراسة خاصة، ويسجل فجر المسيحية فى المنطقة شمال شرق الجزيرة مرحلة حاسمة فى قصة الفكر الدينى فى غرب آسيا، وكما ذكرنا من قبل شهدت القرون القليلة السابقة والتالية لميلاد المسيح استيراد عناصر ضخمة من الفكر الإغريقى فى سهول شمال الجزيرة والهلال الخصيب، وحتى الهضبة الإيرانية.[٧٢] تلقت نصيبها من هذا الاقتباس ومن حوالى القرن الثالث الميلادى وبعده رغم هذا، بدأت عوامل جديدة فى العمل وكانت الحضارة البحرية الكبرى لشعوب شرق البحر المتوسط فى حالة من الانهيار وحتى الأسياد الرومان الذين كانوا حملة هذه الحضارة كانوا بالفعل فى مرحلة انهيار، وفى نفس الوقت بدأت شعوب الصحراء الاضطرابات فى فترة ما قبل الإسلام ولم يكن عندهم القدرة على المساهمة فى أى ثقافة مهمة فى السهول الشمالية .

كانت النهضة السياسية والثقافية الجديدة للساسانيين فى إيران قد تأثرت نفسها بالثقافة الهيلينية، وظلت لبعض الوقت غير قادرة على ممارسة أى نفوذ على

الهلال عدا الحد الغربى للإمبراطورية الإيرانية، وخلال السنوات المائة القليلة والتى بدأت مع القرن الثالث ميلادية، لا تستطيع المراكز الثلاث التقليدية للانتشار الثقافى فى الهلال الخصيب ونعنى العالم البحرى للبحر المتوسط والهضبة الإيرانية الطوروسية، وصحراء الجزيرة العربية أن تقدم أية مساهمة ملموسة للمركب الثقافى لهذه المنطقة، وعلى هذا مر كل الشرق الأدنى عبر ما يمكن أن تعتبره (أزمات ثقافية) خلالها تركت المناطق الأصغر فى الهلال الخصيب حرة فى تطوير ما حصلت عليه سابقا. وأدى هذا إلى قيام العديد من المدارس الفكرية المحلية (أى الكنائس) خصوصا فى الأجزاء الشمالية والغربية من الهلال الخصيب. ولم تكن مثل هذه المدارس مستقلة عن السلطة السياسية فى إمبراطورية روما، ولكن أيضا عن الكنيسة الإغريقية الأساسية، والتى تطورت تحت الإمبراطورية الشرقية فى عصور تالية، كما أن الظروف الجغرافية التى تطورت فى ظلها هذه الكنائس لها اهتمام خاص، وبصرف النظر عن مصر، كان نشاط المدرسين والقساوسة وكنائسهم مقصورا فى البداية على الهلال الخصيب نفسه وحدوده حيث كانت سلطة الأباطرة على الأقل ملموسة. ولقد وضعنا بالفعل أسبابنا لقبول الرأى بأنه قد حدث تغير مناخى طفيف نحو الجفاف فى هذه المنطقة خلال الفترة التى تزامنت مع النشاط العظيم لهذه الكنائس، ويساعد مثل هذا الجفاف على شرح خط التطور الخاص الذى انتهجه السوريون، والنسطوريون، واليعاقبة والكنائس الأخرى فى شمال شرق الجزيرة، وكان بناء الأديرة على حافة السهول الصحراوية الجافة وفى الواحات داخل الصحراء الأصلية أفضل وسيلة لنشر العقيدة بين القبائل المتناثرة، كما شجع اضطهاد الرومان أيضا على زيادة الكهنة واللاجئين من رجال الدين على الإقامة فى الواحات البعيدة والمنعزلة التى قدمت أماكن مثالية للمأوى، وصارت كل من مدن الأحواض التى تحد الهلال الخصيب إلى الشمال (خصوصا ايديس القديمة أورفا الحديثة) وواحات الصحراء السورية مراكز للحياة الديرية والدراسات الدينية ونشاط اعتناق الدين الجديد(٧٤).

وسيعنى بشكل خاص بواحدة من الكنائس المنشأة حديثا، ونعنى بها المدرسة

النسطورية التى كانت تهتم خصيصا بنشر العقيدة نحو الشرق، ورغم أن نسطوريوس نفسه لم يؤسس هذه المدرسة، ويرسم برنامجا لاعتناق الديانة بين تلاميذه حتى بعد عام ٤٣١ ميلادية إلا أن الاتجاه نحو ظهور مثل هذه الكنائس غير الملكية والتى كان لها نشاطها التبشيرى الخاص فى داخل وخارج الشرق الرومانى لقرن أو أكثر من قبل وبالفعل فى نهاية القرن الثانى الميلادى تم ذكر المسيحيين لأول مرة فى الوثائق السورية باعتبارهم استقروا فى منطقة جيلان جنوب غرب بحر قزوين [٧٦].

وشجع على انتشار المسيحية ناحية الشرق أن العديد من المسيحيين المضطهدين فى المناطق الشرقية من الإمبراطورية الرومانية قد وجدوا مأوى لهم فى المنطقة الإيرانية خصوصا بعد تأسيس وقيام الإمبراطورية الساسانية، وفى هذا المقام كانت الاعتبارات السياسية أقوى من الدينية أو الدوافع الثقافية مثل نشر المسيحية فى المناطق الإيرانية على حساب الزرادشتية عقيدة الفرس .

فلقد عمل العديد من القساوسة المسيحيين والنسطوريين كولاة سياسيين للأباطرة الساسانيين خصوصا على الحد التركى من إمبراطوريتهم، وربما أيضا حتى حدود الصين، ومع هذا لم يكن هذا هو العامل المهم الوحيد فى نشر المسيحية فى آسيا الوسطى، فمع بناء الكنيسة النسطورية كمؤسسة خاصة فى القرن الخامس، تم وضع مشروع جديد للنشاط التبشيرى فى منطقة تركستان، وصار التجار النسطوريون أكثر شغفا بنشر مبادئها، ويمكن أن نقيس المدى الذى توغلت فيه المسيحية النسطورية بين الشعب التركى من حقيقة أنه فى عام ٥٨١ ميلادية أن بين من أخذهم الرومان البيزنطيون سجناء (أسرى) وجدوا الصلبان على جباههم.[٧٧]
ومع هذا فمن المهم أن نلحظ أنه رغم الحماس الذى صاحب نشاط النسطوريين فإن النتيجة النهائية لاتقارن مع ما حققه البوذيون أو المنشاويون فى مختلف أجزاء آسيا الوسطى، فلقد كانت البوذية فى كامل انتشارها خلال القرون القليلة مع بدايات العصر المسيحى، بينما سبقت المانشية النسطورية فى آسيا الوسطى بحوالى قرنين

من الزمـان، وفضـلا عن ذلك تزامن المبدأ الأخير (جزئيا) مع مـا عرف بـاسم تشتيت الهـون (Hun) ويسـجل القـرنان الخـامس و السـادس الميـلاديان و التى انشـغل النسطوريون فيهما بنشر العقيدة، مرحلة من العلاقات التجارية المتقطعة على طول الطرق البرية وذلك قبيل قيام دولة التانج القوية فى الصين.

ومن الطبيـعى أن يعـرقل هـذا نجـاح النسطوريين، ورغـم هـذا فـإن لدينا دلائل محـددة أنهم كـانوا مـوجودين فى بلاط أباطرة التـانج مع بداية عـام ٦٣٥ مـيلادية، ويوجد هذا التاريخ فى النقوش النسطورية المشـهورة فى سينجانفو على أنه وصول جماعات الوبين (Alopen) من دولة تاتسن (الشرق الرومانى)[٧٨] .

وتميل بعض السلطات إلى الاعـتـقـاد أن هـذه البـعـثـة النسطورية قـد أرسلها الإمبراطور الساسانى لأغراض سياسية.[٧٩] ومـهما كان الأمـر فمما لاشك فيه أن تسـامح تايا سـتـونج إمـبراطور التـانج (٦٢٧ - ٦٥٠ م) قـد شـجـع على الاتصـال الثقافى للصين مع العالم الخارجى، ويعلل هذا بشكل جزئى وجود الألوبين فى البلاط الصينى أما عن طريقه الذى اتبعه النسطوريون إلى الصين فليس من السـهل تحديده (انظر خريطة رقم ١٢).

والحـقـيـقـة التى ذكـرها "بروكـبيـوس" أنه مع منتـصف القـرن السـادس الميـلادى أحضر اثنان من رجال الدين المسيحى (سواء كانوا نسطوريين أو غير ذلك)[٨١] إلى جـوستنيـان (٥٢٧ - ٥٦٥م) البـيزنطى بيض دودة القـز (الحـرير) من سـيرينديا أو منطقة كوتان.[٨٢] وفى هذا دليل على أن طريق حوض تاريم قد اعتاده رجال التبشير، ومن جـهـة أخـرى ربما يوحى فـتح قـوات التـانج لحـزام تين شـان الاسـتـبـسى، والاضطرابات التى وقـعت على حـدود التـبت مـا بين القـرنين السـابع والتـاسع الميلادى أنه فى فترات معينة كان الطريق الشمـالى أكثر انفتاحا للتبـادل الثقافى والتجارى، ولم يذكـر ماركو بولو شيئا عن المسيحيين فى كوتان، شيرشـان أو منطقة لوب Lop وفى نهاية القرن الثالث عشر، بينما يذكرهـم هو ورحالة العصـور الوسطى. (نسطوريون وغيرهم فى مـختلف الأمـاكن شـمـال حـوض تاريم).[٨٣] وعلى هذا فـإن

الممر الرئيسى الذى دخل النسطوريون عن طريقه إلى الصين كان فى حالة تذبذب، وفى رأينا إن تحديد هذا الممر مهم جدا مثل ما حدث فى حالة البوذية أو المانشوية، بل أكثر من العقيدتين السابقتين كانت النسطورية قد وضعت الصين كهدف لها، ولم تبذل جهدا كبيرا نسبيا لتحويل الشعوب على طول الطرق فى تاريم، وكانت أساسا محاولة لزرع المسيحية فى الصين أكثر من نشرها هنا وهناك فى شكل اختراق بالمفهوم الصحيح .

وكان هذا صحيحا على الأقل خلال الفترة الأولى من النشاط النسطوريون. ولم يعمل القساوسة ورجال الدين النسطوريين فى البلاط الصينى على نشر عقيدتهم الخاصة بل أيضا عملوا على الاتصال مع رجال إرساليات الديانات الأخرى، ويبدو أنهم تعاونوا مع البوذيين فى جهودهم لنشر العقيدة التى تفيد الجانبين بشكل مفيد[٨٤].

فى هذا الاتصال بين النسطورية والبوذية يبدو أن النسطورية قد مارست قدرا معينا من النفوذ على المنظمة الدينية، وربما الفكر الدينى للبوذية[٨٥] ويقال إن التأثير المسيحى قد وضح بشكل قوى فى الشكل الأخير للبوذية، التى تطورت فى التبت وصارت معروفة باسم اللامية، إن التشابه بين تعاليم البوذية والمسيحية يظهر أنها لم تكن كلية نتيجة خطوط متشابهة من الفكر البشرى بالنسبة لدارسى الجغرافيا الروحية تستحق دراسة الظروف التى تطورت فيها كل من اللامية والمسيحية فى الشرق الأدنى نظرة خاصة. وقد اقترحنا بالفعل أنه مع تطور الرهبنة فى الكنائس المصرية اليعقوبية والسورية والنسطورية والكنائس الأخرى فى الهلال الخصيب أنها كانت إلى حد كبير تحبذ وجودها فى واحات صحراوية منعزلة على حدود المستوطنات المستقرة[٨٦] كانت الظروف الجغرافية فى التبت مفضلة لمثل هذا النشاط الديرى، (الرهبنة) وذلك فى الواحات العديدة للهضبة التى تكسوها حشائش الاستبس، وعلى هذا نميل إلى التفكير بأن التشابه فى المنظمات الكنسية (خصوصا طوائف الرهبنة) وربما أيضا الفكر الدينى بين اللامية والمسيحية يمكن أن يفسر على

أسس جغرافية. ولا تزال حقبة النسطورية فى وسط وشرقى آسيا بعد نشاطها المبكر فى ظل أسرة التانج فى الصين غامضة، ومن الواضح رغم هذا أن العقيدة قد انهارت فى الصين نفسها، ورغم التسامح العام لأباطرة الصين والإحياء الجديد للنسطورية من حين إلى آخر، فإنها عانت عادة من الاضطهاد الموجه ضد الديانات الأجنبية بعامة، فقد تم طرد حوالى اثنان أو ثلاثة آلاف قسيس أساسا من النسطوريين فضلا عن ربع مليون من كهنة البوذيين ورجال الدين(٨٧) فى حوالى ٨٤٥ ميلادية.

ويخبرنا ابن اسحق الفارابى فى عام ٩٨٧ ميلادية أنه فى لقائه مع أحد القساوسة فى بطريركية بغداد، والذى كان قد عاد حديثا من الصين أنهم أخبروه أن المجتمع المسيحى النسطورى فى الصين على وشك الاندثار.(٨٨) – ورغم هذا يجب أن نلاحظ أن الاضطهاد الصينى لم يكن فقط ولا بأية وسيلة العامل الأكثر أهمية فى انهيار والاختفاء النهائى (أوائل القرن الرابع عشر ميلادى) للنسطورية(٨٩).

فكما ذكرنا اختلفت النسطورية عن البوذية والمانشية فى حقيقة أنها لم تنتشر على نطاق واسع على طول الطريق التى اتبعتها إلى الصين، وباستثناء بعض المستوطنات المستقرة فى الواحات حيث نشرها رجال الإرساليات (وربما عن طريق التجار أيضا) لم يكن لها قاعدة كبيرة فى آسيا الوسطى تستطيع أن تمارس منها أى نفوذ فى الصين، وكان قساوسة سى نجان فو منفصلين عن مواطنهم الأصلية وعن المركز الرئيسى للكنيسة فى شمالى المشرق العربى، وقد ازدهرت النسطورية فى شمالى المشرق العربى مع ازدهار الإمبراطورية العربية وعمل القساوسة فى الأعمال العلمية فى تعاون مع العلماء المسلمين(٩٠).

مع انهيار العنصر العربى فى الخلافة الإسلامية، وسيطرة الشعب التركى (السلاجقة والعثمانيين وغيرهم الذين أتوا، من السهول الشمالية، عانت مدارس الكنائس مثل النسطورية ومثلها المدارس الإسلامية، ورغم أن النشاط النسطورى فى آسيا الوسطى وعلى حدود الصين قد شهد به رحالة فى العصور الوسطى وأيضا

ماركو بولو، فإن هناك ما يجعلنا نعتقد أن شكل المسيحية الذى انتقل إلى عالم المغول بعد افتتاح الطريق البرى (بواسطة جانكيزخان وأتباعه) كان إلى حد كبير ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية .

وقد ضع البطريرك النسطورى فى بغداد وهو زعيم الكنيسة النسطورية نفسه تحت سيادة روما فى عام ١٣٠٤ ميلادية، ولم يعد لأى مجتمع نسطورى منفصل فى شرقى ووسط آسيا أى وجود أو صلاحية، وبالتدريج اندمج الرعايا النسطوريون فى أشكال أخرى من المسيحية، فضلا عن ديانات أخرى من وسط وشرقى آسيا، ويسجل هذا نهاية فصل هام نسبيا فى قصة العلاقات الثقافية بين غربى وشرقى آسيا .

الإسلام، انتشاره الشرقى فى قارة آسيا
متتبعا خطى التيارات الثقافية المبكرة
أربعة مراحل فى انتشاره عبر الطرق البرية

المرحلة الأولى: من عمق الصحراء إلى الهلال الخصيب والهضبة الإيرانية وحدود الاستبس الشمالى، الإسلام والمجتمعات المسيحية فى شمال شرق الجزيرة، الإسلام فى إيران

يبقى أمامنا استعراض التوسع الإسلامى نحو الشرق (انظر خريطة رقم ١٢) وسوف يساعدنا العرض الذى قمنا به حسب الوضع الاقتصادى لانتشار مختلف الديانات فى وسط آسيا فى إيضاح قصة الإسلام، ولكى نقدم التفاصيل الكاملة لانتشار الإسلام، فإن الأمر يتطلب عرضا تاريخيا، ولا يزال أمامنا استعراض لهذا الانتشار، ويكفى من وجهة نظرنا أن نشير إلى الملامح الرئيسية لنشر الثقافة الإسلامية، وأن نلفت الانتباه إلى أهميته الجغرافية ولتحقيق هذا الغرض نقترح تقسيم انتشار الإسلام فى الشرق الأقصى إلى أربعة مراحل أساسية :-

١ - انتشار الإسلام فى سهول الهلال الخصيب، والهضبة الإيرانية والحدود الجنوبية للسهول الشمالية حتى نهر اكسوس(*) Oxus، ويغطى هذا الفترة من النصف الأول من القرن السابع إلى الجزء الأول من القرن الثامن الميلادى .

٢ - انتشار الثقافة الإسلامية فى منطقة ما يسمى ما وراء النهر (أو أرض ما وراء النهر) أى سهول الاستبس فى تركستان، وشمال نهر الأكسوس Oxus وانتشاره شمالا وشرقا حتى حدود ما يسمى الآن سين كيانج، ويمثل هذا الفترة من أوائل القرن الثامن إلى نهاية القرن العاشر الميلادية .

٣ - الانتشار البطىء والتدريجى للعقيدة بين سكان الواحات وسكان الاستبس على طول الطريقين الرئيسيين إلى الجنوب والشمال من حوض تاريم، ويستمر هذا فى الاندفاع غربا من مناطق المغول من حوالى ١٢١٨م ميلادية وما بعدها .

٤ - الحركة الكبرى لانتشار الإسلام على نطاق واسع سواء فى آسيا الوسطى وعلى حدود إمبراطورية يوان فى الصين، وكان هذا حصيلة افتتاح الطرق البرية أمام التجار ورجال الإرساليات فى عصر سيادة المغول(٩٣).

ولم تتفق هذه التقسيمات الأربع التى حددناها بصورة عامة - مع الحقائق التى استخلصناها من الأدلة التاريخية، ولكنها تلقى الضوء أيضا على بعض نقاط جغرافية مهمة والتى سوف نشير إليها فى مجال الدراسة.

ولا يجب أن ندعى مع هذا أنه يمكن فصل المراحل الأربع بأية خطوط محددة سواء من ناحية الزمن أو المكان لأنها حقا تتداخل مع بعضها البعض، وكما سنجد أيضا روافد إسلامية تصل الصين فى حوالى منتصف القرن الثامن. وقد تتبعنا عوامل توسع العرب من الصحراء إلى حدود الهلال الخصيب قبل وحوالى فترة ظهور الإسلام (٩٤).

(*) نهر أموداريا ويصب فى بحر أرال (المترجم).

وسنركز مناقشاتنا على التأكيد على العوامل الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية والتى يقلل من أهميتها الدارسون والذين يركزون من ناحية أخرى بشدة على الدافع الدينى الصرف بين جموع القبائل المضطربة، ومع هذا فإن الذى شمله الدافع الأخير فى الاتصال بين الاستبس والأراضى الزراعية(*) فى شمال الجزيرة العربية يستحق المزيد من الدراسة والتعمق، وفى هذا المقام من المفيد أن نلحظ أن كثيرا من القبائل المسيحية والتى عاشت على حواف الصحراء حملت السلاح وشاركت مع البدو المسلمين فى صراعهم مع إمبراطوريات الشمال على أساس أنهم إخوة عرب[٩٥].

وعلاوة على ذلك لم يتبع الغزو العربى للمستوطنات فى الولايات الشمالية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية تحول سريع لاعتناق الإسلام خاصة فى مدن ظل سكانها على ولاء وإخلاص لعقيدتهم وكانوا فى بعض الحالات تمسكوا بعقيدتهم حتى اليوم، وبعد ذلك تمتعت المجتمعات المسيحية وكنائسها بدرجة عالية من الرخاء فى ظل الحكم العربى الذى جاء ليخفف من سوء الحكم والاضطهاد من جانب البيزنطيين.[٩٦] ورغم هذا يجب ألا يفسر ذلك على أنه يعنى أن الدافع وراء التوسع العربى كان ببساطة سياسيا، لأن الدافع الدينى كان موجودا دائما، فالصراع السياسى بين العرب من جهة والقوى المسيطرة فى الشمال (البيزنطيين والساسانيين) من جهة أخرى، كان حتما يتبعه صراع بين ثقافة الصحراء والعالم المتحضر من أجل السيطرة الروحية على شعوب شمال شرق الجزيرة العربية[٩٧].

لقد ظهر هذا فى المجال الدينى من خلال المنافسة النشطة بين الإسلام والمسيحية – وهى منافسة كان لها خلفيتها الروحية والسيكولوجية وكانت أحوال الكنائس الصغيرة والمنقسمة على نفسها فى الشرق الأدنى المسيحى مما لا يسمح لها أن تقف أمام المبادئ الجديدة والقوية للإسلام، وعلاوة على ذلك فإن النظام الذى

(*) يقصد المؤلف البدو والمزارعين.

سارت عليه الكنائس فى أعمالها والطرق التى كانت تنشر بها المسيحية بين شعوب الشرق الأدنى لم تكن تتفق وتتناسب مع التطور عميق الجذور والمتمكن بين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى .

فقد كان هناك احتكار من جانب الهيئات الديرية والكنسية للفكر والدراسة، على حين لم يكن للإسلام مثل هذه الهيئات وصار كل معتنق رجل دين بنفسه، وعلى هذا كان انتشار الإسلام قاعدة أكثر صلابة من المسيحية، وقد مثل القسم الشمالى من الشرق الأدنى والذى دخله الإسلام وحدة ثقافية متجانسة ومتماسكة ودائمة أكثر من الشرق الهيلينستى(٩٨).

وكان انتشار الإسلام فوق الهضبة الإيرانية بعد انتشاره فى الهلال الخصيب مباشرة، ودخلت العديد من العوامل الاجتماعية، والسياسية، والروحية عند دخول الناس فى العقيدة الجديدة فى إيران، ولقد رأينا بالفعل أنه فى العصر الرومانى الإغريقى ظهور عدة تيارات ثقافية شقت طريقها من الشرق الرومانى شرقا على طول الطرق التجارية لإيران، ومهدت هذه الأمور بطريقة أو أخرى الطريق للثقافة الإسلامية التى سارت على نفس الخطى، ورغم أن إحياء الديانة الزرادشتية يمثل حركة فارسية بشكل أو بآخر والتى عارضت العناصر الأجنبية للثقافة، لكنها لم تستطع أن تطرد هذه العناصر من الأقطار الساسانية، وحقا فهناك قاعدة قوية للاعتقاد أن محاولة فرض الزرادشتية على كل الرعايا الساسانيين واضطهاد قساوسة كل طوائف المانويين والبوذيين والمعتقدات الأخرى كانت سببا فى أن حركة التسامح لدى العرب أظهرتهم فى ضوء المخلص(٩٩).

وانطبق هذا بصفة خاصة فى حالة سكان المدن من الصناع المهرة الذين جعلتهم حرفهم غير نقية حسب عقيدة الزرادشتية - وهو عدم نقاء عانوا منه لا لاعتبارات سياسية واجتماعية(١٠٠).

وعلاوة على ذلك كان لارتباط الزرادشتية كثيرا بسلطة وحماية الأباطرة الحكام ما جعلها مقرونة بمصير تلك الأسر الساسانية. وقد سهلت هذه العوامل وغيرها مهمة الإسلام فى الإحلال بقوة محل الزرادشتية وغيرها من المعتقدات المحلية الأخرى فى الأقاليم الساسانية سواء على الهضبة أو فى السهول الجنوبية لتركستان. وفى هذا الإقليم صارت الكثير من المدن جنوب نهر Oxus خاصة مرو مراكز مهمة لنشر مبادئ الإسلام. ومع هذا يجب أن نميز بوضوح بين التوسع السياسى للقوة العربية والانتشار التدريجى للثقافة الإسلامية، فشعوب طبرستان والديلم فى الركن الشمالى الشرقى لبحر قزوين والتى كونت منطقة مزدهرة وغنية فى دولة الخلافة سيطرت على نقطة محورية على الطريق البرى القديم إلى سهول طبرستان، ظلت تعتنق الزرادشتية والوثنية حتى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى(١٠١).

وظل قسم منهم دون اعتناق الإسلام حتى فى فترات متأخرة، وفى بعض أجزاء الهضبة الإيرانية وخصوصا إلى الشرق وعلى حدود أفغانستان تأخر كثيرا اعتناق الإسلام، وكان هذا إلى حد كبير بسبب انهيار النشاط التجارى على طول الطرق المؤدية إلى شمال وغرب الهند، وتعطل النشاط التبشيرى للتجار.

ولكن ربما لا يقل أهمية، حقيقة أن البوذية التى كانت طردت من الهند الأصلية فى القرن السابع والثامن قد وطدت نفسها فى منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند وأفغانستان، ويتحدث هيون تسونج عن الهينايانا البوذية فى منطقة باميان فى حوالى ٦٣٠ ميلادية، بينما بعد قرن (أواخر ٧٢٥م) يذكر هيو تشاو أن كل من القسيل الكبرى والصغرى فى نفس المنطقة(١٠٢).

ولم تبدأ القبائل العربية فى التوغل على نطاق واسع من جنوب غرب تركستان إلى الأراضى المرتفعة فى أفغانستان حتى القرن العاشر والحادى عشر ومن هنا إلى السهول الشمالية الغربية للسند، وكان الغزو فى هذه الحالة قبليا أساسا أكثر منه اختراقا دينيا (بالمفهوم الصحيح) وكانت القوة الرئيسية من القبائل من أصل تركى، ومع هذا ففى داخل الهند ذاتها انتشر الإسلام من خلال التوسع السياسى للعناصر

المغامرة التى تعيش على الحدود الشمالية الغربية، ومن خلال اعتناق الأهالى للإسلام (خاصة الطبقات الدنيا التى وجدت فى اعتناق الإسلام تحررا ومساواة اجتماعية) لكن مجال العمل الحالى لا يسمح لنا بتتبع القصة من الهند(١٠٣) ويجب أن نتجه إلى المراحل التالية لانتشار الإسلام فى آسيا الوسطى.

المرحلة الثانية: الإسلام فى أرض الاستبس من ترانسكونيا (شمال تركستان) قضايا سياسية واجتماعية ودينية.

المرحلة الثالثة: الإسلام فى تركستان. انتشاره على طول الطريق الجنوبى لحوض تاريم .

يسجل نهر أكسوس **Oxus** (أموداريا) منطقة انتقال مهمة فى غرب تركستان من وجهة نظر الجغرافيا البشرية، وإذا عبرناه إلى الشمال نجد الاستبس الغنية نسبيا مع الحياة الرعوية الفصلية. صعودا وهبوطا مع هضبة البامير **(Pamirs)** وتندمج سهول أرض الحشائش فى ترنسكونيا فى البرارى الغنية فى سوجديا والأراضى الحالية لقبائل الأوزبك **Uzbek**.

وطوال كل العصور التاريخية كانت منطقة المراعى بلا منازع والمأوى الحقيقى لما يسمى التكتل التركى للشعوب وكان مقصورا على شمال نهر اكسوس، والحقيقة لم تتوسع الغزوات الفعالة للإسكندر وبعده العرب الأوائل (حتى بداية القرن الثامن الميلادى). فيما وراء هذا النهر و يمكن أن نفهم هذا بشكل سليم فى ضوء الاعتبارات الجغرافية والاجتماعية السابق ذكرها.

ولم يبدأ عهد جديد من الغزو العربى لتركستان حتى قدوم القائد العربى المشهور قتيبة (٧٠٨ - ٧١٥م) فقد كان أول من اخترق أرض راكبى الخيل، وأن يدعم الخلافة فى المنطقة الجديدة فيما وراء النهر، واستولى أثناء حملاته على المراكز المهمة فى بوخارا و سمرقند و كركند، وأخيرا وسع حدود الإمبراطورية العربية إلى كشغر. ومع هذا فإن المؤرخين شوهوا فى بعض الحالات طبيعة غزواته والذين عزوا إنجازاته إلى

طبيعة دينية، ومن ثم لم يميزوا بين الجانب السياسى للتوسع العربى من جهة، وانتشار الإسلام فى هذه المنطقة من جهة أخرى[١٠٤].

وتلقى الظروف الاجتماعية والروحية السائدة فى ترنسكونيا قبل غزو قتيبة مباشرة أضواء معقولة على هذا الموضوع، ومن الناحية الظاهرية كان يحكم المنطقة طبقة خاصة أطلق عليها الديهكان (أى الأرستقراطية الإقليمية) ولم تكن سلطتها قوية مثلما كان الحال فى إيران[١٠٥] حيث التحالف بين العرش ورجال الدين، أى بملكية قوية تعمل بالتحالف مع رجال الدين الأقوياء[١٠٦].

وفى ظل هذا النظام السياسى والاجتماعى فى شمال تركستان لم يكن هناك أى تساؤل عن الدولة الدينية أو الطبقة الدينية كما هو الحال فى الإمبراطورية الزرادشتية عند الساسانيين رغم أن ديانة غالبية معظم الطبقة الحاكمة كانت الزرادتشية، والعديد من العقائد الأخرى مثل، المانوية، والبوذية، والنسطورية وغيرها، وكانت كلها موجودة بين الشعوب، وعلى هذا نجد أنه فى العمليات الحربية مع العرب لم توجد طبقة من رجال الدين مع الغزاة الذين يعطوا للنضال طبيعة دينية.[١٠٧] فقد كانت فى الأساس قضية سياسية واجتماعية بين الطغاة من الديهكان من جهة والوكلاء الديمقراطيين من جهة أخرى، رغم أنه يمكن ملاحظة أن الإسلام بدأ يثبت أقدامه بين القبائل التركية فإن كثيرا من المعتقدات الأخرى ظلت موجودة لفترة طويلة[١٠٨].

وارتبط انتشار الإسلام بإحياء النشاط التجارى والتبادل فى المنطقة فى ظل الأسر المحلية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى حين بدأ التجار ورجال الدين نشر العقيدة الإسلامية على نطاق واسع نسبيا، ويفهم من تقارير (أبو دولاف) أنه فيما وراء حدود المديريات الشرقية للخلافة لم يكن الإسلام معروفا إلا بقدر بسيط عند اليوغور ومنطقة الصين فى آسيا الوسطى حتى أواخر عام ٩٤٠ ميلادية وطبقا لما ذكره أبو دولاف، أن الإسلام لم يكن معروفا بصورة كبيرة فيما بعد الحدود الشرقية لدولة الخلافة كما هو الحال عند اليوغور والمفاوضات الصينية فى آسيا الوسطى [١٠٩]، وفى هذا المقام من المفيد أن نلاحظ أننا كما افترضنا من قبل أن التحول التدريجى

للتوجه التجارى للصين فى ظل أسرة السونج المتأخرين (٩٦٠ - ١٢٦٠م) نحو البحار الجنوبية بدلا من آسيا الوسطى أدى إلى انهيار التجارة المارة على طول الطرق من تاريم، وصار نشاط التجار فى غرب تركستان إما مقصورا على منطقتهم الخاصة، أو انجذبوا نحو المراكز التجارية فى جنوب روسيا والبلطيق بدلا من الصين، وكانت النتيجة الطبيعية تخفيف العمل التبشيرى لنشر الإسلام ناحية الشرق، ليس فقط خلال العصور المتبقية من مرحلتنا الثانية، ولكن أيضا خلال كل المرحلة الثالثة، ونسمع من حين إلى حين عن انتشار العقيدة من خلال حماس وإخلاص المعتنقين الجدد من رؤساء القبائل، وعلى سبيل المثال اعتنق ساتوك خان كشغر الدين الإسلامى وتبعه بعد ذلك الآلاف من عشيرته فى أوائل القرن الحادى عشر ميلادية(١١٠).

وقد أعطى هذا قاعدة جديدة ومناسبة لنشر الإسلام على الجانب الشرقى فى مرتفعات كشغر، إذ أمكن الوصول وبسهولة إلى كوتان، وبالتدريج تفوق الإسلام على البوذية المتآكلة والمنهارة، ومن المفيد أن نلحظ أنه فى ذلك الوقت وخصوصا بعد قرن أو أكثر كان مركز تعليم البوذية (اللامية) فى آسيا الوسطى فى التبت وليس فى منطقة شمال غرب الهند والركن الجنوبى الغربى من حوض تاريم حيث ازدهرت جماعة الماهايانا خلال القرون الأولى القليلة من العصر المسيحى، حيث تم التخلى تدريجيا عن المعابد والأديرة فى واحات الطريق الجنوبى لتاريم (عبر كوتان)، وتحول الناس إلى عقيدة الغرب الجديدة (الإسلام)، وفى الجانب الشمالى من تاريم كانت الظروف أقل قبولا لانتشار الإسلام، وكانت قبائل تين شان فى حالة من التفكك، وكانت الطرق صعبة جدا على اختراق التجار الغربيين، وكان الكثيرون من اليوغور من أتباع المانوية بينما قبل آخرون البوذية التى كانت فى ذلك الوقت تتوسع فى التخوم البدوية لشمال إمبراطورية الصين، ولم تستطع التيارات الثقافية من الغرب مواصلة تقدمها الطبيعى على الطريق الشمالى لتاريم إلا بعد الغزو المغولى وإعادة توحيد أرض حزام الاستبس (١١١).

المرحلة الرابعة: الإسلام فى استبس تين شان وشمال غرب الصين
الغزو المغولى والاختراق الثقافى لحزام أرض الاستبس البوذية (اللامية)
المسيحية والإسلام فى عالم البداوة
انتشار الإسلام يتوافق مع الضعف السياسى للقوى الإسلامية فى الغرب
أسباب نجاح الإسلام فى أرض الاستبس

ففى عملية الانتشار فى القرن الثامن قامت المناطق الداخلية من الاستبس الشرقية بمركز التفريخ لقبائل المغول(١١٢) وعلى عكس انتشارهم السابق استطاع الغزاة هذه المرة السيطرة على كل حزام الاستبس من المحيط الهادى إلى الخليج العربى والبحر الأسود ووسط أوربا، كان المغول فى موقف متميز بوجه خاص فى السيطرة على السهول المكشوفة من شمال الصين وبسط سلطانهم فى الجنوب الذى كان تحكمه أسرة متهالكة من أسرة السونج الأواخر. كما كان الضعف السياسى للجبهة الإسلامية فى غرب ووسط غرب آسيا وشجعهم أيضا على توجيه قبائلهم فى حركة واسعة النطاق نحو الغرب، وعلاوة على ذلك فإن التفكك (المذكور سابقا) الذى ساد فى أرض اليوغور وكاراكيتاى وجيرانهم فى أرض الاستبس لم يجعل من السهل فقط توسيع غزواتهم مع السرعة غير العادية، ولكن أيضا مكنتهم من تأسيس أسر حاكمة جديدة من أصول مغولية بدرجة أو بأخرى (متميزة عن الترك) على طول حزام أراضى الاستبس .

ولم تكن علاقات القربى بين خانات الكانتونات المغول فى آسيا العامل المسيطر دائما فى سياستهم، ولكنهم دعموا الاهتمام الاقتصادى المشترك لكل الفروع المغولية الحاكمة فى افتتاح الطرق الآسيوية للتبادل والتجارة والحفاظ عليها. ولذلك يسجل القرن من ١٢٤٥ حتى ١٣٤٥ ميلادى واحدا من أهم الفترات فى قصة العلاقات

التجارية والثقافية بين الغرب والشرق، وتنافست ثلاث ديانات وهى البوذية والمسيحية والإسلام لكسب قبول أسياد العالم الجدد على نطاق واسع، وكون هذه الديانات الثلاثة كانت تبشيرية، جعل الصراع بين الجميع حادا(١١٣).

لا تحتاج التفاصيل التاريخية لنشر هذه العقائد عرقلة جهودنا هنا، بل على الأقل نشير إلى الخط الجغرافى للدراسة والذى اتبعه كل واحد منهم إلى قلب العالم البدوى .

فالبوذية فى ذلك الوقت كانت قد قطعت كل العلاقات الفعالة مع موطنها الروحى فى الهند، وأقامت مراكز تدريسية دينية فى الأديرة فى هضبة التبت، وكانت علاقاتها المكانية أكثر حميمية مع شرق الاستبس عنها عن غربه، ووجد قساوسة البوذية ورجال الكهنة فى القرن الثامن أنه من السهل تتبع ممرات أرض الحشائش من حدود التبت وشمال الصين إلى مقر البدو الشرقيين، وبعد ذلك يظهر أن أباطرة اليون (المغول) فى الصين قد دافعوا عن البوذية وانسابت موجة قوية من الفكر الدينى ومبادئ البوذية فى كل السهول المغولية.

أما السهول الشرقية فكان مصيرها أن تصبح سكنا ثانويا مهما لفكر اللامية والحياة الديرية فى شرقى آسيا، وكان هذا نفس الوقت الذى كانت فيه الديانتان الأخريان تقتربان من الغرب، فكانت المسيحية بعيدة عن أن تمثل اندفاعا بالمعنى الصحيح لأنها لا تحتوى على سلسلة متصلة من أماكن الاستقرار بين مكان استقرارها الروحى فى شرقى البحر المتوسط وهدفها النهائى فى شرقى وسط آسيا.(١١٤) وكانت هناك كنيستان على الأقل تنشر مبادئها وهما الكنيسة النسطورية والكنيسة الكاثوليكية واللتان لا تتفقان دائما فى مبادئ العقيدة أو طريقة التبشير بها، بل إنهما كانتا متنافستين بشدة فى محاولة لكسب أعوان للدعوة فى مدارسهم الخاصة(١١٥).

وعلاوة على ذلك ربما يعزى النجاح البسيط الذى حققته المسيحية إلى فشلها فى أن تكيف نفسها مع البيئة الجديدة، وبالتالى اختلفت عن كل من البوذية والإسلام

والتي سوف نشير لهما فى مجال التكيف وقوته فيما بعد. وفى الحقيقة كانت المسيحية عاملا بسيطا فى المركب الروحى لوسط وشرق وسط آسيا. بينما كان الإسلام هو الاندفاع الدينى الغربى الذى نجح فى إرساء قواعده بين مغول آسيا، ولكن قبل أن نعالج أسباب نجاح هذا الدين، من الضرورى أن نقول إن تزامن انتشاره العظيم مع ما كان فى الحقيقة فترة انحسار فى التاريخ السياسى للعالم الإسلامى، فلقد تحطمت المراكز الإسلامية فى غرب تركستان وإيران، بينما سحقت جحافل المغول بغداد مقر الخلافة.

وأظهر الحكام المغول الجدد فى غرب آسيا - على أسس سياسية واقتصادية إلى حد كبير - تعاطفا خاصا مع رعاياهم من المسيحيين، وتعاونوا مع البابوية الكاثوليكية ضد الإسلام، العدو المشترك لكليهما(١١٥).

ومع هذا فمن وجهة النظر الثقافية أحرز الإسلام تقدما بارزا خلال هذه الفترة من الضعف السياسى لشعوبها فى الشرق الأوسط والأدنى. ويجب أن نتذكر أن إنجاز الإسلام الروحى، والذى لا يمكن ربطه بأية حال من الأحوال مع الدوافع السياسية مهم جدا فى ارتباطه مع قصة انتشاره فى قلب آسيا إذ اتصل الحد الشرقى لانتشاره مباشرة (وعلى نطاق واسع) مع عالم الصين الحقيقى(١١٧).

ويمكن أن نلخص أسباب نجاح الإسلام فى ثلاثة نقاط أساسية(١١٨).

١ - كان إحياء التجارة على طول طرق آسيا الوسطى أكثر فائدة للإسلام عن المسيحية كما هو الحال فى الانتشار السابق للعقيدة، وما زال ارتباطه بالنشاط التجارى.(١١٩)، وكان انحلال عمليات التسويق فى مدن شمال شرق الجزيرة العربية (بعد افتتاح طرق آسيا الوسطى) مما جعل تجار هذه المناطق يحولون جهودهم نحو المراكز التجارية الجديدة فى كانتونات المغول حيث عملوا أيضا كوكلاء للمراكز الإسلامية(١٢٠).

٢ - كما رأينا حالا كان الإسلام لفترة قرن أو أكثر قبل غزو المغول قد ثبت نفسه على قاعدة جديدة على حدود شرق تركستان، وكانت واحة كشغر موقعا جغرافيا مثاليا لنشر العقيدة على طول الطرق الشمالية والجنوبية لتاريم، وعلى هذا ولأول مرة فى قصة الاختراقات الدينية فى حوض تاريم نسمع عن عقيدة تستفيد استفادة كاملة وبشكل تلقائى من خطين للاقتراب من الشرق الأقصى (أنظر خريطة رقم ١٢) .

وكان لهذا أهمية معقولة ومساعد للثقافة الإسلامية والتى كان عليها أن تنتشر عبر - التيار اللامى- متقدما اتجاه الشمال من التبت إلى منغوليا الخارجية قبل أن تصل إلى الأراضى الصينية(١٢١).

٣ - القوة الملحوظة من التكيف الذى كان دائما ظاهرة نمطية للإسلام(١٢٢) ورغم أنه يوجد قرآن واحد لكل المسلمين، فإن تفسير نصوصه ترك جسرا للمجموعات الخاصة أو حتى للأفراد، ويأخذ البدو فى وسط الجزيرة العربية النص البسيط كما هو، بينما يقوم أهالى مصر أو الهلال الخصيب بتفسير أعرض والذى يتناسب مع التقاليد الفلسفية والاجتماعية المركبة(١٢٣).

ومع هذا فإن كلا منهم ينظر إلى الآخر على أنه ينتمى إلى نفس العقيدة.(١٢٤)، ولم تجد مختلف جماعات المغول صعوبة فى قبول المبادئ المناسبة للإسلام، ولم يمر وقت طويل قبل أن تنتشر ديانة الشعوب المهزومة فى أقصى الشرق فى مجال مثل مجال اللاميين (بوذيين) فى منغوليا .

الإسلام فى الصين: تقدمه المبكر برا
المسلمون فى شمال غرب الصين - انتشار الإسلام فى اتجاهين رئيسيين
ينان فى الجنوب الغربى ومنطقة بكين فى السهل الشمالى
المجتمعات الإسلامية فى الصين

الإسلام والثقافة الصينية

دخل الإسلام الصين عبر الطريق البرى فى تاريخ مبكر أكثر من انتشاره وتوغله فى هذه الدولة - وفى نقش (وجد فى سنجانفو) يرجع إلى حوالى ٧٤٢ ميلادية، حدد تاريخ دخول المسلمين الأوائل خلال حكم كياهونج أسرة سون (٥٨١-٦٠٠ ميلادية) - وبالطبع لا يمكن أن نقبل هذا التاريخ لأنه يسبق الهجرة (هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٦٢٢ ميلادية، ومع هذا فهناك دليل واضح أنه فى حوالى ٧٥٥ (أو ٧٥١-٧٥٥) ميلادية بعد قيام ثورة فى الصين حين طلب الإمبراطور تانج (سوتسونج) المساعدة من الخليفة الذى أرسل إليه كتيبة من أربعة آلاف جندى[١٢٦].

ويقال إن هذه المجموعة الأخيرة استقرت بشكل دائم فى هذه الصين، وتعاون العباسيون مع الصين مرة ثانية فى السنوات الأولى من القرن العاشر م. ضد سكان التبت الذين سيطروا على الطرق البرية، وكانوا يعرقلون العلاقات بين الإمبراطوريتين العظيمتين فى شرقى وغربى آسيا، وربما نستخلص من السجلات الصينية أن الخليفة أرسل قوات إلى حدود الصين لمساعدتهم ضد قبائل الجنوب الغربى القوية الشكيمة (١٢٧)

وقد أدى إعادة فتح الطرق، وقيام علاقات ودية بين العرب وعالم الصين إلى اتصال ثقافى متزايد، وتأسست تجمعات تجارية صغيرة فى مدن الشمال الغربى

خصوصا فى تشانج نجان (كومدان العرب، سيان فو الحديثة)، واتخذ هؤلاء التجار زوجات صينية لأنفسهم، كما قاموا بأعمال الهداية إلى الدعوة الإسلامية، ومع هذا فإن انتشار الإسلام بين الصينيين فى الحد الشمالى الغربى ظل متقطعا فى طبيعته على الأقل حتى القرن الثانى عشر الميلادى .

وفى ذلك الوقت كان شمال الصين فى أيدى حكام أراضى السهول، وكان يسمح لعدد كبير من القبائل فى السهول الآسيوية بالاستقرار على الحدود، وكان بعض هؤلاء المهاجرين (خصوصا هؤلاء الذين أتوا من منطقة اليوغور فى تين شو) قد اعتنقوا الإسلام بالفعل قبل قدومهم، وبالتالى أضافوا إلى عدد المسلمين فى الصين(١٢٨).

ومع هذا لم يتحقق الانتشار الحقيقى للإسلام فى المنطقة الأخيرة حتى عصر المغول، فلقد انشغل الرعايا المسلمون بأسيادهم الجدد فى الاستبس وعملوا فى الإدارة كوكلاء إداريين، ومرتزقة ووزراء، وعلماء ...إلخ(١٢٩) وكانوا قادرين على الانتشار فى كل الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية، أما فى الصين فكان انتشارهم فى اتجاهين أساسيين :-

١ - أولا فى اتجاه الجنوب الغربى حيث ساعد سيد الدجيل وقبيلته فى تدعيم سلطة الخان العظيم فى ما يسمى الآن باسم ينان، وكما نشر شكل من الحضارة الصينية مطعم بالإسلاميات فى الإقليم الأخير(١٣٠).

٢ - وثانيا فى اتجاه فى خان باليك (بكين أو بيبنج) التى صارت مقر البلاط، وجذبت التجار، ورجال التبشير، والموظفين الرسميين، وغيرهم، وبالتدريج نشأ مجتمع إسلامى قوى حول العاصمة فى أجزاء مختلفة من السهل الشمالى، وزاد عددهم سواء من الذين تحولوا واعتنقوا الإسلام أو نتيجة وصول أعداد جديدة من الغرب ووسط الصين، واستمر الاندفاع العام للقبائل الإسلامية فى الصين بعد عصر أباطرة المغول، وفى أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادى، وقد سمعنا عن مثل هذه القبائل مثل السلاجقة الذين تحركوا من تين شان إلى حدود التبت وممر كان شوه حيث لايزالون يستقرون حتى الوقت الحاضر(١٣١).

بعد ذلك اندفعت العديد من القبائل الإسلامية فى عهد المانشو من أرض الاستبس إلى المستوطنات المستقرة فى الصين ذاتها – وظلت الحركة أساسا على طول الخطين السابق ذكرهما – من جنوب غرب ينان(١٣٢) وشمال شرق حتى بكين والحدود الشمالية .

حسب رأى أندرسون يبدو أن مسلمى ينان ازدادوا كثيرا فى القرن الثامن عشر بسبب هجرات القبائل والمسلمين الصينيين من مقاطعات الشمال الغربى(١٣٣). وربما نرى توسعا مشابها من المسلمين الصينيين إلى مثل هذه المنطقة المفتوحة أمام الاستعمار الصينى فى منغوليا الداخلية وسهل منشوريا (١٣٤)، هذا كما توزع التجار المسلمون الصينيون على طول بعض الطرق التجارية المهمة فى البلاد(١٣٥).

ومع هذا فمن المهم أن نلحظ أنه فيما عدا مناطق الحدود حيث يظهر أثر البداوة، اكتسب المسلمون فى الصين قدرا كبيرا من الثقافة وأنماط الحياة الصينية، وفى حالات كثيرة اختلطوا مع الصينيين وازدادت أعدادهم سواء عن طريق الزواج أو طريق نشر الدعوة(١٣٦).

لقد ازدادت تأثيرات الثقافة الصينية المتخصصة وطريقة الحياة بسبب مواءمة وتكيف الإسلام (كما سبق أن ذكرنا) مع بيئته الجديدة. ولكن من وجهة النظر الدينية استطاع المسلمون الاحتفاظ بوجودهم المنفصل وسط المركب الثقافى للصين لأن عقيدتهم رغم تكيفها لم تكن مرنة، وعلى عكس البوذية لم يتضمن الإسلام داخل مبادئه عناصر أجنبيــة لم تكن متفقــة مع فلسفته الأصلية الخاصة(١٣٧) .

وهذا حسب رأى الكاتب – السبب الرئيسى لماذا الإسلام – وفى السنوات الأخيرة المسيحية – لم يحققا مثل هذا الانتشار الواسع داخل المنطقة الثقافية الصينية مثل مرونة البوذية(١٣٨) وكما رأينا من قبل فإن الفكر والفلسفة الصينية تحكمها إلى حد كبير المبادئ القائمة على الكونفوشيوسية، وقد شملت الأخيرة عدم التسامح مع الفكر الأجنبى، وهى فى نفس الوقت تمثل حركة محافظة على الأفكار الصينية التى كانت – فى زمن الكونفوشيوسية – تتعرض لخطر المؤثرات الأجنبية .

وفى الحق إذا لم يصل دين جديد إلى الصين وكان مرنا لكى " يأخذ ويعطى"، وأن يجعل نفسه فى خط التقاليد والفكر الصينى والفكر، وبالتالى فلن يجذب عددا كبيرا من المعتنقين للديانات الجديدة فى عالم الصين .

مذكرة تكميلية عن التيارات الثقافية الواردة بحرا إلى جنوب شرقى آسيا العناصر الثقافية الهندوكية من جنوب الهند، والبوذية من الهند، الممالك

الهندوكية والثقافة الهندية فى جنوب شرق آسيا - التيارات الثقافية من

غربى آسيا - الإسلام فى جنوب شرقى آسيا والموانى الصينية - مرحلتان أساسيتان فى الانتشار البحرى للثقافة الإسلامية .

قبل أن نصل إلى نهاية هذا الفصل، يجب أن نخصص فقرة أو فقرتين عن التوسع الثقافى على طول الطرق البحرية، ففى الفصول الأربعة السابقة تحدثنا كثيرا عن توسع الشعوب والثقافات عن طريق البحر (سواء على الجانب الغربى والصينى) ونحتاج فقط إلى إضافة مذكرات مكملة (إضافية).

إن قصة الاختراقات الثقافية على طول الطرق البحرية أقل تعقيدا من تلك التى على طول الطرق البرية لآسيا الوسطى - وعن طريق البحر ارتبط انتشار العناصر الثقافية مع النشاط التجارى - وقد اختلفت الحركات المتعددة للشعوب البحرية مثل هجرة جنوب الجزيرة العربية، أو حتى شعوب شبه جزيرة الملايو عن الانتشار من الاستبس فى حقيقة أن السابقة كانت دائما تدريجية وسلمية فى طبيعتها، بينما كانت الأخيرة سريعة وخطيرة جدا. وتفاصيل مثل هذه الحركات البحرية، والعناصر الثقافية التى حملوها معهم تقدم مادة طيبة للاستفسار التاريخى، ونقترح الاقتراب من الموضوع من وجهة نظر جغرافية أساسية (انظر خريطة رقم ١٢)، ومن المفيد أن نلحظ أن انتشار الثقافة من جنوب غربى آسيا إلى الهند الماليزية والشرق الأقصى قد سبقه اختراقات متنوعة من عالم الهند[١٣٩]. وكما رأينا بالفعل عند دراستنا للتبادل التجارى، فإن النشاط البحرى بين الهند وساحل الصين يمكن أن نتتبعه لعدة قرون

قليلة قبل الميلاد، ومنذ فجر العهد المسيحى وما بعده وجدت تيارات منتظمة للشعوب والحضارات طريقها من الهند إلى عالم الجزر فى جنوب شرق آسيا .

وتبنت شعوب المنطقة الأخيرة بالتدريج البوذية والهندوكية وملاحمها والقانون المقدس والأدب الشعبى الأسطورى(١٤٠).

كانت الهندوكية أول شكل منظم للدين الذى يصل إلى الهند الماليزية، وحسب فان هيان الحاج الصينى الذى مر على جاوة حوالى ٤١٠ - ٤١٤ الميلادى، انتشرت الهرطقة والبراهمية (فى الجزيرة)، ولم تكن تعاليم بوذا معروفه كثيرا(١٤١).

كانت المنطقة التى انتشرت منها الهندوكية إلى جنوب شرقى آسيا بالتأكيد جنوب الهند - وقد ثبت ذلك من أن النقوش البراهمية من الأرخبيل مكتوبة باللغة السنسكريتية، والتى تتشابه بشكل عملى مع هجائية جرانتا من نقوش أسرة بالانا (٣٠٠ - ٨٠٠ ميلادية) من جنوب الهند وساحل كوروماندل(١٤٢) .

ودخلت الديانة الثانية الكبرى فى الهند(١٤٣) وهى البوذية فى جاوة (وأيضا فى بعض الجزر الأخرى وأشباه الجزر).(١٤٤) فى حوالى نهاية الربع الأول من القرن الخامس ميلادية وفى هذه الحالة من المفيد أن نتذكر أن الهجائية البوذية المبكرة فى جاوه تشير إلى علاقة قوية مع شمال الهند .

وانتشرت البوذية أيضا على يد رجال التبشير من شمال الهند والتجار بين شعوب الملايو فى الركن الشمالى الشرقى من أسيا . ومن الظاهر أنها انتقلت إلى الصين فى ظل أسر حاكمة عديدة من الجنوب.

وصارت الممالك الهندية فى الأرخبيل مثل كريفيجايا والمودجاباهيت مراكز انتشرت منها الفلسفة الهندية والفكر والثقافة فى كل أنحاء الشرق الأقصى، وظل هذا حتى زمن انتشار الحضارة الإسلامية من جنوب غرب آسيا إلى هذا الجزء من العالم خصوصا بعد القرنين الرابع عشر والخامس عشر حين انهارت السيادة الثقافية

للعناصر الهندية تدريجيا. وحتى يومنا يمكن أن نرى عناصر هندية من الثقافة تحت قشرة من الثقافة الإسلامية التى تم فرضها عليهم.

وبدأت عملية الاندفاع الدينى من غربى إلى جنوب شرقى آسيا بعد عدة قرون من تلك التى وردت من الهند، وكانت تتكون أساسا من عناصر تنتمى إلى المنطقة الثقافية للجزيرة العربية، وتم نقل مسيحية القديس توماس إلى الساحل الغربى للهند، ولم تتقدم وراء هذه المنطقة ناحية الشرق .(خريطة رقم ١٢)

لقد أظهرنا وأوضحنا فى دراستنا للعلاقات التجارية عن طريق البحر أن التبادل المنتظم والمستمر بين الجانبين الغربى والشرقى من آسيا لم تبدأ إلا بعد ظهور التجار الفرس والعرب على المسرح. واستطعنا أن نضع بعض الاقتراحات بخصوص العوامل التى تعلل للتوسع البحرى لشعوب السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والآثار على التجارة والتبادل الثقافى[١٤٥].

وقد مهد التوسع من جنوب الجزيرة العربية وجنوب غرب إيران من حوالى القرن الثالث الميلادى وبعدها الطريق لانتشار لاحق للإسلام، وبالفعل فى حوالى عام ٣٠٠ من الميلاد نسمع عن تجار غربيين (من جنوب غربى إيران وشبه الجزيرة العربية) استقروا فى الميناء الصينى هونج تشوا (كانتون).[١٤٦] وازدادت مناطق الاستقرار للتجار فى الطريق إلى وفى بحار الشرق الأقصى فى القرون التالية سواء من ناحية العدد أو الأهمية، وعندما ظهر الإسلام فى القرن السابع اتبع ببساطة الممر المعبد تماما إلى الشرق، ولا يمكن أن نلخص المراحل المتعاقبة لانتشار الإسلام فى جنوب شرقى آسيا، ولكن من وجهة نظر العلاقة الحميمة بين النشاط التجارى والدينى، فسوف يكون من المفيد أن نسترجع هنا ما سبق أن ذكرناه فى الفصول المرتبطة بمراحل التجارة[١٤٧].

وفى معالجتنا للتوجه التجارى للصين (فى فترات مختلفة) نحو الطرق البرية والبحرية اقترحنا كنظرية معقولة أنه خلال الفترات التى كانت السلطة الإمبراطورية مركزة فى الجنوب، ازدادت التجارة البحرية، وتشجيع التجار الأجانب على الاستقرار

على الساحل الصينى والعكس بالعكس، وكان لهذا تأثير عميق على مراحل انتشار وتدعيم الإسلام فى شرق آسيا. وإستقر العرب والفرس الأوائل فى أقصى موانى الصين وأيضا على خليج تونج كنج .

وبعد تدعيم الأمن على البحار الصينية فى ظل أسر سونج الأوائل (٤٢٠ - ٤٧٨م) وخلفائهم لفتت الصين انتباه التجار الغربيين فى ما قبل الإسلام والعهود الإسلامية الأولى، وانخفضت القرصنة بشكل كبير، وتمتع التجار الأجانب بقدر متزايد من الحماية القانونية، استمرت الظروف الملائمة التى عاشوا فيها وعقدوا صفقاتهم فى عصر العصور المبكرة والوسطى لأسر التانج عندما صار للمسلمين على الساحل قضاتهم، والتى مثلت قدرا معقولا من الحكم الذاتى والدينى[١٤٨] - من المفترض أن هذه الإشارة المبكرة للحقوق التى حصل عليها التجار الأجانب فى موانى الصين والتى قد لا تختلف كثيرا فى المبدأ عن النظام الحديث لمعاهدات الموانى [١٤٩].

وفى ظل أباطرة التانج المتأخرين صارت الأمور أكثر حرصا على الساحل وانخفضت أماكن استقرار التجار المسلمين وقد أخبرنا المسعودى أنه بعد الثورة التى وقعت فى جنوب الصين (خاصة فى كانتون) عام ٨٧٨ م صارت كالاه (كيداه) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو المركز الرئيسى للمسلمين فى جنوب شرقى آسيا[١٥٠] يسجل هذا البداية الحقيقية لانتشار الإسلام فى أرخبيل جزر الهند الماليزية وفى هذا المجال من الممتع أن نلاحظ أنه على عكس موانى الصين، فإن التجار المسلمين الذين استقروا فى جزر الند الشرقية وعلى شبه جزيرة الملايو اختلطوا بحرية أكثر مع السكان الوطنيين، وكما وجدوا من السهل التوغل فى الداخل، و لم تمتد الأعمال التجارية للتجار الأجانب فى الصين فيما وراء الموانى البحرية، حيث الوكلاء الإمبراطوريون والتجار الصينيون والمرخصون الذين صاروا مسئولين عن السلع الأجنبية، وتوزيعها على مختلف مناطق الإمبراطورية.

فلا شك أن الكثير من السلع التى أنتجت فى أقصى داخل الصين (مثل العاج من حدود التبت) تم إحضارها إلى الساحل، وكثيرا من السلع الأجنبية (مثل البخور

والعاج لأضرحة الأسلاف) كان يتم أيضا نقلها إلى الداخل، ولكن هذه التجارة الداخلية كانت كلية فى أيدى الصينيين أنفسهم، ومن ثم لم ينجح الإسلام فى اختراق الصين بحرا، وظل مقصورا على أماكن الاستقرار المبعثرة على الساحل(١٥١) - ومن جهة أخرى استطاع التجار المسلمون نقل عقيدتهم إلى الداخل فى الجزر وشبه الجزر لجنوب شرق آسيا، حيث حولوا إلى العقيدة الجديدة ملايين كثيرة من السكان الوطنيين، وصار الآن الإسلام أهم ديانة فى هذه المنطقة، ويمكن أن نجمع المراحل الصغيرة التى انتشر بها الإسلام فى مرحلتين أساسيتين .

١ - الأولى التى بدأت فى القرن التاسع والعاشر م. وكان الاهتمام فى هذه المرحلة إلى حد كبير بتأسيس ونشر العقيدة فى الأرض الأصلية أى فى شبه جزيرة الملايو وساحل أنام (Annam)(١٥٢)، وقد ارتبط هذا بطرد التجار المسلمين (عرب وفرس وهندوماليزيا) من موانى الصين نتيجة الاضطرابات التى وقعت فى المناطق البحرية فى الجنوب والجنوب الشرقى أثناء حكم الأباطرة الأواخر من أسرة تانج، وصارت سواحل الركن الشمالى الشرقى لآسيا مركزا ليس فقط للتجارة ولنشر الدين أيضا، واستمر النشاط لنشر العقيدة حتى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر الميلادى عندما تحسنت الأحوال فى ظل أسر السونج الأواخر، ومرة ثانية تحول المركز الرئيسى لنشاط التجار المسلمين شمالا إلى الساحل الصينى حيث ظل خلال عصر المغول .

٢ - تبدأ المرحلة الثانية حوالى القرنين الرابع عشر والخامس الميلادى، وفى نهاية عصر المغول لم تكن الظروف على الساحل الصينى جذابة بقدر كاف للتجار، بينما فى ظل أسرة منج (خصوصا من ١٤٠٥ وما بعدها) بدأ التجار الصينيون يمارسون دورا مهما فى التجارة الخارجية للدولة، وعلى هذا ولعدة أسباب صار نشاط المسلمين موجها أكثر وأكثر نحو جزر عالم الهند / مالاوى، والتى صارت مكان لقاء التجار الصينيين والغربيين، وكانت جاوة مركزا رئيسيا للتجارة فى ذلك

الوقت، والجزر المجاورة (خاصة شرقى سومطرة) وليس على الأرض الأساسية، واستطاع المسلمون بناء سلطنات جديدة حلت محل الممالك القديمة للهنود (مثل مودجاباهيت التى سقطت حوالى عام ١٤٧٨م. وقد أعطت المشروعات البحرية والتجارية لحكام المنج الأوائل دافعا كبيرا للتجارة فى جنوب وجنوب شرقى آسيا .

وكان لهذا تأثير عميق على هجرة عرب الجنوب من وادى حضرموت وساحل عمان إلى أرخبيل والهند الماليزية، وتدعمت العلاقات الاقتصادية بين أقصى طرفى جنوب آسيا، وأضافت هذه كثيرا إلى العلاقات التجارية، واستمر الارتباط بين الدولة الأم فى جنوب الجزيرة العربية والعالم الإسلامى الجديد فى الهند الشرقية حتى بعد انهيار التجارة فى الشرق الأقصى (الصين) فى ظل أسر المنج الأواخر والمانشو. وكان لقدوم الأوربيين تأثير ملحوظ على امكانيات التجارة فى الهند مالايو، ومع هذا ازدادت فرصة العرب كوسطاء بين الأهالى والأوربيين بقدر متساو وكان فقدان التجار المسلمين بسبب الانهيار فى تجارة الصين الخارجية قد عوضه زيادة التجارة فى جزر الهند الشرقية[١٥٣].

من المحتمل أن المستوطنات الإسلامية فى الموانى الصينية اجتذبتها المراكز التجارية الجديدة فى جنوب شرقى آسيا، وعلى هذا تميل للهجرة أو تغير مركز نشاطها إلى الجزر الواعدة أكثر فى البحار الجنوبية .

ملاحظات ختاميـــة

إن الدراسة الحالية للعلاقات الثقافية بين غربى وشرقى آسيا تصل بهذا العمل إلى نهايته، وحاولنا فى بداية الدراسة أن نعطى تعريفا للمنطقتين الثقافيتين العظيمتين للجزيرة العربية والصين، وتبع ذلك دراسة تفصيلية لعلاقاتهما التجارية والثقافية خلال فترة ألفى عام تقريبا، وكان مجال الدراسة واسعا، والمناطق التى شملتها الدراسة واسعة لدرجة أن الكثير من مظاهر هذه العلاقات قد حذف أو تمت الإشارة إليه، وكان الوضع الجغرافى لهذه العلاقات هو الهدف الأساسى أكثر من السرد الحقيقى لقصتهم، وفى الفصل الختامى الحالى قمنا بدراسة بعض الاختراقات الدينية التى سارت مع طرق التجارة بين الشرق والغرب، ولقد ساعد تفسيرنا الجغرافى على أن إبراز بعض النقاط المهمة والتى تستحق انتباه دارسى الجغرافيا الروحية، وإلى حد معرفتنا بقضية انتشار الديانات العظمى فى وسط آسيا لم يتم الاقتراب منها ودراستها من وجهة النظر الجغرافية، وسوف تصبح المعالجة الأولية التى حاولنا القيام بها ناقصة - وفى مجالها الخاص - عن الدراسات المطولة والدراسات القائمة من زمن عند المؤرخين ورجال الدين الذين ظلوا حتى الوقت الحاضر يحتكرون هذا الخط من البحث (على الأقل فى مجال التيارات الديانات التاريخية لآسيا)، وعلى هذا فإن النتائج التى توصلنا إليها ستظل بالضرورة موضوعا للنقد والتصحيح، ومع هذا فإن القيمة الحقيقية لهذه الدراسة أنها تلقى الضوء على القضية من زاويا مختلفة، ولكى نتجنب أن نكون جامدين فى تعبيرنا فكرنا أنه من المعقول أن نربط - بقدر الإمكان وجهات النظر الجغرافية والتاريخية والروحية والسياسية، ويمكن أن نلخص أهم النتائج التى توصلنا إليها على النحو التالى :-

توجد علاقة وثيقة بين العلاقات التجارية والثقافية خلال كل الفترة التى شملها العمل الحالى وهذا يبرز نتيجة للمظهرين (التجارى والثقافى) من التبادل فى نفس

الرسالة، وربما لا نجد فى حالة أخرى هذه العلاقة واضحة ومهمة مثلما هو فى المراحل القديمة والوسيطة من تبادل السلع والثقافات بين غرب وشرق آسيا .

٢ - تبرز حركة التبادل بين المنطقتين العظيمتين إذا أخذناهما ككل، استمرارية واضحة من العصر الرومانى الإغريقى إلى العصر العربى الفارسى (الإيرانى) فقد ورث الوسطاء العرب النشاط التجارى من الشرق الرومانى، بينما جاءت الحضارة الإسلامية فى ركاب الثقافة الهلينية فى انتشارها نحو الشرق، وتشكل الفترتان التى اخترناهما لدراستنا مرحلة مستمرة ومتميزة فى قصة العلاقات الدولية.

٣ - وأخيرا لعبت الظروف الجغرافية فى المنطقتين الثقافيتين المشرق العربى والشرق الأقصى دورا مهما فى تحديد الخط العام لقصة العلاقات بين الشرق والغرب، ويمكن أن نحقق فهما صحيحا لقيمة العامل البشرى وطبيعة التكيف البشرى إذا وضعنا فى الاعتبار الوضع الجغرافى للمسرح ونأمل فى هذه الدراسة لهذا العمل الحالى أن نكون قد حققنا شيئا قليلا على طريق الإسهام نحو هذا الهدف .

الهوامش

(١) Vide supra, the first sections of our chap. 1.

(٢) من الضرورى أن نلحظ فى هذا المقام رغم أنه فى فجر العصر المسيحى كانت الأحوال المناخية فى شمال الجزيرة العربية أكثر رطوبة مما صارت عليه بعد عدة قرون، ومن الصعب الاعتقاد بأن الأحوال الرعوية (فى الفترة المبكرة) كانت جيدة بحيث تجعل من الممكن تربية عدد كبير من الماشية التى تسهل إقامة عدد من البدو فى هذه السهول المستقرة (مثلما حدث فى حالة غزوات الساميين الأولى) .

(٣) Vide suprs, chap. T. pp. 3-4.

(٤) Hamzab, ed. 1. M. E. Gottwaldt , 1844-48 , pp. 94-5 in Arabic text, and 73-4 in Latin translation.

(٥) لا داعى للاعتقاد بأن انهيار السد نتيجة زيادة الكمية السنوية من الأمطار وأنه انهار ببساطة بسبب انهيار فى المبنى وساعد على ذلك هبوب الرياح الموسمية، وسواء بررت كمية سقوط الأمطار فى الوقت الحاضر والمياه الواردة من المجارى إنشاء العمل الكبير مثل هذا السد أم لا أمرا مشكوكا فيه ولمزيد من الإيضاح حول هذه النقطة أنظر س. أز حزين، See S. A. Huzattin, Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud, in Bull. Of the Faculty of Arts, University of Egypt , vol. 111. Part I, Cairo 1935, pp, 19-23, and also reference in his Egyptian University ScientkfeExpedition to s,w, Arabia in Bull. Of the Faculty of Arts Cairo vol. IV, part ii, 1936, p, 132

(٦) See article on Arabia in Eacyclopaedia of Islam , vol. 1(1913), p.379.

(٧) Some of the earliest Arabic songs said to be of pre-Islamic date come from Hirah . See idem (as in preceding footnote) , p. 379.

(٨) De Lacy O'Lrary, Arabia before Muhammad, London 1927, pp. 143 et seq.

(٩) هذه خصوصا حالة الكنائس السورية والنسطورية التى قامت لمعارضة أعمال الاضطهاد داخل الإمبراطورية الرومانية وعلى هذا انغمس رجال الدين المنظمين فى أمور سياسية وغير دينية .

(١٠) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام الطبعة الأولى، لندن ١٨٩٦، ص ٣٩ ويجب أن يكون واضحا مع هذا أن هذه العبارة تنطبق فعلا على الإسلام كدين وليس على المبادئ التي تمارسها قبائل الجزيرة .

(١١) Vide supra, chap. 1, pp. 2 et seq. (particularly pp. 6-7) ; also pp. 31-38.

(١٢) H. Peake and H. J. Fleure, The Steppe and the Sown, vol. V, of The Carridars of Time, Oxford 1928, pp. 50-1.

(١٣) تلقت الدولة الأخيرة الحصان مع غزو الهكسوس في حوالى ١٧٠٠ ق.م، ورغم أن نفس الحيوان ربما يكون قد دخل الهلال الخصيب في تاريخ مبكر (انظر هـ بيك و ه. ج فلور كتاب

The Steppe and the Sown loc. Cit., p. 40. فربما يمكن القول إن العديد من القبائل القاطنة على حدود السهول المستقرة لم تحصل عليه حتى تاريخ أكثر تأخيرا .

(١٤) C. E. P. Brooks, Changes of Climate in the World during Historic Times, Quarterly Journal of the Royal Meteorological Soc., vol. 57, 1931, p. 16.

(١٥) مع هذا فإنه يجب عدم متابعة هذا النقاش بعيدا عن الجزيرة العربية حيث يظل الحصان حيوان رفاهية ولا تزال الدولة تعتمد على ركوب الجمل أكثر من ركوب الحصان ولا يزال الجمل الهجين (السريع) وسوف يظل في ظل الظروف القاسية الحيوان الأساسى للحركة السريعة سواء أكانت آمنة أم لا .

(١٦) On this point see T. W. Arnold , the Preaching of Islam , loc. Cit., pp. 38-9 . 15

(١٧) Vide supra, chap. 1, pp. 14 et seq. The platean, however, was always in close contact with the Crescent.

ومع هذا كانت الهضبة دائما على اتصال وثيق مع الهلال الخصيب

(١٨) يمكن أن نلحظ تصويراً حديثًا عن الاختلافات غير المهمة بين المذهبين الإسلاميين المهمين (السنة والشيعة) فى أنه خلال المؤتمر الإسلامى العالمى الذى انعقد فى القدس فى ديسمبر عام ١٩٣١ والذى حضره ممثلو كل رؤساء الدول الإسلامية تقريبا، وأم المصلين ممثل شيعى فى الصلاة العامة لكل الأعضاء رغم حقيقة أن طائفته لا تمثل أكثر من ٥٪ من كل السكان المسلمين فى العالم .

(١٩) إن تطور المدارس الدينية والطوائف بين الدول الإسلامية التى أدت إلى الرأى الحالى أن الدوافع الدينية قد لعبت دورا استثنائيا مهمًا فى التاريخ السياسى للعالم الإسلامى ككل، وحسب اهتمام دراستنا الحالية فإن هذا الرأى قد أيده (مختلف العاملين) فى موضوع انتشار الإسلام وأثره على الطرق التجارية والعلاقات المباشرة بين الشرق والعالم المسيحى الأصلى، ففى الفصل الرابع من دراستنا، وقدمنا رأينا لعدم قبول هذا الرأى فيما يخص العلاقات التجارية، وفى مناسبات عديدة فى الفصل

الحالى تأمل فى دراسة المدى الذى انخرطت فيه القضايا السياسية والاجتماعية خلال انتشار الإسلام فى آسيا الوسطى .

(٢٠) إن النقاش حول الرأى الأول قد وضعه ت لاكويرى بشكل منظم فى كتابه الأصل العربى للحضارة الصينية المبكرة، لندن ١٨٩٤، أما الرأى الآخر فقد صاغه. انظر G. Maspero's article Origines de civilization, chinoise in the Annales de Geographie, no. 194, XXXV annee, Nev. 15,1926, and translated by C. Bishop in the Annual Report of the Smith-(٢١)sonian Institute 1927, Washington 1928, pp. 433_452. 15.

For the advent of the Ts'in and the transfer of the capital see T. De Lacouperin , ibid., pp. 98-9.

(٢٢) مازلنا مقتنعين فى دراستنا الحالية بالمرور على مرجع لاثنين من رواد الفكر الصينى وإلى المبادئ الأساسية والأصلية لمدارسهما على حد سواء وليس هذا مكانا لإعطاء أية تفاصيل عن تاريخ وتطوير الفلسفة الصينية والديانة أو حتى تتبع التسلسل المعقد للمدارس المختلفة وفروعها والتى أصلت الفكر الصينى فى مختلف الفترات ولشرح مختصر لمثل هذا التسلسل انظر H. Shin, Religion and Philosophy in Chinese History, being chap. 11)pp. 25-58) of Symposium of Chinese Culture, edited by S. H. Zen, Shanghai 1931.

(٢٣) يوجد دليل بسيط يؤيد رأى باركر حول التشابه بين تعاليم الاثنين (انظر كتابه: الصين والدين، لندن ١٩٠٥ ص ص ٣٠ - ٣١ - أما عن الاختلافات بين الشخصيتين وأفكارهما؛ انظر هيرث التاريخ القديم للصين، نيويورك ١٩٠٨ ص ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يقول (ص ٢٣٨) إننا لا نستطيع أن نتخيل تناقضا كبيرا أكثر من الفرق بين تعاليم كنفوشيوس ولوتزى .

(٢٤) On the disputed extent of this journey see T. De Lacouperin , Western Origin of Early Chinese Civilization , loc. Cit., p. 120, E. H. Parker. China and Religion, loc. Cit., pp. 45-6. and H. Cordier Histoire generale de la Chine, Paris 1920, t. 1, p. 179.

(٢٥) On the local state of the Ch'u, and its early relations with the south and south-west, vide supra, chap. 11, pp. 65 et seq., where various references may be found.

(٢٦) On the Shuh traders and their role as commercial (and cultural) interme-diaries between North China, on the one hand , and the Southwest and India, on the other, vide supra, chap. 11, pp. 64-5.

(٢٧) The alertness of the southern states of China as compared with the North has already been dealt with ; vide supra, chap. 11, pp. 63-4.

(٢٨) See, T. De Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilisation, loc. Cit.. p. 147.

(٢٩) T. De Lacouperie, ibid., p. 139.

(٣٠) Quoted in H. Cordier, Histoire generale de la Chine, loc. Cit., t. 1, p. 153, from Voltaire's Easai sur moeurs, Int.

(٣١) لدينا حالة مماثلة لمنطقة مثل بريتانى فى فرنسا – ومع هذا فإن تحفظ شانج تونج لا يجب زيادة التركيز عليه، وفقط فى حوالى قرن بعد عصر كونفيوشوس فإن أحد تلاميذه ويدعى مونج كو (مينكيوس) والذى ولد فى نفس الحى قام بوضع آراء أكثر تقدما من أستاذه حيث وضع مصالح الأرستقراطية الحاكمة والتى دافع كونفوشيوس عنها بقوة فى المقام الثانى بعد مصالح جموع الشعب، انظر ف. هيرث: تاريخ الصين القديم نفسه ص ص ٢٨٢ وما بعدها، ومن المفيد أن نتذكر مع هذا أن آراء مانكيوس لم تواجه أى شيء مثل النجاح الذى واجهته قوانين أستاذه ويمكن أن نقول بشكل موسع إنها فى مراحل عديدة من تاريخها لعبت شبه جزيرة شانتونج دور المدخل البحرى للتجديدات الأجنبية، وتمثل أيضا منطقة ذات تقاليد عميقة ورد فعل داخلى .

(٣٢) نلاحظ مرة ثانية – كأمر ذى اهتمام جغرافى – عندما يصبح التأثير الأجنبى فى عصور تاريخية على اتصال مباشر مع المنطقة الصينية الكلاسيكية والقديمة (أى عبر خليج بيشيه لى وشانج تونج) فقد واجهوا مقاومة أكبر أكثر مما فى الحالة عندما يصل الاختراق عبر مناطق أكثر يقظة وتقدما فى الجنوب الشرقى والجنوب. (والجنوب الغربى) .

(٣٣) T. De Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilisation, loc. Cit., p. 149.

(٣٤) كان ت لاكوبرى أول من لفت الانتباه إلى هذا الصمت من كونفوشيوس بخصوص الأصل الأجنبى للأسر الصينية ويعزى هذا بحق إلى ما يعتبره الشعور القومى للصينى بين الصينيين مثلما كان انظر نفسه ص ١٤٠.

(٣٥) حسب ماكس مولر فإن بعثة تبشيرية هى الواحدة التى ارتفعت فيها انتشار الحقيقة وتحويل الوثنيين إلى مرتبة الواجب المقدس التى قام بها المؤسس وأتباعه المباشرون – مقتبس من أرنولد: الدعوة للإسلام نفس المرجع ص ١ .

(٣٦) لهذا السبب وغيره لا نميل إلى اعتبار الانتشار السريع لهاتين الديانتين خصوصا اليهودية أنها تمثل أية افتراضات ثقافية بالمفهوم الصحيح، وعلى هذا فإن هاتين الديانتين لا تحتاج إلى إيقافنا هنا، وللإشارة إلى انتشار الزرادشتية نحو الشرق والتى لم تسمع عنها فى الصين فى ذلك الوقت قبل

A. Lloyd, The Creed of Half Japan, London 1911, p. 151. For the انظر .عصرالتانج
Jews, who apparently first reached China after the opening of the land-routes under the Former Han dynasty (209 B. C. --- A. D. 25) , see ibid., p. 77 ; also monograph on Judaism in China by J. Edeins, The Jews at K'ae-Fung-foo , Shanghai 1851.

A. Lloyd, ibid., pp. 2-3. (٣٧)

(٣٨) ومع هذا فإننا لا نأخذ هذا ليعنى أن الهينايانا لم تجد أبدا أتباعها فيما وراء الحد الشمالى الغربى للصين، كما سنرى بعد ذلك بقليل كانت العقيدة القديمة أكثر قوة من الجديدة فى بعض الأحياء فيما وراء هذا الحد فى أوائل القرن السابع .

For the rise of this art under Greek influence see A. Foucher , The Beginnings -٣٩ of Buddhist Art, transl. by L. A. and F. W. Thomas, London and Paris 1917, chap. IV, pp. 111-138.

FDor this so-called " Southern Route ", vide pra, chap. 111, pp. 92-93. (٤٠)

A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., footnote 2 on p. 45. (٤١)

-H. Lansdell, Chinese C. Asia, London 1893, vol. II, p. 90. (٤٢)

ومع هذا ففى عبارة أخرى يقول: يوجد مؤسستان دينيتان لكن لم يعش أى قسيس فيهما، وإذا سعى القساوسة الأجانب للعيش هناك فإن البرابرة يتعقبونهم بنيران حارقة ولا يسمحون لهم بالاقامة، وحتى إذا أخذنا ذلك كمؤشر لتوسع سابق للبوذية فى هذا الاتجاه، فإنها لم تكن أكثر من حالة سريعة جدا، وهناك مصدر مبالغ فيه لا نعتبره انتشارا للبوذية فيما وراء - الذى أعطاه ابن اسحق فى كتاب الفهرست (أو السيرة / فى نسخة ج فلوجل من النص العربى مع ملاحظات المانية ليبزج ١٨٧١ ص ص ٣٣٧ وما بعدها فى النص خصوصا ص ٣٤٥ .

(٤٣) للإشارة إلى الفروق فى الأحوال الجغرافية على طول الطرق الشمالية والجنوبية لتاريم وأثرها على الاختراقات الدينية على طول كل منها انظر See S. A. Huzayyin, Le role du milieu dans la diffusion religieuse Ders l'Orient a travers la Haute Asia , Compte rendu du Cong. Intern. Des Sciences anthrologiques et ethnologiaues , London 1934, p. 304.

A. Remusat , Histoire de la ville de Khotan, Paris 1820, p. 12. (٤٤)

See A. Remusat, ibid., pp. 37 et seq. (٤٥)

(٤٦) Sven Hedin , Through Asia, vol. II (London 1898), p. 785.

(٤٧) On this point , vide supra, chap. IV, p. 148.

(٤٨) Vide supra , chap. 11, pp. 50-1.

(٤٩) Onthis introduction see T. De Lacouperie, Western Origin of Early Chinese Civilization , loc. Cit., pp, 210 et seq., H. Cordier, Histoire generale de la Chine, loc. Cit., t. I, pp. 262-6, and A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., pp. 76 et seq.

(٥٠) هناك شك بسيط أن إدخال البوذية هو الذى أغرى الكونفوشيوسيين على إقامة صور تقليدية الشخصيات المعروفة في البوذية والتى كانت قد تأثرت نفسها بصور المسيح فى المسيحية، وهذا هو المظهر الرئيسى الذى أثر الفن الإغريقى الرومانى فى الشرق الرومانى على مدرسة الماهايانا والتى حملت بدورها التأثير إلى الصين: انظر See A. Lloid, ibid., p. 124. This artistic penetration from West to East became more pronounced under the Wei dynasties of N. China (A. D., 386-550) ; see H. Cordier, Histoire generale de la Chine , loc. Cit., t. I, pp. 364-375.

(٥١) See A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., pp. 168 et seq., also M. Courant, La Coree jusqu'au IX siecle, etc., T'oung Pao., vol. IX, 1898, pp. 21 et seq. ; also vide supra, chap. 11, p. 58.

(٥٢) For changes in the policy of the T'ang towards this creed see A. Lloyd, ibid., p. 192.

(٥٣) يمكن أن نقول بشكل عام إن الفكر البوذى ظل سائدا فى الصين حتى حوالى ١١٠٠ ميلادى وطوال الوقت (خصوصا من القرن الرابع وما بعده) ومع هذا فإن البوذية عانت من تطور داخلى وتحول تحت تأثير البيئة الصينية والتقاليد، ومنذ حوالى ١١٠٠ ميلادية وما بعدها انهارت تدريجيا إلى ما يسمى الكونفوشيوسية الجديدة (وهى تمثل بعثا ونهضة فى الفلسفة الأكثر عقلانية وإنسانية، انظر : H. Shih Religion and Philosophy in Chinese History pp. 27 and 52 -56.

(٥٤) For this date see L. H. D. Buxton : The Land and the Population, Oxford 1929, p. 178.

(٥٥) Sven Hedin, Trans-Himalaya, London 1910-1913, vol. III, p. 314.

(٥٦) Vide supra, chap. II, p. 54.

(٥٧) لإدخال البوذية بين بعض القبائل التركية فى تين شان فى نهاية القرن السادس انظر E. H. Parker, A Thousand Year of the Tartars, London 1924, p. 137. Also reference to Buddhism among E. Turks in the region of Hami about 982, A. D. in P. D, De Their Samt, Le Mahometisme en chine, etc, Paris 1878, p. 228.

(٥٨) انظر الأجزاء الأولى من الفصل الأول لمعرفة الطبيعة المعقدة لهذه المنطقة الثقافية .

(٥٩) رغم القول بأن مانى نفسه من أصل فارسى إلا أن تعليمه وفكره لم يكن فارسيا فى طبيعته .

(٦٠) إن الطائفة الأخيرة فئة يقوم نظامها على الربط بين الديانة الشرقية والفلسفة الإغريقية مع المسيحية ويمكن الرجوع إلى أ. ليون كتاب عقيدة نصف اليابان، مرجع سابق ص ص ١٤٥ ـ ١٥١ .

(٦١) ربما يكون لهذا تأثير عميق على تعاليمه التى صارت فلسفة تناقضات .

(٦٢) What Buddha was to India, Zoroaster to Persia, Jesus to the Lands of the West, that am I to Babylonia" ; quoted in A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., p. 148.

(٦٣) قدم ابن اسحق تقريرا عن اضطهاد المانيين وانتشار أتباعهم إلى الشرق فى كتابة الفهرست (تاريخ حياته) انظر النص العربى مع تحرير وملاحظات بالألمانية د. ج فلوجل ١٨٧١ مرجع سابق المجلد الأول ص ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٦٤) يمكن أن نفسر حقيقة أن أتباع مانى لم يوجهوا جهودهم نحو الهلال الخصيب على أساس أنه فى المنطقة الأخيرة انشغلت العديد من الكنائس المسيحية بنشر مبادئهم بحماس وكانت تعارض بشدة تعاليم مانى التى شوهت أسس المسيحية رغم حملها اللون المسيحى .

(٦٥) لقد وجهنا الانتباه إلى الفروق فى الأحوال النباتية والطبيعية والبشرية على الطرق الشمالية والجنوبية لحوض تاريم وعلاقته بالتبادل التجارى، انظر فيد سويرا، الفصل الثالث ص ص ٩٢ وما بعدها، كما لعبت نفس الظروف دورا يساويه فى الأهمية فى الجغرافيا الروحية لآسيا الوسطى أى بالعلاقة مع مختلف التيارات الدينية المتعددة من الغرب إلى الشرق .

(٦٦) أثارت نقطة التشابه بين المانية والبوذية نقاشا عما إذا كانت واحدة قد أثرت فى الأخرى ويبدو أن التأثير كان متبادلا لأن المبدأين ذوا طبيعة مرنة، وحول هذه النقطة انظر A. Lloyd : The Gread of Half Japan , loc. Cit., pp. 150 - 1

(٦٧) يذكر ابن اسحق (كتاب الفهرست طبعة فلوجل المجلد الأول ص ٣٣٤ النص العربى) أنه بعد فترة من عصر مانى أنقسم الدين إلى مذهبين أساسيين .

(٦٨) See H. Yule, Cathay and the Way thither , ed. H. Cordier (1913 - 16), vol. I, addition by Cordier on p. 63.

(٦٩) Addition by Cordier , idem, p. 63.

(٧٠) لأهدافنا الحالية من المفيد التمييز بين الحوض - أو أرض الاستبس - الواحات) وواحات الصحراء، وإذا أخذناها ككل تنتشر المانية من منطقة قبيلة لأخرى (بدوية) بينما تنتشر البوذية من واحة مستقرة لأخرى .

(٧١) يجب أن نلحظ أيضا أنه منذ بداية البوذية أنها كانت أكثر أصالة ومبادئ متكاملة عن المانشينية، وقد ساعدها هذا على أن تصل إلى الصين بحالة جيدة لكى يسمح لها ليس فقط لأجل البقاء بل أيضا التأثير فى الفكر الصينى .

(٧٢) لمعرفة انتشار العناصر الثقافية من عالم الإغريق إلى الهلال الخصيب انظر فيدسوبرا الفصل الأول، ص ص ٢٤ وما بعدها .

(٧٣) Vide suprs, the discussion at the beginning of chap. 1.

(٧٤) يجب أن يكون واضحا رغم افتراض إمكانية العلاقة بين تطوير الظروف الجافة والتطور العظيم للحياة البدوية فى الشرق الأدنى التى تشكل واحاتها أماكن ملائمة للعزلة ونحن لا نؤكد أن الظروف الجغرافية والأحوال المناخية كانت العوامل الوحيدة فى هذا الموضوع .

(٧٥) C. R. Beazley , The Dawn of Modern Geography , vol. 1 (London 1897), p. 212.

(٧٦) Alphones Minghana, The Early Spread of Christianity in Central Asia and the Far East : A New Document, reprinted with additions from the Bulletin of the John Ryland's Library, Manchester, vol. 9, No. 2, July 1925, p. 7.

حسب الحقيقة فإن منطقة جيلان كانت من أهم المناطق الحيوية على طريق الحرير القديم إلا أننا نعتقد أن قيام المسيحية هناك ارتبط مع النشاط التجارى .

(٧٧) See A. Minghana, ibid., p.11 ; also H. Yule-H. Cordier, Cathay, loc. Cit., vol. 1, p, 115.

(٧٨) إن تاريخ إقامة تمثال س نجان فو والذى تم الكشف عنه فى حى بالقرب من مدينة شوشين فى عام ١٦٢٦ عموما يرجع إلى عام ٧٨١ ميلادية، ولكن منجهانا يدعى أنه عام ٧٧٩ (نفسه ص ٣٦-٣٩)، ومهما تكن هذه النقطة الفرعية، يكفى لنا أن نعرف أن التمثال يشير ويدل على إعادة إحياء العلاقات الثقافية (وأيضا التجارية) بين غرب آسيا والصين فى ظل أسرة تانج .

(٧٩) A. Lloyd, The Creed of Half Japan , loc. Cit., pp. 193-4.

In the court of Tai Tsung, Buddhist, Nestorian, Manichacan, Zoroastrian l,etc l (٨٠)
priests met.

A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., footnote 1, on p. 218. (٨١)

On the smuggling of worm-eggs from Serindia, vide suprs, the section on silk (٨٢)
commodities in the Appendix to chapters 111 and IV.

See The Book of Ser Marco Polo, H. Yule, 3. ed. By H. Cordier, vol. 1 (1903), (٨٣)
pp. 183-223.

e. g. The Nestorian priest Adam (King T'sing of the Si-ngan-fu Inscription) col- (٨٤)
laborated with an Indian monk in the translation of Buddhist books from Hu lan-
guage (Uigur ?) into Chinese. See J. Takakusu, The name of "Messiah" found
in a Buddhist Book l, etc., T'oung Pao, Series 1, vol. VII (1896), pp. 589-91.

On this much discussed question of similarity between Buddhism, especially (٨٥)
Lamaism, and Christianity (in general), see Sven Hedin, Trans-Himalaya, vol,
III (1913), pp. 310 - 29.

(٨٦) انتشرت الأديرة من الشرق الأدنى فى اتجاه أوربا فى حوالى القرن الرابع بعد الميلاد، وهناك شك
بسيط فى أن الكاثوليكية فى أوربا قد حصلت على نظام الأديرة من الشرق الأدنى .

W. B. Soothill, China and the West, London 1925, p. 29. (٨٧)

Arabic text ed. By G. Flugel, loc. Cit., vol. 1, p. 349, For reference in French (٨٨)
see transl , of passage by J. T. Reinaud, Lettre a M. Ch. Lenormant sur les An-
tiquites Chretiennes de la Chine, Paris 1887, pp. 3 et seq. The text is not clear
about the outward route followed by the priest to China, but his return Journey
was almost certainly made by sea.

A. Lloyd, The Creed of Half Japan, loc. Cit., p. 195. (٨٩)

(٩٠) أقامت المدرسة النسطورية العلاقة المتازة بين التعاليم اليونانية والإسلامية، وتأسست البطرياركية
النسطورية فى مدينة تسيفون منذ عام ٤٩٦ ميلادية وانتقلت إلى بغداد فى عام ٧٦٢ انظر ث. ر
بريزلى: فجر الجغرافيا الحديثة نفسه، مجلد ١ ص ٢١٢ .

See The Book of Ser Marco Polo, Yule-Cordier, ibid., vol. 1, pp. 183, 187, 203, (٩١)
212, 217, 219, etc. ; also reference to Polo's and other travelers accounts in A.

Minghana, The Early Spread of Christianity in Central Asia and the Far East, loc. Cit., pp. 20 et seq.

(٩٢) A. Llotd, The Creed ì etc., loc. Cit., p. 193.

(٩٣) لا تعنى كلمة تبشيرى فى الإسلام نفس المعنى كما هى فى المسيحية، ورغم طبيعتها التبشيرية كانت هناك هيئات منظمة قليلة جدا نسبيا للأعمال التبشيرية الخاصة فى الإسلام وعادة تنتشر العقيدة إما من خلال الجهد الفردى لبعض المسلمين المخلصين أو المتعلمين، أو عن طريق التجار الذين توغلوا فى الدول غير الإسلامية وفى كثير من الحالات أنه المسلم العادى الذى ينقل الحقيقة لهذه العقيدة لغير المسلمين .

(٩٤) Vide supra, the beginnings of the present chapter.

(٩٥) See T. W. Arnold, The Preaching of Islam (1 " edition, London 1896), loc. Cit., pp. 44 et seq. This notion of " Arab" fraternity is, in some respects, opposed to the notion of fraternity in Islam, which makes no distinction between Arab and non-Arab.

(٩٦) For the Christians under Arab rule see Arnold, The Preaching of Islam, loc.cit., pp. 51 et seq.

(٩٧) كان الصراع أساسا واحدا بين الإسلام والمسيحية حتى على حدود الإمبراطورية الساسانية حيث كان المسيحيون أكثر سيطرة من الزرادشتيين .

(٩٨) لقد جذبت الظروف الجغرافية فى الشرق الأدنى ككل التطور فى الاختلافات المحلية بين مختلف الوحدات الإقليمية الأصغر، وتم التعبير بشكل أكبر فى ظل الكنائس الشرقية فى شكل حركات دينية، بينما فى ظل الإسلام كان التعبير سياسيا فى طبيعته، رغم أنه دينى فى مظهره، ولا حاجة لأن نضيف أن الفروق الدينية كانت أكثر تدميرا للوحدة الثقافية فى المنطقة عن السياسية .

(٩٩) See T. W. Arnold, The Preaching of Islam, loc. Cit., p. 177.

(١٠٠) إذا تتبعنا أعمالهم نجد أن العمال الصناعيين ينجسون النار والأرض أو الماء، وعلى هذا كانت معاملتهم بشكل أدنى، ومع هذا فإن الطبقات للحرفيين كانت عنصرا مهما فى غرب إيران وكان تحول المدن إلى الإسلام ما جعلها مراكز مناسبة لدراسة ونشر المبادئ الإسلامية .

(١٠١) See T. W. Arnold, The Preaching of Islam, loc. Cit., p. 180 ; also Masuadi, Les prairies d'or et les mines ì etc. (Arabic text with French version, ed. And transl. by C. B. de Meynard and P. de Courteille) , Paris 1861-77, t. VIII, p. 279 and t. IX, pp. 4-5.

(١٠٢) See translations of passages from two Chinese pilgrims by p. Pelliot, Included in A. and Y. Godard et J. Hackin, Les Antiquites bouddhiques de Bamiyan (Mem. De la delegation archeologique francaise en Afghanistan, t. 11) , Paris et Bruxelles 1928, pp. 78-81 and 83 respectively.

(١٠٣) ومع هذا يمكن أن نقول إنه أساسا فى أجزاء من شمال غرب الهند وفى البنغال اكتسب الإسلام أرضا، ولكن فى الشمال والغرب وجد المسلمون البراهمة ممتلئين بالحياة والحيوية بعد نجاح نضالها مع البوذية، ومعارضة التحول فى البنغال الذى كان ضعيفا ورحبت الطبقات الدنيا والوضيعة بالعقيدة الجديدة ، وفى الدكن وصل الإسلام عن طريق الأقلية الحاكمة، وعلى سواحل جنوب الهند (مالابارا) انتشرت العقيدة عن طريق البحارة وتجار البحر، ولمعرفة تقرير عن قصة انتشار الإسلام فى الهند، انظر توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام نفسه، الفصل التاسع ص ص ٢٠٨ - ٢٢٤ .

(١٠٤) Such as, e. g. F. H. Skrine and G. Denison Ross, The Heart of Asia , London 1899, pp. 45 et seq.

(١٠٥) Even in Iran, the Dihqans held a position far above the other inhabitants of villages.

(١٠٦) On this interesting point see W. Barthold, Turkestan down to the MongolInvasion, transl. by author and H. A. R. Gibb, London 1928, p. 180.

(١٠٧) W. Barthold goes as far as to assert that so far as is known the priesthood played no part whatever " in this struggle ; see idem, pp. 180-1.

(١٠٨) See T. W. Arnold, The Preaching of Islam, loc. Cit., pp. 179 et seq.

(١٠٩) بالنسبة للدليل الذى قدمه أبو الضولاف (الضلوف) يتضح أنه فى وسط القرن العاشر بعد الميلاد، امتد الانجراف الإسلامى فيما وراء الحدود الشرقية للإمبراطورية العربية فقط إلى منطقة قبلتين، رغم أن مبادئ العقيدة كانت قد استقرت، وقد عمت (بفضل وجود نشاط تبشيرى وتجارى قليل) حتى حدود التبت وشمال غرب الصين) وأنه بناء على هذا الدليل وغيره نؤكد الانتقال بين مرحلتين افترضناهما لنشر الإسلام عما هو الآن فى غرب وشرق تركستان، فى نهاية الألفية الأولى بعد الميلاد - ولمعرفة النص العربى والنسخة اللاتينية (على نفس الصفحة) من أبى الضولاف انظر ؟

(١١٠) يقدم توماس أرنولد ملاحظة شيقة أنه فى حالات كثيرة أدى التحول إلى الإسلام لرؤساء القبائل فى الاستبس من آسيا الوسطى، مثل رؤساء الكولفس والرؤساء البرابرة الآخرين فى شمال أوربا وتحولهم للمسيحية أن تسلك عشائرهم مثالهم كاملا، انظر نفسه ص ١٨٤.

(١١١) لتفاصيل عن الفروق بين الطرق الشمالية والجنوبية لتاريم، انظر فيدسويرا الفصل الثالث من هذا العمل ص ص ٩٢ وما بعدها .

(١١٢) فى هذا المقام من المفيد أن نتذكر الفكرة التى ناقشنا حول التحول الخارجى التدريجى لمركز قوة الانتشار من الاستبس الأسيوى الشرقى والغربى داخل آخر الفئتين، فيدسويرا الفصل الثانى ص ص ٧٣ وما بعدها .

(١١٣) ومع هذا فإن المنافسة بين الديانات الثلاثة كان مسموحا لها اتباع مجال طبيعى وغير متأثر من التطور بسبب التسامح العام - أو ربما الاختلاف - لحكام المغول فى شرق آسيا لكل الديانات، لتحديد وتعريف الدين التبشيرى فيدسويرا هامش ١ ص ٢٣٤ .

(١١٤) - حقا كانت هناك رغم هذا العديد من المجتمعات النسطورية المبعثرة فى الواحات فى تين شان وعلى استبس المغول والحد الصينى انظر See p. De Thiersant, Le Mahometisine en Chine I etc., loc. Cit., t. 1, footnote on p. 229 ; also W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant (Paris et Leipzig 1885-86), t. 11, pp. 65-6.) وربما خدمت هذه المجتمعات القديمة كمراكز للفكر المسيحى على الاستبس الشرقية ولكن الكنيسة النسطورية نفسها كانت بالفعل فى مرحلة الانحدار بينما لم تقم البعثات الكاثوليكية بأية محاولة لبناء تقاليد نسطورية فى داخل آسيا

(١١٥) إشارة إلى المنافسة الشرسة بين الجماعات المسيحية المتنافسة التى قامت بها ى. بور فى مقالها عن افتتاح الطرق البرية إلى كاتية فى كتاب أسفار ورحالة من العصور الوسطى، لندن ١٩٢٦، ص ١٣٠ .

(١١٦) For reference to this collaboration vide supra, chap. IV , footnote 3 on p. 173 and footnote 2 on p. 175,

(١١٧) من مناقشتنا العامة بخصوص الإسلام فى آسيا الوسطى يبدو من الضرورى أن نكرر ونوضح التميز الذى حاولنا رسمه بين التوسع السياسى للعرب والشعوب الإسلامية الأخرى من جهة وانتشار الإسلام الروحى والثقافى من جهة أخرى، ولا يعنى التوسع السياسى بالضرورة الانتشار الثقافى رغم أن الاثنين فى بعض المناسبات لهما تأثير كل على الآخر، ولقد أشار أرنولد فى مرجعه إلى الإنجازات الروحية للإسلام خلال فترات الضعف السياسى لشعوبها .

(١١٨) هناك عوامل فرعية أخرى مثل الدور الذى لعبته نساء المسلمين اللاتى أخذهن الغزاة المغول، بعد أن قتل الرجال ولن نتوسع فى هذه العوامل هنا .

(١١٩) Trade was the profession of the Prophet Muhammad himself.

(١٢٠) رغم أن بعض التجار المسيحيين، خصوصا النسطوريين كانوا ظاهريا مشغولين فى نشر العقيدة، يبدو أنه فى المسيحية كانت الأنشطة التبشيرية على العموم متميزة إلى حد ما عن بعضها البعض .

(١٢١) ومع هذا فإن تأثير الظروف الجغرافية (أى النباتية) وأيضا البشرية على طول الطرق الجنوبية والشمالية لتاريم لم تكن ملحوظة فى الاسلام مثلما هى على البوذية والمانشية فى مراحل الانتشار المبكرة، ولم يؤسس المسلمون مؤسسات ديرية فى واحات الصحراء المنفصلة فى الطريق الجنوبى رغم أن مساجدهم صارت مراكز للدراسات الإسلامية .

ومن الواضح خلال الجزء الأول فى عصر المغول كانت تجارية أكثر منها دينية وعلى طول الطريق الشمالى الذى يتبع الحزام فى أرض الحشائش، كان التحول للإسلام على نطاق واسع، ولكن لم تواجه مبادئ العقيدة أى تشويه مثل الذى وقع للمانشية من قبل، ولقد كان المبدأ الجديد متماسكا ومتميزا لدرجة أنه لا يمكن أن تطمسه العناصر الثقافية الأقدم والتى كانت موجودة من تيارات سابقة سواء من الجانب الصينى أو الغربى .

(١٢٢) من بين الديانات الثلاث التى نعالجها على حدود الشرق الأقصى نجد أن الإسلام والبوذية هما ذوا طابع التكيف والمواءمة وكانت المبادئ والمفاهيم لمختلف الكنائس المسيحية والتى وصلت هذه المنطقة أكثر نفعية ولا تستطيع التكيف مع الأوضاع الاجتماعية والثقافية المحلية، وكانت البوذية أكثر نجاحا من الإسلام لأنه فضلا عن تكيفها فقد ضمت أيضا مرونة سمحت لكثير من المبادئ المحلية (ليس دائما متوافقة مع بعضها البعض) والتى تجسدت بحرية داخل هيكلها الدينى وهى ميزة غير موجودة فى الإسلام .

(١٢٣) مع هذا لا توجد أرض صلبة للنقاش بأن بساطة الإسلام ومبادئه (كما يمكن استخلاصها من النص دون تفسير كبير) والتى جعلت الإسلام أكثر ملاءمة لشعوب شرق ووسط آسيا (انظر ى. بورا فى كتاب افتتاح الطرق البرية إلى كاثيي، نفسه ص ١٥٢) حيث اعتبرت هذه البساطة على أنها السبب لانتشار الإسلام فى مناطق المغول، وقد أبرزت دراستنا أن حوض تاريم وحدوده كانت له أرضية أكثر تعقيدا من الناحية الدينية والثقافية، أكثر مما كان مفروضا، وعلاوة على ذلك لم تكن البوذية ذات مبدأ مبسط بل إنها كانت قادرة على كسب أرضية راسخة على أرض الاستبس فى منغوليا الخارجية .

(١٢٤) إن هذه الحرية النسبية فى تفسير النص هى التى أدت إلى عدم التعصب فى الإسلام .

(١٢٥) See addition by H. Cordier in his ed. Of H. Yule's, Cathay and the Way thither, loc. Cit., vol. 1, p. 88 ; also T. W. Arnold, The Preaching of Islam, loc. Cit., p. 246.

(١٢٦) Vide supra, chap. IV, footnote 2 on p. 159 ; also P. D. De Thiersant, Le Ma-hometiome en Chine i etc., loc. Cit., t. 1, pp. 37 and 76.

(١٢٧) This is said to be the origin of Islam in Yun-nan. See G. Deveria , Origine de L'Islamisme en Chine in the Certenaire de l'Ecole des langues orientales vi-

لكن يبدو أنه لم يحدث أى استقرار للقبائل vantes , Paris 1895, footnote 3 on p. 309.
الإسلامية على نطاق واسع فى جنوب غرب المديريات فى الإمبراطورية الصينية حتى عصر المغول .

(١٢٨) من المفيد أن نرى حتى القرن الثانى عشر الميلادى أن المسلمين كانوا معروفين فى الصين باسم تاشى (من التادير أو الطاجيك) وهو الاسم الذى أعطاه الإيرانيون للتجار العرب، وبعد ذلك صاروا يعرفون باسم هيوهيو وهو اسم كان يطلق في السابق على قبائل يوجر Uighar فى تين شان، انظر

See E. Bret-schneider, Notices of Mediaeval Geography and History of C. and W. Asia 1 etc., Journal of the N. China Branch of the Asiatic Society , New Series, No. 10, Shanghai 1875, p. 119.

(١٢٩) The finance minister of the Great Qubilai was a Muslim.

(١٣٠) On Sayyid-al-Djeel see note by A. Vissiere, Le Sayyid Edjell Chams ed-Din Omar (1210-1279) et ses deux sepulcres en Chine in the Revue du Monde Musulman, t. IV, no. 2, Fev. 1908, pp. 331 et seq. ; also Cap. Lepace, Biographie du SeyidEdjell Omar Chams ed-Din, introducteur de l'Islam au Yunan, in idem , t. XI, no. 5,mai 1910, pp. 1-31.

(١٣١) See M. F. Grenard, Note sur les musulmans Salar du Kan-Sou, Journal Asiatique, Neuvieme Serie, t. XI, no. 3. mai-juin, 1898, pp. 546-51.

(١٣٢) توجد أماكن استقرار متناثرة للمسلمين فى تسى تشوان لكن تشكل هذه المنطقة فجوة بين يون نان والشمال الغربى .

(١٣٣) J. Anderson, A Report on the Expedition to Western Yunan, via Bhamo, Calcutta, 1871, p. 146.

(١٣٤) يختلف عدد الصينيين المسلمين فى منشوريا (والذين يقدر عددهم حسب التقديرات الحديثة من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠، انظر و.انجلز: الإسلام فى منشوريا، العالم الإسلامى، المجلد الرابع، العدد ٢٣ يوليه ١٩١٦ ص ص ٢٩٦ - ٣٠٠ .

(١٣٥) يبدو أن هذا يستخدم بشكل خاص على بعض الطرق في شمال وغرب الصين أكثر من تلك المؤدية من موانى البحر فى الجنوب والجنوب الشرقى، ويبدو أن الدور الذى لعبه المسلمون الصينيون فى التجارة الداخلية فى بعض أجزاء الدولة غير متناسب مع عددهم .

كان عدد العناصر الإسلامية والمسيحية يتزايد نتيجة تبنى أو شراء الأطفال خلال فترات المجاعة .

(١٣٦) لقد ازداد عدد العناصر الإسلامية والمسيحية .

(١٣٧) لم ينغمس الإسلام فى البحر الواسع للثقافة الصينية رغم أن المجتمعات الإسلامية فى غرب الصين شكلت دائما جزءا لا يتجزأ من النسيج السياسى والاجتماعى للشرق الأقصى ولكن يجب أن نضيف أن مسلمى الصين اختلفوا كثيرا عن مسلمى الهند الذين تميزوا دائما سواء من وجهة النظر الاجتماعية والسياسية عن بقية سكان شبه الجزيرة، وربما نشير إلى أن ثورتى اليون يان (١٨٥٥ - ١٥٧٣) والكاتشو (١٨٦١ - ١٨٧٧) كان لهما اتصال مباشر بسيط ببعضها البعض (انظر الكتاب السنوى للصين تنسان ١٩٢٨، ص ١٨٠ وكانت قد قامتا بسبب سوء إدارة عملاء المانشوس أكثر من رغبة المجتمعات الإسلامية فى العيش فى عزلة اجتماعية وسياسية (انظر كتاب الصين السنوى نفسه ص ص ١٤٠ وما بعدها) وفى ظل النظام الحالى فى الصين (قبل الاعتداء اليابانى) كان المسلمون الصينيون يمثلون عنصرا تقدميا ومحافظا بين السكان

(١٣٨) لا يوجد اتفاق عام حول العدد الإجمالى للمسلمين الصينيين، ففى عام ١٨٧٨ حيث قيل ب. د. دى سيرسانت فى كتابه المسلمون فى الصين وداخل شرق تركستان نفسه المجلد الأول ص ص ٣٨ وما بعدها أنهم يمثلون عشرين مليونا فى كل الإمبراطورية، وفى عام ١٩١٠م بروميهول (الإسلام فى الصين، لندن ١٩١٠) انظر الفصل عن سكان المسلمين قدم الأرقام الجديدة وأنهم ٠٠٠ر٧٢٧ر٤ (كحد أدنى) و ٠٠٠ر٨٢١ر٩ (كحد أقصى) بما فى ذلك سنج كيانج بحد أدنى مليون نسمة و ٠٠٠ر٤٠٠ر٢ كحد أقصى ، وهناك تقدير أحدث وربما أيضا أكثر معقولية فى الإحصاء الجديد لمسلمى العالم الذى أعدة س. م. زورم، العالم الإسلامى، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، يوليه ١٩٢٣ ص ٢٩٠ والعدد ٠٠٠ر٤٣٣ر٦ فى الصين الأصلية و ٠٠٠ر٧٢٣ر٢ لتوابعها (وخصوصا سنج كيانج ومنغوليا الداخلية ومنشوريا)، أما عن المسلمين فى الصين حوالى ٠٠٠ر٨٠٠ ومليون فى يون نان، وثلاثة أو أربعة ملايين فى كاتشو، ومليون إلى ٠٠٠ر٥٠٠ر١ فى المديريات الأخرى فى الشمال والشمال الغربى .

(١٣٩) ربما نلحظ التوسعات الثقافية والجنسية من شبه جزيرة الملايو نحو اليابان من جهة وشرق أفريقيا من جهة أخرى وهذا لا يهمنا هنا .

(١٤٠) See article by J. Ph. Vogel on The Relations between the Art of India and - ianArt pub. By The India)Jara in a series of papers on The Influences of Ind Society,London 1925, p. 36.

(١٤١) Quoted in Vogel, ibid., p. 48 ; see also reference in Foe Koue Ki, ou relations des voyages bouddhiques par Chy Fu Hian par A. Remusat, complete par Klaproth et Landresse, Paris 1835, p. 365.

(١٤٢) See Vogel, ibid., p. 51.

(١٤٣) G. Ferrand, Relations de voyages et texts l relatifs a l'Ex. Orient ì, Paris (1913-14) , vol. 11, pp. 629 ; also Ed. Chavannes, Gunavarman in T'oung Pao, 2 serie, t. V, 1904, pp. 193-4.

(١٤٤) Vogel, ibid., p. 53.

(١٤٥) Vide supra , chap. 1. pp. 31 et seq.

(١٤٦) F. Hirth, China and the Roman orient, Shanghai 1885, pp. 268-9.

(١٤٧) عند دراسة انتشار الإسلام فى شرق أسيا، لن نتعامل مع المجتمعات الإسلامية على الساحل الغربى للهند (فيدسويرا هامش ١ ص ٢٥٧) ورغم أن التجار المسلمين فى مالابار قد ساهموا بكل أكيد فى انتشار الإسلام فى أقصى الهند وبحار الشرق الأقصى الشرقية يبدو أن الهدف الأساسى فى المنطقة التالية قام به التجار ورجال الإرساليات الذين وصلوا مباشرة من غرب آسيا .

(١٤٨) السياسى وظل الحال على هذا المنوال منذ زمن سليمان التاجر -٨٥١ ميلادية) حتى زيارة ابن بطوطة (١٣٤٥) وربما بعد ذلك، وللإشارة إلى القوى التى عين فيها الإمبراطور قضاة مسلمين (فيدسويرا الفصل الرابع هامش ٣ - فى صفحة ١٦٢ - وحسب الوثائق الصينية مع هذا يبدو أن السلطات الإمبراطورية قد أبقت لنفسها حق التعامل مع هذه التهم المهمة) التى تؤدى إلى النفى والخيانة العظمى، انظر ف هيرث رروكسيل شوجوكو (Chau Ju-Kua) سانت بيرسبرج ١٩١١ ص ١٧ وهامش فى نصف الصفحة) .

(١٤٩) فيدسويرا الفصل الرابع، ص ١٦٢ إن نمو الأماكن الأجنبية فى هذه الموانى التى تمت حسب المعاهدات المبكرة يصدق القول عليها بأنه فى الثورة التى وقعت فى كانفو (كانتون) حوالى ٨٧٨ ميلادية ١٢٠،٠٠٠ (أو ٢٠٠،٠٠٠) حسب تسجيل مبالغ فيه - الأجانب (المسلمون - اليهود والمسيحيون والبارثيون) قد تم قتلهم - فيدسوير الفصل الرابع هامش ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

(١٥٠) Vide supra , chap. IV, p. 162.,

(١٥١) فى الوقت الحاضر كان عدد المسلمين على الساحل صغيرا، ويبدو أن كانتون أحد المراكز الرئيسية القليلة حوالى ٢٥،٠٠٠

(١٥٢) كان ما يسمى المسلمون الشام فى الهند الصينية (حوالى ١٠٠،٠٠٠ إجمالى) فى كل الاحتمالات الذين اعتنقوا الإسلام فى حوالى القرن العاشر (أو ما بعده) وحول هذا السؤال غير المؤكد انظر المقال فى (Le Royaume de Champa) فى (T'oungpao) السلسلة الثانية مجلد الحادى عشر ١٩١٠، ص ص ١٨٠ - ١٨٢ وهناك اعتقاد للتفكير بأن الإسلام دخل أولا فى ساحل الهند الصينية فى حوالى القرن العاشر، وأنه قد تم إحياؤه من خلال سلسلة المهاجرين العرب والملايو المسلمين من وقت إلى آخر - انظر.

C. Hanna, The Chams of Indo-china, in the Moslem world vol. XXI, No. 3, 1931, p. 268.

(١٥٣) فضلا عن السكان المسلمين الوطنيين فى مالايو الهند يقدر الآن حوالى ٠٠٠ر ١٠٠ من العرب (أساسا من حضر موت يقطنون كتجار فى الملايو البريطانية وجزر الهند الشرقية الهولندية وكان هؤلاء المستقرون يتزاوجون مع الوطنيين، ولكن تم تزويد هذه المناطق بعناصر جديدة من أرض الوطن.

ملحق
الخرائط

قائمة بالخرائط

١ - المشرق العربى (يتضمن أجزاء أخرى - الشرق الأدنى والأوسط) مبينا عليها أسماء الأماكن وطرق التجارة فى العهد الإغريقى / الرومانى .

٢ - المشرق العربى (يتضمن أجزاء أخرى - الشرق الأدنى والأوسط) مبينا عليها أسماء الأماكن وطرق التجارة فى العهد الإيرانى / العربى .

٣ - الشرق الأقصى مبينا عليها أسماء الأماكن وطرق التجارة فى العهد الإغريقى / الرومانى .

٤ - الشرق الأقصى مبينا عليها أسماء الأماكن وطرق التجارة فى العهد الإيرانى / العربى .

٥ - أربعة طرق فى حوض تاريم وعلاقتها بالأحوال النباتية .

٦ - طرق التجارة فى العهد الإغريقى / الرومانى .

٧ - طرق التجارة فى أوائل القرن التاسع الميلادى .

٨ - طرق التجارة فى أواخر القرن التاسع الميلادى .

٩ - طرق التجارة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى .

١٠ - طرق التجارة خلال الفترة ١٢٤٥ - ١٣٤٥ ميلادية (عهد المغول) .

١١ - طرق التجارة فى نهاية الفترة الإيرانية العربية (قبل الكشوف العظمى).

١٢ - مسارات التيارات الدينية بين غربى وشرقى أسيا .

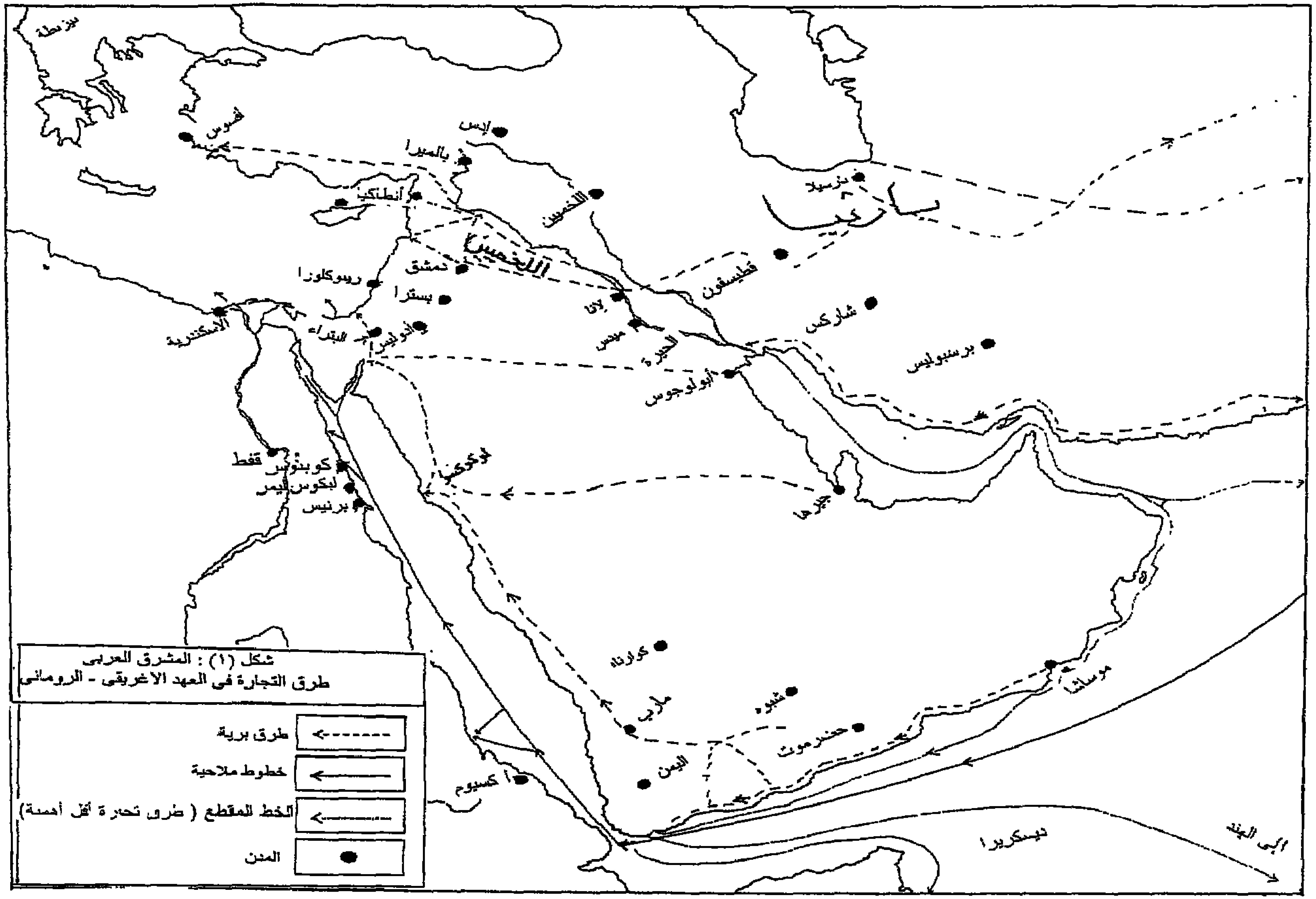

شكل (١) : المشرق العربى
طرق التجارة فى العهد الاغريقى - الرومانى

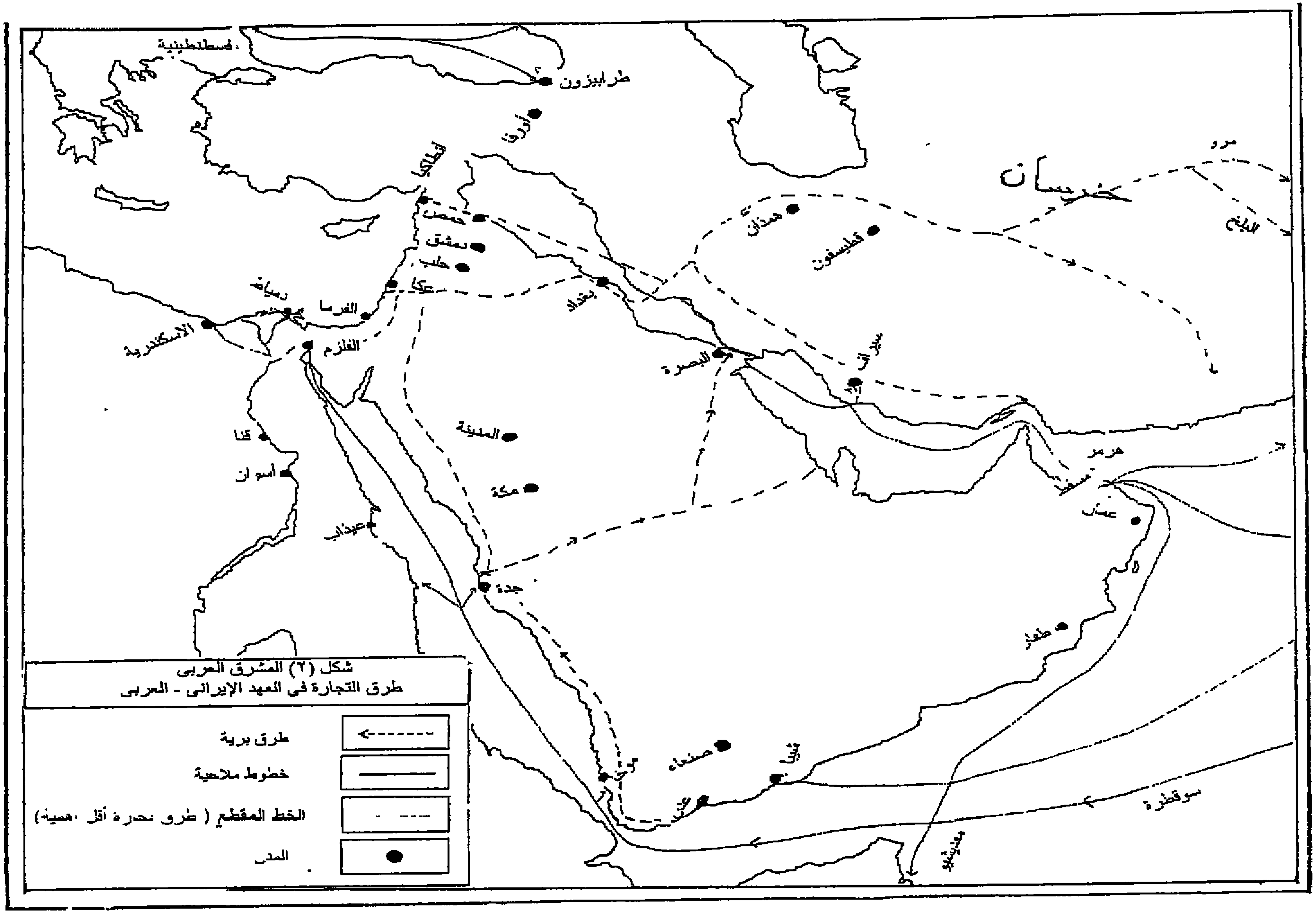

شكل (٢) المشرق العربى
طرق التجارة فى العهد الإيرانى - العربى

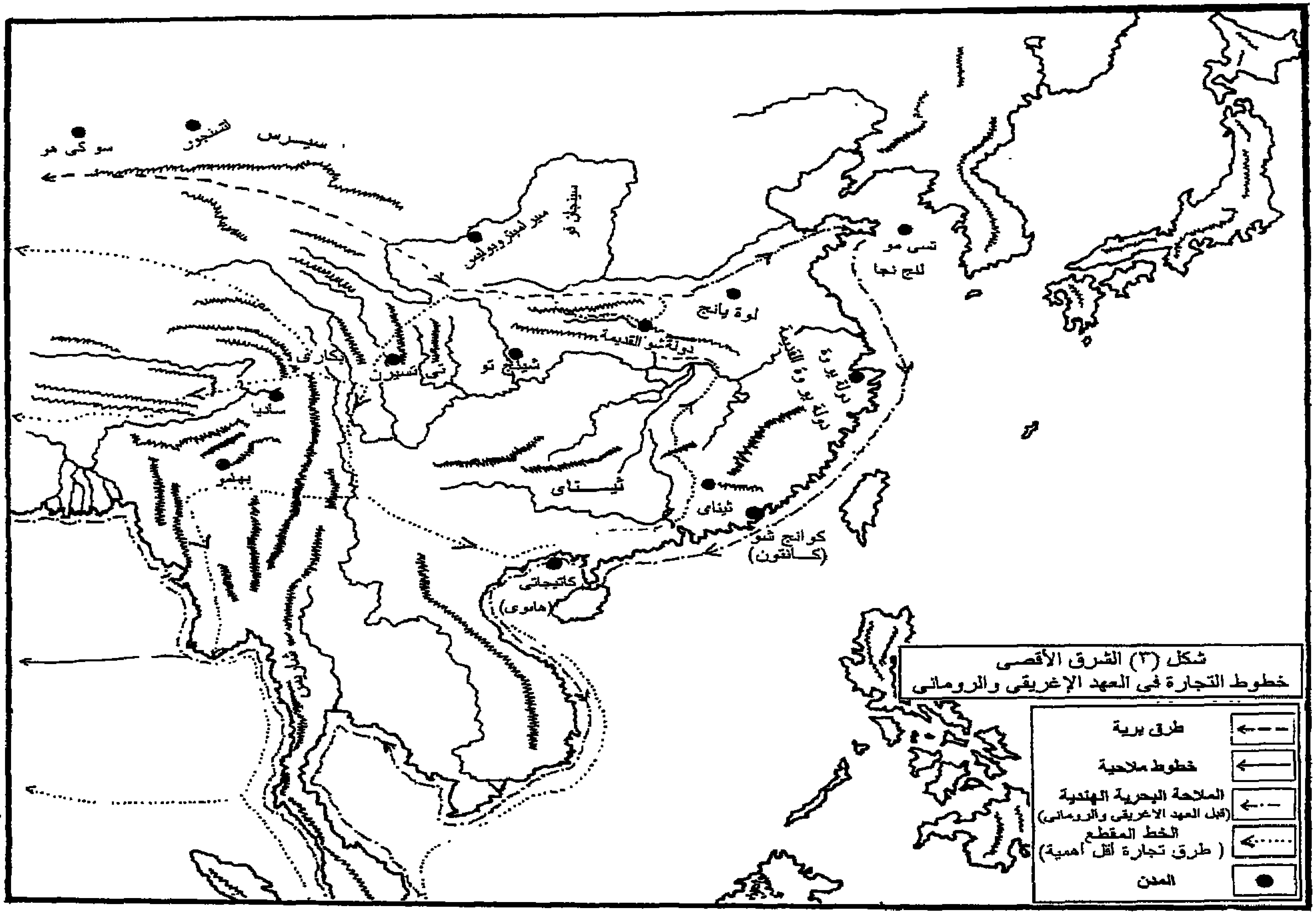

شكل (٣) الشرق الأقصى
خطوط التجارة في العهد الإغريقي والروماني

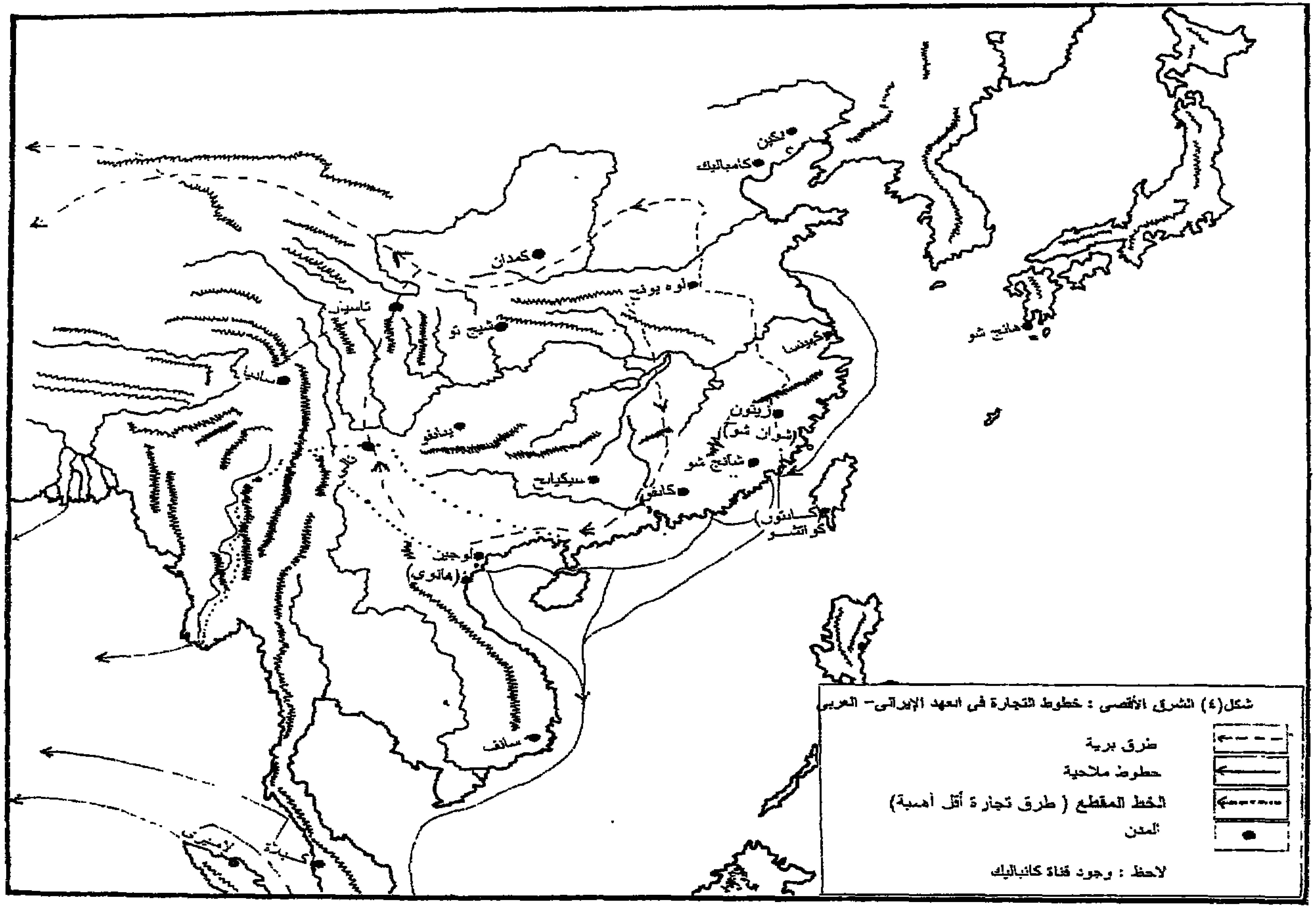

شكل(٤) الشرق الأقصى : خطوط التجارة فى العهد الإيرانى - العربى

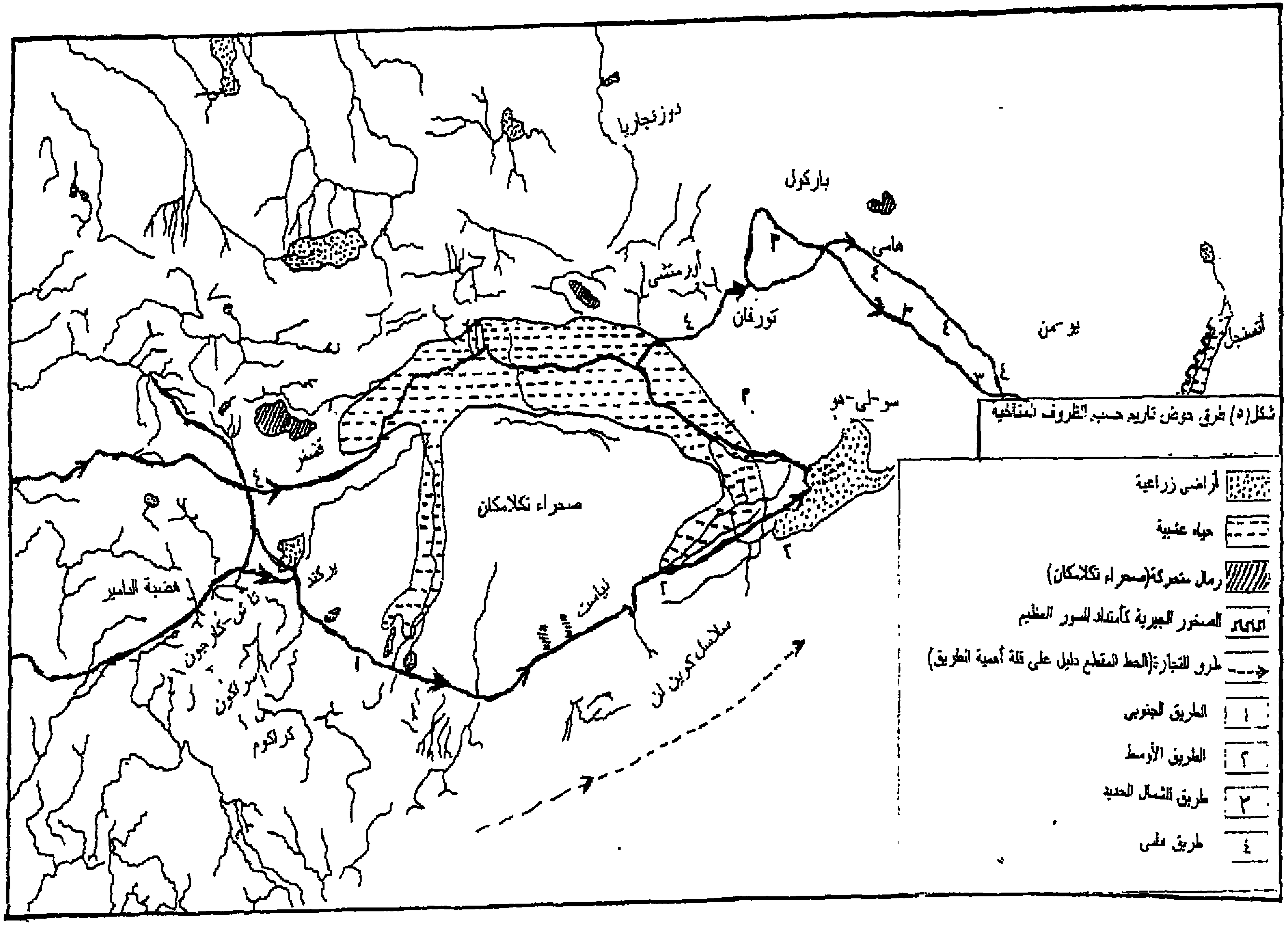

شكل(٥) طرق حوض تاريم حسب الظروف المناخية

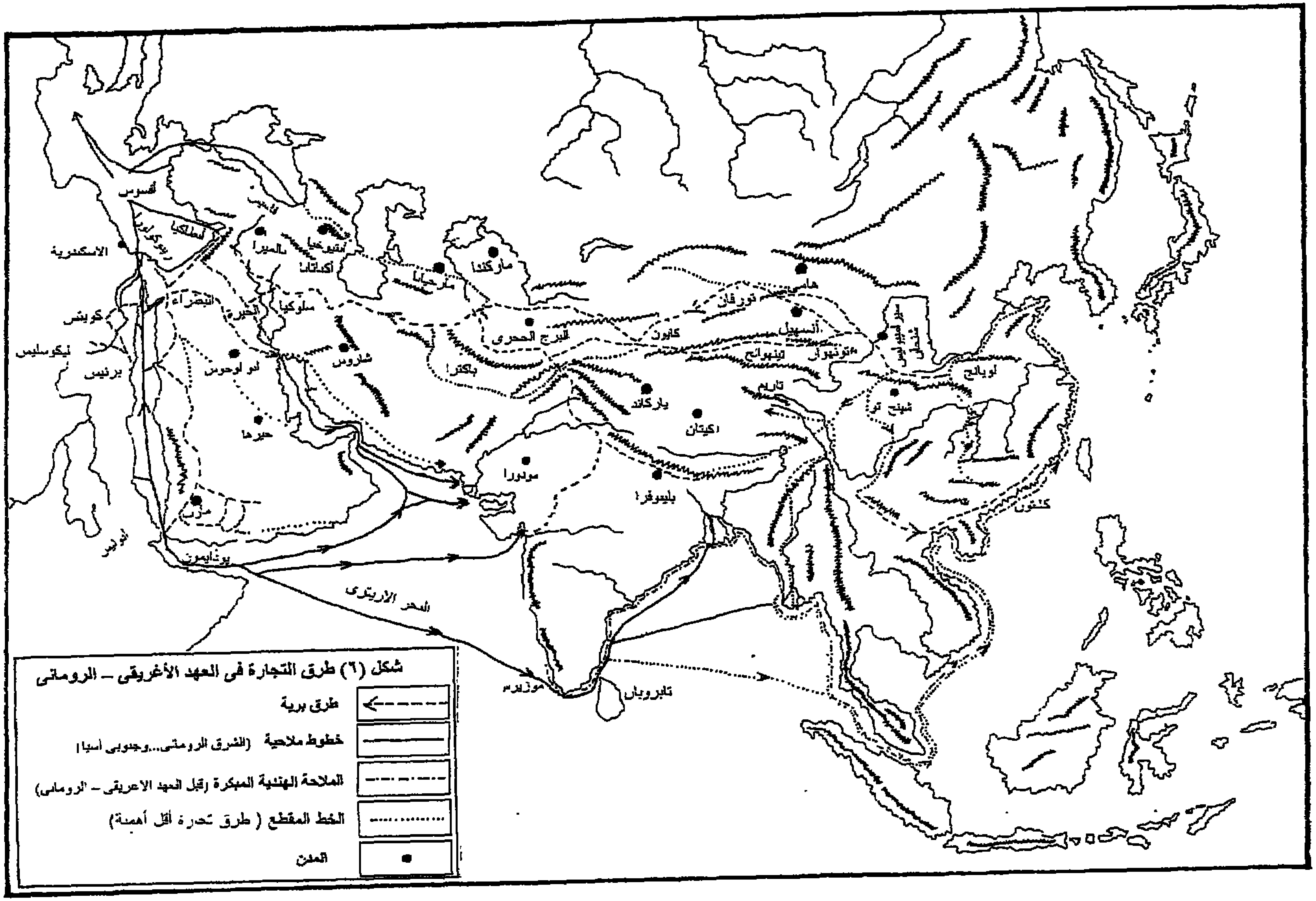

شكل (٦) طرق التجارة فى العهد الأغريقى – الرومانى

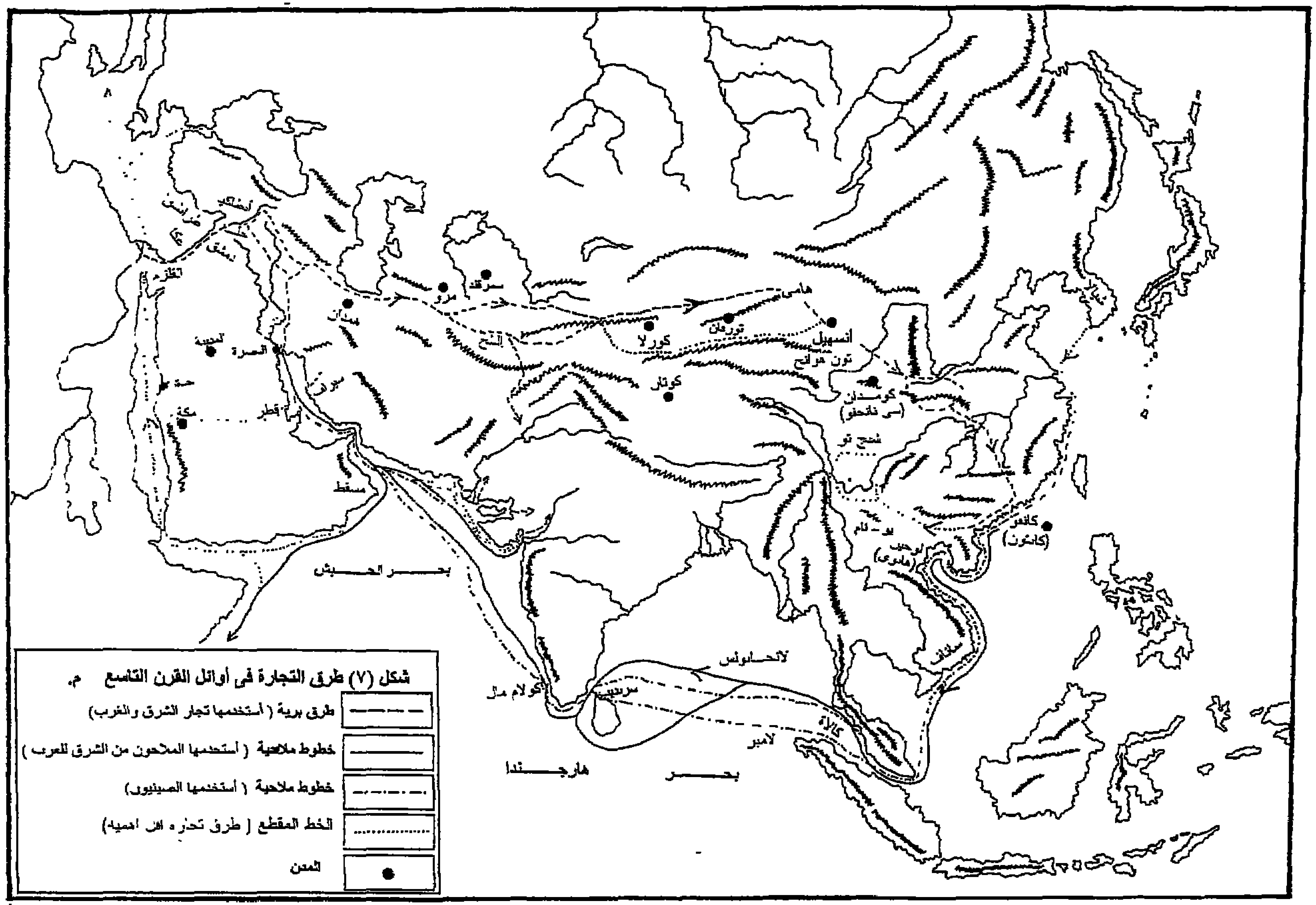
شكل (٧) طرق التجارة فى أوائل القرن التاسع م.
طرق برية (أستخدمها تجار الشرق والغرب)
خطوط ملاحية (أستخدمها الملاحون من الشرق للعرب)
خطوط ملاحية (أستخدمها الصينيون)
الخط المقطع (طرق تحازه اقل اهمية)
المدن
أنطاكية
دمشق
القلزم
المدينة
البصرة
مكة
قطر
سيراف
مسقط
همدان
مرو
سمرقند
كوتان
كورلا
تورفان
هامى
تون هوانج
شنج تو
كانفو
(كانتون)
بحر الحبش
كولام مال
لانجابالوس
كلاة
لامبر
بحر هارجندا

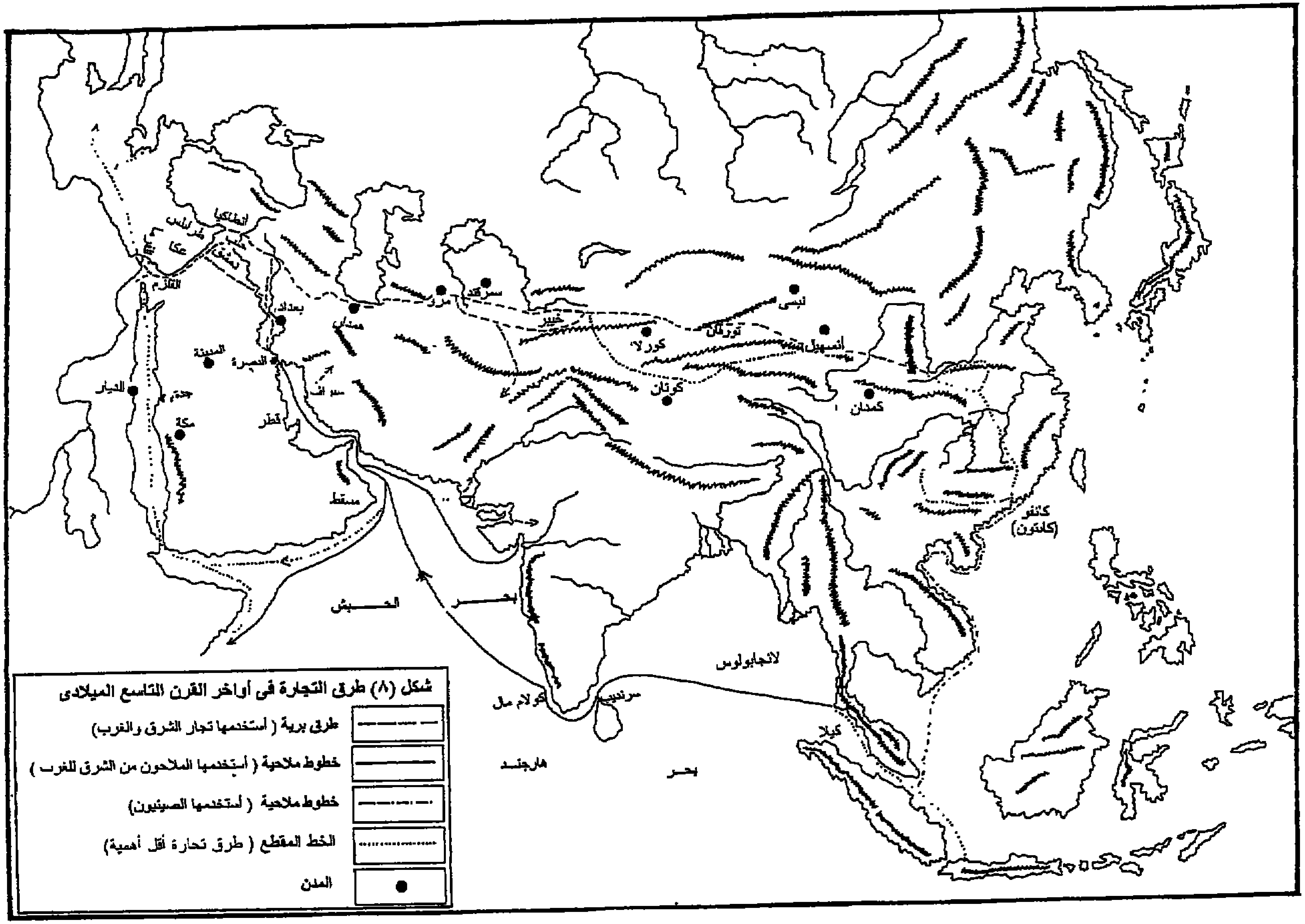
شكل (٨) طرق التجارة فى أواخر القرن التاسع الميلادى
طرق برية (أستخدمها تجار الشرق والغرب)
خطوط ملاحية (أستخدمها الملاحون من الشرق للغرب)
خطوط ملاحية (أستخدمها الصينيون)
الخط المقطع (طرق تجارة أقل أهمية)
المدن
انطاكيا
عكا
دمشق
القلزم
بغداد
همدان
مرو
سمرقند
البصرة
المدينة
الجار
جدة
مكة
قطر
مسقط
سيراف
لبسى
تورفان
انسهيل
كورلا
ختن
كوتان
كمدان
كانفو
(كانتون)
الحبش
بحر
لانجابولوس
كولام ملى
سرنديب
كيلا
هارجند
بحر

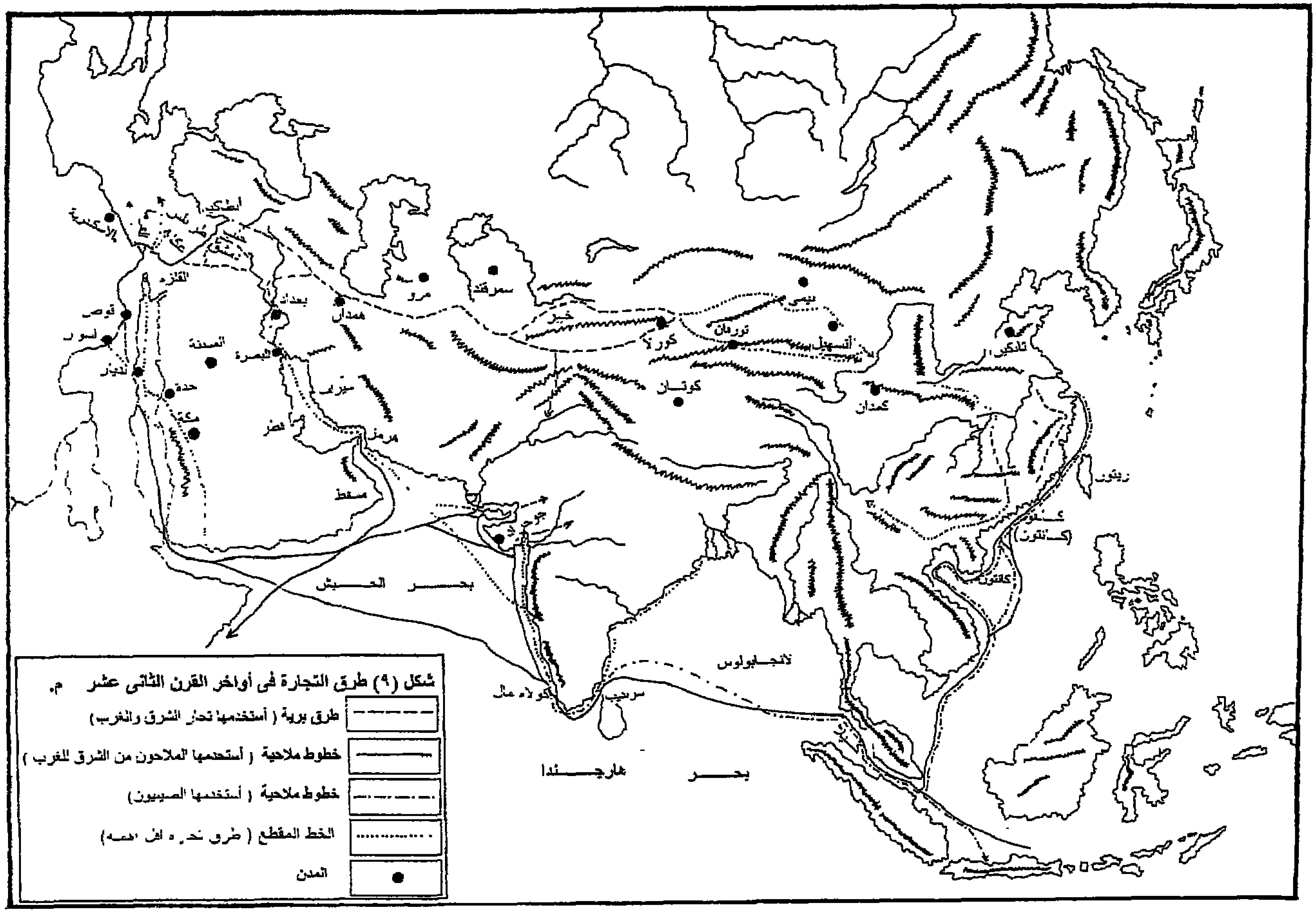

شكل (٩) طرق التجارة فى أواخر القرن الثانى عشر م.

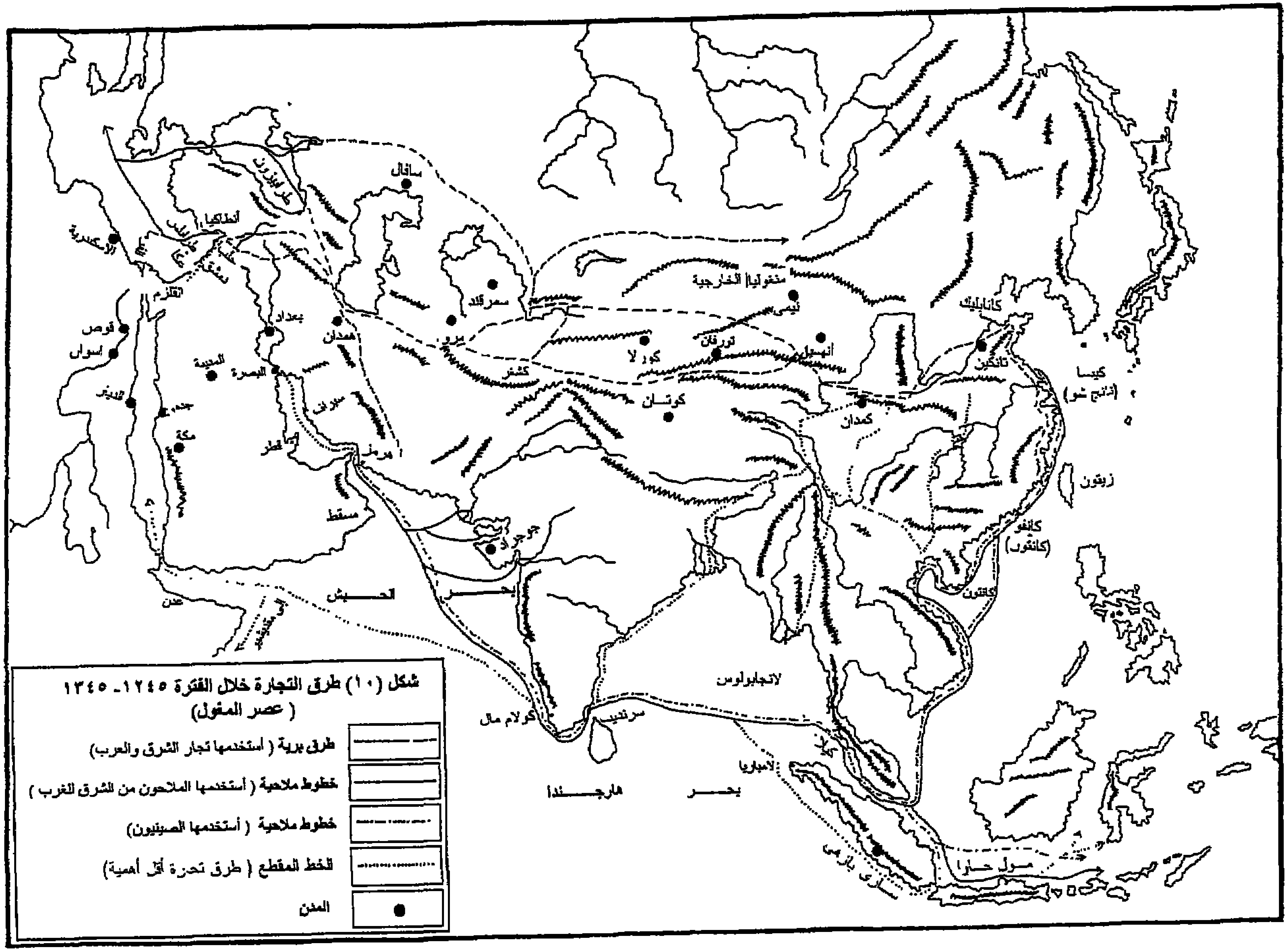

شكل (١٠) طرق التجارة خلال الفترة ١٢٤٥ـ ١٣٤٥
(عصر المغول)

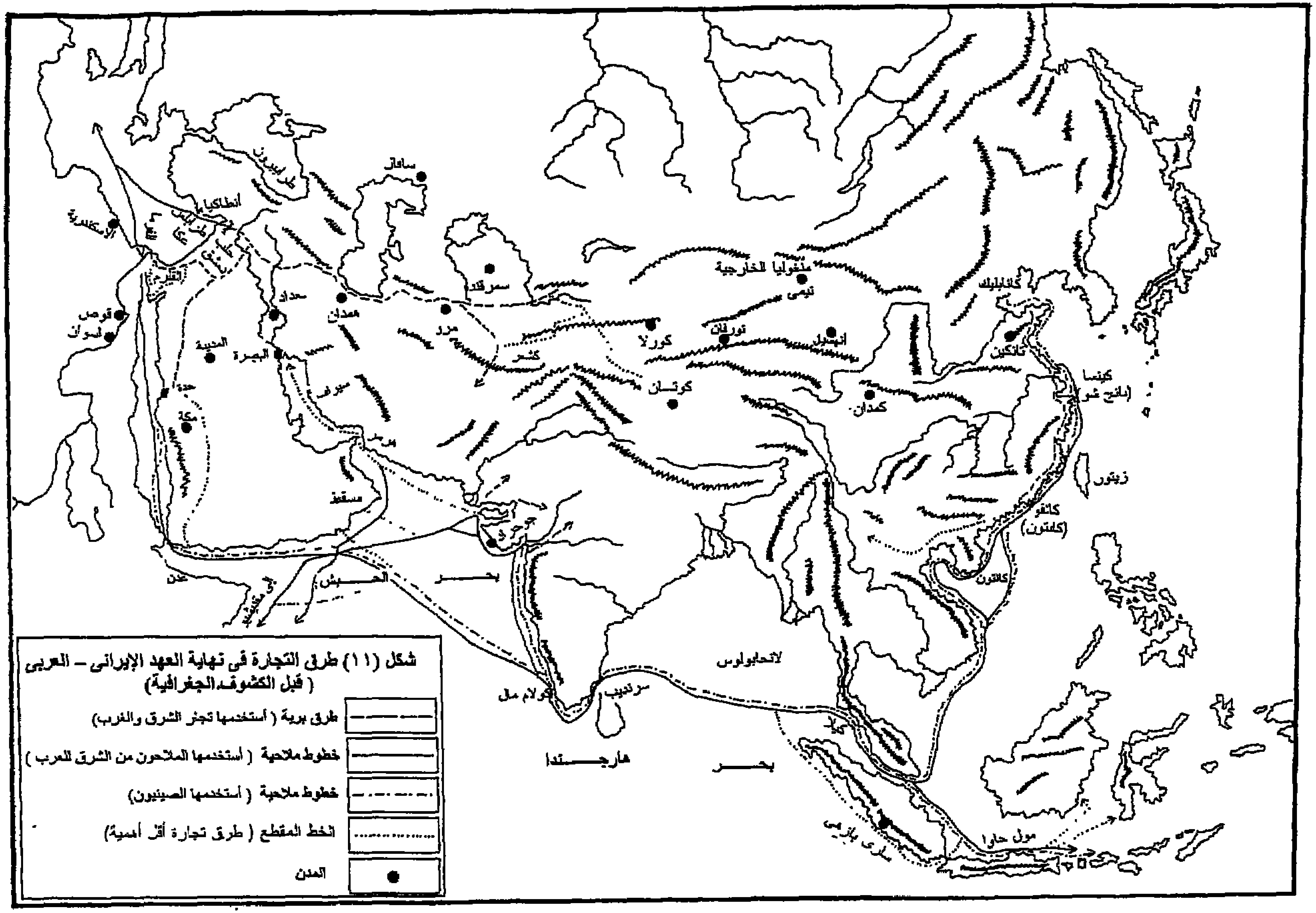

شكل (١١) طرق التجارة فى نهاية العهد الإيرانى – العربى
(قبل الكشوف الجغرافية)

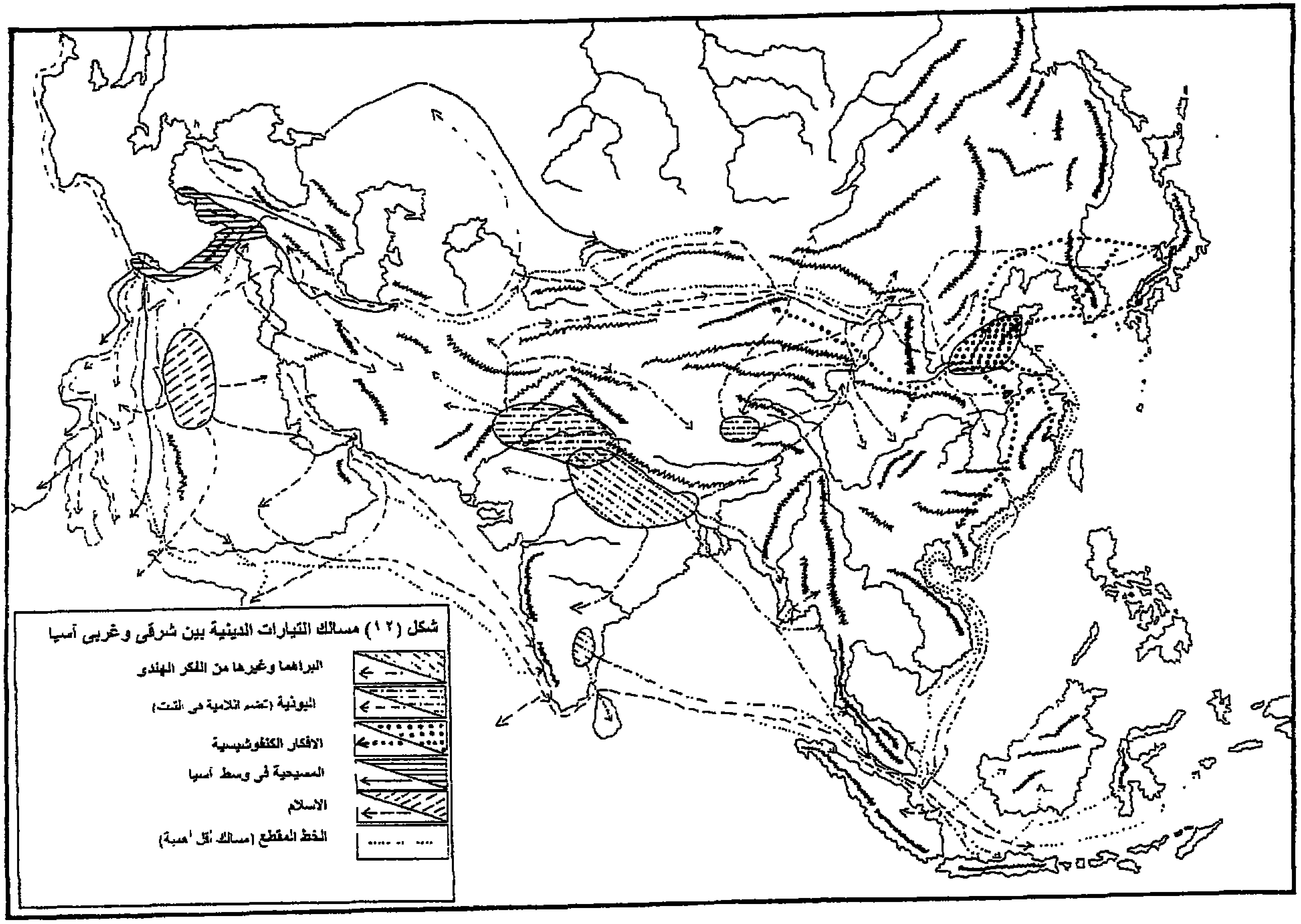

شكل (١٢) مسالك التيارات الدينية بين شرقي وغربي آسيا

المراجع

ABU AL-FIDA, *Dhikr Djazirat al-'Arab* or *Discriptio Peninsulae Arabum*, Arabic text ed. (with Latin version) by G. Gagnier, Oxford, 1740.

—— *Kitab Taqueem al-Buldân*, texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde aux frais de la Société Asiatique, par M. Reinaud et le B[on] Mac Guckin de Slane, Paris, 1840.

—— See REINAUD, J. T. (et S. GUYARD), *Géographie d'Aboulféda*.

ABU DULAF, See SCHLOEZER, K. VON.

ABU ZA'YD HASAN of Siraf; see REINAUD, J. T., *Relation des voyages*... etc.; RENAUDOT, E., *Ancient Accounts*; or FERRAND, G., *Voyage du marchand*... etc.

Admiralty Handbook for Arabia, vol. i (date of publication not indicated, but presumably between 1918 and 1922).

AL-TABARI, *Annales quos scripsit Abu Djafar Mohammed ibn Djarrir At-Tabari*, ed. M. J. de Goeje et alii, Leiden, 1885-93.

ANDERSON, J., *A Report on the Expedition to Western Yunan, via Bhamó*, Calcutta, 1871.

—— *Chinese Mohammedans*, in *Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*. Vol. I, London, 1872.

ANDREWS, F. H., *Introduction* to *The Influences of Indian Art*, a series of papers pub. by the India Soc., London, 1925.

ARNÁIZ, G. et BERCHEM, M. VAN, *Mémoire sur les antiquités musulmanes de Ts'iuan-tcheou*, in *T'oung Pao*, série II, t. XII, 1911, pp. 677-727.

ARNOLD, T. W., *The Preaching of Islam* (I[re] ed.), London, 1896.

—— *The Khaliphate*, Oxford, 1924.

AUTRAN, *Phéniciens, essai de contrib. à l'hist. ant. de la Méditer.*, 1920.

BARTHOLD, W., *Turkestan down to the Mongol Invasion*, trans. from the original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, London, 1928.

BARTON, G. A., *Sketch of Semitic Origins*, N. Y., 1902.

BEAZLEY, C. R., *The Dawn of Modern Geography*, 3 vols. (vol. I, London, 1897).

BECKER, C. H., Article on *'Aidhab*, in the *Encyc. of Islam*, vol. I (1913), p. 210.

—— *Expansion of the Saracens*; in the *Cambridge Mediaeval History*, vol. II, 1913.

BELL, R., *Origin of Islam*, London 1926.

BENT, T., and MRS., *South Arabia*, London, 1900.

BERCHEM, MAX VAN (et ARNÁIZ, G.). See ARNÁIZ, G. et BERCHEM, M. VAN.

Berg, L. W. C. van den, *Le Hadhramout et les Colonies arabes dans l'Archipel Indien*, Batavia, 1886.

Berger, P., *L'Arabie avant Mahomet*, Paris, 1885.

Bevan, E. R., *House of Seleucus*, 2 vols., 1902.

Bishop, C. W., *The Geographical Factors in the Development of Chinese Civilisation*, in *Am. Geographical Review*, vol. XII, Jan. 1922.

—— *The Historical Geography of Early Japan*, in the *Am. Geog. Review*, vol. XIII, Jan. 1923.

—— See Maspero, H.

Blache; V. de la; see Vidal de la Blache.

Blachère, R., *Muntakhabat...* etc., ou *Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge*, Paris (Geuthner) et Beyrouth, 1932.

Blackman, A. M., *Significance of Incense and Libations*, in *Z. Aegypt. Sprache*, 5ᵉ 1912.

Blanchard, R., *Asie Occidentale*, in the series of *Géographie Universelle*, t. VIII, 1ʳᵉ partie, Paris, 1929.

Boreux, C., *Études de nautique égyptienne*, Le Caire, 1924.

Botham, M., *Islam in Kansu*, in *The Moslem World*, vol. X, no. 4, Oct. 1920, pp. 377-390.

—— *Modern movements among Chinese Mohammedans*, *The Moslem World*, vol. XIII, no. 4, July, 1923, pp. 291-299.

—— *Chinese Islam as an Organism*, *The Moslem World*, vol. XIV, no. 3, July, 1924, pp. 261-268.

Botta, P. E., *Relation d'un voyage dans l'Yemen*, Paris, 1841.

Bretschneider, E., *On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs, and Arabian Colonies and other Western Countries mentioned in Chinese Books*, London, 1871.

—— *Notices of the Mediaeval Geography and History of C. and W. Asia; drawn from Chinese and Mongol writings, and compared with the observations of Western Authors in the Middle Ages*, in the *Journal of the N. China Branch of the R. Asiat. Soc.*, New Series, no. 10, 1875, pp. 75-324.

—— *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, London, 1886.

Brooks, C. E. P., *The Evolution of Climate*, London, 1925.

—— *Changes of Climate in the World during Historic Times*, in *Quarterly Journal of the R. Meteor. Soc.*, vol. 57, 1931.

Broomhall, M., *Islam in China, a neglected Problem*, London, 1910.

—— *The Mohammedan Population of China*, in *The Moslem World*, vol. I, no. 1 (1911) pp. 32-53.

Bulletin de l'École française de l'Extrême-Orient, Hanoi.

Bunbury, E. H., *A History of Ancient Geography*, 2ⁿᵈ ed. (2 vols.), London, 1883.

Bushell, S. W., *Ancient Roman Coins from Shansi*, in *Jour. of the Peking Oriental Soc.*, vol. I, no. 2 (Peking, 1886).

Buxton, L. H. D., *Article on China (Ethnography and Archaeology)*, in the *Encyc. Brit.*, 14th ed. (1929), vol. V.

—— *China : the Land and the Population; a Human Geography*, Oxford, 1929.

Cabaton, A., *Notes de bibliographie Indo-Néerlandaises*, in *Revue du Monde musulman*, 1re année, no. II, déc., 1906, pp. 221-249.

—— *Les Chams musulmans de l'Indo-Chine française*, *Revue du Monde musulman*, t. II, avril 1907 (n° 6), pp. 129-180.

—— *Notes sur l'Islam dans l'Indo-Chine française*, *Revue du Monde musulman*, nov., 1910, pp. 27-47.

—— *Java, Sumatra and the other Islands of the Dutch East Indies*, translated and with a Preface by B. Miall, 3rd edition, London, 1914.

Carra de Vaux; see Vaux, Carra de.

Caton-Thompson, G., *Zimbabwe*, in *Antiquity*, Dec., 1929.

Caetani, L., *Annali dell'Islam*, vol. i, 1905.

—— *Studi di storia orientale*, vol. i, 1911.

Caussin de Perceval, A. P. See Perceval, ...

Chau Ju-kua. See Hirth, F. and Rockhill, W. W.

Charlesworth, M. P. *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, Cambridge, 1924.

Chavannes, Ed., *Gunavarman*, in *T'oung Pao*, série II, vol. V, 1904.

Clarke, G. W., *The Introduction of Mahometism into China*, in *The Chinese Recorder and Missionary Journal*, vol. XVII, no. 7, July 1886, pp. 269-271 and no. 8, August 1886, pp. 294-296.

Codrington, H. V., *Ceylon Coins and Currency*, 1925.

Coedès, G., *Textes d'auteurs grecs et latins relatifs à l'Extrême-Orient, depuis le IVe siècle av. J.-C. jusqu'au XIVe siècle*, recueillis et traduits, Paris, 1910.

Cordier, H., *L'arrivée des Portugais en Chine*, in *T'oung Pao*, série II, t. XII, 1911, pp. 483-543.

—— *Histoire générale de la Chine, et de ses relations avec les pays étrangers, depuis les temps les plus anciens jusqu'à la chute de la dynastie Mandchoue*, 4 tomes, Paris, 1920.

—— *La Chine*, Collection Payot, Paris, 1921.

—— Revised new edition of *Cathay*; see Yule, H.

Courant, M., *La Corée jusqu'au IXe siècle : ses rapports avec le Japon et son influence sur les origines de la civilisation japonaise*, in *T'oung Pao*, vol. IX, (old Series), 1898, pp. 1-27.

Courteille, P. de; see Mas'udi.

Cunningham, A., *Coins of Ancient India*, London, 1891.

Dalton, O. M., *Byzantine Art and Archaeology*, London, 1911.

Davies, H. R., *Yün-nan: The Link between India and the Yang-tzè,* Cambridge, 1909.
Deflers, A., *Voyage au Yemen,* Paris, 1889.
De Goeje; see Goeje, M. J. de.
Defrémery, C. et Sanguinetti, B. R. See Ibn Batoutah.
Devéria, G., *Origine de l'Islamisme en Chine,* in the *Centenaire de l'École des Langues Orientales vivantes* (1795-1895), recueil de mémoires publié par les professeurs de l'école, Paris, 1895.
Djinguiz, Moh., *L'Islam aux Straits-Settlements,* in *Revue du Monde musulman,* t. V, n° 6, Juin, 1908, pp. 303-312.
—— *L'Islam dans les possessions hollandaises, portugaises et américaines de l'archipel indien, Revue du Monde musulman,* t, VII, n°s 1-2, jan.-fév., 1909, pp. 104-120.
Dussaud, R., *Les Arabes en Syrie avant l'Islam,* 1907.

Edkins, J., *The Jews of K'ae Fung-foo,* Shanghai, 1851.
—— *Notes on Mohammedaism in Peking,* in *The Chinese Recorder and Missionary Journal,* vol. I, n° 9, Jan. 1869, pp. 176-177.
—— *Allusions to China in Pliny's Natural History,* in the *J. of the Peking Or. Soc.,* vol. I, 1885, pp. 1-16.
Encyclopaedia of Islam; a Dictionary of Geography, Ethnography and Biography of the Muhammadan World, London, 1913, etc.
Etherton, P. T., *In the Heart of Asia,* London, 1925.
Euting, J., *Epigraphische Denkmäler aus Arabien,* Wien, 1889.
—— *Tagebuch einer Reise in Inner-Arabien,* Leiden, 1896.

Fa-Hian, Chy; see Rémusat, A.
Ferrand, G., *Relations des voyages et textes géographiques arabes, persans et turcs relatifs à l'Extrême-Orient du VIII^e au XVIII^e siècle,* 2 tomes, Paris, 1913-14.
—— *Voyage du marchand arabe Sulayman en Inde et en Chine, rédigé en 851, suivi de remarques par Abû Zayd Hassan vers 916,* traduit de l'arabe avec introduction, glossaire et index, Paris, 1922.
—— Article on *Madagascar,* in the *Encyclopaedia of Islam,* no. 38.
Fleure, H. J.; see Peake, H. and...
Flügel, G.; see Ibn Is-haq.
Foreman, J., *The Philippine Islands,* 2nd edition, London, 1899.
Foucher, A., *The Beginnings of Buddhist Art, and other Essays in Indian and Central Asian Archaeology,* revised by the author and translated by L. A. and F. W. Thomas, Paris and London, 1917. (India Society Publications.)

Gerini, G. E., *Researches on Ptolemy's Geography of Eastern Asia (Further India and Indo-Malay Archipelago),* Asiatic Society Monographs, No. 1, London, 1909.
Glaser, E., *Skizze der Gesch. und Geogr. Arabiens,* ii, Berlin, 1890.

Glaser E., *Die Abessiner in Arabien und Afrika*, München, 1895.

Glotz, G., Roussel, P. et Cohen, R., *Alexandre et l'hellénisation du monde antique*, 1re partie, *Alexandre et le démembrement de son Empire*, Paris, Les Presses Universitaires de France, 1938.

Gobineau, A. de, *Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale*, Paris, 1865.

Goeje, M. J. de, Text and French translation of *Kitab al-Masalik wa-l-Mamalik* of Ibn Khurdadthbah (Khordadhbeh), in *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*, vol. VI, Leiden, 1885.

—— *Hadhramaut*, in *Rev. Coloniale Internat.*, 1886, pp. 101-124.

Godard, (A. and Y.), et Hackin, J., *Les antiquités Bouddhiques de Bāmiyān; Mém. de la Délégation archéologique française en Afghanistan*, t. II, Paris et Bruxelles, 1928.

Gottwaldt, I. M. E., *Hamsae Ispahanensis. Annalium Libri X*, Arabic text and Latin transl. of Hamzah al-Isphahani's, *Kitab Sini Mulouk al-Ard wa-l-Anbiya'*, Lipsiae, 1844-8. [Tom I, Textuo Arabicus, 1844; Tom II, Translatio Latina, 1848.]

Grenard, (M.) F., *Note sur les musulmans Salar du Kan-Sou*, in *Journal Asiatique*, série IX, t. XI, n° 3, mai-juin, 1898, pp. 546-551.

—— F., *Haute Asie*, in the *Géographie Universelle*, t. VIII, Paris, 1929.

Guyard, S.; see Reinaud, J. T., et.

Hackin, J.; see Godard, A. and Y.

Hamzah al-Isphahani; see Gottwaldt, I. M. E.

Hanna, A. C., *The Chams of Indo-China*, in *The Moslem World*, vol. XXI, no. 3, July 1931, pp. 263-281.

Harris, W. B., *Journey through Yemen*, London, 1893.

Hartmann, M., *Der Islamische Orient: Berichte und Forschungen*, 1899-1910 [Band I, Berlin 1899-1905; Band II, Leipzig, 1909, und Band III, Leipzig, 1910].

—— *Littérature des Musulmans chinois*, in *Revue du Monde musulman*, t. V, n° 6, juin 1908, pp. 275-288.

—— Article on *China*, in the *Encyclopaedia of Islam* (Leiden and London), vol. I. 1913, pp. 839-854.

Havell, E. B., *Indian Sculpture and Painting*, London, 1908.

—— *The Ancient and Mediaeval Architecture of India : A Study of Indo-Aryan Civilization*, London, 1915.

Hedin, Sven, *Through Asia*, vol. II, London, 1898.

—— *Overland to India*, vol. II, London, 1910.

—— *Trans-Himalaya*, 3 vols., London, 1910-13.

Hermann, A., *Die alten Seidenstrassen zwischen China und Syrien, Beiträge zur alten Geographie Asiens*, Leipzig, 1910.

—— *Die Verkehrswege zwischen China, Indien und Rom, um 100 nach Chr. Geb.*, Leipzig, 1922.

Heyd, W. von, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*, édition française

refoudue et considérablement augmentée par l'auteur; publiée sous le patronage de la Société de l'Orient latin par Furcy Raynaud, 2 tomes, Leipzig et Paris, 1885-6.
HILL, G. G., *The Ancient Coinage of Southern Arabia*, in the *Proceedings of the British Academy*, 1915-16, (paper read, May 1915.).
HIOUEN-TSANG (or HIUEN-TSANG), *Mémoires sur les contrées occidentales... etc.*, trad. par S. Julien, Paris, 1857-8.
HIRTH, F., *China and the Roman Orient : Researches into their Ancient and Mediaeval Relations as represented in Old Chinese Records*, (Shanghai?), 1885.
—— *Ancient Porcelain : A Study in Chinese Mediaeval Industry and Trade*, reprinted from the *Journal of the China Branch of the Royal Asiatic Society*, 1888.
—— *Chao Ju-kua; A New Source of Mediaeval Geography*, in the *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1896, pp. 57-82.
—— *Chao Ju-kua's Ethnography : Table of Contents and Extracts regarding Ceylon and India; and some articles of Trade*, in *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1896, pp. 477-507.
—— *The Ancient History of China*, New York, 1908.
—— *The Story of Shang K'ien*, in *Jour. Am. Oriental Soc.*, vol. XXXVII.
HIRTH, F. and ROCKHILL, W. W., *Chau Ju-kua : his work on the Chinese and Arab Trade in the XII*th* and XIII*th* centuries, entitled Chu-fan-chï*, trans. from the Chinese and annotated, St. Petersburg, 1911.
HOGARTH, D. G., *The Nearer East*, in H. J. Mackinder's series on *The Regions of the World*, London, 1902.
—— *Penetration of Arabia*, 1904.
—— *Ancient East*, 1914.
HOMMEL, F., *Explorations in Arabia*, published in H. V. Hilprecht's, *Explorations in Bible Lands, during the XIX*th* century*, Edinburgh, 1903.
—— *Grundriss der Geogr. und Gesch. des alten Orients*, i, 1904; ii 1926.
—— Article on *Arabia* (History) in the *Encyclopaedia of Islam* (a Dictionary of Geography, Ethnography and Biography of the Muhammadan World), vol. I, Leiden, 1913.
HOWORTH, Sir H. H., *History of the Mongols*, London, 1876-80.
HUART, Cl., *Inscriptions arabes et persanes des mosquées chinoises de K'ai-fong-fou et de Si-ngan-fou*, in *T'oung Pao*, série II, t. VI, Leide, 1905, pp. 261-320.
—— Article on *Sîrâf* in *Encyclopaedia of Islam*, Fasciculus II., Leiden and London, 1931, p. 444.
HUDSON, G. F., *Europe and China : A Survey of their Relations from the Earliest Times to 1800*, London, 1931.
HUNTINGTON, E. *The Pulse of Asia*, Boston, 1907.
—— *Palestine and its Transformation*, Cambridge, 1911.
—— *The Character of Races*, New York and London, 1927.
HOZAYYIN, S. A., *Le rôle du milieu dans la diffusion religieuse vers l'Orient à travers la*

Haute-Asie, Compte rendu de la première session, Congrès International des Sciences Anthropologiques et Ethnologiques, London, 1934, pp. 304-305.

—— *Les villes septentrionales de l'Orient arabe; leur distribution géographique,* in *Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt,* vol. II, part ii, Cairo, 1934, pp. 170-175; also pub. in Comptes rendus du Congrès International de Géographie, Varsovie, 1934, t. III, Varsovie, 1937, pp. 250-254.

—— *Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud,* in *Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt,* vol. III, part i, Cairo, 1935, pp. 19-23; also pub. in Comptes rendus du Congrès International de Géographie, Varsovie, 1934, t. IV, Varsovie, 1938, pp. 39-43.

—— *Egyptian University Scientific Expedition to S. W. Arabia,* in *Nature,* Sept. 18, 1937, p. 513-514.

Ibn Batoutah, *Description de l'Archipel d'Asie,* par Ibn Bathoutha, traduite de l'arabe, Éd. Dulaurier, *Journal Asiatique,* 4e série (1843-1852), t. IX, février et mars 1847, pp. 93-134 et 218-259 (texte et traduction).

—— *Voyages d'Ibn Batoutah.* Arabic text [of *Tuhfat al-Nuzzâr*] with French version (on same page); ed. and transl. by Defrémery, C., and Sanguinetti, B. R., Paris, 1853-8 (4 vols.). [Also later editions, 1869-1879, and 1893-1922, 5 vols.]

Ibn Hawqal, Arabic text in Goeje's (M. J. de) *Bibliotheca Geographorum Arabicorum,* pars II [*Viae et Regna*], Leiden 1873.

—— See Ouseley, W.

Ibn Is-haq (known as Abu al-Faradj), *Kitab al-Fihrist,* mit Anmerkungen herausgegeben von G. Flügel : Erster Band : Der Text, von J. Roediger, Leipzig, 1871; Zweiter Band : Die Anmerkungen und Indices, von A. Mueller, Leipzig, 1872.

Ibn Khurdadthbah (Khordadthbah or Khordadthbeh), *Kitab al-Masalik wa-l-Mamalik.* For Arabic texts and French translations see Meynard, B. de, *Le Livre... etc.;* or Goeje, M. J. de, *Bibliotheca... etc.* (vol. VI).

Idrisi (or Al-Idrisi). An Arabic text ed. at Romae in Topographia Medica, MDXCII.

—— See Jaubert, P. A.

Inglis, J. W., *Islam in Manchuria,* in *The Moslem World,* vol. VI, no. 3, July 1916, pp. 296-300.

Janse, O., *Quelques antiquités chinoises d'un caractère Hallstattien,* in *The Museum of Far Eastern Antiquities,* Stokholm, Bulletin no. 2, 1930.

Jaubert, P. A., *Géographie d'Édrisi* (traduite et accompagnée de notes), (constituting tomes V and VI of the *Recueil de Voyages et de Mémoires publié par la Société de Géographie de Paris,* 7 tomes, Paris, 1824-64), Paris 1836-40.

Journal Asiatique; Recueil trimestriel de mémoires et de notices relatifs aux études orientales, publié par la Société Asiatique.

Journal of the Peking Oriental Society, Peking 1885 etc.

Julien, S. A, *Histoire de la vie de Hiouen-thsang et de ses voyages dans l'Inde...*, par Hoeï-Li et Yen-thsong... traduite du chinois, Paris, 1853.
—— See Hiouen-thsang.

Kammerer, A., *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité : Essai d'Histoire et de Géographie historique*, 2 tomes, *Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte*, tomes XV et XVI, Le Caire, 1929 et 1935.
T. I : *Les Pays de la Mer Érythrée, jusqu'à la fin du Moyen Âge*, 1929.
T. II (en deux parties) : *Les Guerres du Poivre : Les Portugais dans l'Océan indien et la Mer Rouge au xvi^e siècle : Histoire de la Cartographie orientale*, 1935.
Klaproth, *Renseignement sur les ports de Gampou et de Zaithoum, décrits par M. Polo*, *Journal Asiatique*, série I, t. V, Paris, 1824.
—— *Sur les noms de la Chine*, in *Journal Asiatique*, série I, t. X, 1827, pp. 53-61.
—— (Monsieur), *Rachid Eddin : Description de la Chine sous la dynastie mongole*, trad. du persan et accompagnée de notes, *Journal Asiatique*, série II, vol. XI, 1833.

Lacouperie, T. de, *Early History of the Chinese Civilisation*, London 1880.
—— *The Onomastic Similarity of Mai Hwang-ti of China and Nakhunte of Susiana*, London, 1890.
—— *Western Origin of Early Chinese Civilisation, from 2300 B.C. to 200 A.D.*, London, 1894.
Lansdell, H., *Chinese Central Asia* (2 vols.), London, 1893.
Laufer, B., *The Name China*, in *T'oung Pao*, series II, vol. XIII, 1912, pp. 719-726.
Lapage (Cap.), *Biographie du Sayid Edjell Omar Chams ed-Din, introducteur de l'Islam au Yunan*, in *Revue du Monde Musulman*, vol. XI, no. 5, mai 1910.
Le Strange, *Lands of the Eastern Caliphate*, Oxford, 1900.
Lévi, S., *Les Missions de Wang Hiuen-ts'e dans l'Inde*, in *Journal Asiatique*, série IX, t. XV (1900).
Lloyd, A., *The Creed of Half Japan : Historical Sketches of Japanese Buddhism*, London, 1911.

MacCrindle, J. W.; see McCrindle, J. W.
Maçoudi (see Mas'udi).
Maqrizi (or al-Maqrizi); see Quatremère, E. M.
Maspero, H., *Origines de la civilisation chinoise*, in *Annales de Géographie*, no. 194, XXXV^e année, mars 15, 1926, pp. 135-154; and translated by C. Bishop, *The Origins of Chinese Civilisation*, in the *Annual Report of the Smithsonian Inst.*, 1927, Washington, 1928, pp. 433-452.
Massignon, L., *Annuaire du Monde Musulman*, Ernest Leroux, Paris, 1929.
Mas'udi (or al-Mas'udi), *Murudj al-Dthahab... etc.*, or *Les Prairies d'Or et les Mines*

de Pierres Précieuses. Arabic text and French translation (on the same page), by C. B. de Meynard et P. de Courteille, 9 tomes, Paris, 1861-77.
MATEER, A. H., *The Present Condition of Islam in China,* in *The Moslem World,* vol. IX, no. 1, Jan. 1919, pp. 77-81.
MAYERS, W. F., Note on *Black-Slaves in China,* in *Notes and Queries on China and Japan,* vol. III, no. 7, Hong-kong, Aug. 1869.
—— Note on *The Mariner's Compass in China,* in *Notes and Queries on China and Japan,* Hong-kong, vol. IV, 1870.
—— *Chinese Exploration of the Indian Ocean during the XVth century,* in *The China Review,* vol. III, 1874-5, pp. 219-225 and 321-331.
—— Translations from the *Geographical Memoirs of the Ming dynasty,* in *The China Review,* vol. IV (1875-6), no. 3, pp. 173-190.
McCRINDLE (or MacCRINDLE), J. W., *The Commerce and Navigation of the Erythrean Sea,* Bombay, 1879.
—— *Ancient India as described by Ptolemy,* London, 1885.
McCUTCHEN, R. T., *Islam in the Philippine Islands,* in *The Moslem World,* vol. IX, no. 3, July 1919, pp. 230-239.
MEYNARD, B. de, *Le Livre des Routes et des Provinces.* Arabic text and French translation of the *Kitab al-Masalik wa-l-Mamalik,* of Ibn Khurdadthbah, *Journal Asiatique,* série VI, t. V, Paris, 1865.
—— See MAS'UDI.
MINGHANA, A., *The Early Spread of Christianity in C. Asia and the Far East : A New Document,* reprinted with additions from the *Bulletin of the John Ryland's Library,* Manchester, vol. IX, no. 2, July 1925.
MÜLLER, A., *Der Islam im Morgen- und Abendland,* Berlin, 1885-7.
MURRAY, G., *'Aidhab,* in *Geographical Journal,* vol. LXVIII, no. 3, Sept. 1926, pp. 235-240.
MUSIL, A., *Northern Neğd, a Topographical Itenerary,* in the *Oriental Explorations and Studies,* no. 5, pub. by the Am. Geographical Society, New York, 1928.
MYRES, J. L., *The Dawn of History,* in *Home University Library,* 1924.
—— *The Rise of Ordered Civilizations,* Ch. 14 of J. A. Hammerton's *Universal History of the World.* (Date of publication not indicated.)

NIEBUHR, C., *Description de l'Arabie,* Copenhagen, 1773.
—— *Voyage en Arabie,* Amsterdam, 1774-80.

Ogilvie, C. L., *The Present status of Muhammedanism in Peking,* in *The Moslem World,* vol. IV, no. 2, April 1914, pp. 165-172.
O'LEARY, De LACY, *Arabia before Muhammad,* London, 1927.
OLLONE, H. d', *Mission d'Ollone 1906-1909. Les derniers Barbares : Chine, Tibet, Mongolie,* 3^{e} édition, Paris, 1911.

Ollone, d', *In Forbidden China : the d'Ollone Mission 1906-1909 : China, Tibet, Mongolia,* transl. from the French of the 2nd ed. by B. Mall, London, 1912.
Ouseley, W., *The Oriental Geography of Ibn Haukal,* London. 1800.

Parker, E. H., *China, her History, Diplomacy and Commerce,* London, 1901.
—— *China and Religion,* London, 1905.
—— *A Thousand Years of the Tartars,* 2nd ed., London, 1924.
Pauthier, J. P. G., *Le Livre de Marco Polo, présentant la rédaction primitive, accompagnée de commentaires, principalement chinois,* Paris, 1865 (two parts in one vol.).
Peake, H. and Fleure, H. J., *The Steppe and the Sown,* forming vol. V of *The Corridors of Time,* Oxford, 1928.
Pelliot, P., *Deux Itinéraires de Chine en Inde... etc.,* in the *Bulletin de l'École française de l'Extrême-Orient,* t. IV, Hanoi, 1904.
—— *L'origine du nom de Chine,* in *T'oung Pao,* série II, vol. XIII, 1912, pp. 727-742.
—— See Transl. from Chinese pilgrims in Godard (A. and Y.) et Hackin (J.), *Les Antiquités... etc.*
Perceval, A. P. Caussin de, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet, et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane,* 3 tomes, Paris, 1847-8.
Phillips, G., *Zaitun Researches,* in *The Chinese Recorder and Missionary Journal,* vol. V, no 6. (Shanghai, Nov.-Dec. 1874), pp. 327-339 and vol. VI, no. 1. (Jan-Feb. 1875), pp. 31-42.
—— *The Identity of M. Polo's Zaitun with Chang-chau,* in *T'oung Pao,* série I, vol. I, 1890, pp. 218-238.
—— *Two Mediaeval Fuh-kien Ports : Chüan-chow and Chang-chow,* in *T'oung Pao,* vol. VI (Old Series), 1895, pp. 449-463, and vol. VII, 1896, pp. 223-240.
Pirenne, H., *Medieval Cities : Their Origin and the Revival of Trade* (trans. from French by F. D. Halsey), Princeton, 1925.
Pliny, *Natural History,* ed. Jan-Mayhoff (Teubner Series), 1882-1909.
Polo, M. See Yule, H.; or Pauthier, J. P. G.
Power, E., *The Opening of the Land Routes to Cathay,* forming Ch. VII, pp. 124-158 of *Travel and Travellers of the Middle Ages,* by A. P. Newton and others, London, 1826.
Ptolemy, Claudius, ed. Müller, Paris, 1883; also Tauchnitz ed. 1843.

Quatremère, E. M., *Mémoires géographiques et historiques sur l'Égypte et sur quelques contrées voisines,* recueillis et extraits des manuscrits coptes, arabes [mainly from Maqrizi] etc. de la Bib. Impériale, Paris, 1811 (2 tomes).
—— *Histoire des sultans Mamelouks de l'Égypte,* traduite en français [mainly from Maqrizi] et accompagnée de notes, 2 volumes, Paris, 1837-45.

RACHID EDDIN (or RASHID-U-DEEN). See KLAPROTH.

RAMSAY, W., *The Historical Geography of Asia Minor*, London, 1890.

RAMSAY, W. M., *Asiatic Elements in Greek Civilization*, London, 1927.

RAWLINSON, W., *Ancient Intercourse between Europe and India*, *Records of the Past*, éd. S. Birch, 12 volumes, 1873-81.

RAWLLEY, R. C, *Silk Industry and Trade*, London 1919.

REES, L. W. B., *The Transjordan Desert*, in *Antiquity*, vol. III, 1929, pp. 389-407.

REINAUD, J. T., *Relation* (or *Relation?*) *des voyages faits par les* (*des*) *Arabes et les* (*des*) *Persans dans l'Inde et à la* (*en*) *Chine...*, etc. Arabic text of *Silsilat al-Tawareekh* or *Chaine des Chroniques* (originally published in Paris, (1811), accompanied by a *Discours Préliminaire* and a French trans., Paris, 1845. (Texts of Sulayman the Merchant and Abu Zayd Hasan of Siraf). [T. I : *Introduction et Traduction : Discours préliminaire; Chaîne des Chroniques.* Tome II : *Notes de la traduction et texte arabe.*]

—— *Géographie d'Aboulféda*, Paris, 1848-83. (Vol. I ; Introduction : by Reinaud; vol. II : trans. of text of Abu-al-Fida, by Reinaud and S. Guyard.)

—— *Mémoire géographique, historique et scientifique sur l'Inde, antérieurement au milieu du XIe siècle de l'ère chrétienne d'après les écrivains arabes, persans et chinois*, Paris, 1849.

—— *Mémoire sur le commencement et la fin du royaume de la Mesène et la Kharacène et sur l'époque de la rédaction du périple de la mer Érythrée, d'après les témoignages grecs, latins, arabes, indiens et chinois*, Paris, 1861.

—— *Relations politiques et commerciales de l'Empire Romain avec l'Asie Orientale : l'Hyrcanie, l'Inde, la Bactriane et la Chine*, Paris, 1863, reprinted from the *Journal Asiatique* for the same year.

—— *Lettre à M. Ch. Lenormant sur les antiquités chrétiennes de la Chine*, Paris, 1887.

RÉMUSAT, A., (J. P.), *Histoire de la ville de Khotan : tirée des Annales de la Chine et traduite du chinois; suivie de recherches sur la substance minérale appelée par les Chinois pierre de ju, et sur le jaspe des anciens*, Paris, 1820.

RÉMUSAT, A., *Foë Koué Ki, ou Relations des voyages bouddhiques, par Chў Fă Hian*, complété par Klaproth et Londresse, Paris, 1835.

RENAUDOT, E., *Ancient Accounts of India and China by two Mahomedan Mediaeval Travellers*, 1733, retranslated from the annotated French translation (1718) of the texts of Sulayman the Merchant (851 A. D.) and Abu Za'yd Hasan of Siraf (912 A. D.)

Revue du Monde Musulman; pub. par la Mission Scientifique du Maroc, Paris, 1906 etc.

RHODES, F. H., *A Survey of Islam in China* in *The Moslem World*, vol. XI, no. 1, Jan. 1921, pp. 53-68.

RICE, D. T., *The Oxford Excavations at Hira, 1931*, in *Antiquity*, vol. VI, no. 23, Sept. 1932, pp. 276-291.

RICHMOND, E. T., *Moslem Architecture 623 to 1516 A. D.*, London, 1926.

Richthofen, F. F. von, *China : Ergebnisse eigener Reisen und darauf gegründeter Studien*, Berlin, 1877-1912 (vol. I. 1877).

Rockhill, W. W., *Notes on Relations and Trade of China with the Eastern Archipelago and the Coast of the Indian Ocean... etc.*, in *T'oung Pao*, série II, vol. XV, 1914, pp. 419-427, and vol. XVI, 1915, pp. 61-159.

—— See Hirth, F., and ...

Rose, H. J., *Egypt and India*, in *Man*, 1925, 15-16.

Roxby, P. M., Article on *China* (*The Country; The People and their Civilization*) in the *Encyclopaedia Brit.*, 14th ed., vol. V (1929).

Salvator, Archduke Ludwig, *Caravan Routes between Egypt and Syria*, London, 1881.

Sanguinetti, B. R. (et Defrémery, C.). See Ibn Batoutah.

Schefer, Ch., *Notices sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extension de l'Islamisme jusqu'à la fin du xve siècle*, in the "Centenaire de l'École des Langues Orientales vivantes" (1795-1895), recueil de mémoires publiés par les professeurs de l'école, Paris 1895, pp. 1-43.

Schloezer, K. von, *Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal... etc.* (Arabic text and Latin trans., on the same page), Berolini, 1845.

Schober, J., *Silk and Silk Industry*, transl. by Cuthill, R., 1930.

Schomberg, R. C. F., *The Climatic Conditions of the Tarim Basin*, in *Geog. Journal*, vol. 75 (1930), pp. 313-323.

Sewell, A., *Roman Coins found in India*, in *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1903, 591, etc.

Sion, J., *Asie des Moussons*, in the *Géographie Universelle*, t. IX (deux parties), Paris, 1928.

Smith, G. A., *Historical Geography of the Holy Land*, 13th ed., 1906.

Soulié, G., *Les Musulmans de Yun-nan*, in *Revue du Monde musulman*, t. IX, no. X, Oct. 1909, pp. 209-223.

Southill, W. E., *China and the West*, London, 1925.

Sprenger, A., *Some Original Passages of Early Commerce of the Arabs* (Arabic text and English trans.), in the *Journal of the Asiatic Soc. of Bengal*, New Series, vol. XIII (1844), Part II, no. 151.

Stein, A., *Ancient Khotan*, Oxford, 1907 (vol. I text, and vol. II plates).

—— *Ruins of the Desert Cathay, Personal Narrative of Explorations in C. Asia and Westernmost China*, (2 volumes), London, 1912.

—— *Serindia; Detailed Report of Explorations in C. Asia and Westernmost China*, Oxford, 1921 (vols. I-III text, IV plates and V maps).

—— *Innermost Asia; its Geography as a Factor in History*, in *Geog. Journal*, vol. LXV, nos. 5 and 6, May and June 1925.

—— *Innermost Asia : Detailed Report on Explorations in C. Asia, Kan-Su and Eastern Iran... etc.*, Oxford. 1928 (vols. I-II text, III plates and IV maps).

Streck, M., Article on *Kais*, in *Encyc. of Islam*, vol. II, 1927, pp. 649-651.
Stübe, R., Article on *Hurmuz* in the *Encyclopaedia of Islam*, vol. II, 1927, pp. 325-326.
Sulayman the Merchant; see Reinaud, J. T., *Relation des voyages...*, etc.; Renaudot, E., *Ancient Accounts...*; or Ferrand G., *Voyage du marchand...*, etc.

Taintor, E. C., Note on *Henna in China*, in *Notes and Queries on the Far East*, vol. II (1868).
Takakusu, J., *The name of 'Messiah' found in a Buddhist Book..., etc.*, in *T'oung Pao*, series I, vol. VII (1896), pp. 589-591.
Tarn, W. W., *The Greeks in Bactria and India*, Cambridge, University Press, 1938.
Teggart, F. G., *Rome and China : A Study of Correlations in Historical Events*, 1939.
The China Review, or *Notes and Queries on the Far East* (*China and Japan*), Hongkong.
The China Year Book, Tientsin, 1928.
The Moslem World; A Christian Quarterly Review of Current Events, Literature and Thought among Mohammedans, and the Progress of Christian Missions in Moslem Lands. Edited by S. M. Swemer, London (and New York), 1911, etc.
Thiersant, P. Dabry de, *Le Mahométisme en Chine et dans le Turkestan Oriental*, 2 tomes, Paris, 1878.
Thwing, E. W., *Islam in China To-day*, in *The Moslem World*, vol. VII, no. 1, Jan. 1917, pp. 75-79.
Torrance, T., *The Emigrations of the Jews : Israel in China*, in *The Scottish Geographical Magazine*, vol. 56, no. 2, May 1940, pp. 59-64.
T'oung Pao; ou archives concernant l'histoire, les langues, la géographie, l'ethnographie et les arts de l'Asie orientale, Leide (1890, etc.).

Vaux, Carra de, *L'Abrégé des Merveilles*, version of *Kitab Mukhtasar al-'Adja'ib wa'l Ghara'ib* (variably attributed to Mas'udi and to Ibrahim ibn Wasif Shah), Paris, 1898.
——, *Penseurs de l'Islam*, t. II, Paris, 1921.
Vidal de la Blache, *Voies de commerce dans la Géographie de Ptolémée*, Ac. des Inscriptions et des Belles-Lettres, 1896.
Vincent, W., *The Commerce and Navigation of the Indian Ocean*, 2 vols., London, 1807.
Visser, H. F. E., *Indian Influence on Far Eastern Art*, article III, in *The Influences of Indian Art*, a monograph (series of papers) published by the India Society, London, 1925 (pp. 87-114).
Vissière, A., *Le Sayyid Edjell Chams ed-Din Omar (1210-1279) et ses deux sépultures en Chine*, in *Revue du Monde musulman*, vol. XI, no. 5, mai, 1910.
Vogel, J. Ph., *The Relations between the Art of India and Java*, in a monograph

(series of papers) on *The Influences of Indian Art*, pp. 35-86; pub. by the India Society, London, 1925.

Warmington, E. H., *The Commerce between the Roman Empire and India*, Cambridge, 1928.

Warner, W. W. L., *Notes on Hadramaut*, in *Geographical Journal*, vol. LXXVII, March, 1931.

Warren, W. P., *Islam in Southern India*, in *The Moslem World*, vol. XXI, no. 4, Oct. 1931, pp. 352-367.

Wetzstein, J. G., *Nordarabien und die Syrische Wüste*, in *Z. f. allg. Erdkunde*, XVIII, 498.

Wilson, A. T., *The Persian Gulf*, Oxford, 1928.

Wylie, A., *Notes on the Western Regions; (translated from Tseen Shoo, Bk. 96, parts 1 and 2)*, in the *Journal of the Anthropological Inst. for G. Brit. and Ireland*, vol. X, 1880, and vol. XI, 1881.

Yaqût, *Kitabu Mu'jami-l Buldân*, *Jacut's Geographisches Wörterbuch*, herausgegeben von F. Wüstenfeld, Leipzig, 1866-73.

Yule, H. (and H. Cordier), *The Book of Ser Marco Polo, the Venetian; concerning the Kingdoms and Marvels of the East*, revised 3rd ed. (London, 1903), with Addenda and Notes (London, 1920), by H. Cordier; 2 vols. and Add.

—— *Cathay and the Way Thither, being a Collection of Mediaeval Notices of China*, new ed., revised throughout in the light of recent discoveries by H. Cordier, 4 vols., London, 1913-16. [See particularly vol. I, *Preliminary Essay on the Intercourse between China and the Western Nations previous to the Discovery of the Cape Route.*]

Zumoffen, G., *La Phénicie avant les Phéniciens*, Beirut, 1900.

Zwemer, S. M., *A New Census of the Moslem World*, in *The Moslem World*, vol. XIII, No. 3, July, 1923.

المؤلف فى سطور:

سليمان أحمد حزين

– ولد فى ١٩٠٩ بمركز الدلنجات محافظة البحيرة من أبناء الدفعة الأولى للجامعة المصرية عام ١٩٢٥، تخرج فى قسمى الجغرافيا والاجتماع معًا عام ١٩٢٩ بتقدير ممتاز.

– عين معيداً بكلية الآداب.

– ابتعث إلى إنجلترا وحصل على درجة الماجستير من جامعة ليفربول عام ١٩٣٣، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة مانشستر ١٩٣٥.

– عين مدرسًا بكلية الآداب قسم الجغرافيا عام ١٩٣٦، ثم حصل على الأستاذية عام ١٩٤٧.

– كانت نشاطاته متعددة داخل مصر وخارجها.

– عين مديراً للثقافة بوزارة المعارف.

– أسس المركز المصرى فى لندن، والمركز الثقافى الإسلامى بمدريد، وأنشأ جامعة أسيوط ووزير للثقافة ورئيساً للمركز الديمغرافى.

المترجم فى سطور:

محمد عبد الغنى سعودى

من مواليد القاهرة ١٩٣١، تخرج من قسم الجغرافيا بكلية الآداب عام ١٩٥٢، وحصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٦٢، تدرج فى الحياة الجامعية من مدرس إلى أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا، وعميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية.

نشاطاته متعددة فى الندوات والمؤتمرات الخاصة بالسودان وأفريقيا.

عمل مستشاراً للمنظمة العربية للعلوم والثقافة والتربية بجامعة الدول العربية.

حاضر فى جامعات داخل مصر وخارجها، له اثنا عشر كتاباً وستة وخمسون بحثاً، وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه بالجامعات المصرية والعربية.

المراجع فى سطور :

عبد الله عبد الرازق إبراهيم

حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٢، وليسانس الآداب فى التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراسات الأفريقية عام ١٩٦٧ ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢.

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية السابق، وتدرج فى الوظائف الجامعية حتى صار أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر عام ١٩٩٢، وتولى وكالة المعهد للدراسات العليا من عام ١٩٩٤ حتى عام ١٩٩٩، وهو حاليًا أستاذ متفرغ بقسم التاريخ، وألّف أكثر من ثلاثين كتابًا، وسبعين بحثًا فى مؤتمرات علمية محلية ودولية، ترجم العديد من كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا القارة الأفريقية، فضلاً عن ترجمة كتاب تراث الهند، ويشرف على العديد من الرسائل الجامعية فى جامعة القاهرة، وجامعة بنى سويف، ويساهم فى العديد من المقالات فى جريدة الأهرام والجمهورية، وله مؤلفات فى قواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الترجمة.

التصحيح اللغوى : عــايدى جمــعة .

الإشراف الفـنى : حســـن كـامــل .

يعالج هذا الكتاب العلاقات التجارية والثقافية فى العهود الإغريقية والإيرانية من خلال خمسة فصول تناولت تحديد المشرق العربى والعلاقات المكانية بين الصحراء والهلال الخصيب، وأيضًا الشرق الأقصى والعلاقات المكانية، وأيضًا العلاقات التجارية بين المشرق العربى والشرق الأقصى، والتوسع التجارى للدولة الرومانية، والبطالمة وطريق البحر الأحمر، وجهود الصين لفتح طرق برية وبحرية.

يتناول الكتاب أيضًا العلاقات التجارية الإيرانية العربية من القرن الخامس حتى القرن السادس عشر، والتبادل التجارى خلال هذه الفترة، ويدرس المشروع البحرى الصينى. ويتطرق إلى العلاقات الثقافية، وانتشار الإسلام، والتوسع العربى والحركة الاجتماعية الدينية والضعف السياسى للقوى المجاورة، وأيضًا الفلسفة والفكر الصينى ضد الكونفوشية.

إنه مرجع أساسى لا غنى عنه للطلاب الذين يدرسون هذه العلاقات بين المشرق العربى وشرق آسيا فى تلك العصور الطويلة، ويسد فراغًا فى المكتبة العربية .

Bibliotheca Alexandrina
07749504

تصميم الغلاف: هشام نوار